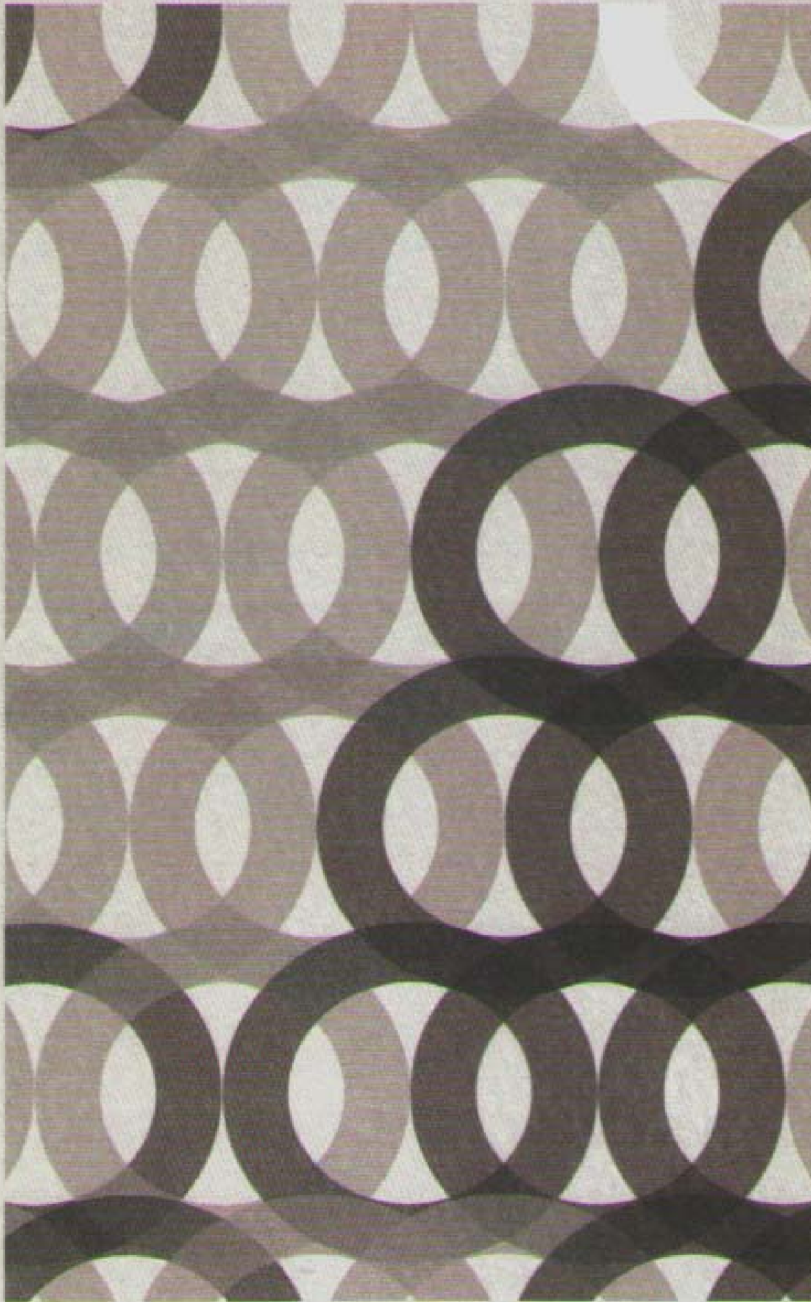
عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



# الذهب

## التنافس على أكثر معادن العالم إغراءً

تأليف: ماثيو هارت
ترجمة: محمد مجدالدين باكير

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

VISIT…

LANZAROTE Caliente.com

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923 - 1990) ود. فؤاد زكريا (1927 - 2010)

# الذهب

## التنافس على أكثر معادن العالم إغراءً

تأليف: ماثيو هارت
ترجمة: محمد مجدالدين باكير



نوفمبر 2018
466

# عالم المعرفة

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب




ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

هاتف: 22431704 (965)

www.kuwaitculture.org.kw



التنضيد والإخراج والتنفيذ

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 611 - 9

العنوان الأصلي للكتاب

# Gold:

## THE RACE FOR THE WORLD'S MOST SEDUCTIVE METAL

By

**Matthew Hart**

SIMON & SCHUSTER, U.K, 2014



طبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

صفر 1440 هـ ـ نوفمبر 2018

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

# المحتوى

مقدمة 11

الفصل الأول
حاضرة تحت أرضية 19

الفصل الثاني
نهر الذهب 45

الفصل الثالث
سيد الرجال 61

الفصل الرابع
انقلاب كامب ديفيد 77

الفصل الخامس
**اكتشاف الذهب الخفي** 97

الفصل السادس
**جولدسترايك!** 117

الفصل السابع
**لينغلونغ** 141

الفصل الثامن
**عصابة قطاع الطرق** 155

الفصل التاسع
**سبايدر** 181

الفصل العاشر
ذهب الظل 201

الفصل الحادي عشر
الذهب في غابة الخيزران 221

الفصل الثاني عشر
كيبالي 249

الهوامش 267

# مقدمة

«في الأزمنة المبكرة كان الذهب يمثل نظاما قائما على تركز السلطة بيد الملك والكنيسة، أي أولئك الذين احتكروا القوة والسلطة المقدسة. في يومنا الحاضر، تتركز السلطة في أيدي نخبة تجارية»

استحوذ الذهب على عقول البشر وأفئدتهم، وفتنهم بريقه منذ تشكُّل الحضارات ونشوء المجتمعات وتطورها، فكريا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا. وشهدت علاقة الإنسان بهذا المعدن النفيس تحولات دراميّة خلال مسيرة الحضارة البشرية، لكن أولى عرى هذه العلاقة توطدت في المجتمعات القديمة على أسس غير مادية، إذ كان الذهب رمزا للحياة الأبدية؛ لما تميز به من خصائص فريدة، لعل من أهمها ديمومته وقدرته على الصمود في وجه الزمن. وفي عصر ما قبل التاريخ، كان الذهب يُدفَن تحت الأرض نذورا للآلهة، ويُلقَى في الأنهار والبحيرات المقدسة طلبا للبركة والقَبول. وأدى دورا كبيرا في الطقوس

والشعائر، من دون أن تصبح قيمته محلا للتبادل التجاري. لقد جسّد الذهب لحظة الوداع الأخير، فكان يصاحب الموتى عونا لهم في طلب الخلود. وربما فُسّر ثبات حالته بمقاومة الروح البشرية للموت. كما استُخدم، ولايزال، رمزا للثروة والرخاء والمكانة الاجتماعية الرفيعة.

بالتوازي مع تطور الفكر الإنساني وتقدم المجتمعات والاقتصادات نشأت الحاجة إلى تنظيم التبادل التجاري باستخدام وسيط يحمل في مادته قيمة حقيقية، إذ كانت النقود تُضرب من معادن رديئة لا تنطوي على أي قيمة ذاتية، أو «تصنع» من مواد أخرى كالحجارة والجلود والملح، وغيرها، فظهرت أولى قطع النقد الذهبي في ليديا غرب تركيا نحو العام 650 قبل الميلاد (وقد صُنعت تلك القطع من خليط الذهب والفضة الذي يعرف بالإلكتروم). وبدأت دول العالم القديم تؤسس أنظمتها المالية على معدن الذهب الذي ضمن لها استقرار قيمة عملاتها، وساعد على توطيد سلطتها ونفوذها.

بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، الذي آذن بنهاية العالم القديم وبداية العصور الوسطى، في القرن الخامس الميلادي، تلاشت سلطة إصدار النقد، وانكفأت الدويلات الأوروبية الناتجة عن تفككها إلى نظام المقايضة، واستمرت الحال كذلك نصف قرن قبل أن يعود الذهب ليمارس دورا نقديا في أوروبا. أما في المشرق فكان النقد البيزنطي شائعا في التداول، داخل حدود الإمبراطورية وخارجها، وانتشر في المنطقة العربية وشبه الجزيرة العربية إلى جانب النقد الفضي الساساني. ومع امتداد رقعة الدولة الإسلامية، بدأت مرحلة الانتقال إلى النقد العربي الصرف في عهد الخلافة الأموية. ولم تعرف الدول الإسلامية المتعاقبة، ولم تعترف، بنقد غير النقدين، الذهب والفضة (على الرغم من استعمال المعادن الرديئة مثل النحاس والبرونز في ضرب الفئات الصغيرة المسماة بالإفلاس). وظلّ نظام المعدن الثنائي قائما مع تعاقب الدول الإسلامية حتى انهيار الخلافة العثمانية في مطلع القرن العشرين.

في أوروبا بدأت المدن الإيطالية إصدار العملات الذهبية في القرن الثالث عشر لتسهيل التوسع التجاري، فانتشرت تلك العملات في القسم الغربي من القارة الأوروبية، وتأسس نظام نقدي محوره الذهب. كانت الثروة حينها تقاس بما تملكه الدول من الذهب والفضة، ووفقا لمؤلف هذا الكتاب: «بلغ العرض العالمي الإجمالي

من الذهب، في القرن الرابع عشر، حجم مكعب طول ضلعه ست أقدام. كانت الدول متعطشة إلى الذهب، وكانت دُور سك العملة في أوروبا تغلق أبوابها. وأطلق المؤرخ المالي بيتر بيرنشتاين Peter Bernstein على تلك الفترة اسم «التعطش المقدس» Sacred Thirst للذهب. لقد أذكى هذا التعطش فورة الذهب الأولى - كانت مغامرة وحشية وفتاكة وعنيفة وإجرامية - ابتلعت حضارة بكاملها وتقيأتها في صورة مسكوكات نقدية».

كانت شرارة تلك الأحداث هي حركةَ الغزو النشيطة في القرن السادس عشر، حينما بدأت السفن الإسبانية تتقاطر إلى العالم الجديد بحثا عن الذهب والفضة، لرفد الاقتصاد الإسباني. وبدأ الغزو الإسباني لأمريكا الجنوبية بقيادة بيزارو وحفنة من الجنود الإسبان المتعطشين إلى الذهب. ونجحت تلك العصبة القليلة، البالغة 168 جنديا، والمسلحة بفولاذ طليطلة وبعشرات الأحصنة، في تقويض إمبراطورية كان جيشها يعدّ 80 ألفا من المقاتلين الأشداء. وانتصر الجشع وهيمنت الوحشية، وبدأت عملية محو الإرث الثقافي والفني لشعب المايا، فتلاشى نتاج آلاف السنين من الأعمال الفنية في أفران الصهر. وتحولت حضارة برمتها إلى نقد، وتدفق نهرٌ من الذهب نحو أوروبا.

في القرن التاسع عشر اندلعت أحداث ما يعرف بفورة الذهب (أيضا حمى الذهب) في كاليفورنيا ما بين العامين 1848 و1855، وبدأت جموع الأمريكيين، وغير الأمريكيين الآتين من دول العالم الأخرى، بالتهافت على الغرب الأمريكي سعيا وراء الذهب، بعد اكتشاف جيمس مارشال الذهب في قيعان بعض الأنهار بكاليفورنيا، استقل آلاف الناس القطارات والعربات والسفن، وانتقل بعضهم سيرا على الأقدام، طمعا في الغنى السريع.

وبعد فورة الذهب في كاليفورنيا بخمسة عشر عاما، بدأت إرهاصات تَشكُّل نظام نقدي جديد عُرف بقاعدة الذهب (أو معيار الذهب Gold Standard)، أولى مراحل تبدُّل دور الذهب داخل النظام النقدي، التي ستعقبها مرحلة قاعدة الصرف بالذهب، ثم مرحلة هيمنة الدولار وإزاحة الذهب عن عرشه النقدي.

وعلى الرغم من أن إنجلترا اعتمدت معيار الذهب بصورة رسمية في العام 1819، ثم تبعتها الولايات المتحدة بتطبيق هذا المعيار بصورة غير رسمية عبر نظام المعدن

الثاني في العام 1834، فقد بدأت كثير من دول العالم في سبعينيات القرن التاسع عشر باتباع هذا النظام النقدي، الذي ربط النقد الورقي المتداول بكمية محددة من الذهب، وأنشأ علاقة مستقرة بين كمية الذهب وكمية النقد الورقي. مع بداية القرن العشرين، طبقت الولايات المتحدة معيار الذهب رسميا، وانتشر بين الدول الأخرى، عدا الصين وبعض الدول في القارة الأمريكية، التي اعتمدت معيار الفضة. وبات نظام معيار الذهب نظاما للتجارة العالمية وأساسا لتقييم عملات الدول التي تبنته. وبموجب هذا النظام، ارتبطت العملة الورقية بالذهب الموجود في خزائن المصارف المركزية لتلك الدول، وكانت كمية النقد الورقي في الاقتصاد تتحدد باحتياطيات الذهب لدى تلك المصارف. وقد سعت الدول التي اعتمدت هذا المعيار إلى استخدام حركة الذهب بين الدول للوصول إلى ميزان تجاري متوازن، بحيث يتدفق الذهب إلى الدول ذات الفائض التجاري، وخارج الدول ذات العجز التجاري. فإذا خرج الذهب من الدولة، تتراجع احتياطياتها من الذهب، ويضطر مصرفها المركزي إلى سحب فائض العملة الورقية من الأسواق، بحيث يتحقق التوازن بين العملة الورقية المتداولة وكمية احتياطي الذهب. ويؤدي ذلك إلى تراجع الأسعار داخل حدود تلك الدولة ويتعزز وضعها التنافسي إزاء الدول الأخرى فترتفع صادراتها وتقل وارداتها، إلى أن يتحقق التوازن من جديد. ويحدث العكس في حالة الفائض التجاري. ولم تكن الأمور في التطبيق العملي بهذه السهولة، إذ كان لا بد من التدخل لتعديل سعر الفائدة، وذلك بالزيادة في حالة ارتفاع عرض النقد، بحيث تتقلص القروض المصرفية، وترتفع الودائع، وتنخفض السيولة المتاحة في التداول. كما كان للفائدة أثر في استقطاب رؤوس الأموال الأجنبية في حالة رفع مستوى الفائدة، أو هجرتها في الحالة المعاكسة.

تُعرَف الفترة ما بين 1880 و1914 بفترة معيار الذهب التقليدي (الكلاسيكي)، وشهدت نموا اقتصاديا غير مسبوق مع درجة نسبية من حرية تجارة السلع والعمل ورأس المال. لكن مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، اضطرت الدول إلى التخلي عن العمل بمعيار الذهب في العام 1914 بسبب حاجة الحكومات الملحة إلى التوسع في إصدار الأوراق النقدية من دون التقيد بكميات الذهب المقابلة، وذلك لتمويل تكاليف الحرب. وساءت الأحوال الاقتصادية بعد الحرب، ووُجهت أصابع الاتهام

إلى معيار الذهب في إطالة أمد الكساد الكبير في أواخر عشرينيات وأوائل ثلاثينيات القرن الماضي، إذ لم تستطع الاقتصادات التوسع في إصدار النقد لتنشيط الاقتصاد وسد عجز الميزانية. وقد تسبب التطبيق الصارم لمعيار الذهب في موجات مطردة من البؤس عبْر العالم، إذ كانت التقلبات المفاجئة في التجارة تستنزف المعروض من الذهب وتمزق أوصال الاقتصاد.

وتدخل الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفيلت لتأميم الذهب وحظر تداوله بين الأفراد ومؤسسات القطاع الخاص، وأبطل العقود التي حددت مدفوعاتها بالذهب. وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأت مرحلة جديدة عرفت بنظام «بريتون وودز» (1946)، ثُبتت من خلاله أسعار صرف العديد من عملات دول العالم بالدولار، وثبت تحويل الدولار إلى الذهب عند مبلغ 35 دولارا للأونصة. واستمر العمل بهذا النظام إلى العام 1971، حيث كانت الولايات المتحدة تتكبد مصروفات هائلة على حرب فيتنام. ووقعت صدمة نيكسون، وألغي تحويل الدولار إلى ذهب، وخرج الذهب من دائرة النظام النقدي، وبدأ عهد العملات القانونية (غير السلعية)، التي اعتبرت طباعتها حقا سياديا للدولة، ولها أن تصدرها وفق الحاجة، من دون التوسع المفرط خشية ارتفاع مستويات التضخم في الاقتصاد.

في السنوات التي أعقبت صدمة نيكسون، بدأت الضغوط تتصاعد على الدولار الأمريكي، وتذبذبت قيمته، وتشكلت بوادر فورة ذهب جديدة، لكن هذه المرة في قلب القارة الآسيوية، عرفت باسم فورة الذهب الصفراء (نسبة إلى الصين). تلخص قصة إنتاج الذهب الصيني حكاية تحول الصين الأيديولوجي والاقتصادي. كانت الصين في حاجة ماسة إلى العملات الأجنبية لتمويل مشترياتها من الأسواق الخارجية، وإلى أصل يوفر لها سبل التحوط من تذبذبات أسعار العملات، فلجأت إلى الذهب لتحقيق هذه الغايات. يقول المؤلف: «لكن كان عليها أولا أن تطوع عداء الأيديولوجيا الشيوعية المتأصل لهذه المادة (الذهب) التي تُعتبَر الأساس للثروة الشخصية. لقد تغيرت الآمال والأحوال المادية بفعل التحولات التي طرأت على الدولة الصينية، والتي أدت إلى تغير موقفها من التنقيب عن الذهب. وبعيدا عن نظرة الشك إلى الذهب باعتباره رمزا للثروة الخاصة التي تهدد القيم الشيوعية المثلى وصلت الصين إلى اقتناعات، تعكسها احتياطياتها المتنامية من سبائك الذهب،

مُفادها أن الذهب ربما يكون أداة تحوط نافعة في عالم الدولار المتقلقل». وبعد أن فتحت الصين باب التنقيب على مصراعيه للشركات الصينية، وللصينيين أيضا، تبدلت أحوالها وارتفع إنتاجها من الذهب بصورة ملحوظة، واستطاعت إزاحة جنوب أفريقيا عن عرش أكثر دول العالم إنتاجا للذهب في العام 2007.

بدأت مرحلة جديدة في المسيرة التاريخية للذهب، لكن التطور السريع الذي شهدته الأسواق المالية خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات أدى إلى تراجع الذهب لعدة سنوات فقط، ثم عاد إلى الواجهة مرة أخرى إثر وقوع الأزمات المالية، فكان ملاذا أخيرا لأصحاب الاستثمارات ورؤوس الأموال وللحكومات والمؤسسات المالية. وفي مطلع العام 2008 حطم سعر الذهب أرقاما قياسية، عكس تجاوز الطلب للعرض، وبات مصدر الطلب الاستثماري عاملا مهما جدا في صيرورة هذا السعر. وكما كان الذهب في المجتمعات القديمة ملاذا معنويا للناس، فقد أصبح الذهب هذه المرة ملاذا ماديا للبشر في زمن الأزمات الاقتصادية.

يأخذنا الكتاب في قصة تتقلب فصولها الدرامية بين الماضي والحاضر، ويستهل الرحلة من منجم مبونينج (جنوب أفريقيا) وهو أكبر حفرة من صنع الإنسان على ظهر هذا الكوكب. يكدح في جوفها الرجال على مستوى ثلاثة أميال تحت الأرض في ظروف قاسية شديدة. يتنافس داخل الأروقة السفلية لهذه المتاهة المرعبة فريقان: شركات التنقيب المرخصة، والمنقبون غير القانونيين. وينتزع اللصوص ذهبا تتجاوز قيمته مليار دولار سنويا أو تزيد. ويتردد رجع هذه القصة «لعبة القط والفأر» عبر ثنايا هذا الكتاب، من أفريقيا إلى الصين، وهي تلخص حالة التنافس المحموم وراء بريق المعدن الأصفر.

ينتقل المؤلف بين المكان والزمان والموضوعات عبر سيناريو مرسوم بإتقان، من جوهانسبيرج بجنوب أفريقيا إلى الغزو الإسباني للبيرو، ثم إلى معيار الذهب ثم الانقلاب عليه. وهو يعرج على مناجم الذهب في أمريكا، ومنها المنجم الشهير جولدسترايك، ثم يتجه إلى الصين (منجم لينجلونج) وفورة التنقيب الصفراء، ويتحول إلى الاستثمار في الذهب (عبر صناديق الاستثمار المتداولة)، ثم يعود إلى أفريقيا مجددا لكن في ركنها الغربي، من خلال الحديث عن الذهب في غابة الخيزران، وصولا إلى آخر محطات الكتاب في الكونغو حيث يقع منجم كيبالي.

ويرى الكاتب أن القوة المقدسة للذهب تحولت، في عصرنا الحالي، إلى شكل آخر: القوة المتذبذبة المتجسدة في سعر يتغير كل ثانية. هذا السعر مؤشر على الثروة نفسها، ولا شيء سواها. ويخلص إلى أن الذهب هو انعكاس لحال المجتمع الذي يستخدمه. في الأزمنة المبكرة كان الذهب يمثل نظاما قائما على تركز السلطة بيد الملك والكنيسة - أي أولئك الذين احتكروا القوة والسلطة المقدسة. أما في يومنا الحاضر، فتتركز السلطة في أيدي نخبة تجارية، ويعبّر الذهب عن تلك السلطة التجارية المسيطرة.

تُعزّى أهمية هذا الكتاب إلى تنوع موضوعاته، والتحليل المدعّم بالأمثلة الحية والعِبر، من خلال سرد قصصي شائق يجعل الكتاب بحق قصة مسرحها قارات العالم المختلفة، ومجالها النفس البشرية، بنوازعها ورغباتها وطموحاتها، بآمالها وآلامها، في سعيها وراء الثروة التي تتجسد في بريق هذا المعدن الأخاذ.

**محمد مجدالدين باكير**

مملكة البحرين

فبراير 2018

# 1

# حاضرة تحت أرضية

وهل شُيدت القدس (أورشليم) هنا بين هذه المصانع الشيطانية المظلمة؟

**ويليام بليك(*)**

كان ضوء زعفراني اللون يرشح إلى السهب(**) عندما اتخذت طريقي بالسيارة إلى بوابات الجحيم. كان هواء منتصف الشتاء جافا وحادا. وقد خلفت ظلال الهيكل العلوي(***)

«عندما بلغنا الزاوية وانعطفنا في آخر المطاف، شعرت بدفق من الارتياح برهة لأني خرجت من القناة الخانقة ناجيا بنفسي، لكن لم يكن ثمة منجى منها»

---

(*) ويليام بليك William Blake: شاعر ورسام وطباع إنجليزي (1757-1827) طبعت أشعاره رؤيته الخاصة للوجود والكون. والأبيات الشعرية المذكورة مأخوذة من قصيدة له بعنوان «أورشليم» (القدس). وكلمة المصانع أو المعامل Mills قد توحي أيضا بالطواحين أو المعاصر، وأماكن سك العملة... إلخ. [المترجم].

(**) مرج ممتد تتخلله بعض الأشجار والشجيرات المتناثرة. [المترجم].

(***) الهيكل العلوي أو هيكل البكرات العلوي Headframe: هو الجزء الأعلى من المنجم الذي يضم الرافعات والمصاعد وملحقاتها. [المترجم].

للمنجم أشكالا زرقاء اللون على صفحة الفجر. بعد مسافة أربعين ميلا من جوهانسبرغ، غادرت الطريق الدولي السريع عند منجم مبونينغ(*)، أعمق حفرة من صنع الإنسان على سطح الأرض - أتون شاسع المساحة، يكدّ في جوفه الرجال، آلاف الرجال، ويكدحون وقد دفنوا عدة أميال تحت الأرض، منصرفين إلى تفتيت الصخور وحفرها بحثا عن الذهب، ذلك المعدن الذي فتن الإنسان وأشقاه منذ ستة آلاف عام.

لنتصور جزيرة مانهاتن[1] وقد قُسمت إلى شطرين في المركز، وأن الشطر العلوي كان قائما على نهايته. يغطي منجم مبونينغ شبكة الطرق بين الشارع 59 والشارع 110، وتبدو قنواته ومهابطه للعيان مثل مستعمرة نمل عملاقة. وتشهق الشوارع نصف المضاءة نحو السماء أمامنا، مجمعا فوق آخر، إلى ارتفاع ثلاثة أميال تقريبا. يتسع الحيز الفاصل بين قعر المنجم وسطحه لعشرة مبانٍ مثل إمباير ستيت(**) رُكمت بعضها فوق بعض. تلتهم هذه المتاهة العملاقة من الكهرباء ما تستهلكه مدينة عدد سكانها 400 ألف نسمة. وتتدفق أنهار من المياه عبر أنابيبها. وتتردد في شبكة دروبها ومساراتها أصداء هدير نظام التهوية. تمتد الأنفاق داخل الصخر مسافة مائتين وستة وثلاثين ميلا - ما يتجاوز بثلاثين ميلا طول شبكة مترو أنفاق مدينة نيويورك. وكل صباح، يتلاشى أربعة آلاف رجل في شبكة تحت أرضية من المهابط وقنوات نقل الفلزات وأنفاق السكك الحديد المخصصة للنقل والتجاويف الضيّقة التي تُعرف بالحفائر(***)، حيث يقبع عمال المنجم في ظروف الحرارة الشديدة للتنقيب عن الذهب.

كان التنقيب يتركز على جيب فلزي عرضه ثلاثون إنشا (بوصة)[2]، وهو عرض الشعرة مقارنة بحجم المنجم الهائل. وفي أحد صباحات يوليو 2012، عندما انحدرت داخل منجم مبونينغ، كان سعر الذهب 1581 دولارا للأوقية. وكان هذا الشق الصخري الصغير ينتج ما قيمته 948 مليون دولار من الذهب سنويا.

---

(*) منجم مبونينغ Mponeng: منجم ذهب جنوب أفريقي، يقع في إقليم جوتينغ Gauteng ويمتد نحو أربعة كيلومترات تحت سطح الأرض، وهو أعمق المناجم في العالم. [المترجم].

(**) إمباير ستيت Empire State: ناطحة سحاب في مانهاتن الوسطى بنيويورك. يبلغ ارتفاعها 443.2 متر. [المترجم].

(***) الحفائر مفردها حفيرة وهي حفرة في منجم لاستخراج المعدن الخام (الفلز). [المترجم].

إن العالم ممتلئ بالذهب[3]. لقد بلغت كمية المعروض للبيع مستويات غير مسبوقة، ووصلت تجارته إلى حد السّعار. إننا نشتري الذهب ثم نبيعه ثم نشتريه ثانية. وقد خلص سوق المعادن النفيسة(*) في لندن العام 2011 إلى أن أعضاءه كانوا يتداولون على مدار ثلاثة أشهر كمية تعادل ما اكتشف من الذهب على مرّ التاريخ. لقد بلغنا أوج فورة الذهب، حالة تهافت على الذهب يذكي أوارَها سعرٌ يسيل له اللعاب، وسهولة شراء المعادن النفيسة باستخدام الحاسوب، والشعور باقتراب لحظة الانهيار التي عصفت بالأسواق المالية في خضم الأزمة المصرفية، مما دفع الناس إلى حيازة الذهب لأغراض التحوط.

لقد أدى الارتفاع الحاد في سعر الذهب[4] إلى تعاظم ثروات أشهر مليارديرات العالم، من أمثال جورج سوروس George Soros(**)، الذي حقق مكاسب قدرها 663 مليون دولار في أحد صناديقه الاستثمارية. كما أن جون بولسون John Paulson، وهو من أقطاب صناعة صناديق التحوط(***)، حقق نحو خمسة مليارات دولار من المضاربة على الذهب. لقد أذكى الخوف حالة ارتفاع الأسعار[5]. وتعثرت المصارف وتراجعت أسعار العملات وبلغ الذهب بعد ثلاث سنوات من انهيار مصرف ليمان برذرز Lehman Brothers مستوى 1000 دولار أمريكي. وهبّ المنقبون، مدفوعين بارتفاع الأسعار، إلى استنزاف كوكب الأرض في أعتى صور فورات الذهب التي عرفها التاريخ. وفي قعر منجم مبونينغ، في حيز ضيق وتحت ظروف بالغة القساوة، يطارد المنقبون الفلز بمعدات الحفر في مكمنه داخل أعماق الصخر تحت أدنى الطبقات الجيولوجية. لا ريب أنهم مصممون على اختراق الأعماق واستخراجه.

التحقتُ ببضعة عمال كانوا في طريقهم إلى الأسفل. اجتمعنا في قاعة استقبال مسقوفة بالقش، انتصبت فيها طاولة عليها فطور من معجنات محلاة وعلب لبن

---

(*) سوق المعادن النفيسة Bullion market: وهو سوق لتداول المعادن النفيسة كالذهب والفضة في هيئة سبائك أو مسكوكات. ويسمى سوق السبائك اختصارا. [المترجم].

(**) ويلفظ الاسم شورش، وهو الأصل. [المترجم].

(***) صناديق التحوط Hedge Funds: من أشكال الصناديق الاستثمارية التي تستثمر لمصلحة المساهمين فيها، وهم عادة من كبار المستثمرين والمؤسسات المالية، عند مستويات مرتفعة من المخاطرة، من خلال المضاربة في أنواع مختلفة من الأصول. [المترجم].

صغيرة وصينية فيها طبق سجق ملفوف يتصاعد منه البخار، وهو سجق ريفي حاد المذاق مقطع كيفما اتفق، يفاخر به سكان جنوب أفريقيا، مع أنهم لا يتناولونه دائما. وقف هناك عدد من الرجال الأشداء العاملين في إدارة المنجم السفلية، وراحوا يتهامسون فيما بينهم ويتابعوننا بأنظارهم وقد بدا على وجوههم السرور، كأننا، في نظرهم، على وشك أن نتحول إلى لقمة سائغة للأسود. أجلسونا على كراسيّ قابلة للطي ليبينوا لنا أخطار العالم الذي كنا على وشك اقتحامه.

يعتبر الحفر العميق عاملا مزعزعا للصخر. وقد ذكر العاملون هناك، مرارا وتكرارا، أن «نشاطا زلزاليا» سيهز منجم مبونينغ. تتسبب الزلازل أحيانا[6] في انفجارات صخرية، حيث ينفجر الصخر محدثا فجوة داخل المنجم تؤدي إلى سحق عمال المنجم بما تنثره من الشظايا المدببة القاتلة. وتسبب الهزة الأرضية أحيانا هبوطا أو انخسافا أرضيا - وهو مصطلح يشير إلى الانهيار. كانت بعض الانفجارات الصخرية مدوية[7]، بحيث اعتقدت الدول المجاورة، وقد اكتشفت وقوع النشاط الزلزالي، أن جنوب أفريقيا كانت تجري تجارب على قنبلة نووية. وقد رطن المدير العام للمنجم، راندل ريدمان Randel Redmann بإنجليزيته الفجة ذات اللكنة الهولندية: «ستشعر بالتأكيد بهزة خفيفة عندما تهبط إلى هناك». وقد بدت عبارة «هزة خفيفة» كأنها «هازة خافيفة»(*). كان رجلا ضخما يرتدي قميصا ذا خطوط متداخلة(**)، أما يداه فمثل المجارف وله لحية تصلح لقص الزجاج - إذا جاز القول.

وبعد أن أنهى ريدمان حديثه، شرح لنا مسؤول السلامة كيفية استخدام جهاز الإنقاذ الذاتي Drager Oxyboks، وهو أداة داخل حافظة ألمنيوم صغيرة رقيقة، لا تبدو عليها الصلابة. لم أستسغ فكرة الإنقاذ الذاتي، ومع أنني اضطررت الآن إلى قبولها، فإنها لم ترق لي. في حالة الطوارئ تُفتح الحقيبة الصغيرة ويُنفخ الكيس المطاطي في الداخل بضخ الهواء فيه، ثم تُعلق الحقيبة في موضعها مثل القناع

---

(*) في الأصل الإنجليزي: a leetle shike وهي العبارة التي رطن بها مدير المنجم، والمقصود بها a little shake. [المترجم].

(**) الخطوط المتداخلة أو المتقاطعة عموديا فيتشكل من تقاطعها مربعات (وتعرف بالعامية بالكاروهات أو الكاريه). [المترجم].

الواقي من الغازات. ويعمل الجهاز على تنقية الهواء من الغازات السامة، وبذلك يسمح للإنسان بالبقاء على قيد الحياة مدة ثلاثين دقيقة.

بدلنا ملابسنا إلى مشامل(*) بيضاء وأحذية مطاطية ذات أنوف(**) فولاذية، وأحكمنا ربط الأحزمة الثقيلة. وزودونا بخوذات ومصابيح خاصة بعمال المناجم. وربطتُ مدخرة المصباح الثقيلة بحزامي وأحكمت تثبيت جهاز الإنقاذ الذاتي، ومضيت منحدرا إلى الأسفل عبر القفص المعدني باتجاه حجيرة المصعد.

تستوعب حجيرة المصعد 120 شخصا في منصة مكونة من ثلاث طبقات. لدى امتلاء الطبقة الأولى بحمولتها المكونة من أربعين من عمال المناجم، تهبط الحجيرة مسافة عشر أقدام ثم تتوقف، ثم تُملأ الطبقة الأعلى بأربعين عاملا أيضا.

ويسمى جهاز رفع الحجيرة (المصعد) المخصص لنقل الأشخاص بدلا من الصخور «محرك اللف»(***). وهو يحمل الرجال إلى حتفهم[8]. في 11 مايو 1995 في منجم الذهب المعروف باسم «فال ريفز» Vaal Reefs، الواقع جنوب منجم مبونينغ بتسعين ميلا، انفلتت قاطرة سكة حديد تحت أرضية، وكانت تقطر العربات خلفها، منحدرة 7 آلاف قدم عبر أحد المهابط لتصطدم بمصعد مكون من طبقتين، فأودت بحياة 105 رجال كانوا متوجهين إلى السطح عند نهاية المهبط. وفي 1 مايو 2008 قُتل تسعة من عمال المناجم في مهبط سفلي داخل منجم جولد فيلد ساوث ديب Gold Field's South Deep، بعد أن قطع حبل بكرة اللف، وهوى المصعد مسافة 196 قدما.

وحالما امتلأ مصعدنا[9]، أعطى الموظف المسؤول عن التحميل(****) إشارة مكونة من سلسلة من الأجراس الإلكترونية. وهبط المصعد ببطء، ببطء شديد أول الأمر. واختفت القناة المغمورة بالضوء، وتلاشى الضوء، وأرخت الصخور السوداء سدولها علينا. ازدادت السرعة فجأة، ثم رفع مشغل المصعد المكابح في آخر الأمر، ونزل بنا أسفل المهبط بسرعة قدرها ست وأربعون قدما في الثانية.

---

(*) الأفرول أو المشمل أو الوزرة أو الميدعة Overall. [المترجم].

(**) أنف الحذاء: مقدم الحذاء. [المترجم].

(***) محرك اللف أو اللفاف: جهاز يتكون من بكرة يلتف عليها حبل معدني، ويتحرك في الاتجاهين للصعود والهبوط. [المترجم].

(****) ويعرف أيضا باسم المرحّل Dispatcher. [المترجم].

اندفع بطني نحو ضلوعي، وانسدّت أذناي، وصفر الهواء عبر شبكة الأسلاك المعدنية. وأصدر المصعد صريرا وجلجلة مع انحداره أسفل المهبط. وبدأ الماء يتجمع على الإطار المعدني ويقطر على رؤوسنا. كانت الظلمة حالكة: وكان مصدر الضوء الوحيد مصباحا بيد أحد الأشخاص؛ وفي ضوء المصباح تبينت الماء وهو يتساقط مثل رذاذ المطر. ومن حين إلى آخر كان ضوء القناة يومض ويخبو.

مع اندفاع المصعد أسفل المهبط، بدأ الوزن المعلق في الازدياد. كان وزن المصعد 20 ألف رطل، وقد تضاعف الوزن تقريبا بالحمولة الكاملة من الرجال. يضاف إلى ذلك وزن الحبل الفولاذي الحامل للمصعد. بلغت سماكة الحبل بوصتين ونصف البوصة، وكان وزن القدم منه اثني عشر رطلا. بعبارة أخرى كان الحبل يضيف وزنا قدره ستة أطنان إلى الحمولة لكل هبوط بمقدار ألف قدم - بمعدل طن إضافي كل 3.6 ثانية. ونظرت إلى الحبل الفولاذي الذي كان يكر بسرعة فائقة، وهو يراكم الحمل الفولاذي فوق حجيرة المصعد الهابطة.

في غضون أربع دقائق قطعنا مسافة 1.6 ميل إلى منطقة كان الصخر فيها دائم الاهتزاز. كانت أطنان لا تحصى تنقل من مكانها، محدثة حركات انقباضية يشعر بها عمال المناجم كأنها اهتزازات في الصخر. وانتقلنا سيرا على الأقدام إلى قناة مضاءة كبيرة ذات جدران مطلية باللون الأبيض، وسلكنا طريقنا إلى المصعد الثاني.

يعتبر العمق الذي يبلغه نظام الرافعة Hoisting System الواحد محدودا بطبيعته. ففي أعلى مباني العالم، وهو برج خليفة في دبي، ينقل سبعة وخمسون مصعدا الناس إلى أعلى البرج وأسفله، وغالبا على مراحل من خلال الردهات العلوية في مستوى الطوابق العلوية. لقد انتقلنا خمسة أضعاف المسافة التي يشملها نظام المصاعد في برج خليفة، وقد تم ذلك في خطفة هابطة واحدة. ثم اتخذنا طريقنا إلى المصعد الذي سينتقل بنا إلى مستويات أعمق، وهي مستويات العمل المنجمي الفعلي الواقعة بعيدا في الأعماق. ركبنا المصعد الثاني، وفي غضون دقيقتين هبطنا ميلا آخر إلى مصهر الصخور.

ووفقا للأثر المعروف بالتدرج الجيوحراري، تبدأ حرارة الأرض في الازدياد مع التوغل إلى مستويات أعمق. خرجنا إلى قناة كانت فيها حرارة الصخر 140 درجة

فهرنهايت، وبلغ مستوى الرطوبة 95 في المائة داخل هذا الحمام الحار(*) المظلم، وغمرنا العرق على الفور. وسال العرق على جسمي فأصبح جوراباي يصدران صوت الخرير في حذائي، والتصق المشمل القطني بجلدي كالعجين. ثم انحدرنا إلى أبعد مستوى يمكن بلوغه بالمصعد - أي مسافة 2.3 ميل. وللوصول إلى المستويات الأعمق كان عمال المناجم يستقلون مركبات مفتوحة أو كانوا في الأغلب ينتقلون سيرا على الأقدام. ومن السطح إلى أعمق القنوات، استغرقت الرحلة ساعة كاملة، وذهب معظم ذلك الوقت في نصف الميل الأخير. وصعدتُ إلى ظهر شاحنة من طراز تويوتا. ومضينا نحو الأسفل عبر منحدر طويل مظلم خانق.

ليس ثمة أفق رحب للنظر في هذه المدينة تحت الأرضية. حدقت إلى الأمام من خلال الحجيرة لأعاين وجهتنا. ولم أتبين إلا السطح المنحدر، والجدران الصخرية المحيطة والكابلات الثخينة المثبتة في الجرانيت، المتعرجة على مدّ البصر أمامنا إلى أن تحجب عن الرؤية حيث تتوه أشعة المصابيح الرأسية ذاتها في الحيز المظلم.

مضينا في طريقنا، وسقف القناة يكاد يلمس رؤوسنا، تنيره مصابيح تتخللها مسافات بعيدة. عندما بلغنا الزاوية وانعطفنا في آخر المطاف، شعرت بدفق من الارتياح لبرهة لأني خرجت من القناة الخانقة ناجيا بنفسي، لكن لم يكن ثمة منجى منها. كانت كل انعطافة تأخذنا عميقا في الصخر، وبعيدا عن المصعد، وقريبا إلى الحيد الصخري وإلى المسارب(**) الصخرية العميقة. واجتزنا تجويفا كهفيا حيث اجتمع الرجال حول عربة كبيرة ذات سكة. راحوا يراقبوننا حينما كنا نمرّ بجوارهم. واجتزنا عطفة تقود إلى نفق مظلم حار تتدلى من سقفه مصابيح النور وقد غرزت الكابلات بالجدار، ثم واصلنا طريقنا نحو الأسفل.

تختار أنجلوجولد أشانتي AngloGold Ashanti، الشركة التي تملك المنجم، عمال المناجم الذين سيعملون في الأعماق بعد اختبار مدى تحملهم للحرارة. في غرفة خاصة، ينجز المتقدمون لهذا العمل تمارين مرحلية أمام لجنة فاحصة من

---

(*) في الأصل ساونا Sauna وهي غرفة صغيرة جافة وذات حرارة عالية، وأصل الكلمة فنلندي وتعني البيئة الحارة. [المترجم].

(**) المسارب Galleries: دهاليز داخل المنجم. [المترجم].

الفنيين. وتبقى حجرة الفحص عند درجة حرارة «رطبة»(*) قدرها اثنتان وثمانون درجة. وتجعل الرطوبة العالية درجةَ الحرارة تبدو كأنها ست وتسعون درجة. يقول طبيب الصحة المهنية زان إيلوف Zahan Eliof: «نحاول أن نجبر نظام ضبط حرارة الجسم على العمل. وإذا ما بدأ الجسم يبرد نفسه بفعالية، فلا خطر من النزول تحت الأرض لمدة تجريبية تستمر أربعة عشر يوما، فإذا أتم العامل المدة التجريبية بنجاح، يحصل على تصريح العمل».

وتساءلت: كيف يمكن من خلال عملية الفحص التنبؤ بدقة بقابلية العمل في ذلك المحتبس الخانق. إذ ليست ثمة كائنات حية تعيش في أعماق المنجم باستثناء نوع من البكتيريا، وهي متعضية قادرة على العيش من دون ضوء الشمس اللازم لعملية التركيب الضوئي. إذ تحصل البكتيريا على الطاقة اللازمة من النشاط الإشعاعي في البيئة المحيطة.

يلزم 6 آلاف طن من الماء المجمد (الثلج) يوميا لإبقاء أعمق مستويات منجم مبونينغ عند درجة حرارة مقبولة قدرها ثلاثة وثمانون. وهم ينتجون الثلج في مصنع قائم على سطح الأرض، ثم يخلطونه بالملح للحصول على ردغة(**) من الثلج نصف الذائب يمكن ضخها إلى الأسفل إلى خزانات تحت أرضية. وهناك تستخدم مراوح ضخمة لتوجيه الهواء عبر جهاز التبريد، ثم يدفع الهواء المبرد إلى الأسفل، نحو قنوات المنجم. وينتقل الهواء المبرد إلى الأسفل عند درجة حرارة قدرها سبع وثلاثون، ويعود وقد سخنته الصخور إلى درجة حرارة قدرها ست وثمانون. مررتُ بالقرب من إحدى قنوات مرتجع الهواء الحار - قناة هادرة سوداء اللون تزفر الهواء الفاسد من المستويات السفلية.

لا يعرف المنجم العميق الاستقرار، فحالة الاستقرار تتبدد دائما. ذلك أن أعمال الحفر في الأعماق تجعل الصخر مقلقلا. إنهم يفجرون 5 آلاف رطل من المتفجرات يوميا في منجم مبونينغ. ويزيلون كل يوم 6400 طن من الصخور. ووفقا لقانون

---

(*) درجة الحرارة الرطبة Wet Temperature: هي درجة الحرارة التي تقاس بمقياس الحرارة الرطب، أي الذي تغطى بصيلته الزجاجية بقطعة من القماش المبلل قليلا بالماء. تستمد الحرارة اللازمة لتبخير الماء من قطعة القماش المبللة من تيار الهواء المسلط على البصيلة. وعكسها درجة الحرارة الجافة. [المترجم].

(**) الردغة Slush: كتلة رقيقة القوام. [المترجم].

القوة الضاغطة يحاول الصخر سدّ الفراغات الناتجة عن أعمال الحفر. وللحيلولة دون ذلك، يعيد المهندسون ملء الحفائر بالصخور والأسمنت. ويقللون ضغط الصخور على واجهة الحفر، فيجعلون الصخر هشا قبل تفجيره، وذلك بحَفرِ أنساق معقدة حول الحفر التي تخلفها أعمال التفجير. وهم «يتحايلون على الصخر» في المناجم العميقة بفتح فراغات أفقية عمقها ست أقدام فوق الحفائر. وبما أن الضغط ينتقل عبر الصخر، وليس عبر الفراغ، فإن الفراغات الخاوية تمنع انتقال الضغط.

في قنوات المنجم، تثبت مزالج صخرية بطول ياردة واحدة الصخرَ المقلقل في سقف القناة في جوف الكتلة الصخرية الأكثر استقرارا. وتعمل أنساق المزالج الصخرية التي تُولَج في هيئة العناقيد على «حياكة» الصخر معا، إذا جاز التعبير. وتلتقط أجهزة الكشف عن النشاط الزلزالي في المنجم الهزات الأرضية مباشرة فور حدوثها، فتحذر العمال بضرورة أن يبرحوا أماكنهم عند الواجهة الصخرية. بيد أن مناجم الذهب بجنوب أفريقيا تنطوي على قوى مقلقلة يتعذر على المهندسين السيطرة عليها. ويبدو أنها خارج سيطرة الجميع - ويقصد بها جيش غاز عرمرم كاسح من اللصوص الشرسين العنيفين.

وباقتحامه مناجم الذهب[10]، يستنزف حشد غوغائي متمرس من الرجال والنساء المعدمين ما قيمته مئات الملايين من الدولارات سنويا من فلز الذهب. يحتل هؤلاء، بتحريض من العصابات الإجرامية، قنوات الحَفر الخاوية، ويستقرون أحيانا في مناجم الذهب العاملة. ولأن كبرى مناجم جنوب أفريقيا تخضع لحماية أمنية محكمة، يتعذر على المهاجمين الانتقال بسهولة ذهابا وإيابا. وإذا ما نجحوا في اختراق المنجم، فقد يعلقون هناك لعدة أشهر. ولأنهم حُرموا من ضوء الشمس، تتحول جلودهم إلى اللون الرمادي. ويعرف هؤلاء في جنوب أفريقيا بعمال المناجم الأشباح (أو أشباح المناجم). إنهم يقطنون حاضرة تحت أرضية تمتد في بعض حقول الذهب(*) مسافة أربعين ميلا. بريق النور الوحيد، في هذه المتاهة الخانقة، هو حلم الذهب.

ما أبعد حلم اليوم عن الأمس. كان الذهب ذات يوم محاطا بهالة من القداسة[11]، مثل الملوك المتوجين الذين تزينوا به. إذ حفظت جمجمة الإمبراطور

(*) حقل الذهب Goldfield: منطقة من الأرض تحوي عددا من مناجم الذهب. [المترجم].

شارلمان في وعاء الذخائر المقدسة(*) الذهبي في كاتدرائية آخن Aachen التي أسسها في القرن الثامن الميلادي. ويعلو صليب ذهبي تاج القديس إدوارد في برج لندن. لقد جسّد الصليب الحق الإلهي الذي كان الملك يحكم بموجبه. وكان الذهب المعدن المستخدم في تعظيم الإله. وتروي لوحة المذبح الذهبية في كاتدرائية إشبيلية، وهي بارتفاع خمس وستين قدما وعرض ستين قدما، حياةَ المسيح في ثمانية وعشرين مشهدا استغرق إنجازها أكثر من ثمانين عاما.

لقد تحولت القوة المقدسة إلى شكل آخر: القوة المتذبذبة المتجسدة في سعر يتغير كل ثانية. هذا السعر مؤشر إلى الثروة نفسها، ولا شيء سواها. ويعكس الذهب حال المجتمع الذي يستخدمه. في الأزمنة المبكرة كان الذهب يمثل نظاما قائما على تركز السلطة بيد الملك والكنيسة - أي أولئك الذين احتكروا القوة والسلطة المقدسة. في يومنا الحاضر، تتركز السلطة في أيدي نخبة تجارية، ويعبّر الذهب عن تلك السلطة التجارية. في أغسطس 2011 أدت «أحداث شغب بلاكبيري» BlackBerry Riots[12] - وعرفت كذلك نسبة إلى الأجهزة الكفية التي استخدمت في حشد المشاركين في أعمال الشغب، وتجنب الوقوع في قبضة الشرطة - إلى نزول مئات الآلاف إلى شوارع لندن لتحطيم المحال التجارية. وكان من جملة أهداف المشاركين في الشغب الصناعة المصرفية، التي اعتبرت رمزا للنظام الفاسد. وبينما راح المشاركون في الشغب يحطمون أجهزة الصراف الآلي، كان سعر الذهب يرتفع إلى مستويات عالية غير مسبوقة. وفي جنوب أفريقيا حيث كان الذهب لبنة بناء الدولة، بدت جميع شرور العالم كأنها تحتشد عند بوابة منجم الذهب - الفساد والجريمة المنظمة والعنف والفقر واليأس.

وتحول الأمر إلى احتجاج عارم. ففي أحد الجانبين، كان الناس الذين لم ينظر إليهم التاريخ بعين الاعتبار والاهتمام: اللاجئون المنبوذون نتيجة الفقر والحروب في الدول المجاورة وعمال المناجم السابقون الذين لفظتهم الصناعة وقد باتت تعاني الانكماش، وحشود البائسين في الأحياء الفقيرة. وكان في الجانب الآخر زمرة تملك مادة(**) تعاظم سعرها إلى مستويات قياسية بفعل الهاربين من لظى الكارثة

(*) يعرف أيضا بالمذخر. [المترجم].

(**) المقصود بهذه المادة الذهب. [المترجم].

الاقتصادية(*)، وقد أسهم بعضهم في إذكاء أوارها. وحيثما تلاقى هذان الطرفان المتصارعان، فإن الطرف الخاسر معروف طبعا.

قابلت في جوهانسبرغ قاتلا محترفا يدعى باد براد Bad Brad. وُجِّهتْ إليه تهمة قتل أربعة من عمال المناجم، من دون أن يُدان. كان يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاما، وكانت بنيته تعادل تقريبا حجم حجيرة الهاتف(**)، وكان ذا شعر أشقر داكن وعينين خضراوين مستويتين. تصافحنا ثم تبعته إلى مرآب للسيارات وقصدنا سيارة جيب جراند شيروكي مغلفة بطبقة من الفينيل الأسود العاتم أضفت عليها مظهرا جذابا. في المقعد الخلفي كان ثمة صدارات (أحزمة) كيفلار Kevlar وحقيبة بلاستيكية شفافة بداخلها ذخيرة بندقية قناص عيار 233. ارتدى باد براد نظارته السوداء، وانطلق بالسيارة عبر زحام يوم الأحد لنعاين المكان حيث لقي أربعة من عمال المناجم حتفهم، وجرح اثنان، ونجا الباقون بحياتهم بالهرب إلى داخل المسارب الصخرية حالكة الظلمة.

لم يكن براد وود Brad Wood مجرما، بل خبيرا في استعمال السلاح. لقد عمل لقاء أجر، في مرات عدة، لإعادة النظام إلى إحدى قرى الغرب الأمريكي Wild West التي تحمل شبها كبيرا لجنوب أفريقيا. وكان للنظام الذي أرساه ثمنه في الأرواح. لقد قتل رميا بالرصاص، وفق تقديره الشخصي، اثنين وأربعين شخصا طوال سنواته الست عشرة التي قضاها باعتباره قاتلا مأجورا. لقد جعلته قدرته على القيام بهذا العمل، وبرأيي شهرته التي اكتسبها من ذلك، ذا فائدة للأشخاص المتنفذين الذين أداروا أعمال مناجم الذهب.

وسلكنا طريق السيارات السريع الرقم «إن12» N12 غرب بلدة سبرينغز Springs. وأطلعني باد براد على الأشياء الأخرى التي أحضرها في المركبة - نفير (بوق) وأنوار ومُّاضة أمامية. كانت سيارة الجيب السوداء مسجلة باعتبارها مركبة استجابة في حالات الطوارئ، وكان مرخصا لها السير بسرعة تتجاوز الحد الأعلى للسرعة مرة ونصف المرة. ومضينا على الطريق بهذه السرعة المثيرة، وسألت وود Wood كيف أصبح قاتلا مأجورا.

---

(*) المقصود بهم المستثمرون الذين فروا من أشكال الاستثمارات التي تأثرت جدا بالأزمة الاقتصادية إلى الذهب. [المترجم].

(**) أو كابينة الهاتف. [المترجم].

في العام 1995 وكان آنذاك في الحادية والعشرين من عمره، التحق بوحدة خاصة في شرطة جنوب أفريقيا، وتلقى تدريبا على العمل في نزاعات سيارات الأجرة(*) Taxi Wars في دوربان. يبلغ عدد سكان دوربان، الواقعة على المحيط الهندي، 3.5 مليون نسمة. وتعتبر الميناء الرئيس لجنوب أفريقيا، وثالثة كبرى مدنها. وكما حال المدن الأخرى فيها، يشكل سائقو السيارات الخاصة نظام نقل مهما، يعمل بين التجمعات الحضرية النائية ومركز المدينة. ولأن خطوط سيارات الأجرة تعتبر عملا مربحا، يتنافس رجال الأعمال عليها، وأحيانا بالتخلص من سائقي المنافس عن طريق القتل. كان براد يوفر خدمات الأمن بأن يتعقب سيارات الأجرة ويطلق النار على المهاجمين.

في يناير 1997 بعد أن لقي أقرب أصدقائه حتفه في أثناء أداء الواجب، ترك براد عمله في الشرطة واتخذ عملا حرا. كان زبونه الأول[13] ماندلا جكابا Mandla Gcaba وهو ابن أخي جاكوب زوما، رئيس جنوب أفريقيا الحالي، وكان حينذاك نائب رئيس الحزب الحاكم، التجمع الوطني الأفريقي. ومع أنه لن يتبوأ أعلى منصب في البلاد إلا بعد اثنتي عشرة سنة، فقد كان جاكوب زوما حينذاك أيضا شخصية متنفذة، وكان نسيبه الأصغر رجل أعمال ذا علاقات واسعة. يقول باد براد: «اقترب مني نسيب زوما وطلب مني أن أعمل حارسا شخصيا له. لقد أطلق أحدهم عليه النار ببندقية كلاشنيكوف(**)، وخلف ذلك ندبة بشعة كبيرة في رقبته. إذ اخترقت الرصاصة ظهره وخرجت من رقبته. كان رئيس اتحاد سيارات الأجرة للمسافات البعيدة، وكنت أنا حارسه الشخصي».

لم يكن باد براد آنذاك يعرف بهذا الاسم، ولم يكتسب ذلك الاسم على النحو الذي قد يتخيله القارئ، أي بسبب إطلاقه النار على الناس. لقد نال هذا الاسم من خلال مشاركته في النسخة الجنوب أفريقية من عرض تلفزيون الواقع «الأخ الأكبر» Big Brother، وهو برنامج تلفزيوني يجمع ثلة من الشباب الوسيمين في حيز واحد مغلق إلى أن يتبينوا، وهم في خضم ذلك، أنهم جميعا يعدمون الأدب

(*) تشير اصطلاحا إلى النزاع بين اتحادات سيارات الأجرة (التاكسي) وسائقي الحافلات الصغيرة في جنوب أفريقيا، للحصول على الزبائن. [المترجم].
(**) بندقية كلاشنيكوف، وتعرف اختصارا ببندقية إي كي AK أو AK-47. [المترجم].

والأخلاق الحميدة. يقول براد: «استمررت في البرنامج ستة أسابيع، وكنت أشتم وألعن بعبارات قاذعة، وحاولت الانسحاب، وهشمت الكاميرات. لقد استمتعت قليلا. وعندما أقصيت غادرت، وهذا ما كان».

وهذا ما كان، بيد أنه حقق شهرة كبيرة. وبدأت الصحف تطلق عليه اسم باد براد، ولازمه هذا الاسم. ولم تؤثر الشهرة في عمله سلبا، ولم تقطع علاقاته بمجتمع النخبة. وعندما وجد الملاك الجدد لمنجم الذهب أورورا Aurora أن المنجم يئن تحت وطأة العمال غير القانونيين، استأجروه ليعمل رئيسا لأمن المنجم.

كان أرباب عمل براد الجدد[14] ذوي علاقات مؤثرة. كان قد مضى آنذاك على رئاسة جاكوب زوما لجنوب أفريقيا سنة واحدة. وعمل براد حارسا شخصيا لأحد أبناء إخوته في نزاعات سيارات الأجرة، ثم عمل في منجم الذهب لدى واحد آخر من أبناء إخوته، وكان حفيدا لنيلسون مانديلا. كان من بين مالكي شركة أنظمة التمكين لمنجم أورورا Aurora Empowerment Systems ابن الأخ الثاني خولوبوس زوما Khulubuse Zuma وزوندوا مانديلا Zondwa Mandela حفيد مانديلا. هذه الشركة اشترت المنجم من ملاكه السابقين، وكان قيد التصفية. وتشير كلمة «التمكين» في جنوب أفريقيا إلى تحويل ملكية الأسهم، وغالبا في شركات المناجم، إلى المواطنين السود، ضمن خطة تهدف إلى التعويض عن مظالم التمييز العنصري (الأبارتهايد).

***

تقع بلدة سبرينغز Springs[15] في ويتووترزراند Witwatersrand أغنى حقول الذهب في التاريخ، وهو عبارة عن هلال بامتداد 300 ميل يلتف حول جوهانسبرغ، ويضم حزاما عريضا من مكامن (جيوب) الذهب. إن مصدر أربعين في المائة من الذهب[16] المستخرج في العالم تشكيل جيولوجي واحد. لقد استُنفد جزءٌ كبير من ويتووترزراند، باستثناء المناجم العميقة مثل مبونينغ. ويعتبر منجم أورورا مثالا يستحق الاهتمام. تغطي قطعة الأرض[17] مساحة 81 ألف فدان، بموجب ثلاثة تراخيص للتنقيب. في ذروة عطاء المنجم، تم فتح 150 مهبطا على مئات الأميال من القنوات التي ساعدت على استغلال «الحيد الصخري الأسود» الشهير، وهو الفلز الكربوني شبيه الفحم الموجود داخل الجيب الفلزي. وحينما استحوذت شركة تمكين أورورا على الموقع، لم يكن هناك إلا ثمانية مهابط من أصل

150 مهبطا. كانت ثمة محطة لمعالجة الإنتاج المتوافر، وكان مقر إدارة المنجم بناء مكتبيا متداعيا. أما في المستوى تحت الأرضي، فكان لمنجم أورورا[18] قصة مختلفة. إذ ظلت البنية التحتية لقنوات المنجم سليمة. كان ثمة مدينة من المهابط والقنوات تتخلل الحيد الصخري، ولم تكن مرئية من السطح. إضافة إلى ذلك، كانت الأرض ملأى بالذهب. وفي كل ركن وزاوية من تلك التجاويف المنتشرة دونما اتساق، كان ثمة مواد حاملة لفلز الذهب. في مجال التنقيب، تستخدم كلمة «الفلز» للدلالة على الصخر الذي يعتبر استخراج الذهب منه مجديا من الناحية الاقتصادية. وفي خضم عملية التنقيب، خلّف المالكون السابقون وراءهم صخورا لم تكن غنية بالمعدن بما يجعلها فلزا. أما الآن وبعد أن حطم سعر الذهب مستويات قياسية، فقد باتت تلك الصخور تعتبر فلزا، وهكذا سعى المالكون الجدد لمنجم أورورا إلى استخراجه. وسألوا باد براد مرافقة فريق المنجم إلى الأسفل لتقييم الأضرار التي أحدثها اللصوص وعمال المناجم غير القانونيين.

اجتمع الفريق عند أحد المهابط في سبرينجز في الساعة 9:30 صباحا يوم الإثنين التاسع من أغسطس 2010 ، وكان يوم عطلة رسمية. كان ثمة خمسة منهم، بمن فيهم: وود Wood وهيربي تراو Herbie Trouw - مدير المنجم، وهو رجل طويل البنية ونحيل، كثير التدخين، كان يحفظ عن ظهر قلب خريطة المتاهة تحت الأرضية التي أوشك على ولوجها؛ وويلي كويتزر Willie Coetzer، رئيس العمال - وكان عامل مناجم خبيرا، ضخم البنية، حسن الطباع، أشيب الشعر؛ إضافة إلى اثنين من حراس الأمن. كان كويتزر يحمل مسدسا من نوع سبيشال Special عيار 38. وذلك للدفاع عن النفس على حد تعبيره. وكان لدى وود مسدسه الخاص من نوع جلوك Glock وبندقية داشبرود Dashprod عيار 223. وهي بندقية نصف آلية من إنتاج مصنع بنادق في جوهانسبرغ، وكانت مصممة «للاشتباك القريب». وكان السلاح الآخر الوحيد مسدس الفلفل جي بي إكس JPX وكان بحوزة أحد الحراس.

ولم يكن ثمة مصعد قيد العمل. وانحدر الفريق ببطء عبر سلم فولاذي مثبت بجانب المهبط. ونزلوا 300 قدم إلى المستوى الأول من المنجم. كان تراو وكويتزر الوحيدين العارفين بأعماق المنجم. وبحسب تراو كان الآخرون حراس أمن، وكان ذلك يومهم الأول تحت الأرض، لذلك اعتراهم التوتر قليلا.

على مسافة ميلين تقريبا إلى الشمال الشرقي، كان عمال المناجم غير القانونيين يتخذون طريقهم إلى الأسفل. واستخدموا مهبطهم الخاص الذي حفروه بأيديهم. كلا النوعين من المهابط كان يقود إلى المتاهة نفسها. كانت قوتان متعارضتان تجتمعان في المنجم. وعلى الرغم من أميال القنوات المتعرجة التي تفصل بينهما، كانتا تسعيان وراء الغاية نفسها التي ستجمعهما معا: ضرب من أغلى الفلزات في العالم.

للحيلولة دون انهيار قنوات التنقيب تُترك دعامات صخرية لا يُنَقَّب فيها تعرف باسم الأعمدة أو الأركان. كانت الأعمدة في منجم أورورا بعرض عشر أقدام وارتفاع ست أقدام. واحتوى العمود الواحد على خمسين طنا من الفلز. كانت ثلاثة من الأعمدة غنية جدا بتركيز الفلز، بمعدل نحو ست أوقيات ونصف الأوقية من الذهب في الطن الواحد. وفي أغسطس 2010 بلغ سعر الذهب 1230 دولارا وسطيا للأوقية. كانت قيمة الذهب في تلك الأعمدة الثلاثة وحدها تتجاوز ما قيمته 1.2 مليون دولار.

لم يكن مؤكدا أن التنقيب في الأعمدة سيؤدي إلى انهيار القناة. لكن ستنشأ عنه أخطار لن يقبل بتحملها إلا أولئك الذين أحرقوا خلفهم كل الجسور. وهم إن قُدِّر لهم البقاء على قيد الحياة، فسيصبحون في عداد الأثرياء.

وقد أخبرني تراو قائلا: «تلك المنطقة قناة عالية التركيز، وقد نقبنا فيها قبل عامين، وكانت أشبه بقعر نهر قديم ترسب الذهب فيه منذ سنوات عديدة مضت. كانت بعرض ثلاثين ياردة تقريبا ولعلها كانت بطول 200 ياردة وارتفاع ست أقدام. تركنا وراءنا، بأحسن تقدير، 100 كيلوجرام من الذهب في هذه المنطقة، سواء ما كان في الأعمدة أو في مخلفات عملية التفجير التي لم تُغربَل كما يجب. وتركنا الكثير وراءنا بسبب عدم انتظام البنى الصخرية».

وبذلك فإن ثمة أكثر من 3 آلاف أوقية من الذهب، تصل قيمتها إلى نحو 5 ملايين دولار، وهي تكمن في أحد المسارب الصخرية داخل المنجم المتداعي. وبعد فحص المحطات الكهربائية الفرعية قرب المهبط، حيث كان اللصوص قد نهبوا كل الأسلاك النحاسية، انطلق الفريق باتجاه مكامن الفلز ذات التركيز المرتفع.

كان الفلز كامنا في القنوات تحت حفرة مهجورة. وكما كان حال الجيوب القريبة من السطح، جرت أعمال التنقيب هناك أول الأمر من خلال فجوة مفتوحة. وعندما

بلغ المنقبون الأولون أدنى مستوى يمكن التنقيب فيه داخل الحفرة، وكانوا لايزالون قادرين على استخراج الفلز، انتقلت أعمال التنقيب إلى المستوى تحت الأرضي. وعندما قدم المنقبون غير القانونيين لاستغلال الجيب السطحي، اختاروا أرضية الحفرة نظرا إلى أنها أقرب نقطة إلى القنوات الواقعة في الأسفل، ونزلوا عبر المهبط الخاص بهم. تستخدم قبائل الزولو في جنوب أفريقيا مصطلحا عاميا للدلالة على المنقب غير القانوني، وهو زاما - زاما ويعني «جرّب حظك». لكن الحظ لم يكن العنصر الأهم في نجاح المنقبين غير القانونيين. فالعديد منهم كانوا منقبين متمرسين خسروا أعمالهم، أو كانوا رجالا يديرهم ويوجههم هؤلاء المنقبون المخضرمون. لقد علموا بمكامن الفلز عالي التركيز، أو تبينوا ذلك في الحال. وبما أن المالكين الجدد لمنجم أورورا أرادوا تقييم الفلز الأعلى تركيزا، فقد كان مؤكدا تلاقي كلتا الجماعتين، وقد هبطتا تحت الأرض في ذلك اليوم.

وصلت جماعة وود إلى المستوى تحت الأرضي في التاسعة والنصف وقضت ساعة تقريبا في القنوات المجاورة للمهبط. وفي الساعة العاشرة والنصف توجهت إلى منطقة عمال زاما - زاما. سارت مدة ساعتين ونصف الساعة، قطعت فيها عدة أميال. كان العمل بطيئا ومحموما. وكانت أرضية الطريق غير مستوية، وتعرجت القنوات ارتفاعا وانخفاضا، وكان الهواء خانقا بفعل حرارة الصخور الطبيعية.

ولأن التقاءهم بالمنقبين غير القانونيين كان مؤكدا، ولأن هؤلاء ربما كانوا مسلحين، ارتدى تراو وكويتزر سراويل الجينز والقمصان العادية بدلا من مشامل عمال المناجم المعهودة، والتي خيطت بشرائط عاكسة للضوء كانت ستجعل من ارتدائها هدفا سهلا لمن يحمل مصباحا ومّاضا ومسدسا. وارتدى باد براد وحراس الأمن مشامل زرقاء بسيطة. والتقت المجموعتان نحو الساعة الواحدة ظهرا.

وذكر وود الآتي: «وصلنا إلى مكان ارتفعت فيه القناة صعودا عبر إحدى التلال. مشيت إلى الأعلى، وعند وصولي رأيت المكان الذي امتد أمام ناظري مغمورا بالضوء. وانعطفت لأجد لنفسي موطئ قدم أفضل، غير أن الأرض انخسفت تحتي، وانزلقتُ نحوهم إلى الأسفل مصدرا جلبة عالية، وعندما بلغت مستوى أرض القناة لمحت بريق أحد المسدسات ثم سمعت دويه - فدمدمت «تبا» - ثم رددت بإطلاق النار».

ويروي وود أنه عند تبادل إطلاق النار[19] نادى جماعته لحثهم على التراجع. وهكذا هربوا عائدين أدراجهم عبر القناة. قضى أربعة على الأقل من الدخلاء المتسللين خلفهم، وجرح اثنان. وبلغ عدد القتلى، وفق إحدى الروايات، ثلاثة عشر منقبا سقطوا في تبادل إطلاق النار. ووجهت إلى وود أربع تهم بالقتل وخمس تهم بالشروع في القتل. وفي محاكمة دامت أسبوعين حاولت جهة الادعاء أن تقيم الدليل على أن فريق منجم أورورا قد دخل المنجم بنيّة طرد عمال زاما - زاما، وأن وود لجأ إلى المواجهة بإطلاق النار. لكن هذه الرواية لم تقنع القاضي. وقد اقتنع القاضي أن وود كان الوحيد في مجموعته الذي أطلق النار، وأنه أطلق عيارات نارية تتراوح بين سبع طلقات وثلاثين طلقة، وأنه فعل ذلك دفاعا عن النفس. ولا أحد يعلم شيئا عن عدد المنقبين غير القانونيين الذين كانوا تحت الأرض في ذلك اليوم، ولكن عندما دهَمت الشرطة منجم أورورا بعد أربعة أشهر من تلك الحادثة، اعتقلت أكثر من 200 شخص. وفي عملية دهم سابقة كان مسرحها أحد المناجم الواقعة في إقليم فري ستيت Free State، هاجم المنقبون غير القانونيين الشرطة بالحجارة. وقد قتلت الشرطة في ذلك اليوم شخصا واعتقلت 426 شخصا.

في اليوم الذي توجهت فيه مع باد براد إلى منجم أورورا راقب حارسان البوابة، وكانت معنوياتهما متدنية. وأسفل منهما بعشر أقدام كان سور الحلقات المسلسلة مرميا على الأرض بعد أن اقتحمه أحدهم بمركبة. وآلت المباني القرميدية إلى حطام من نوافذ مكسرة وأبواب مفقودة وفتحات عبر الجدران. لقد طوفت مجموعة غوغائية بصفوف سكن عمال المناجم التي لا أسقف لها. لقد سرقت الأسقف، وكان الرجال يحفرون الخنادق بحثا عن الذهب عيانا. وجمعوا مخلفات الحفر في عربات اليد ونقلوها إلى موقع مركزي لشطفها في المصوّل(*) واستخراج ما تبقى من الذهب فيها. وفي طريق العودة بالسيارة مرّت بقربنا سيارة دودج صفراء قديمة تسير بسرعة خاطفة، وكانت ملأى بالشباب. وقد ذكر وود أن هؤلاء كانوا مهربين يجمعون مركّز الذهب. وبعد بضعة أميال تسلقنا حافة إحدى الحفر ونظرنا داخلها. كانت هناك عصابة منصرفة إلى سرقة الفلز في وضح النهار.

(*) المصوّل: حوض لغسل الأتربة والرمال الحاملة للذهب. [المترجم].

كانت الحفرة تقود إلى منطقة تحوي فلزا عالي التركيز في الأسفل، وكانت تلك الحفرة عبارة عن نقطة التجميع التي يستخدمها اللصوص. وامتدت قنوات منجم أورورا أسفل أرضية الحفرة. راقبنا المنقبين بينما كانوا يزحفون خارج إحدى الفتحات. وقد صفّت أكياس الفلز في أنساق، ووقف الحمّالون في رتل أمام صف من الشاحنات.

تعتبر سرقة الفلز من مناجم الذهب مشروعا شائعا في جنوب أفريقيا. وينهب اللصوص ما قيمته نحو مليار دولار سنويا من الفلز، أو ربما ضعف ذلك. إن الفارق بين هذين التقديرين مؤشر إلى مدى شح المعلومات المتوافرة لدى السلطات حول هذه المشكلة. وتعتبر سرقة مناجم الذهب من الموضوعات المألوفة في جنوب أفريقيا، ويعتقد العديد من الناس أن الشرطة متواطئة فيها. بعد عدة أيام من زيارتي لسبرينجز ركبت قطار جاوترين Gautrain الداخلي(*) عالي السرعة في محطة روزبانك Rosebank في جوهانسبرغ، ومضيت قاصدا بريتوريا العاصمة الإدارية لجنوب أفريقيا لمقابلة رجل شرطة قبِل التحدث إليّ عن جرائم مناجم الذهب وعلاقتها بالنخبة القوية المتنفذة.

في ضاحية هاتفيلد أقلتني سيارة شرطة في رحلة مدتها عشر دقائق إلى مجمع رحب مسور من الأبنية القرميدية ذات الطابق الواحد - وكان مقر وحدة الصقور (هاوكس) Hawks، وهي وحدة النخبة في شرطة جنوب أفريقيا. ومررنا في طريقنا بمقر الحرس وانتقلنا عبر المجمع، ثم توقفنا عند مبنى ذي طابق واحد منعزل. كان المبنى يتكون من مرآب يتسع لسيارتين وفيه زوج متطابق من سيارات فولكس فاجن GTI ترسلان أشعة أنوارهما الأمامية على الطريق المخصص للسيارات. كان هذا المنزل بمساره المشيد من الحجارة المسطحة والسياج مشذب الحواشي يبدو مثل منزل ميسور التكلفة في بالو آلتو. دلفنا إلى الداخل وجلسنا في قاعة اجتماعات صغيرة. وأرسلت شمس الشتاء أشعتها عبر الستائر ذات الشرائح.

كان العقيد ماكينتوش بوليلا McIntosh Polela، المتحدث الرسمي لوحدة الصقور، حسن الزي مشدود القوام. وقد ارتدى قميصا مخططا باللون الرمادي، حلّ

---

(*) الداخلي: أي داخل المدينة. [المترجم].

زريه العلويين. كانت لبنطاله ثنيات حادة كالسكين، وكان حذاؤه لماعا بفعل الطلاء الكثيف. وكان حليق الرأس. وقد عمل مراسلا تلفزيونيا قبل أن ينضم إلى وحدة الصقور بصفة المتحدث الرسمي، وكان سلوكه رصينا جادا. وفتح مفكرة ذات غلاف ثخين كانت صفحاتها تحتشد إلى حواشيها بكتابة يدوية أنيقة متراصّة. وقد عرض مشكلة انتشار العنف والسرقة المتمثلة في التنقيب غير القانوني في جنوب أفريقيا، وهو يقرأ من هذه المفكرة.

مع ارتفاع سعر الذهب والحالة البائسة للفقراء، احتل المنقبون غير القانونيين مناجم الذهب المهجورة والأجزاء الخاوية من المناجم العاملة، وخلقوا عرضا(*) من الذهب غير القانوني. لم تقتصر المشكلة بالنسبة إلى جنوب أفريقيا على السرقة فقط، بل امتدت لتشمل حالة الاضطراب الاجتماعي. ووفق بوليلا كان العديد من المنقبين غير القانونيين مهاجرين غير شرعيين قدموا من زيمبابوي وليسوتو وموزمبيق ومالاوي وناميبيا. وقد أثار وجودهم حنق الطبقة الفقيرة في جنوب أفريقيا، وكانت تلك الطبقة نفسها تعيش في حالة من الفاقة الدائمة. واتخذت اللجان الشعبية إجراءات دموية في مواجهة المهاجرين.

ووفق بوليلا واجهت الشرطة مشكلات أخرى مثل عدم قدرتها على مطاردة المنقبين غير القانونيين تحت الأرض. ولم يكن يعوز تلك الشرطة التدريب على العمل في المناجم فقط، بل لم تقبل شركات التأمين أيضا بتوفير التغطية التأمينية لعناصر الشرطة، وإن توافر لديهم التدريب الكافي. وقد ذكر بوليلا أنه: «في حوادث إطلاق النار في منجم أورورا لا تُشمل الحوادث بالتغطية التأمينية إن كان من تعرض لإطلاق النار هم عناصر الشرطة. ولأن الشرطة غير قادرة على مطاردة المجرمين تحت الأرض، باستثناء أن يتحمل الضباط أنفسهم تبعات ذلك، فقد استطاع المنقبون غير الشرعيين إيجاد مناطق يحظر دخولها فوق الأرض وتحتها، وفرضوا ذلك الواقع بقوة السلاح. ولم تقتصر المسألة على أربعين أو خمسين من المنقبين، كما هو الحال في منجم أورورا. ففي منجم ويلكوم Welkom في إقليم فري ستيت كان أكثر من 1500 من المنقبين غير الشرعيين يعملون فوق الأرض وكان 270 يعملون تحت

(*) العرض: الكميات المعروضة للبيع، ومقابله الطلب. [المترجم].

الأرض. ويذكر بوليلا أن «المنقبين غير القانونيين يخلقون جيوب التنقيب الخاصة بهم، وأحيانا بمساعدة المنقبين القانونيين».

لقد دأبوا على هذا العمل طوال عقود، فكانوا ينهبون المناجم من الداخل. وقد ورد في جامع موضوعي(*) صدر في العام 2001[20] لمصلحة صناعة المناجم، وأعده معهد الدراسات الأمنية لجنوب أفريقيا أن المجموعات حسنة التجهيز، التي يناهز عدد أعضائها خمسة وعشرين منقبا في آن معا، استطاعت اختراق المناجم عن طريق تقديم الرشى لحراس الأمن. وأجرت هذه المجموعات أعمالها التفجيرية تحت الأرض باستخدام متفجرات مسروقة. لقد أنشأوا مرافق تكرير(**) صغيرة، واتخذوا من القنوات الخاوية مقرا لهم. كان بحوزتهم خرائط مفصلة للمناجم، وكانوا قادرين على ريادة المتاهة تحت الأرضية بأريحية.

وقد هدد المنقبون غير القانونيين، لا بل هاجموا، مفتشي المناجم الذين كشفوا الستر عنهم. وفي القنوات ذات الرجع(***)، استطاع اللصوص أن يتبينوا بسهولة وقع أقدام فرق أمن المناجم وهي تقترب منهم، وكانوا قادرين على التأهب للإغارة على تلك الفرق الأمنية. وهذا ما جعل فرق الأمن تخشى النزول إلى الأسفل. ولم تستطع الإحاطة بعدد العمال غير القانونيين الذين ستقابلهم في الطريق. كان المنقبون عن الذهب يلجون الحيز تحت الأرضي من المنجم وينتقلون عبر القنوات المتصلة بمنجم ثانٍ أو ثالث. وكان ما يستخرجونه من المواد الحاملة للذهب يخزن في مهابط غير مستخدمة، ومن ثم يسترجع على فترة من الزمن، ووفق الجامع الموضوعي المذكور، و«غالبا بالتواطؤ مع المهربين من عمال المنجم. ومن ثم تُنقل إلى واحدة أو أكثر مما يزيد على 170 حجرة للصهر [كانت تشغل داخل النزل المخصصة لإقامة عمال المناجم] وفي مواقع أخرى داخل حقول الذهب في فري ستيت Free State».

وقد خلص كاتبه إلى أن السرقات التي كانت تقوم بها مجموعات اللصوص والعمال والمهربين بلغت خمسة وثلاثين طنا من الذهب في

---

(*) الجامع الموضوعي أو الأفرودة Monograph: كتاب يشتمل على تقرير معمق يتناول موضوعا معينا. [المترجم].

(**) مرافق التكرير: محطات لتكرير الفلز. [المترجم].

(***) المقصود بالرجع: رجع الصدى. ويقصد بهذه القنوات تلك التي يسهل فيها انتقال رجع الصوت لمسافات بعيدة. [المترجم].

السنة. وعند سعر وسطي قدره 350 دولارا للأوقية للسنوات التي أجرى دراسته عليها (1994-1998) تدفق ما قيمته 450 مليون دولار من الذهب المسروق خارج البلد سنويا.

لقد حقق المنقبون القانونيون مكاسب كبيرة من تواطئهم مع اللصوص. ووفق تقرير أجرته إحدى الصحف كان رغيف الخبز الذي قيمته 48 سنتا يباع بمبلغ يصل إلى 12 دولارا تحت الأرض. وكان ثمة آخرون يحققون مكاسب من عمال زاما - زاما أيضا. وقد أخبرني العقيد بوليلا بأن: «لعمال المناجم علاقات مع الشرطة، وعلينا أن نعترف بأن أولئك الذين يجدر بهم أن يحاربوا التنقيب غير القانوني كانوا في الحقيقة ضالعين فيه».

لقد عبّر بوليلا، بما أكده سابقا، عن اعتقاد سائد في جنوب أفريقيا - ألا وهو أن الفساد يضرب أطنابه في أوساط الحكومة. كانت الشرطة تساعد على نهب المناجم، وخلف الشرطة، كانت هناك القوى المسيطرة التي تحركها. وقد رأى بأم عينيه شبكات من الأغنياء والمتنفذين، من أوساط السياسيين وأرباب الجريمة، وهم ينهبون المناجم. كان الذهب المسروق يتنقل بين أيدي جماعات الجريمة المنظمة في جنوب أفريقيا إلى عملاء في الخليج العربي والهند وروسيا، حيث كانت عملية غسل أموال الذهب تتم عبر شركات وهمية ليباع بعدها إلى تجار السبائك القانونيين. ووفق العقيد بوليلا كانت سرقات المناجم تهدد استقرار جنوب أفريقيا من خلال تقويض ثقة المستثمرين. وقد ارتفعت تكاليف أمن المناجم «بحدة» - وفق ما ذكر - فخلقت حالة أحدثت أضرارا فادحة بمصالح شركات التنقيب عن الذهب بحيث لجأت جنوب أفريقيا إلى طلب العون من الولايات المتحدة في مجال مكافحة التجارة الدولية بالذهب المسروق.

لكن ما الجهة، في جنوب أفريقيا، التي طلبت هذا العون؟ ليست اللصوص طبعا. ولم يكن العقيد بوليلا الخبير الوحيد الذي ثارت لديه الشكوك بشأن تورط من سماهم «الأطراف الفاعلة في المجتمع الجنوب أفريقي». لقد خلص بيتر جاسترو Peter Gastrow، وهو الذي أعد دراسة للعام 2001 لمصلحة الصناعة، إلى النتيجة نفسها: ضلوع نخبة تتمتع بالحصانة في سرقة الذهب.

وعندما التقيت جاسترو في مدينة نيويورك في العام 2012، وهو محام جنوب أفريقي، كان زميلا أول في معهد السلام الدولي، وكان يعمل مديرا لبرامجه. وتركز مجال عمله الأساسي على الجريمة العابرة للدول Transnational Crime، وقد عمل في السابق مديرا لمعهد الدراسات الأمنية في كيب تاون، ونائبا عاما في جنوب أفريقيا، وكان خبيرا في الجريمة المنظمة. وقد ذكر لي الآتي: «في اعتقادي أن [مطاردة لصوص الذهب في جنوب أفريقيا] باتت تصطدم بعقبات سياسية أشد. تخيل أنك كنت شرطيا عاديا، وكان المتنفذون هم المتورطين. إنها بيئة حافلة بالتهديدات، ليس فقط بسبب الخارجين على القانون، ولكن أيضا بسبب أصحاب النفوذ الواسع».

وأشار جاسترو إلى أنه لم يضع يده إلا على «رأس جبل الجليد» في تحقيقاته. ويقول: «كنت أعتقد أني أعالج ظاهر المشكلة ولم أنفذ إلى باطنها. وكان لدى شركات التنقيب الاعتقاد نفسه. وقد تركت عملي ذاك، وساورني شعور بأن [سرقة المناجم] ستتحول إلى صناعة هائلة الحجم في المستقبل. كان المتنفذون متورطين. وقد تحدثت إلى شركات التنقيب، وكانت قلقة بصورة جدية حيال ذلك الأمر».

كان لدى تلك الشركات سبب وجيه يدعوها إلى القلق. ففي منجم باربرتون Barbertone[21] بإقليم مبومالانجا، على سبيل المثال، كانت أعداد لصوص الذهب داخل المنجم تضاهي أعداد من يعملون لمصلحة الجهة المالكة للمنجم. ولإزاحة هذه القبضة المحكمة عملت شركة بان أفريكان ريسوروسز Pan African Resources، المالكة للمنجم، على زيادة ميزانية الأمن بنسبة 237 في المائة في سنة واحدة، بإجمالي قدره مليون دولار شهريا. كانت ثمة حوامة تقوم بدوريات جوية للمراقبة. واعتقلت الشرطة في العام 2010 رؤساء ستة من تحالفات العصابات السبعة التي يعتقد أنها تمارس أعمال النهب في منجم باربرتون، وأعلنت الشركة أنها تمكنت من اللصوص. لكن ذلك كان ادعاء مشكوكا فيه. ذلك أن الشرطة المختصة بمتابعة سرقات الذهب، وفق جاسترو، لم تقدم تقديرات مماثلة لعدد تحالفات العصابات الضالعة في نهب المناجم.

ويمكن أن نخلص إلى إحدى نتيجتين حول زمرة محددة من الشرطة: فهم إما يعرفون تماما قيمة الذهب المسروق لأنهم كانوا يسهّلون سرقته، وإما أنهم لم يعلموا بقيمة الذهب المسروق مع أنهم كانوا يسهلون سرقته. وفي اعتقادي أن

الفرضية الثانية هي الصحيحة. فالحقيقة أن لا أحد يعلم شيئا، باستثناء أن ثمة الكثير من الذهب المسروق.

وقد حدثني ويلي جاكوبز Willie Jacobz، نائب رئيس أول في شركة جولد فيلدز Gold Fields، وهي من كبرى شركات التنقيب في جنوب أفريقيا، أن الصناعة(*) كانت تخسر 10 في المائة من فلزاتها لمصلحة اللصوص. وبعبارة أخرى، في منجم واحد فقط من مناجمها[22]، وهو ساوث ديب South Deep، أنتجت شركة جولد فيلدز 273 ألف أوقية من الذهب في العام 2011. وبسعر وسطي تحفظي قدره 1600 دولار للأوقية، تبلغ قيمة ذلك الذهب 436 مليون دولار. وبتقدير جاكوبز كان اللصوص، إذن، يسرقون أكثر من 43 مليون دولار من أموال الشركة تحت أنظارها. وهذا يعلل مستوى السعر الجنوني الذي بلغه الذهب. كم شركة تستطيع[23] زيادة أرباحها بنسبة 26 في المائة في فصل(**) من السنة، كما هو حال شركة جولد فيلدز في الربع الرابع من سنة 2011، بينما اقتطعت نسبة 10 في المائة من إيراداتها مباشرة؟ لكن مهلا - لقد بات الأمر ينطوي على المزيد من الإثارة. فقد أبلغني مدير إحدى شركات التنقيب، وكان على اطلاع وثيق بأحوال صناعة التنقيب عن الذهب في جنوب أفريقيا - وطلب عدم الإفصاح عن اسمه - أن السرقات تفوق ذلك الحجم على الأرجح - بل إنها في واقع الأمر، ضعف ذلك. لقد أورد مستشار أمني استأجره مجلس إدارته أنهم كانوا يخسرون ما يصل إلى 20 في المائة في أحد مناجمهم الأكثر تطورا. وبهذه العملية الحسابية، يمكن القول إن أكثر من 80 مليون دولار من الفلز يمكن نهبها من منجم مثل ساوث ديب في السنة.

لقد سألت العديد من محللي أسهم شركات التنقيب إن كان لديهم تصور واضح عن السرقة. وقد أبلغوني أن أصحاب المناجم لا يفصحون عن تلك الخسائر علانية، ولكنهم يقدمون بيانات «لاحقة لعملية السرقة» إلى المحللين. ومع ذلك، فمن «المسلم به أن السرقة أكبر الآن مما كانت عليه عبر تاريخ البلد» وذلك وفق ليون استرهويزن Leon Esterhuizen، رئيس وحدة المناجم والمعادن لدى مصرف سي آي بي سي CIBC Bank الذي يتخذ من لندن مقرا له، وهو محلل مخضرم

---

(*) المقصود بكلمة الصناعة في هذا الكتاب: قطاع التنقيب أو قطاع تجارة الذهب وفق ما يقتضي السياق. [المترجم].
(**) الفصل هو مدة ثلاثة أشهر من السنة. [المترجم].

مختص في مناجم ذهب جنوب أفريقيا. لقد رأى استرهويزن هذه الصناعة تنهب عن سبق الإصرار من قبل «العقول المدبرة الإجرامية ذات الثراء الواسع، التي تلازم أماكنها، وتقدم إلى كبار المسؤولين مبالغ مالية تفوق رواتبهم بعدة أضعاف، فقط في مقابل أن «يغضوا الطرف». وهو يعتقد، على غرار بوليلا وجاسترو، أن اللصوص «لديهم علاقات وثيقة داخل صفوف الشرطة والدوائر السياسية».

وفي جنوب أفريقيا ثمة كليبتوقراطية(*) تتغذى على حياض الذهب.

لقد كان الذهب معينا على بناء البلد، وهو الآن معين على إفساده. لقد وقعت الدولة برمتها في غواية هذا المعدن.

يحبّذ أشد المناصرين والمتحمسين للذهب القول إن البشر يعتقدون دائما بقيمة الذهب، وإن الذهب يستمد قيمته من قبوله العام. بيد أننا لا نعلم ما يجول في خاطر الناس دائما. كانت طلائع المنقبين عن الذهب لا تعرف الكتابة، وهم لم يخلفوا وراءهم كتابات تشرح أفكارهم. ولا نبالغ إن دفعنا بأنهم شُغفوا بالذهب، لأنهم اقتنوه.

كان بحوزتي كاتالوج (مصنف) صغير بعنوان كنوز تراقيا Thracian Treasures[24]، الموجودة لدى متحف فارنا في بلغاريا. اشتهرت تراقيا في العالم القديم بمناجم الذهب. بعض التحف المصورة في الكاتالوج تعود إلى ما قبل 6 آلاف عام. وهي تعتبر أقدم تحف العالم الذهبية، وقد اكتشفت مصادفة في العام 1972 عندما أماط عامل جرافة عكسية اللثام عن قبر من العصر الحجري الجديد المتأخر في فارنا على البحر الأسود، فاستخرج أساور وأطواقا ومخلبا من الذهب الخالص مع أسطوانة مهشمة، ودرعا للصدر صغيرة مساحتها أربع بوصات مربعة، وشريطا حلزونيا بثخن الورقة، شبيها بشريطة ذهبية. كان وزن الشريط عُشر الأوقية. هل استُخدمت كل تلك الأشياء إلا لأغراض الزينة؟

لم تكن لهذه التحف التراقية استخداماتٌ عملية. كانت مجرد تحف بديعة. وبوسعنا أن نتخيل ما كان يستهوي أولئك الذين صنعوها - بريق المعدن، وسهولة تشكيله، ومقاومته للتآكل. وفي عالم الدنيا الفانية، كان الذهب ذا بريق

(*) الكليبتوقراطية: الحكومة الفاسدة أو حكومة اللصوص. [المترجم].

وحسن سرمدين. وفي يومنا الحاضر يتوافر طيف واسع من الأصول الأخرى[25] يتجاوز ما كان عند التراقيين، غير أن الذهب لايزال في المقدمة، محافظا على مكانته بفضل حدث غير مسبوق وقع في ليديا بآسيا الوسطى في العام 635 قبل الميلاد - اختراع النقد الذهبي.

انتشر النقد الليدي في أرجاء حوض البحر المتوسط. وكان أثره في مكانة الذهب على صعيد الحياة العامة هائلا. أصبح الذهب، بالنسبة إلى الدول، ضرورة لا بد منها. لكن بحلول القرن الرابع عشر[26]، بعد مرور ألفي عام بلغ العرض العالمي الإجمالي من الذهب حجم مكعب طول ضلعه ست أقدام. كانت الدول متعطشة للذهب، وكانت دور سك العملة في أوروبا تغلق أبوابها. وأطلق المؤرخ المالي بيتر بيرنشتاين Peter Bernstein على تلك الفترة اسم «التعطش المقدس» Sacred Thirst للذهب. لقد أذكى ذلك التعطش فورة الذهب الأولى - كانت مغامرة وحشية وفتاكة وعنيفة وإجرامية - ابتلعت حضارة بكاملها وتقيأتها في صورة مسكوكات نقدية.

2

# نهر الذهب

وهكذا اندلعت إحدى أغرب مواجهات القوى المتحاربة في التاريخ.

على أحد الجانبين ملك - إله بجيش قوامه 80 ألف مقاتل متمرس، وفي الجانب الآخر ثلة من الغرباء، بعضهم مرضى، يبعدون آلاف الأميال عن أي مصدر للعون.

جاء الإسبان مجهزين جيدا[1] لتنفيذ جريمة السرقة التي اشتُهر بها القرن السادس عشر. لقد قضوا على إمبراطوريتين بضربة واحدة تقريبا. وقد امتلكوا سلاح الدمار الشامل الذي استخدمه الخيالة - ما عُرف بفولاذ طليطلة Toledo Steel. كانت السيوف صلبة لدنة، وكانت حادة كالشفرة. كانت ضربة واحدة منها

«كان الذهب غاية الجنود البيض، وقرر الإنكا أن يعطيهم كل ما أرادوا، ظنا منه أن ذلك كفيل بعودتهم من حيث جاءوا»

تكفي لقطع الرأس. وبلغ وزن الخيل وخيالها المسربل بدرعه الكاملة ثلاثة أرباع الطن. كان هذا العتاد الهائل يدوي كالرعد مندفعا بسرعة عشرين ميلا في الساعة، فيحتشد الوزن برمته في نقطة فولاذية مدببة عند رأس حربة طولها عشر أقدام. لقد استطاع الإسبان حشد مثل هذه القوة المركزة بالاستعانة بتقنيات متقدمة في مجال الإبحار والملاحة. وكانت لديهم ذريعة لفتوحاتهم المقبلة: إدخال الناس في دين الرب. وكتب كريستوفر كولومبس عندما شرع في رحلته[2]، إلى العاهلين(*) اللذين موّلا حملته أنه سيسعى إلى «أن تعتنق شعوب كثيرة ديانتنا المقدسة»، لكنه لم يغفل عن ذكر الذهب. فقد أشار إليه 114 مرة[3] مقابل الإشارة إلى الرب 26 مرة.

بلغ هرنان كورتيز Hernán Cortés سواحل يوكاتان في مطلع العام 1519، وفي خميس الأسرار (خميس الصعود) نزل بالقرب من مدينة تعرف اليوم بفيراكروز. واعتقد حاكم الأزتيك مونتيزوما أن المغامر الإسباني كان الإله كويتزالكوتال، الأفعى المجنحة، وأرسل مبعوثيه لاستقباله. لكن كورتيز أطلق النار عليهم، ووصف الأزتيك بندقية الأرقيبوس(**) عندما رأوها بأنها: «يخرجُ من أحشائها شيء مثل الكرة الحجرية[4]، مطلقا الشرر ووابلا من النيران». وبحلول نوفمبر كان الإسبان قد نزلوا بتينوشتيتلان، المدينة المكسيكية الخلابة القائمة على جزيرة.

وكتب الجندي الإسباني بيرنال دياز Bernal Diaz: «ونحن نحدق في هذه المناظر البديعة[5]، لم نحر ما نقول، ولم نصدق أن ما نراه كان حقيقيا، لأنه كان ثمة الكثير من المدن على الأرض، من ناحية، وفي البحيرة كان ثمة الكثير أيضا، وازدحمت البحيرة نفسها بقوارب الكنو(***)، وكان على المجازة(****) العديد من الجسور التي تفصل بينها على مسافات منتظمة، ومثلت أمامنا مدينة مكسيكو العظيمة، ونحن - نحن لم يصل عددنا إلى أربعمائة جندي!».

وبحلول شهر يونيو من السنة التالية، قضى مونتيزوما نحبه. وادّعى الإسبان أنه مات تحت وابل من الحجارة ألقاها عليه قومه، ولعل الإسبان قتلوه، إذ أغرتهم

---

(*) المقصود بهما الملك فيرديناند والملكة إيزابيلا، عاهلا إسبانيا آنذاك. [المترجم].

(**) الأرقيبوس Harquebus: بندقية خفيفة الوزن عُرفت في أوروبا في مطلع القرن الخامس عشر، واستخدمتها القوات العسكرية لزيادة وتيرة الرمي. [المترجم].

(***) زوارق الكنو Canoes: زوارق طويلة ضيقة خفيفة الوزن، تسيّر بمغدف (مجداف) أو أكثر. [المترجم].

(****) المجازة: ممر أو طريق مرتفع يقام عبر المياه أو السباخ. [المترجم].

كنوزه. وتصف مخطوطة فلورنتين Florentine Codex[6]، وهي اثنا عشر مجلدا تعود إلى القرن السادس عشر، وتضم روايات المكسيكيين الأصليين عن الغزو الإسباني، كورتيز وعشيقته الناواتيه(*)، مالينشي، وهما يدخلان الخزنة الملكية:

كانا عندما دخلا مجمع الكنوز كمن بلغ أعتاب الفردوس. راحا يبحثان في كل مكان تتملكهما شهوة التملك، ذلك أنهما، أجل، استحوذ عليهما الطمع. ومن ثم أخذا كل مقتنيات [مونتيزوما] الخاصة: متاعه الخاص، وحِلِيه من الأشياء الثمينة: أطواق ذات أحجار غليظة، ولفائف للذراع من ريش الكويتزال، وأساور من ذهب، وأربطة ذهبية بأغطية للركب، وخلاخل للكاحل ذات أجراس ذهبية صغيرة، والتيجان الملكية واللباس الملكي جميعا، بأعداد لا تحصى، وكل أشيائه المخصصة له.

وخلبت أخبار هذه الكنوز ألباب المغامرين الإسبان، وكان منهم قاطع طريق أميّ يدعى فرانسيسكو بيزارو Fransisco Pizarro. كان ابنا نغلا(**)[7] لكولونيل (عقيد) إسباني وامرأة ريفية معدمة. وقد هجرته أمه، ولعلها كانت خادمة، على عتبات إحدى الكنائس. ونشأ في كنف أقربائه، وكان ابن عمة بعيد القرابة لكورتيز. في العام 1513 رافق المستكشف فاسكو نوينيز دي بالباو Vasco Nunez De Balbao إلى المحيط الهادي. وبعد ست سنوات خان كفيله وولي نعمته، فاعتقلَ بالباو وكان في طريقه للاجتماع بعدوه، وهو خصم اتهمه بارتكاب جرائم بحق الملك. وقطع رأس بالباو، بعد أن دفع ببراءته حتى النهاية. وحصل بيزارو على مدينة بنما مكافأة لصنيعه، وقد حكمها حتى العام 1523. وفي العام التالي انطلق في حملته الأولى بحثا عن الحضارة العظيمة التي سرت شائعات وجودها في الجنوب. وبعد سنتين انطلق في حملته الثانية. وليس ثمة ما يماثل ما وقع من أحداث لاحقة من حيث الهجمة الجنونية وأعمال الترويع، عندما صعد بيزارو وعصبته قليلة العدد إلى الحصن الجبلي. كانت المملكة المفقودة في حكايات الخيال - مبهرة ونائية وغريبة وساحرة. كان بيزارو عدو تلك المملكة، نذير جشع ما كان ضحاياه قادرين على فهم أسبابه البتة. ومع بيزارو تحولت شهية القارة الأوروبية للذهب نحو الأنديز.

---

(*) نسبة إلى شعب الناوا Nahua، وهم مجموعة عرقية من السكان الأصليين في المكسيك والسلفادور، وتعرف لغتهم بالناوتل. [المترجم].

(**) النغل هو الابن غير الشرعي، فاسد النسب. [المترجم].

يستخدم اسم الإنكا للدلالة على شعب إمبراطورية البيرو وقائدها(*). بدأ توسع الإنكا من وادي كوتزكو في العام 1438 عندما غزا قائد عسكري محنك يدعى باتشاكوتي يوبانكوي جيرانه. كان أول إنكاسي(**) يبسط نفوذه ما وراء كوتزكو، وهو الذي بنى ماتشو بيتشو، المدينة المعلقة على حافة الجبل إلى الشمال الغربي من كوتزكو بثلاثة وأربعين ميلا، وكانت إقطاعته الخاصة. وواصل ابنه توباك يوبانكوي التوسع، وبحلول العام 1471 بات يحكم إمبراطورية امتدت عبر الإنديز لمسافة 3 آلاف ميل.

تطورت ثقافة سكان الإنديز وتطور مظهرهم[8] عبر عقود من العيش في الجبال. لقد امتازت رئاتهم وصدورهم بكبر حجمها بسبب استنشاق هواء المرتفعات العالية الذي ينخفض مستوى الأكسجين فيه. ويكثر في مدرجات الجبال المنحدرة نبات الترمس، وهو محصول غذائي. وكانت القنوات تحمل المياه إلى الأرض المزروعة. ولم يعرف الإنكا النقود، فقد استخدموا نظاما[9] قائما على تبادلية الواجبات، وتخللت ذلك احتفالات منها شرب بيرة تشيتشا Chicha إلى حد الثمالة. كانت الثروة تتجسد في التحكم في العمل البشري وملكية الأرض وقطعان اللاما المدجنة. وكانت الإمبراطورية معزولة من أحد جانبيها بأعظم محيطات الأرض، وبكبرى غاباتها من الجانب الآخر. وإلى الجنوب امتدت الصحاري ولا شيء سواها، ومن ناحية الشمال فتح الإنكا كل الأصقاع. لقد حشد قادة جيوش الإنكا مئات الآلاف من الرجال المحاربين. وحركوا تلك الجيوش[10] بسرعة مذهلة على امتداد 14 ألف ميل من المسالك والطرق التي حيّرت طلائع الأوروبيين عندما شاهدوها عيانا. وكتب هيرناندو بيزارو، أخو بيزارو الغازي، «إن مثل هذه الطرقات المذهلة لم تعرف في الدول المسيحية ومنها بلدنا»[11]. ووصف إسباني آخر رحلة صعود مروعة أعلى «سفح جبل خاطف للأنفاس. بالنظر إليه من الأسفل، كان يبدو أن الطيور يتعذر عليها ارتقاؤه جوا بالتحليق، فما بالك بالرجال الذين كانوا على صهوة الجياد وهم يتسلقون مسيرا. وخفت مشقة الطريق بالصعود في دروب متعرجة». كان الطريق الملكي الرئيس محاذيا للأنديز، امتدادا من كولومبيا إلى تشيلي. وثمة طريق رئيسية ساحلية محاذية للمحيط الهادئ، وكانت هناك مسالك تربط بينهما.

---

(*) تُستخدم كلمة الإنكا للدلالة على شعب الإنكا وعلى إمبراطور الإنكا. [المترجم].

(**) إنكاسي: نسبة إلى الإنكا، وهو واحد الإنكا أو من ينتمي إلى شعب الإنكا. [المترجم].

وقد استُخدمت في الإنشاءات العظيمة مثل ساكساي أوامان Sacsayhuaman، وهو الحصن الهائل القائم أعلى قمة كوتزكو، حجارة ضخمة رصفت بمهارة فائقة. لقد عرفوا النسيج والسيراميك والعدد البرونزية والريش النفيس والفضة والحجارة النادرة. وقد نقبوا عن الذهب وصنعوا الحلي الذهبية. واستطاع جراحوهم فتح فجوات في الجمجمة لإخراج السائل الناتج من جروح الرأس[12]. ووصل معدل البقاء(*) على قيد الحياة إلى 80 في المائة.

لقد اعتقدوا أنهم فتحوا العالم المتحضر برمته. وانصرف بيزارو للبحث عنهم.

في مطلع العام 1527[13] كانت سفينة إسبانية تمخر عباب الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية عندما تبينت مركبا شراعيا. وقد غيرت اتجاهها وتجاوزته. كان هذا المركب طوفا من خشب البلزا(**). كانت للمركب أشرعة قطنية وهيكل متطور. وقذف أحد عشر بحارا من طاقم المركب المحجوز المكون من عشرين بحارا أنفسهم في البحر، وغرقوا جميعا. واستسلم الباقون. ووفقا للرواية الإسبانية «كانوا يحملون العديد من قطع الحلي الفضية والذهبية للاستعمال الشخصي، ومنها التيجان والأكاليل والطماقات (الأحزمة) والأساور ودروع الساقين ودروع الصدر؛ وملاقط الشعر والصلال(***) وخيوط وعناقيد الخرز والياقوت؛ والمرايا الموشاة بالفضة، والزمرد والعقيق الأبيض (خلقيدونيا) والجواهر الأخرى وقطع الكرستال».

والتحقت السفينة بالسفينة المرافقة، وكانت تقل قائد الحملة فرانسيسكو بيزارو. كان رجاله في حالة يرثى لها، إذ كان يلقى ثلاثة حتفهم كل أسبوع بسبب الجوع أو المرض. وكان الساحل قاحلا أو مملوءا بأشجار الأيكة الساحلية (المانجروف) فيتعذر خوضه. وقد سمح بيزارو لمن شاء من رجاله بالعودة إلى الديار، واختار معظمهم العودة، ولم يبق إلا ثلاثة عشر رجلا.

وواصل بيزارو وبقية الرجال إبحارهم، وبلغوا قرية ساحلية اسمها تامبريز Tumbrez. ومن هناك انطلقوا في طلعات استكشافية في أعماق الجنوب إلى أن

---

(*) معدل البقاء: نسبة عدد السكان الذين بقوا على قيد الحياة فترة من الزمن بعد تشخيص المرض. [المترجم].

(**) خشب البلزا Balsa: خشب شجر البلزا، وهو شجر استوائي يمتاز بخفة وزنه ومتانته، وتصنع منه الأطواف. [المترجم].

(***) الصلال: هي الخشخيشات، أدوات تصدر صوتا شبيها بالخشخشة. [المترجم].

أحاطوا بما وقعوا عليه. وكما ذكر جون هيمينج John Hemming في كتابه «غزو الإنكا» The Conquest of the Incas: «شاهدوا تخوم حضارة عظيمة كانت نتاج قرون من التطور في معزل تام عن بقية الجنس البشري»[14].

وعاد بيزارو أدراجه إلى إسبانيا لتجهيز حملة بحرية. ووجد البلاط مبهورا بآخر الكنوز الآتية من المكسيك. وأسبغت عليه الملكة حق ضم الأراضي بالفتوحات. وعاد إلى بنما واستقل السفينة، وفي 24 سبتمبر 1532، بعد رحلات طويلة ومرض ملازم، وبعد سلسلة من الحملات اليائسة والإخفاقات، أدار اثنان وستون خيالا و106 جنود راجلين ظهورهم للمحيط الهادئ ويمموا وجوههم شطر إمبراطورية الإنكا.

كانت تاوانتينسويو Tawantinsuyu، وهو الاسم الذي أطلقه الإنكا على بلادهم، تمتد مسافة 3 آلاف ميل من قلب ما يعرف اليوم بتشيلي إلى كولومبيا. ولم يتسن للإسبان الزاحفين إليها أن يحيطوا بمساحتها. لقد حكم إمبراطور الإنكا شعبا تعداده 10 ملايين نسمة. وكان العداؤون يجلبون الأخبار من كل أنحاء الإمبراطورية، وهم يجرون تتابعا عبر الطرقات المرصوفة بالحجارة. وتنقّل الجنرالات (قادة الجيش) على كراسي ذهبية يحملها الخدم الذين ارتدوا الزي الموحد. كانت الأهراء والمخازن الحجرية تحفظ مؤونة غذاء الإمبراطورية. وارتفعت سفوح الجبال كأنها الجدران.

إن معنى اسم تاوانتينسويو «أربعة أجزاء ضمت معا» - أي دولة فدرالية جمعت في كيان موحد. لكنها كانت عالما جامحا تصعب السيطرة عليه، وقد أنفق الإنكا(*) الكثير من العطايا للحفاظ على ولاء قادة الشعوب الخاضعة لسيطرته.

كان أجداد الإنكا[15] أيضا في حاجة إلى العطايا والهدايا. ولم يفقد إمبراطور الإنكا المتوفى صلاحياته المخولة له بصفته الإمبراطورية. كان لكل منهم قصره الخاص في العاصمة الإمبراطورية كوتزكو، يرفل بالزينة والديكورات الذهبية، والأقراط وجلابيب الريش والتويجات وأقنعة اليشب. كانت صناديق الكنوز ملأى بأشيائهم الخاصة، وكانت حاشيتهم تقابل أوامرهم بالسمع والطاعة. كان حاكم الإنكا يؤدي ثمن ذلك جميعا. فقد شن حروب الغزو للحصول على الثروة التي كان يتعين عليه إنفاقها لتوطيد سلطته.

---

(*) الإنكا: المقصود به إمبراطور الإنكا. [المترجم].

ولم ينتقل العرش[16] من الحاكم إلى خليفته وفقا لقواعد توريث صارمة. كانت صراعات الخلافة على العرش بين أعضاء العائلة الملكية المتنازعين توشك أن تقسم البلاد. وزحف بيزارو على البيرو حينما كانت تدور رحى أحد تلك الصراعات.

لقد توفي أحد حكام الإنكا الأقوياء، هواينا كاباك Huayna Capac، في العام 1527، بعد ثلاثين سنة قضاها في الحكم، تاركا وراءه وريثين. اعتلى ابنه هواسكار Huascar العرش في كوتزكو، أما أخوه أتاوالبا Atahualpa، الذي كان يرافق أباه في الحملات العسكرية فظل قائدا للجيوش الرئيسة في الشمال. وأدت المشاحنات والتوترات بين الأخوين إلى نشوب الحرب الأهلية. وشن هواسكار هجوما نحو الشمال، لكن قائد جيش أتاوالبا هزمه، وفرض سيطرته على كوتزكو في العام 1532، فقتل عائلة هواسكار وأوقعه في الأسر. في تلك الظروف بدأ بيزارو زحفه على الإمبراطورية.

ولعل الأقرب إلى المنطق القول إن أتاوالبا كان سيسحق الإسبان لولا أنه انشغل بالحرب. لقد علم بقدومهم، وأرسل لهم الهدايا. وفي الوقت نفسه، كان لا يعلم ما آلت إليه معركة الاستيلاء على كوتزكو. ولم يكن يعلم الطرف المنتصر[17]، قواته أم قوات هوسكار. وكان ذلك من حسن طالع بيزارو، لأن أتاوالبا ربما دار في خلده أن يستعين بالإسبان على أخيه. وهذا يفسر عدم هجوم الإنكا على الإسبان في أثناء زحفهم، حين كانوا في أضعف حالاتهم. ومن حسن طالع بيزارو أيضا أن معسكر الإنكا، ولعله كان على مسيرة شهور عبر الجبال، كان قريبا في المتناول، في الاتجاه الذي زحف فيه، مما عزز فرص ملاقاة أتاوالبا قبل ورود الأخبار من كوتزكو.

وبذلك باتت قوات الإسبان في دائرة قوة الإنكا العسكرية[18]. ووفقا للوصف الذي يقدمه هيمينج، ارتقى الإسبان طريقا للإنكا على طول الوادي الذي كان يضيق كلما تقدموا فيه. ومضوا نحو الجبال، وحيثما اتجهوا بأنظارهم على طول الطريق كانوا يشاهدون الثغور العسكرية للإنكا، فوقهم في المرتفعات العالية، وكان الإنكا يراقبون تقدمهم بكل تأكيد.

وروي عن بيزارو قوله: «كان الطريق سيئا جدا [بالنسبة إلى الخيول]، بحيث كان سيسهل عليهم هزيمتنا هناك، أو عند معبر جبلي آخر اكتشفنا وجوده بين موقعنا ومدينة كاجاماركا. ذلك أننا كنا عاجزين عن استخدام الخيول على الطرقات،

ولم نكن قادرين على قيادتها بمهارة. كان يتعذر علينا أن نمضي بخيولنا أو جنود مشاتنا خارج حدود الطريق».

وفي 15 نوفمبر، بعد سبعة أسابيع من مغادرتهم الساحل، وصل الإسبان إلى ممر جبلي أعلى كاجاماركا، ولا بد أن المشهد الذي رأوه عندما انكشف الوادي أمامهم قد أخذ بألبابهم. فعلى تلة مهيمنة على المدينة نصب الإنكا معسكرهم. كان الحاكم وسط جيش قوامه ثمانون ألفا. وقد كان مشهد معسكر الإنكا مبهرا، ووفقا لرواية أحد رجال بيزارو: «كانت مدينة باهرة الجمال، لم نر مثل هذا المشهد في الأنديز قبل ذلك. لقد بث هذا في قلوبنا نحن الإسبان الخوف والاضطراب. لكن ما كان يجدر بنا أن نظهر الخوف، ولا أن نولي أدبارنا. إذ لو شعر الهنود(*) بضعفنا، لأقدم أولئك الهنود الذين جلبناهم معنا أنفسهم على قتلنا. ولذلك، وبعد أن تحلينا بالمعنويات العالية، وبعد إجراء معاينة شاملة للمدينة والخيام، انحدرنا نحو الوادي ودخلنا مدينة كاجاماركا». وهكذا بدأت إحدى أغرب مواجهات القوى المتحاربة في التاريخ. كان على أحد الجانبين ملك - إله بجيش قوامه 80 ألف مقاتل متمرس؛ وفي الجانب الآخر ثلة من الغرباء، وبعضهم مرضى، يبعدون آلاف الأميال عن أي مصدر للعون. لم يدر في خلد أتاوالبا أن هذه القوة الهزيلة ستشكل تهديدا لشخصه، ولا لإمبراطوريته.

وأرسل بيزارو وفدا إلى معسكر الإنكا. وعبر الوفد بين صفوف الجيش الذي لفه الصمت، مراقبا ما يحدث. كان أتاوالبا في ينبوع المياه الحارة مع حريمه، محاطا بأمرائه وقادته. وقد جلس على كرسي ذهبي وطيء. وتدلت من جبهته الشرّابة القرمزية التي ميزته عن الآخرين. ووفقا لوصف الإسبان أظهر أتاوالبا أنفة عظيمة، فلم يلتفت إلى الإسبان ولم يعدل جلسته عندما اقترب أحد الخيالة كثيرا بحيث هزت الأنفاس المنبعثة من محجري أنف الحصان الخيوط القرمزية المتدلية على وجه الإنكا. ولم يرفع أتاوالبا بصره إلى أن أبلغه أحد المترجمين بأن ذلك الشخص الذي وفد إليهم كان شقيق القائد الأبيض هيرناردو بيزارو. وبعد وعود مبالغ فيها بتوطيد عرى الصداقة بين الجانبين، التمس الوفد من الإنكا أن يزور بيزارو في

(*) المقصود الهنود الحمر، وهم الإنكا في هذا السياق. [المترجم].

المدينة. وقبِل أتاوالبا دعوة الزيارة، وحدد موعدها في اليوم التالي. وعاد الخيالة إلى كاجاماركا ليرسموا خططهم.

كانت ليلة عصيبة على رجال بيزارو. توهجت نيران معسكر جيش الإنكا لأميال على طول سفح الهضبة. ونشر بيزارو جنوده خشية الهجوم الليلي. واتخذ المشاة والخيالة مواقعهم في الزقاقات المحاذية للساحة الرئيسة. ونصب بيزارو أربعة مدافع ووضع بعض المبارزين بالسيف في الحصن الصغير القائم على أحد أطراف الساحة.

وفي الصباح، وصل رسول الإنكا معلنا أن الإنكا قادم برفقة رجاله المسلحين. وكان رد بيزارو الترحيب بقدوم أتاوالبا، باعتباره «صديقا وأخا» له. وعند الظهيرة انتقل مضيف الإنكا إلى السهل ونشر جيشه وانتظر قدوم الإمبراطور. ورابط الإسبان في مخابئهم. وقد ذكر أصغر إخوة بيزارو، واسمه بيدرو، أنه شاهد «العديد من الإسبان يتبولون لا إراديا من شدة الخوف».

وحضر أتاوالبا في موكب مهيب. كان مرافقوه يرفلون بالحلي الذهبية والفضية. وسبقهم تشكيل من حاشية القصر في اللباس الموحد ذي المربعات المتناوبة في اللون، فأجرى مسحا للأرض، وانكب على تنظيف طريق الإنكا. وطفقت الحشود حول الطريق تنشد لدى اقترابه. ثم توقف الموكب قبل نصف ميل من المدينة، وقرر الإنكا الاستراحة في رحلته القصيرة. كان الوقت عصرا وشرع الجنود في نصب الخيم في أحد المروج المجاورة. وأرسل بيزارو، وكان لايزال يخشى من شن البيروفيين(*) هجوما ليليا، رسولا يحث الإنكا على القدوم للقائه تلك الليلة. ووافق أتاوالبا، وعندما بدأت أشعة الشمس الغاربة بالتلاشي، اتخذت حاشية الإمبراطور طريقها إلى مخالب التاريخ.

كان معظم الجيش لايزال في المؤخرة. ورافق نحو خمسة آلاف محارب بأسلحتهم الخفيفة موكب أتاوالبا. وركب الإنكا محفة فضية حملها ثمانية من النبلاء ذوي الأثواب الزرقاء. كان عرشه من الذهب الخالص، وسارت خلفه فصائل الرجال بحليهم الذهبية والفضية. وقد ارتدى أتاوالبا تاجا وقلادة مرصعة بالزمرد، وكان شعره مجدولا بالذهب. وكُسيت محفته بريش الببغاوات وزينت بمشغولات

(*) البيروفيون: هم شعب البيرو، والمقصود بهم هنا الإنكا. [المترجم].

زينية من الذهب والفضة. ووصل الإمبراطور، وموكبه يشع بريقا وأبهة، وسط حاشية مهيبة، إلى الساحة المركزية، ثم توقف في منتصفها. ووضع بيرقه على رمح، وظهر على العلم الأصفر المربع المنتصب شعار الإمبراطور: قوس قزح وشرابة الإنكا القرمزية وحولها حيّتان منتصبتان. وأجال أتاوالبا بصره فيما حوله بحثا عن الإسبان، لكنه لم يرهم. فسأل بصوت مرتفع: «أين هم؟» وفي هذه اللحظة، خرج الراهب الدومينيكي فنسانتي دي فالفيردي Vincente de Valverde من مخبأ بيزارو مقتربا من الإنكا، حاملا بيده كتاب التراتيل. ودعا أتاوالبا للدخول ومقابلة الحاكم، وهو الوصف الذي أطلقه الإسبان على بيزارو. ورفض الإنكا، وطالب بإعادة كل ما نهبه الإسبان منذ قدموا إلى مملكته. وبدأ فالفيردي بتلاوة خطبة رسمية تعرف بالمطلب The Requirement: وهو إعلان تطلب الحكومة الملكية الإسبانية من الجيوش الغازية تلاوته على الملأ قبل الشروع في أعمال القتل. ورفع الكاهن كتابه وتحدث من خلال مترجمه أن هذا الكتاب يمثل الديانة التي بعث لتبليغها إلى الإنكا وشعبه. وعاين أتاوالبا الكتاب، مظهرا إعجابه بهذا الشيء(*)، ثم قذفه جانبا باستحقار، وانقلب «وجهه قرمزيا داكنا». وراح الراهب يصيح وينتحب. لقد أورد الإسبان في مذكراتهم روايات مختلفة للكلام الذي كان الراهب يردده بينما راح يصرخ، ولكن مهما كان كلامه، كانت تلك الإشارة التي انتظرها بيزارو. وأطلق المدفع المتواري النار على صفوف أتباع الإنكا المحتشدين واندفع الخيالة من مخبئهم.

كان الإسبان قد صقلوا دروعهم وعلقوا الخلاخل على أحصنتهم لبث أعظم الرعب في النفوس. كانت الخيول مرعبة بأي حال، فهي وحوش تفوق حجما مثيلاتها في الأنديز، فكانت تنخر وتصهل فيما راح خيالتها يقودونها نحو الحاشية المحتشدة، وهكذا حصد الفولاذ الإسباني حملة الأسلحة الخفيفة. واخترق الخيالة صفوف جنود أتاوالبا مثل رتل من المدرعات. وهمز بيزارو حصانه ليقتحم حشود المتحاربين، ثم انتهى إلى محفة الإنكا، فأخذ بذراع أتاوالبا وحاول سحبه من مكانه. لكن موضع الإنكا المرتفع، وكان محمولا على أكتاف حاشيته، حال دون ذلك. وقطع ملازمو(**) بيزارو أذرع بعض حاملي المحفة، الذين ظلوا يرفعونها على أكتافهم. وأخيرا، في

---

(*) المقصود إعجابه به بوصفه كتابا، لأن الكتب لم تكن معروفة لدى الإنكا. [المترجم].

(**) الملازمون من ملازم: رتبة في الجيش. [المترجم].

خضم الاشتباك الدامي، قلب الإسبان المحفة وسقط الإنكا بين الحشود. لكن حاشيته لم تتخل عنه. وقُتل الجميع، كل الرجال من أركان حاشيته، في المذبحة.

وبينما كان بيزارو يحاول القبض على الإنكا، تواصلت المذبحة. ولم يكن أمام الجنود من السكان الأصليين مجال للهرب بعد أن حُشروا في حيز محدود ينتهي إلى بوابات ضيقة. ألقى بضعة آلاف بأنفسهم على الجدار وهدموه، ثم فرّوا إلى السهل. واندفع الخيالة في إثرهم، فأوثقوهم في أثناء فرارهم، وراحوا يفتشون عن كل من ارتدى الزي الرسمي الموحد للإنكا. كان جنود بيزارو لايزالون يقذفون الإنكا بالرماح بعد أن أرخى الليل سدوله، وفقا للروايات الإسبانية. وانطلقت الخيالة تدوي في السهل المظلم، وكان الخيالة والخيول كالقناطير(*) الذين غطتهم الدماء. لقد بدوا للبيروفيين عصيين على القتل. ولم يرجعوا إلى الساحة المركزية إلا عندما أمر بيزارو نافخ البوق أن يرسل إشارة الاستدعاء.

وقد زعم بعض الكتاب الإسبان أن ستة آلاف بيروفي قتلوا في تلك المذبحة. ووفقا لهيمينج: «كتب ابن أخي أتاوالبا أن الإسبان قتلوا الهنود الحمر ذبحا كما يحتز الجزار رؤوس الأغنام. كان العدد الإجمالي للقتلى مروعا، وإن افترضنا أن العديد من الهنود قضوا تحت الأقدام أو اختناقا، أو أن تقديرات عدد القتلى مبالغٌ فيها. كان عدد الهنود الذين ذبحهم الإسباني الواحد بالمتوسط أربعة عشر أو خمسة عشر من سكان البلاد الأصليين العزل [على أساس العدد الإجمالي وقدره 3 آلاف] في أثناء تلك الساعتين المروعتين.

وبينما كان شعبه يتساقط في أكوام دامية، كان الإنكا يساق مخفورا بالحرس إلى المعبد القائم في الساحة الرئيسة. وأصدر بيزارو أوامره بإحضار الثياب الجديدة لاستبدال ملابس أتاوالبا المهلهلة، التي تمزقت في الاشتباكات.

وعامل بيزارو أسيره باحترام. وتساءل الإنكا إن كانوا يعتزمون قتله، وأجاب بيزارو بالنفي - باعتبار أن أتباع المسيحية لا يقتلون بدم بارد وإنما في حمأة المعركة. وسألوا سجينهم كيف لقائد مخضرم أن يقع في مثل هذا الفخ الذي لا ينطلي على أحد. وقد تبين أن أتاوالبا حصل على معلومات استخباراتية مغلوطة عن القدرات القتالية للإسبان. ولم يتوقع أن يشكلوا أي تهديد له، وهو الملك الظافر المؤيد بثمانين

(*) القناطير Centaurs: مفردها قنطور، وهو كائن أسطوري بجسد حصان وجذع ورأس إنسان (في الأساطير الإغريقية). [المترجم].

ألف مقاتل. وكان ينوي أسرهم[19] وقتل بعضهم، وإخصاء الباقين. لقد أراد الاحتفاظ بالخيول فقط.

وبوقوع الإنكا في أيدي الإسبان[20]، سقطت إمبراطوريته في أيديهم أيضا. وسمح بيزارو لأتاوالبا بأن يبث الخبر بأنه لايزال على قيد الحياة. ونظرا إلى صفته المقدسة وإن كان في الأسر، فقد ظل الإنكا القائد للجيش والشعب. وقد خولته سلطته التفاوض حول إطلاق سراحه، وعزم على ذلك. لقد تبين أن لدى الإسبان شهوة للذهب. ولم يفهم سبب ذلك تماما؛ لأن الإنكا كانوا لا يستخدمون النقود. إذ إنهم كانوا يرون الذهب من منظور قيمته الاستعمالية[21]. واستخدم الذهب في زينة النبلاء وفي الشعائر المقدسة، لكنه لم يكن في هذه الاستعمالات الخيار الأول بين المواد الأخرى. فقد غلبه اليشب وبعض أنواع الريش في هذا المجال. ومع ذلك، كان الذهب غاية الجنود البيض. وقرر الإنكا أن يعطيهم كل ما أرادوا، ظنا منه أن ذلك كفيل بعودتهم من حيث جاءوا.

ويمكن للمرء أن يرى اليوم في كاجاماركا[22] الحجرة التي عرض أتاوالبا أن يملأها بالذهب في مقابل إطلاق سراحه. يبلغ طول الضلع الأول للغرفة 27 قدما والآخر 22 قدما. وقد عرض الإنكا أن يملأها بالذهب في شهرين إلى ارتفاع يعادل مستوى ذراعه الممدودة إلى الأعلى. وقبل بيزارو العرض. وسجل أحد الكتبة تفاصيل الصفقة. وانطلق رسل الإنكا في أنحاء إمبراطوريته، وبدأت مشغولات الذهب تتدفق عبر الطرقات الملكية إلى كاجاماركا. كانت ثمة كؤوس وآنية وتماثيل مصغرة بديعة الصنع تصور حيوان اللاما، وطيور ذهبية وأشجار. وكان بينها اختراع يشبه نافورة تقذف الذهب. وذهل الإسبان من كمية الذهب الموجودة. كان مذبح الأضاحي المصنوع من الذهب الخالص[23] في كوتزكو يزن نصف طن على الأقل. وبلغ وزن النافورة الذهبية أكثر من 700 رطل. وفي قدس أقداس أحد المعابد وجد الجنود الإسبان عجوزا ترتدي قناعا من الذهب، وقد جلست لطرد الذباب عن رفات أباطرة الإنكا الموتى. كان كنز حاكم الإنكا هناك في متناول الجميع.

لقد أذهلت الكنوز العجيبة الإسبان[24]، فتحدثوا عن حدائق صغيرة مصنوعة من الذهب، كانت فيها كتل التراب وأكواز الذرة من الذهب الخالص. وكانت ثمة كؤوس ذهبية مرصعة بالزمرد. إذ كان صاغة الإنديز يصنعون المشغولات منذ

ألف عام، من نحو العام 500 قبل الميلاد. وكانت بعض المشغولات التي جُمعت تعود إلى عصر سابق، وبدا فيها التأثير الصيني والفيتنامي، مما يعني أن الرحالة الآسيويين ربما سبقوا الإسبان إلى البيرو بألف عام. وقد احتفظ بيزارو ببعض هذه المشغولات ليبهر بها البلاط الإسباني. وصهر الإسبان البقية. واستطاعوا أن يجمعوا في شهر واحد[25] ما يعادل 1326539 بيزو ذهبيا، أي نحو 340 مليون دولار في عملة هذا الزمان. وبلغ وزن الغنائم خمسة أطنان، وهذا لا يشتمل على العرش المصنوع من الذهب الخالص الذي يزن 190 رطلا. وعادلت حصيلة شهر واحد من السبائك الذهبية إنتاج عام كامل من الذهب الأوروبي. لكن هذا لم يمنع الإنكا من أن يشتري حريته به.

لقد وجد بيزارو في شخص أتاوالبا وسيلة لاستنزاف ذهب البيرو[26]. كان شخص الإنكا مقدسا. كان محاطا، وهو في حجرة سجنه، بنسائه وأخواته فقط، وكن يقمن على خدمته، ويطعمنه بأيديهن. وارتدى الإنكا ملابس ناعمة لم تقع أعين سجانيه على مثلها البتة. كان جلبابه مصنوعا من جلود الخفاش مصاص الدماء. وعندما كان الإنكا يبصق، كانت هناك امرأة تلتقط لعابه بيديها. وكل ما لمسه - من نباتات الأسل التي وطئها، وعظام الطيور التي تغذى عليها - جُمع في صناديق جلدية ثم أحرق، ونثر الرماد في الريح لكي لا تقع أيدي الآخرين على ما لمسه الإنكا. وعندما جاء سادات القوم لزيارته كانوا يقبلون قدميه ويديه. ولم ينظر الإنكا إليهم. وباعتبار الصبغة المقدسة للإنكا[27]، كانت أوامره لجلب الذهب إلى كاجاماركا مطاعة؛ ولم تكن حالته في الأسر لتغير ذلك.

لقد حكم إمبراطور الإنكا من خلال قادة جيشه. كان ثمة 75 ألفا من الجيش المرابط في كاجاماركا لايزالون معسكرين أعلى المدينة. وكان 35 ألف جندي مشاة تحت إمرة قائد جيش أتاوالبا رابضين بين كاجاماركا كوتزكو. وكان مع القائد الذي انتزع كوتزكو من قبضة شقيق إمبراطور الإنكا 30 ألف جندي مشاة لحماية العاصمة. وإزاء هذه الأعداد لم تكن الأفضلية التي رجحت كفة الفولاذ الصلب والخيول كافية لإنقاذ الإسبان لو أن البيروفيين هجموا بقضهم وقضيضهم. لكنهم لم يهجموا لأن إمبراطور الإنكا طلب منهم ألا يفعلوا. وهذا يفسر سبب استطاعة مجموعة صغيرة من الخيالة تحت إمرة شقيق بيزارو الانتقال من كاجامارا إلى

كوتزكو وتجريد معبد الشمس من سبعمائة صفيحة ذهبية زنة كل منها أربعة أرطال ونصف الرطل، وتقفل عائدة إلى كاجاماركا من دون أن يمسها الأذى.

في 14 أبريل 1533[28] وصلت التعزيزات الإسبانية التي طال انتظارها إلى كاجاماركا من الساحل، لتعم البهجة أوساط الحامية. كان بيزارو ينتظر وصول الجنود المائة والخمسين. وبوصولهم تضاعف عدد القوات المحتلة تقريبا. قد يبدو أمرا سخيفا الحديث عن ثلاثمائة رجل «يحتلون» إمبراطورية جبلية امتدادها ثلاثة آلاف ميل، حيث كان تحت إمرة الضباط الأشداء أكثر من مائة ألف مقاتل. ومع هذا، فقد كانت ناصية الملك - الإله بيد الإسبان، وكانت ناصية رجاله بيده.

وبدأت المخاوف تساور أتاوالبا عندما علم بوصول التعزيزات، إذ اعتبر ذلك مؤشرا إلى أن الإسبان يعتزمون البقاء. وأدرك أن فدية الذهب لن تكفي لحملهم على الرحيل. كان كالغريق يتعلق بقشة أنهم سيحترمون الصفقة المبرمة بين الطرفين ويطلقون صراحه.

وظلت الكنوز تتدفق إلى كاجاماركا. وأقام بيزارو تسعة مسابك كانت تصهر نحو ستمائة رطل من الذهب يوميا وتجعلها في سبائك. ودمغوا الذهب المصهور حديثا بالشعار الملكي الإسباني وأضافوه إلى مخزون الذهب الآخذ بالازدياد. ولو أن الذهب ظلت فيه أثارة من قداسته، فقد طمسها الإسبان في كاجاماركا. وتلاشى نتاج آلاف السنين من الأعمال الفنية في أفران الصهر. لا بد أن هذا من أقسى مشاهد التاريخ - تحويل حضارة برمتها إلى نقد. في يوم واحد فقط سارت قافلة قوامها 253 من حيوانات اللاما باتجاه كاجاماركا حاملة الذهب والفضة. كان لكل إسباني الحق في حصة محددة مشروطة، وأحصى الكتبة كل أوقية وسجلوها. وفي نهاية المطاف كان الجندي الراجل يحصل على نحو خمسة وأربعين رطلا من الذهب وضعف هذا الوزن من الفضة، أما فرد الخيالة فنال ضعف ذلك. وحصل فرانسيسكو بيزارو على 630 رطلا من الذهب ونصف طن من الفضة، إضافة إلى عرش أتاوالبا مكافأة له. وكان للملك الحق في نسبة الخمس من كل شيء - أي الخمس الملكي Royal Quinto. وكان موظفو البلاط الإسباني حاضرين للتحقق من حصول الملك على الخمس. وسُجل كل شيء في دفتر اليوميات. وعلى صرير الأقلام، كان إرث الإنكا يمضي إلى الفرن، وكان نهرٌ من الذهب يتدفق نحو أوروبا. لكنه لم يضمن للإنكا حريته.

وفي 12 يونيو غادر هيرناندو بيزارو، أكبر أخوي الحاكم بيزارو، كاجاماركا وشرع أتاوالبا بالنحيب، إذ رأى في مغادرته خسارة حام له. كان هيرناندو قد طمأن الإمبراطور بأنه لن يسمح بقتله، وصدقه أتاوالبا. وقد غادر ذلك الحامي الآن، واقتربت ساعة إمبراطور الإنكا.

تناهت إلى بيزارو الأنباء بأن قائد الإنكا روميناڤي حشد جيشا تعداده 200 ألف مقاتل، وأنه زحف مسرعا من كويتو باتجاه الجنوب لمهاجمة الإسبان وتحرير إمبراطور الإنكا. وظن بيزارو أن أتاوالبا طلب من قائد جيشه أن ينقذه. ويرى جون هيمينج أنه لا مجال لإثبات ذلك. وفي كاجاماركا كان مزاج الإسبان أقرب إلى الهلع. ونادى فصيل متنفذ في أوساط الإسبان مطالبا بإعدام إمبراطور الإنكا بتهمة «الخيانة». ويروى أن بيزارو انتحب لتوسلات إمبراطور الإنكا بالإبقاء على حياته. وفي النهاية لم تعقد أي محاكمة، بل اجتمع مجلس بيزارو وقرر إعدام الإنكا رميا بالرصاص، وفي ليلة 26 يوليو اصطحب الجنود إمبراطور الإنكا إلى الساحة الرئيسة، وأوثقوه بوتد، وبدأ نفخ الأبواق. أبلغ أحد الكهان أتاوالبا أنه سينجو من الحرق إن اعتنق المسيحية. كان الموت حرقا إهانة لإمبراطور الإنكا، فقبل اعتناق المسيحية. وقام الكاهن بتعميده باسمه الجديد فرانسيسكو، على اسم بيزارو الأول. ثم قتلوه خنقا.

وأُدين بيزارو بهذه القتْلة[29]، ثم بُرِّئ منها، ثم أُدين علنا مرة أخرى. وتشرذمت جماعته في الاقتتال على اقتسام ما سلبوه ونهبوه. وعاد بعضهم إلى إسبانيا، ومات البعض الآخر في الاقتتال الذي دار بينهم[30]، وبدد البعض أمواله بالمقامرة. وعاد هيرناندو بيزارو إلى إسبانيا في العام 1540، حيث أودعه أعداؤه السجن. وظل في السجن عشرين عاما، وخرج منه مفلسا. أما فرانسيسكو الغازي العظيم فقد قُتل طعنا في العام 1541 على يد المتمردين في ليما، وكان جالسا إلى مائدته يتناول عشاءه. لكن الذهب بدّل الأحوال المالية للغرب.

3

# سيّد الرجال

«يُعتبَر معيارُ الذهب في الحقيقة من مخلفات التاريخ البربرية».

**جون مينارد كينز**

مخرت سفن الجاليون(*) الإسبانية[1] عباب البحر في طريق العودة إلى الديار بأساطيل محملة بالكنوز العظيمة. وتقاطرت ستون سفينة على امتداد أميال فوق وجه المحيط الأزرق تشق طريقها بين الأمواج وعبر الحيدان المرجانية في مضيق فلوريدا، القناة التي تربط خليج المكسيك بالأطلسي. إن المياه الدافئة

«مع تدفق الذهب توسع اقتصاد القارة الأوروبية. ومع نمو التجارة انتشرت المعارض التجارية الدولية حيث كانت تبرم كثير من الصفقات التجارية»

(*) سفن الجاليون Galleons: سفن ضخمة وسريعة مزودة بالمدافع. [المترجم].

قد تولد الأعاصير. وكتب أحد البحارة عن عاصفة ضربت أسطولا بحريا: «توارت الشمس، واشتدت سرعة الرياح الآتية من الشرق والشمال الشرقي. وتعاظم حجم الموج». كان ثمة سبب آخر يقلقهم غير الأمواج؛ إذ هاجمت السفنُ الحربية الفرنسيةُ والإنجليزيةُ - وهي سفن حربية خاصة مرخصة من قبل حكوماتها - السفنَ المحملةَ بالكنوز. وفي العام 1523 احتجز جان فلوري Jean Fleury، القرصانُ الفرنسي[2]، ثلاثَ سفن شراعية صغيرة(*) محملة بذهب الأزتيك والمجوهرات والحيوانات الغريبة، قبالة سواحل البرتغال.

وبث كلب البحر(**) الإنجليزي فرانسيس دريك Francis Drake الرعبَ على امتداد الطرق البحرية الإسبانية من الكاريبي إلى شواطئ إسبانيا. ساعد لصوص البحر من أمثال هؤلاء حكوماتِهم على تنفيذ السياسة الخارجية لبلدانهم: وذلك باحتواء النفوذ الإسباني من خلال استنزاف الثروات التي كانت معينا للإسبان على تمويل حروبهم الأوروبية. وقد اعتبر الفرنسيون أن من الأهمية البالغة الإغارةَ على الأساطيل الإسبانية التي لم يكن للسلام مع إسبانيا أن يوقفها. وقد رسمت الأطراف المختلفة خطا عبر جزر الكناري، واتفقت على أن المعاهدة لا تشمل الخروقات الواقعة غرب ذلك الخط. إذ لن يكون «ثمة سلام بعد هذا الخط»[3].

ومع ذلك نقلت الأساطيل الكبرى[4] كميات هائلة من الكنوز عبر البحر وإلى أعالي النهر نحو مدينة إشبيليا. وفي العام 1564 وحده، نزلت 154 سفينة في ذلك الميناء. كان تدفق الذهب يفوق الوصف. وارتفع عرض الذهب في أوروبا في مائة عام خمسة أضعاف. وتدفق المال إلى القارة الأوروبية. وعملت إسبانيا جاهدة للسيطرة على هذه الوفرة، وكذلك فعلت أوروبا. وتوسعت التجارة الدولية، وأصبحت قصة الذهب في العلاقات الإنسانية تتمحور حول سبل إدارة التجارة بين الدول. يدور هذا الفصل حول ما إذا كان الحل الشهير لهذا التحدي - النظام الذي عُرف بمعيار الذهب Gold Standard - قد أخضع الذهب لإرادتنا، أم أخضعنا لإرادة الذهب. ولايزال هذا الموضوع يثير الضغائن حاليا بعد انقضاء أربعين عاما على وقف العمل بمعيار الذهب.

---

(*) السفن الشراعية الصغيرة Caravels. [المترجم].

(**) كلب البحر هو لقب للبحار الخبير المحنك أو القرصان. [المترجم].

عندما تدفقت الغنائم من المكسيك والبيرو إلى إسبانيا، لم تكن مستعدة جيدا لإدارة هذه الثروات المتدفقة. ولم تكن ثمة طبقة أهلية(*) محترفة لإدارة الأموال. فقد طردت إسبانيا طبقتها التجارية في العام 1492 من خلال مرسوم ملكي بترحيل اليهود والمسلمين[5]، وكان التجار والصيارفة الذين حلوا محلهم من الأجانب، وتحديدا من إيطاليا وهولندا، ممن فضلوا إقامة العلاقات التجارية مع بلدانهم الأصلية. وقد حُوِّل الكثير من الثروات الجديدة عبر إسبانيا إلى وجهات أخرى. وأشارت إحدى الدراسات إلى أن «الذهب والفضة اكتسبا مكانتهما الدولية في إسبانيا، من دون أن يرتبطا بأي شكل بالاقتصاد الإسباني»[6]، ومع تدفق الذهب، توسع اقتصاد القارة الأوروبية. ومع نمو التجارة انتشرت المعارض التجارية الدولية حيث كانت تبرم الكثير من الصفقات التجارية. ولم يكن ثمة مزيد من النقود. كانت عشرات الأنواع من القطع النقدية الذهبية متداولة في أوروبا، وحملت جميعها قيما مختلفة. ولإجراء عملية الصرف كان الصيارفة والصرافون يقصدون المعارض. وكان التاجر يصرف ما لديه من نقود بالنقود التي يطلبها الطرف الآخر. كان هذا النظام شاقا وينطوي على المخاطرة، حيث كانت أكياس النقود تُنقل من مكان إلى آخر عبر أوروبا. وكان الحل لهذه المشقة يكمن في النقود الورقية.

لقد توسع التجار في استخدام الكمبيالات[7]، وهي النظام الذي انبثق عنه نظام الشيكات الحديث. وعلى غرار الشيكات، كانت الكمبيالات وسائل للدفع، وكان الصيارفة يستردون قيمتها نقدا مقابل رسم محدد. ولم يعد التجار الذين يقصدون المعارض مضطرين إلى حمل النقود، حيث كانوا قادرين على تحرير وعود ورقية بالدفع. وفي أواخر القرن الخامس عشر[8] توسع هذا النظام وأصبح سهل الاستخدام حينما بدأ صيارفة لندن من صاغة الذهب (صاغة الذهب الذين وسعوا نطاق عملهم ليشمل صرف العملات) بقبول الكمبيالات الصادرة من بعضهم لبعض من باب المنافسة على الزبائن. وامتد استخدام الكمبيالات من التجارة الخاصة إلى المالية العامة حين أصدرت الدول نقودا ورقية مغطاة بالذهب أو الفضة. وتضاءل تداول العملات الذهبية إلى أن انحصر التبادل الفعلي للمعدن بالصفقات الكبرى فقط،

---

(*) المقصود من مواطني إسبانيا. [المترجم].

مثل تسوية حالات اختلال الميزان التجاري بين الدول. وأخيرا تطور دور الذهب في العلاقات الدولية إلى نظام أطلق عليه معيار الذهب.

وكان معيار الذهب يقوم على اتفاقية صارمة ملزمة للدول: أن يقابل عرض العملة الوطنية احتياطي السبائك الذهبية، وفقا لنسبة محددة مشروطة. فالأجنبي يقبل الأوراق النقدية الصادرة في دولة خاضعة لمعيار الذهب، لثقته بإمكانية استرداد قيمتها ذهبا. كان مخزون الذهب يحدد بدقة حجم عرض النقد المتداول في دولة ما. ولن تستطيع تلك الدولة طباعة المزيد من الأوراق النقدية ما لم تحصل على المزيد من الذهب. يؤيد تلك القيود الصارمة داعمو نظام معيار الذهب وينكرها معارضوه. لقد تسبب التطبيق الصارم لمعيار الذهب في موجات مطردة من البؤس عبر العالم، حيث كانت التقلبات المفاجئة في التجارة تستنزف المعروض من الذهب وتمزق أوصال الاقتصاد. ويعتقد أشهر مؤرخي معيار الذهب[9]، باري إيتشينجرين Barry Eichengreen، أن هذا النظام أدى إلى الكساد العظيم، لأنه حال دون أن تحفز الحكومة الاقتصاد بضخ النقد. ومع ذلك عاد توجه مؤيد للذهب إلى الظهور في بعض الأوساط.

لقد سبب رئيس البنك الدولي، روبرت زويليك Robert Zoellick[10]، ارتفاعا حادا في أسعار الذهب في نوفمبر 2010 عندما صرح بأن الذهب قد يعود للاضطلاع بدور نقدي. وبدأت بعض المصارف المركزية بتخزين الذهب بعد أن دأبت على بيعه في السنوات الماضية. وفي أوساط اليمين الأمريكي[11] يتطلع مؤيدو الذهب إلى زمن أبسط وأقرب إلى العدالة. لكن إذا كان معيار الذهب بسيطا، فإن بساطته كبساطة هراوة القتال. إن بعضا من أكثر مسارات التاريخ وحشية إنما اختطتها موجة عارمة من معيار الذهب. كما أن أولئك الذين أقروا بأن النقود الورقية احتاجت إلى دور المنظم الذي يقوم به المعدن لضبط العرض منها لم يتفقوا دائما على ماهية ذلك المعدن. كانت الفضة أكثر شيوعا من الذهب بوصفها نقدا، وغطت العديد من الدول عملتها الورقية بكلا المعدنين.

وبينما كان الذهب الإسباني يضيف إلى عرض النقود في أوروبا الكثير، كان البنس الفضي لايزال قيد التداول في بريطانيا منذ ثمانمائة سنة. وعندما صدر الجنيه البريطاني كان وزنه يعادل باوندا من البنسات الفضية أو 240 بنسا. وتُدووِلت القطع النقدية الفضية المشابهة[12] - أو القطع النقدية البريطانية أيضا - في أوروبا.

كان هناك طلب على النقود الفضية، وقد غذت إسبانيا هذا الطلب، بمعروضها الوفير منه الآتي من مكامن الفضة في بوليفيا والمكسيك. وفي القرن السادس عشر ساعدت هذه القطع الفضية مثل ما يُعرف بالدولار الإسباني على تحريك عجلات التجارة الدولية (وبقيمة اسمية قدرها 8 دولارات، كان هذا الدولار يُعرّف بقطع الثمانية Pieces of Eight). وفي العام 1785[13] اعتمدت الولايات المتحدة الدولار عملة رسمية واتخذت العملة الإسبانية أساسا لها. وأقر الكونغرس معيارا للفضة[14] في قانون العام 1792 حيث حدد مقدار الفضة الذي ستعتمده دار السك في قطع الدولار ونصف الدولار وربع الدولار والديزم Disme - اللفظ القديم للدايم. وحدد القانون أيضا قيم القطع النقدية الذهبية أيضا مثل قطعة النسر (عشرة دولارات)، وحدد مقدار الذهب القانوني في كل قطعة نقدية. وبذلك صارت الولايات المتحدة التي اعتمدت تحديد قيمة العملة على أساس المعدنين تخضع للنظام ثنائي المعدن.

إن التحدي الماثل في النظام ثنائي المعدن واضح لا لبس فيه، ويتجسد في كيفية تحديد النسبة بين المعدنين. فإذا شهد سعر الفضة ارتفاعا حادا وتجاوز سعر الذهب، فإن القيمة المعدنية للقطعة النقدية الفضية ستتجاوز نظريا نظيرتها للقطعة النقدية الذهبية من فئة أعلى. وقد تصدت الخزانة لهذه المشكلة من خلال تثبيت قيم المعدنين. ففي الولايات المتحدة كان سعر سك الذهب - التكلفة التي ستتحملها دار السك عن ضرب العملة الذهبية - محددا بـ 19.3939 دولار للأوقية، وللفضة بـ 1.2929 دولار، أي بنسبة 15 إلى 1. لكن المشكلة في تثبيت النسبة أن الأحداث قد تخل بذلك.

إذ أدى انخفاض المعروض من الذهب في العالم واندلاع الحرب الأوروبية إلى زيادة الطلب على الذهب[15]. وفي العام 1797 سببت الأنباء الواردة عن رسو الأسطول الفرنسي الغازي في ويلز حالةً من نزف ودائع الذهب في بنك إنجلترا[16]. وكانت الأخبار عارية من الصحة، وقبل دحضها اندفع سكان لندن إلى استرداد قيمة أوراق البنكنوت المدعومة بالذهب وتحويلها إلى ذهب. وكانت نحو 100 ألف جنيه استرليني من الذهب تخرج من البنك المركزي كل يوم. وللحيلولة دون نزف الاحتياطي الوطني [من الذهب]، أقر البرلمان قانونا يعتبر الأوراقَ النقدية (البنكنوت) بمنزلة الدفع نقدا.

كان الفرنسيون يواجهون أيضا شحا في الذهب. وقد باعوا في العام 1803 لويزيانا[17] إلى الولايات المتحدة مقابل 15 مليون دولار - أي 4 سنتات للفدان الواحد، وكانت صفقة رابحة [للأمريكيين]، حيث أدت إلى مضاعفة مساحة الولايات المتحدة. وأدى الأمريكيون قيمة الأرض بسندات حكومية أمريكية. وباع الصيارفة الذين رتبوا الصفقة السندات نقدا[18]، وهكذا حصل نابليون على حاجته من الذهب ليواصل حروبه.

وبالطبع أدى الإقبال على الذهب إلى دفع سعره للارتفاع، متجاوزا سعر الصرف المحدد قانونا في الولايات المتحدة. كان سعر الذهب في إنجلترا أعلى منه في الولايات المتحدة. ونتيجة لذلك، تدفق الذهب خارج الولايات المتحدة إلى أوروبا، نحو السعر الأعلى. واستخدم التجار سعر الذهب الأعلى الذي حصلوا عليه في أوروبا لشراء الفضة، وجلبوها إلى الولايات المتحدة، واشتروا بثمنها مزيدا من الذهب الأقل سعرا عند سعر الصرف المحدد قانونا. وبحلول العام 1834 بلغ عرض الذهب في أمريكا مستويات متدنية جدا[19] بحيث كتب عالم اقتصاد فرنسي زائر الآتي: «منذ وصلتُ الولايات المتحدة، لم تقع عيناي على قطعة واحدة من النقود الذهبية، باستثناء ما رأيته على الموازين في دار السك. كان الذهب يشحن فور سكه إلى أوروبا ويعاد صَهره». وقد تحرك الكونغرس فرفع سعر الذهب الرسمي إلى أكثر من سعره في أوروبا. وأصبحت نسبة الذهب إلى الفضة 16 : 1. وبذلك صار التاجر قادرا على الكسب من شراء الذهب من أوروبا وبيعه في أمريكا. وهكذا انقلبت حركة الذهب.

ولم يحدد اتجاه حركة تدفق الذهب ثروات الدول فقط، وإنما مكانتها أيضا. إذ إن الدولة ذات العجز التجاري، على سبيل المثال، كانت ترى مخزونها من الذهب يتراجع لأنها دفعت سبائك الذهب إلى الدائنين الأجانب بعد أن طلبوا استرداد قيمة أوراقهم النقدية ذهبا. وكان انكماش مخزون الذهب لدى الدولة التي تعاني العجز يحدّ من الإنفاق المحلي من قبل الحكومة. وكان النشاط التجاري يتأثر سلبا بفعل تراجع عرض النقد.

ولم تحدث تلك المشكلات بسبب شح الذهب في العالم عامة. كان ثمة كثير من الذهب الذي سيكتشف قريبا، وبكميات لم تخطر على بال أحد. لقد ظهرت تلك المشكلات إلى الوجود بفعل سلسلة من الاكتشافات الباهرة - فيضان من الذهب

الجديد الذي غمر الأسواق وصار الأساس لعرض الذهب في العصر الحديث. وبدلا من كبح مفاعيل المالية الدولية، عمل الذهب على تنشيطها.

في 24 يناير 1848، استخرج جيمس مارشال James Marshall بطريقة الشطف بعضَ الرقائق اللامعة من الماء في ساتارز ميل Sutter's Mill[20]، بالفرع الجنوبي من النهر الأمريكي American River، على بعد 130 ميلا شمال شرق سان فرانسيسكو. ودوّن أحد العاملين لديه في مفكرته الآتي: «في هذا اليوم اكتشف نوع من المعادن في قناة الصرف(*) كأنه الذهب». وخلال بضعة أيام كان مارشال وطاقمه، وقد انخرطوا في المياه فبلغت رُكبهم، ينخلون أرض النهر. وقد حاولوا أن يبقوا الاكتشاف سرا، غير أن الأخبار انتشرت. وفي السنوات السبع اللاحقة، تقاطر 500 ألف رجل إلى سييرا Sierra من كل أنحاء العالم[21].

كانت تلك أولى فورات الذهب(**) في العصر الحديث. «كان البلد برمته من سان فرانسيسكو إلى لوس أنجلوس ومن الساحل إلى عمق سييرا نيفادا يهدر بصرخة بائسة: «ذهب، ذهب، ذهب!»[22]، وقد تردد رجعها في كاليفورنيا، سان فرانسيسكو. «وترك الحقل ولم تكتمل زراعته، والبيت ولم يكتمل بناؤه، وهجر مصنعو المجارف والفؤوس أعمالهم جميعها». وأقاموا السدود على الجداول وشطفوا تجمعات الحصى بالمياه، وحفروا التلال». وقد استخرج ثلاثة رجال - ولم يستخدموا إلا الملاعق[23] - ما قيمته 36 ألفا من الذهب الكامن في الشقوق الصخرية، ووفقا لإحدى الروايات. «وغرز صياد أرانب عصاه في الأرض، فأصاب الكوارتز الصخري، واستخرج ما قيمته 9,700 دولار من الذهب في ثلاثة أيام». لكن هؤلاء كانوا قلة محظوظة؛ ذلك أن فورة الذهب في كاليفورنيا لم تقم على استخدام الملاعق. كان ثمة أداة مختلفة ظهرت لاستغلال مناجم الذهب: إنها شركة المناجم.

وأُسست العشرات من الشركات[24]، واجتذبت رأس المال من مدن الساحل الشرقي وأوروبا. وعندما اكتشفت الفضة في نيفادا، اشتعلت الفورة المضاربية. وارتفع عدد الشركات من العشرات إلى الألوف. ودعم تدفق الاستثمارات تطوير تكنولوجيا جديدة[25]، ولكن ليس إلا لاحقا في خضم فورة الذهب، عندما استنفدت

---

(*) قناة المسرب السفلي Tail race. [المترجم].

(**) فورة الذهب Gold Rush أو حمى الذهب أو التهافت على الذهب. [المترجم].

جيوب المعدن سهلة المنال. كانت المعدات الأُوَل التي استُخدمت في التلال بدائية. ولم تكن المصوّلات تختلف من حيث التصميم عن تلك التي استخدمها الرومان. لقد شطفت المياه الأتربة الخفيفة لتكشف عن رقاقات المعدن المترسبة الأكثر وزنا. كانت مضخات السلاسل التي أحضرها عمال المناجم الصينيون إلى كاليفورنيا معروفة في آسيا منذ القدم: ذراع العتلة التي بدلت إلى حزام حمل الصواني الخشبية، وكانت الصواني تنضح الماء من المناطق المغمورة وتغذي المصوّلات.

وتصور الروايات فورة ذهب كاليفورنيا بلغة شاعرية[26]. وعلى حد تعبير أحد مؤرخي تلك الفترة: «ليس ثمة إلا القليل من الأحداث في تاريخ الولايات المتحدة التي كُسيت طابعا محببا أثيرا. فمنذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم، صور معظم المؤرخين تلك الفترة كملحمة بطولية ودرامية معا، وكخطوة عملاقة نحو تحقيق القدر المحتوم للأمة». وفي هذا التمثيل المثير، تتحسس ثلة من الرجال الرواد رائحة الثروة وتخط قصة تأسيس هذه الولايات «الذهبية». لكن الحقيقة أكثر قتامة. فقد جلب بعض الأمريكيين العبيد إلى المناجم[27]. ويقدر أحد الباحثين أن نصف عدد الرجال السود العاملين في كاليفورنيا في العام 1850 كانوا عبيدا. وكان عمال المناجم المكسيكيون يعيشون عبودية الدّين، حيث كانوا مقيدين بالدين تحت رحمة أسيادهم. وعمل العمال غير المهرة الصينيون بموجب عقود طويلة الأجل وفقا لنظام بطاقات الاستحقاق Credit-Ticket System الذي جعلهم تحت رحمة الوسطاء (السماسرة) الذين كانوا يدفعون أجور عبورهم وانتقالهم. وعلى رغم أن الأمريكيين لم يكونوا عبيدا، فإنهم كانوا يعملون من السادسة صباحا في المياه المتجمدة المتشكلة من ذوبان الثلوج في المناطق المرتفعة. كان يتعين على عامل المنجم أن ينظف 160 دلوا من الطين يوميا للحصول على أونصة واحدة من الذهب[28]. وكتب أحد عمال المناجم: «من الصعب أن تصف قذارة هذا العمل المتمثل في التنقيب عن الذهب. إننا نعيش جميعا كالوحوش، لا كالبشر». وكان المستثمرون أنفسهم يعانون جراء ذلك[29]، حيث كان المطلعون يتلاعبون بسوق الأسهم، ويتحايلون على حملة الأسهم، وقد انتزعوا المناجم من المالكين الضعفاء، واستنزفوا الشركات من الأموال وحولوها إلى جيوبهم.

لكن الذهب تسرب إلى العالم. وكان الذهب مصدر حركة العجلة الشيطانية للعبودية والاضطهاد والاحتيال. وعلى أساس نقود اليوم[30]، يقدر الذهب الذي تدفق من تلال كاليفورنيا بمليارات الدولارات. وزاد العرض بسرعة فائقة. وقد أجرى روبيرت وابلز Robert Whaples[31]، أستاذ الاقتصاد في جامعة ويك فوريست Wake Forest University عملية حسابية تبين من خلاها أن كاليفورنيا أنتجت بين العامين 1848 و1857 ما قدره 848 طنا من الذهب. وعند السعر الحكومي الأمريكي الرسمي البالغ 20.67 دولار للأوقية[32]، وصل إنتاج ذلك العقد من الزمان وحده إلى 561 مليون دولار أمريكي من الذهب - أي ما يعادل 2 في المائة تقريبا من الناتج المحلي الإجمالي للدولة. وأدت الاكتشافات الجديدة في أنحاء أخرى من العالم إلى زيادة الإنتاج أيضا[33]، وبحلول العام 1852، أي بعد أربع سنوات فقط من اكتشاف الذهب في ساترز ميل Sutter's Mill كانت مناجم الذهب في العالم تنتج 280 طنا سنويا - أي أربعين ضعفا من كمية الذهب المسجلة عند نهاية قرن السلب والنهب الإسباني و200 ضعف من كمية الذهب في الحقبة التي سبقته. كان سيل من الذهب يتدفق إلى سوق عطشى.

وكتب أحد المؤرخين: «باعتبارها مقرضا للعالم أجمع، حصلت لندن على طلائع هذا الذهب»[34]. وفي غضون أربع سنوات زاد بنك إنجلترا احتياطياته من الذهب من 12.8 مليون جنيه إسترليني إلى 20 مليون جنيه إسترليني. واشترى مصرف فرنسا كميات أكبر، فزاد احتياطياته من سبائك الذهب من 3.5 مليون جنيه إسترليني إلى 23.5 مليون جنيه إسترليني. كانت بريطانيا وحدها آنذاك تطبق معيار الذهب رسميا، حيث كانت الأوراق النقدية قابلة للتحويل إلى ذهب. لكن تدفق الكثير من الذهب إلى النظام المالي، ومكانة بريطانيا باعتبارها مركزا مصرفيا عالميا، أحدث شرخا في جدار نظام المعدن الثنائي المطبق في القارة الأوروبية. واشترت ألمانيا ذهبا بقيمة 50 مليونا في العام 1871[35] وأصدرت عملة جديدة مغطاة بالذهب. وقد علق السياسي الألماني لودفيج بامبيرجر Ludwig Bamberger بالقول: «لقد اخترنا الذهب، ليس لأن الذهب ذهب، ولكن لأن بريطانيا هي بريطانيا»[36].

وبدأت أحجار دومينو الفضة في التساقط[37]. ففي الولايات المتحدة أبطل قانون سك النقود للعام 1873 فعليا التعامل بالفضة باعتبارها نقدا - وكان هذا القانون

يسمى «جريمة في العام 1873»، على حد تعبير جماعة الضغط المؤيدة للفضة. كما ألغت الدول الإسكندنافية الدور النقدي للفضة في العام 1874، وتبعتها هولندا بعد عام واحد، واعتمدت فرنسا وإسبانيا معيار الذهب في العام 1876. بنظرة راجعة إلى أحداث التاريخ، يمكن أن يبدو الأمر كأنه ضرب من الحكمة النقدية الحتمية كان يستشري في الدول التجارية الكبرى، ويهيمن عليها. ويعتقد بعض الباحثين أن نظام المعدن الثنائي أفضل من معيار الذهب[38]، وخاصة لأن استخدام المعدنين وفّر استقرارا بفضل زيادة عرض النقود. وقد حقق معيار الذهب فترات من التجانس المالي، لكنه أحدث أيضا انقلابات مفاجئة في أحوال الدول.

وفي العام 1861 علقت الولايات المتحدة قابلية تحويل الدولار إلى ذهب حين كانت تكاليف الحرب الأهلية تلتهم مخزون الذهب الفدرالي[39]. وأصدر الاتحاد Union بدلا من الدولار القابل للتحويل عملة ورقية اشتهرت باسم الورقة الخضراء Greenback. ولكن في العام 1875، حينما كان معيار الذهب يوطد أركانه، أعادت الولايات المتحدة العمل بقابلية الدولار للتحويل، وضربت موعدا في العام 1879 لدخول ذلك حيز التطبيق. ومع ذلك، ومع اقتراب ذلك الموعد كان العجز التجاري مع أوروبا يعني أن أمريكا تواجه احتمالات تدفق الذهب سريعا إلى الخارج. وأنقذت الخزانة في اللحظة الأخيرة بسبب كارثة ألمت بأوروبا: إذ قضى صقيع أواخر الربيع على المحاصيل الزراعية في فرنسا وبريطانيا. وبذلك انقلبت موازين الأمور.

لقد أدى ارتفاع تكلفة القمح في أوروبا، ووفرة المحصول في أمريكا إلى تدفق الذهب من أوروبا إلى الولايات المتحدة لشراء الغذاء اللازم[40]. وبذلك بدأت فترة رواج في الصادرات الزراعية الأمريكية امتدت ثلاث سنوات، مما أدى إلى تعاظم احتياطي الذهب بشكل كبير. وواصل معيار الذهب أداء دوره في نشر البؤس والشقاء بلا هوادة. وكادت ردة الفعل اللاحقة على الصعيد المالي الدولي تدمر أمريكا.

في العام 1890 هزت أزمة مصرفية عصفت بالأرجنتين الثقة الأوروبية بالمشروعات عبر البحار[41]. وبدأ المستثمرون بيع الدين الأمريكي، فبادلوا دولاراتهم بالذهب. وبذلك تدفق الذهب في الاتجاه المعاكس، من خزائن الحكومة إلى السفن عبر المحيط إلى باريس ولندن وبرلين. وبحلول العام 1892

كان احتياطي الذهب الأمريكي قد انخفض إلى 114 مليون دولار، وقارب مستوى خطيرا جدا عند 100 مليون دولار، وهو المستوى الذي اعتبرته الخزانة حدا أدنى لاحتياطي الذهب. ومرة أخرى اتخذت الولايات المتحدة أكثر الإجراءات المتاحة صرامة: أوقفت الدفع بالذهب.

وأظهرت حالة الاضطراب التي أعقبت ذلك مدى تطرف ذلك الإجراء وعدم نجاعته[42]. وقد استنتج عامة الناس أن النظام المصرفي كان في حالة احتضار، وأدى ذلك إلى نزف الودائع من المصارف. واتسع العجز التجاري مع أوروبا إلى فجوة مخيفة قدرها 447 مليون دولار. وارتفع سعر الفائدة للإيداعات قصيرة الأجل في نيويورك إلى 74 في المائة، وانهارت سوق الأسهم. كما أفلست أربعة من خطوط السكك الحديد، ومعها 500 مصرف أيضا. وتعثرت آلاف مشروعات الأعمال. وفي خضم هذه العاصفة الكارثية كانت الولايات المتحدة تواجه خطر الزوال.

كان لدى الحكومة 40 مليون دولار هي كل ما بقي من احتياطي الذهب النقدي[43]، وكان مخزون الذهب يتراجع بمعدل مليوني دولار يوميا. وقد جزم مجتمع المال بأن الخزانة على وشك الإفلاس. وفي آخر يوم من يناير 1895، ربضت 9 ملايين دولار من سبائك الذهب - ما يعادل نصف الاحتياطي - على السفن الراسية في مرفأ نيويورك والمتوجهة إلى أوروبا. وفي آخر لحظة، وعند شفير الهاوية، أُنقذ البلد من الإفلاس على يد رجل كان الناس ينحُون باللائمة عليه لما وقع من أحداث، وكان هذا الرجل أعظم النبلاء قاطبة، الأمير الأمريكي ورجل المال جيه بيربون مورجان **J. Pierpont Morgan**.

كان الأمريكيون يعتبرون آل مورجان من أهل الثراء الدائم[44]. ذلك أنهم لم يشقوا طريقهم من درك الفقر، بل كانوا يزدادون ثراء، وكانت نقطة البداية وصول سفينة ماي فلور Mayflower في بليموث، حينما اشترى مايلز مورجان Miles Morgan مزرعة في سبرينجفيلد بماساتشوستس، وشرع على حد وصف مؤرخ العائلة «في تفريخ أجيال من آل مورجان مالكي الأراضي».

وانتقل والد مورجان، واسمه جونيوس Junius، إلى بوسطن في العام 1851 لتوسيع أعماله لتشمل الصيرفة التجارية. وسجل ابنه في المدرسة الثانوية الإنجليزية، ونصحه باتخاذ أصدقاء من بين الذين بدت عليهم «السيماء الصحيحة».

وكان مورجان شابا نشيطا ومتحمسا ومزاجيا. كانت تظهر على وجهه اندفاعات جلدية مفاجئة وكانت تعتريه نوبات من الحمى القرمزية. وقد أُرسل في العام 1852 إلى أزورس Azores للاستشفاء من مرض الروماتيزم الذي سبب تفاوتا في طول ساقيه.

كانت الصيرفة آنذاك مهنة متوارثة. لقد غذت العائلات المصرفية الإنجليزية الكبرى مثل بارينغ Baring وروتشيلد Rothschild نزعة تقديس الذات بحيث إن ولتر بيجهوت Walter Bagehot، الصحافي البريطاني وأحد كبار النقاد آنذاك، قدم الوصف الآتي في كتاباته: «إن مهنة الصيرفة متوارثة؛ وتنتقل السمعة الائتمانية للمصرف من الأب إلى الابن، هذه الثروة المتوارثة تجلب تحسينا متوارثا».

وقد نقل جونيوس مقر عمله إلى لندن في العام 1854. وارتاد مورجان المدرسة في ليك جينيفا Lake Geneva ومن ثم قصد جامعة جوتنجن. عاد بعد ذلك إلى أمريكا ليكون سمع والده وبصره في وول ستريت.

على الرغم من المرض الجلدي الذي نكد عليه حياته، ومعاناته أحيانا من الأمراض العصبية وأوجاع الرأس الناتجة عن مرض الشقيقة، فإن مورجان أصبح أعظم الصيارفة في أمريكا، وكان بطوله وبنيته الضخمة القوية وبلاغته وجرأته يجوب وول ستريت خلف سحابة كثيفة من دخان سيجار عظيم. وقد قيل إن يخته المسمى «كورسير 2» Corsair II بهيكله الأسود الانسيابي ومدخنته الصفراء كان أكبر المراكب الخاصة العائمة آنذاك. كما كان مورجان هاويا لجمع الأعمال البرونزية والخزفية والعاجية والساعات واللوحات والكتب النادرة والمخطوطات والآثار القديمة. كان يشتري نوادر الأثاث والسجاد والدروع. وقد أنفق في عقدين من الزمن نحو مليار دولار بتقديرات نقود اليوم منغمسا في شغفه بجمع التحف. وبفضل نشأته وتربيته الحضرية وثروته كان الرجل الأمريكي الوحيد الذي قبله الصيارفة الأوروبيون ندا لهم، ولذلك السبب كان سما زعافا في مجال السياسة في الولايات المتحدة.

ولم تكن الولايات المتحدة، وهي لاتزال تغلب عليها سمة البلد الزراعي، الدولة الدائنة أو المقرضة كما هو شأنها اليوم، وإنما كانت دولة مدينة. كان ناخبوها في المناطق الريفية يبغضون صيارفة المؤسسة الشرقية، إذ اعتبروهم سببا في عبودية أمريكا للذهب البريطاني. كانت آلية عمل معيار الذهب تلحق

الضرر بالمزارعين من خلال كبح جماح الأسعار، وقد عزوا هذا الأثر إلى الحيل الماكرة للأوروبيين الذين كان الممولون الأمريكيون يعينونهم على الشر. وهكذا كانت الأحوال السياسية في نهاية يناير 1895 حيث كانت 9 ملايين دولار رابضة في نيويورك بانتظار شحنها إلى أوروبا.

ومع تصاعد حدة الأزمة عقد مورجان اجتماعا مع أوغست بيلمونت الابن[45]، August Blemont, Jr. وكيل عائلة روتشيلد، في الخزانة المحلية في نيويورك. وقد خفف بعضا من هذا التوتر مجرد اجتماع هذين الاثنين من كبار الممولين. وبين ليلة وضحاها، استُردت تسعة الملايين سبيكة من السفن وأودعت من جديد في خزائن الحكومة. لكن الغوث كان مؤقتا. في واشنطن رفض مجلس الوزراء عرضا لإصدار سندات خاصة رتب له اثنان من البيوتات المصرفية، وبدأ الذهب يغادر الخزانة المحلية مجددا حيث استرد حملة الدولار المتقلبون المترددون أوراقهم النقدية بالذهب. وهكذا استقل مورجان قاطرته الحديد الخاصة، ويمم وجهه شطر واشنطن.

وعند وصوله توجه إلى البيت الأبيض، وقد أُبلغ بأن الرئيس، جروفر كليفلاند Grover Cleveland، لن يجتمع به. وكان جواب مورجان: «جئت للقاء الرئيس، وسأمكث إلى أن ألتقيه». ومكث في البيت الأبيض سحابة اليوم، وعاد إلى فندق أرلينجتون، ولعب السوليتير طوال الليل، وفي الصباح عاد أدراجه عبر ساحة لافاييت، واستُقبل في مكتب الرئيس. وجلس هناك صامتا فيما كان كليفلاند ووزراؤه يناقشون الحالة الطارئة. وفي نهاية المطاف حضر موظف ليبلغ وزير الخزانة جون جي كارليسل John G. Carlisle أن الحكومة لم يبق لديها إلا 9 ملايين دولار من النقد الذهبي، وكان هذا آخر ما لديها. وتدخل مورجان فأعلم الرئيس أنه على دراية بشأن كمبيالة قدرها 10 ملايين دولار على وشك أن تقدم لاستردادها ذهبا. وقال متبجحا: «إذا قدمتُ تلك الكمبيالة التي قدرها 10 ملايين دولار، فإنك لن تستطيع الوفاء بها. وسينتهي الأمر قبل الساعة الثالثة». وبدر عن كليفلاند الرد المنطقي الوحيد المتاح أمامه، إذ سأل مورجان عما يمكن عمله.

كان الحل الذي خرج به مورجان فريدا من نوعه - إصدار سند بقيمة 65 مليون دولار وبيعه لتجمع مصرفي أوروبي أسسه مورجان وآل روتشيلد. وعلى الفور

انضمت البيوتات المصرفية الأوروبية الكبرى إلى التجمع. وانضمت أيضا مصارف نيويورك. ومقابل علاوة على سعر الفائدة، وافق المكتتبون على دفع قيمة السند بالذهب. ليس هذا فقط، بل تعهدوا «بممارسة نفوذهم المالي... لحماية الخزانة الأمريكية من سحوبات الذهب»، إلى أن تُسترد قيمة السندات. كان ذلك عملا ذكيا. لقد أبقى مورجان أمريكا خاضعة لمعيار الذهب من خلال تعليق العمل به. ومن دون الحاجة إلى استرداد الدولارات التي بحوزة الأجانب بالذهب كان هناك متسع من الوقت أمام الخزانة الأمريكية لاستعادة عافيتها.

وبكل قسوته[46]، هيمن معيار الذهب على حقبة اتسمت بالتوسع الاقتصادي. وتجسدت فائدته للعالم الصناعي والتجاري في روح الثقة التي أفشاها في عملات الدول بعضها ببعض. لقد أوجد هذا النظام حلا لمشكلتين بارزتين[47].

أولا، أنه أزال حالة عدم التأكد بشأن تقلبات قيمة العملة. فمع تحديد قيمة العملة بالذهب، كان حملة العملة قادرين على ترشيد قراراتهم المستقبلية، بناء على معرفتهم بما ستكون عليه قيمة العملة في أي لحظة. إذ إن حامل السندات المصدرة بالدولار والتي تستحق السداد بعد عشرين عاما على سبيل المثال كان يعلم ما ستكون عليه قيمة السندات لأنها كانت مقومة بالذهب.

ثانيا، كان معيار الذهب يملي على المصارف المركزية ما يتعين عليها فعله بأدوات الرفع النقدي مثل سعر الفائدة. فإذا كان سعر الفائدة الذي يحدده المصرف المركزي متدنيا، سيتدفق النقد إلى الاقتصاد حيث يفيد المقترضون من التسهيلات الائتمانية الميسرة. وبالتالي تحفز الأموال الجديدة الاقتصاد الذي شهد انخفاضا في سعر الفائدة. لكن متى كان المحفز صائبا ومتى كان مفرطا أو مبالغا فيه؟

كان يمكن للمصرف المركزي، في ضوء معيار الذهب، أن يتبين أوقات ارتفاع الأسعار بشدة في اقتصاد خاضع لسياسات التحفيز، لأن ارتفاع الأسعار كان يوحي بأن الذهب أرخص ثمنا. وبملاحظة ذلك، كان حملة الدولار يشرعون بتحويله إلى ذهب، للإفادة من صفقة رابحة. وهكذا غادر الذهب الخزانة وتدفق النقد الورقي إليها. ولكن وفقا لمعيار الذهب، كان يجب أن تحقق العلاقة بين كمية الذهب وكمية الدولار نسبة محددة، وإلا فلن يكون ثمة ذهب كافٍ لدعم الدولار. ولوقف تدفق العملة الورقية وهجرة الذهب، عمل المصرف المركزي على رفع سعر الفائدة.

وبذلك، وعلى نحو مفاجئ، صار ممكنا تحقيق مكاسب من خلال إبدال الذهب بالدولار، واستثمار الدولار في الاقتصاد. وهكذا عاد الذهب إلى التدفق إلى الخزانة. وبعودة الأمور إلى نصابها في الخزانة، استطاع المصرف المركزي أن يخفف قبضته على سعر الفائدة، وهذا ما كان.

يحرك دعاة العودة إلى معيار الذهب الوصف الشاعري الأثير لهذا الواقع النقدي، وهم إما يتناسون أو يعتقدون أن على الغير تقبل المآسي الماثلة وراء كواليس هذا المشهد. أما أولئك الذين يخالفونهم الرأيّ فيعتبرون الذهب أداة سيئة لا تصلح لأغراض السياسة النقدية في يومنا الحالي، في وقت يتوافر لأرباب التخطيط الاقتصادي طيف واسع من البيانات، مثل مؤشر أسعار الاستهلاك، يمكن استخدامها في تقييم أداء العملة. وإزاء هذه الأدوات الأكثر تطورا لا يُعتبر الذهب مؤشرا يعوّل عليه.

وثمة أسباب أخرى تحمل الاقتصاديين على الاعتقاد أن زمن الذهب ولى إلى غير رجعة. ففي ضوء اقتصاد نامٍ، على سبيل المثال، يجب أن تغطي العملة المدعمة بالذهب عددا متناميا أيضا من المعاملات والصفقات، ولا يتحقق ذلك إلا بانخفاض الأسعار، أي بحدوث الانكماش(*)، وهذا يؤدي إلى خسارة الوظائف.

وقد كتب باري إيتشينجرين في هذا السياق[48]: «في ضوء معيار ذهب فعال، لا يؤدي [الاحتياطي الفدرالي](**) إلا دورا محدودا كملاذ إقراض أخير للنظام المصرفي والمالي. ستخفق إجراءات ضخ السيولة التي اعتمدها للحيلولة دون انهيار النظام المالي في خريف العام 2008، لأنها لن توفر مصدرا إضافيا للائتمان إلا إذا أمكن الحصول على المزيد من الذهب. وبالنظر إلى هشاشة المصارف والأسواق المالية، سيمثل ذلك طريقا محتوما نحو الكارثة. يُعتبر معيار الذهب، وفقا لمؤيديه، الضمانَ للاستقرار المالي، غير أنه خلاف ذلك في الواقع العملي».

أُعلِنت نهايةُ معيار الذهب مباشرة على أثير التلفاز في إحدى ليالي الأحد في واشنطن، وكانت التهمة الموجهة إليه: أنه السبب وراء شلل الحكومة التي عهد إليها

---

(*) الانكماش: عكس التضخم. [المترجم].

(**) المصرف المركزي للولايات المتحدة. [المترجم].

بتطبيقه، أي حكومة الولايات المتحدة. كانت الظروف التي أفضت إلى تقويض نظام الذهب مشابهة، على نحو ما، لتلك التي شهدها العقد الأخير من القرن التاسع عشر - ضعف أداء ميزان مدفوعات الولايات المتحدة، وتسرب كميات كبيرة من سبائك الذهب خارج الخزانة. ومع ذلك، وفي السنوات الفاصلة بين التاريخين تغيرت أحوال الولايات المتحدة بصورة لا تصدق. فقد باتت أقوى اقتصادات العالم. وبعد خمس سنوات من نهاية الحرب العالمية الثانية كان ثلثا احتياطي الذهب النقدي في العالم بحوزة الحكومة الأمريكية. كان لديها 20 ألف طن من سبائك الذهب في خزائنها العميقة[49]، مثل تلك الموجودة في فورت نوكس(*) Fort Knox في كينتاكي. فلماذا يحيّد الأمريكيون، وهم يمتلكون هذا الكم الهائل من الذهب، القوة المتجسدة بهذا المعدن؟

---

(*) فورت نوكس Fort Knox: الموقع الذي تحتفظ فيه الولايات المتحدة باحتياطياتها من الذهب. [المترجم].

4

# انقلاب كامب ديفيد

لقد وجهتُ سكرتير الخزانة(*) لاتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الدولار من المضاربين.

**ريتشارد نيكسون، في خطابه إلى الأمة، 15 أغسطس 1971**

**كما الحال مع قصص القتل ذات الحبكة المتقنة، يتعين علينا أن نعدّ المسرح لعرض آخر أيام الذهب في صلب الحياة النقدية. وسنستهل القصة حيث وقعت الكثير من جرائم القتل من الدرجة الأولى - إنها لندن، زمن الكساد العظيم. كان الذهب يتدفق خارج مصرف إنجلترا مع سحب الأجانب، غير المتفائلين بالأوضاع**

«وفر احتياطي الذهب الضخم لدى الولايات المتحدة – التي حافظت على مستوياته طوال فترة الحرب العالمية الثانية - عامل قوة فريدا بيدها لتشكيل عالم ما بعد الحرب»

(*) وزير المالية. [المترجم].

الاقتصادية المستقبلية لبريطانيا، أموالهم، والفرار[1]. كانت الأحوال في غاية السوء إلى درجة أن الملك جورج الخامس خفض مستحقاته بمبلغ 50 ألف جنيه إسترليني. ولدى تقليص الحكومة تعويضات الأسطول البحري نفذ البحارة في إحدى القواعد البحرية باسكتلندا إضرابا عن العمل. لقد حملت كلمة «تمرد» في طياتها، بالنسبة إلى المودعين الأجانب، رائحة ثورة مقبلة. وتسربت أربعون مليون جنيه إسترليني ذهبي من المصرف المركزي في غضون أسبوع. والتمس مصرف إنجلترا من الحكومة السماح له بوقف تحويل الأوراق النقدية (بنكنوت) إلى ذهب. وأقر البرلمان التشريعات اللازمة. وهكذا خرجت بريطانيا من معيار الذهب(*).

وفي غضون أيام، سارت سبع وأربعون دولة على خطاها. وبعد انقضاء عام لم يتبق إلا خمس دول تعتمد معيار الذهب: فرنسا وسويسرا وهولندا وبلجيكا والولايات المتحدة. ومع انتشار حالة الهلع بدأت موجة استرداد الذهب(**) تتفشى في النظام النقدي. وفي يوم واحد استرد مصرف بلجيكا المركزي 106 ملايين دولار ذهبا من الخزانة الأمريكية، وكذلك فعلت فرنسا فاستردت 50 مليون دولار. وبعد بضعة أسابيع عاد الفرنسيون للمطالبة باسترداد 70 مليون دولار أيضا. وحذر الرئيس هربرت هوفر Herbert Hoover من أن الذهب(***) «يندفع بلا انتظام من دولة إلى أخرى، سعيا إلى أفضل الملاذات الآمنة، مثل مدفع منصوب على منصة العالم، وقد انفلت من عقاله في حمأة العاصفة».

كان الرجل الذي سيوقف نزيف احتياطيات(****) أمريكا قد حقق فوزا ساحقا على هوفر Hoover في انتخابات نوفمبر 1932. وكما جرت العادة في تلك الأيام، لم يكن المنتصر فرانكلين روزفلت لينصّب رئيسا إلا في شهر مارس اللاحق للانتخابات الرئاسية. وفي ضوء الفراغ السياسي [الذي يتحول فيه الرئيس إلى بطة عرجاء(†)]، قد تقع أحداث كثيرة، وقد وقعت فعلا. كان المدفع الذي تحدث

(*) معيار الذهب Gold Standard: هو نظام نقدي ربطت فيه قيمة العملات الورقية مباشرة بالذهب، وقد اتفقت الدول الخاضعة لهذا النظام النقدي على جعل العملات الورقية قابلة للتحويل إلى كمية محددة من الذهب. ساد هذا النظام النقدي بين العامين 1870 و1914. [المترجم].

(**) يقصد باسترداد الذهب تحويل العملات الورقية المغطاة بالذهب إلى ذهب. [المترجم].

(***) ويشتمل على السبائك والعملات النقدية المضروبة من المعادن الثمينة كالذهب والفضة. [المترجم].

(****) احتياطيات الذهب. [المترجم].

(†) المقصود أن الرئيس لا يستطيع ممارسة صلاحياته الرئاسية في تلك الفترة، فيكون مثل البطة العرجاء. [المترجم].

عنه فرانكلين يواصل ضرباته الماحقة حول المنصة. ومع زلة لسان أحد المرشحين للانضمام إلى حكومة روزفلت، من أنه قد يكون من الحكمة التخلي عن معيار الذهب، تلقى الدولار ضربة أدت إلى استنزاف 320 مليون دولار ذهبا من الخزانة في أقل من شهرين. الأسوأ من ذلك أن بعض أولئك الذين سحبوا أموالهم وهربوا بعيدا كانوا أمريكيين. ولأنهم عدموا الثقة في روزفلت، الذي رفض الإفصاح عن خططه ونياته، فقد حولوا ما بحوزتهم من العملة الأمريكية إلى ذهب. لكن ذلك لن يفيدهم في شيء.

تسلم روزفلت منصبه في 4 مارس 1933، وفي 9 مارس دفع بإصدار قانون الطوارئ المصرفي الذي أعطى الرئيس صلاحية تنظيم ملكية الذهب(*). وفي 5 أبريل صدّق الأمر التنفيذي الرقم 6102 القاضي «بتحريم اكتناز النقد الذهبي، والسبائك الذهبية، وشهادات الذهب داخل الولايات المتحدة القاريّة(**)»[2]. وقد جرّم الأمر التنفيذي امتلاك الذهب سواء من قبل الأفراد أو الشركات التضامنية Partnerships أو الاتحادات أو شركات المساهمة. وأعفى القانون «الاستخدامات الاعتيادية» مثل حشوات الأسنان الذهبية والعملات النادرة في حيازة جامعي العملات. وما سوى ذلك، كان الذهب ملكا للحكومة، وكان يتعين على من يملك الذهب تسليمه [للسلطات] في موعد أقصاه 1 مايو، وذلك بعد خمسة وعشرين يوما من توقيع الأمر التنفيذي، مقابل السعر الحكومي الرسمي 20.67 دولار للأوقية.

وعلى الفور اعترض على هذا القانون محامٍ اسمه فريدريك باربر كامبيل Frederick Barber Campbell[3]، يبلغ عمره ستة وسبعين عاما. كان من نيويورك، وكان متخصصا في قضايا التأمين. وقد توجه إلى مصرف تشيس ناشيونال Chase National Bank وطلب الحصول على سبائكه الذهبية المودعة لدى المصرف، وكان عددها سبعا وعشرين سبيكة، وبلغت قيمتها 200 ألف دولار، وكان ذلك مبلغا كبيرا. ووفقا للأمر الرئاسي، رفض المصرف إعادة الذهب، وأقام

---

(*) انظر الحاشية الرقم 68. [المترجم].

(**) يشير مصطلح القارية إلى الأراضي الواقعة في قارة أمريكا الشمالية، وبذلك فهي لا تشتمل على جزر مثل هاواي أو الأراضي الأخرى التي تفصلها المحيطات عن البر الأمريكي. [المترجم].

كامبيل دعوى قضائية على المصرف. وطلب من المحكمة أن تحظر على المصرف تسليم الذهب إلى الحكومة الفدرالية. واحتج كامبيل بأن الأمر التنفيذي، والقانون الذي اعتمده الرئيس مصدرا لسلطته في هذا المجال، كانا مخالفين للدستور. وردت الحكومة باتهام كامبيل رسميا بتخلفه عن إبلاغ الخزانة بما يمتلكه من ذهب، ووجهت إليه أيضا تهمة رسمية باكتناز الذهب. ولو أنه أدين بهاتين التهمتين لكانت عقوبته الحبس مدة أقصاها عشرون سنة. ولم ينته أمره إلى السجن، لكن دعواه القانونية أخفقت في تحقيق غايتها. وتوفي كامبيل بعد ثلاث سنوات بأزمة قلبية، في نادي ميتروبوليتان، شرق الشارع 26، حيث كان يعيش. وحصلت الخزانة الأمريكية على الذهب.

ومع تحول الذهب الخاص(*) إلى الحكومة، امتلأت خزائنها. وبحلول العام 1930 باتت الولايات المتحدة تمتلك نحو سبعة آلاف طن من الذهب[4]. وفي العام 1935، بعد عامين من بدء عمليات المصادرة، وصل مخزون الذهب إلى نحو عشرة آلاف طن. لكن مصدر كل تلك الزيادة لم يكن الذهب الخاص. ذلك أن تنامي مخاوف الأوروبيين من اقتراب الحرب، دفع البعض إلى نقل ثروته عبر المحيط إلى الملاذ الآمن المتمثل في الولايات المتحدة. وأدى ذلك إلى زيادة تدفق سبائك الذهب إلى الخزانة الأمريكية. ومع اندلاع الحرب العالمية في العام 1939 أصبحت الولايات المتحدة، التي لم تتأثر صناعاتها إطلاقا، وكانت تفصلها سنتان عن الانضمام للحرب، مورّدا مهما للسلاح والسلع الأخرى إلى الأطراف المتحاربة. وهكذا ارتفعت واردات الذهب بشدة. وفي العام 1940 بلغ احتياطي الخزانة الأمريكية 21 ألف طن من الذهب، وهذا يمثل زيادة تفوق مائة في المائة في غضون خمس سنوات. كذلك لم تقتصر الزيادة على حجم الاحتياطي وحده. فقد زادت تكلفة أونصة الذهب من 20.67 دولار إلى 35 دولارا، بنسبة ارتفاع قدرها 70 في المائة تقريبا. وحدث ذلك بسرعة بالغة، ولسبب واحد هو أن الولايات المتحدة كانت تتلاعب بالسعر منذ سنوات.

وبعد أن أصدر روزفلت الأمر التنفيذي بمصادرة الذهب، مباشرة، حصل على صلاحية تقليل كمية الذهب المغطاة بالدولار بنسبة 60 في المائة[5]. وارتفع سعر

(*) هو الذهب الموجود بين أيدي الأفراد والفئات التي حظر عليها القانون امتلاك الذهب. [المترجم].

شراء أونصة الذهب بالدولار. وبذلك ستتراجع قيمة الدولار عن المستوى المعهود، لكن سيرتفع عرض الدولار، وهذا ما أراده روزفلت - أي ضخ المزيد من العملة في التداول لتحفيز الاقتصاد وانتشاله من حالة الكساد.

كان رفع سعر الذهب عملا سهلا: إذ عملت الخزانة على رفعه من تلقاء نفسها. وبيّن هنري مورجينثاو، الابن، Henry Morgenthau, Jr. وكان وزير الخزانة في عهد روزفلت، في مذكراته كيف تلاعب والرئيس بالسعر:

اعتاد فرانكلين روزفلت أن يتمدد مسترخيا على سريره الماهوغاني المزدوج الصغير(*) عتيق الطراز، ولم يكن سعر [الذهب] الحقيقي في يوم بعينه ليشكل أي فارق. كان هدفنا ببساطة أن نحافظ على هذا المنحى الصعودي تدريجيا. وفي أحد الأيام عندما كان يجدر بي أن أوافيه، والقلق يساورني على غير العادة بشأن أوضاع العالم، كنا نخطط لزيادة سعر الذهب من 19 إلى 22 سنتا. وحدجني روزفلت بنظرة، ثم اقترح أن تكون الزيادة إلى 21 سنتا. وقال الرئيس ضاحكا: «هذا من أرقام الحظ، لأنه ثلاثة أضعاف الرقم سبعة».

لقد وفّر احتياطي الذهب الضخم لدى الولايات المتحدة، التي حافظت على مستوياته طوال فترة الحرب، عامل قوة فريدا بيدها لتشكيل عالم ما بعد الحرب، وذلك بفضل إحدى مآثر الإدارة السياسية المحنكة التي تجلّت في جبال نيو إنجلاند New England بغرض إيجاد مكانة للدولار ستضمن للخزانة الأمريكية مصدرا رخيصا للنقد منذ ذلك التاريخ.

***

في يوليو 1944، بعد أسابيع فقط من يوم النصر(**)، اليوم الذي نزلت فيه جيوش الحلفاء الغازية في نورماندي في حملة ستنتهي بهزيمة ألمانيا، وصل ممثلو أربع وأربعين دولة إلى مقر الاجتماع الذي يبعد آلاف الأميال للتخطيط لكسب المعركة. وفي بلدة بريتون وودز Bretton Woods الواقعة في غابة نيو هامشاير، انطلقت سيارات سوداء صقيلة عبر الطريق المؤدي إلى فندق جبل واشنطن Washington Mountain Hotel

---

(*) سرير قياس 3 أرباع أو مزدوج صغير (48 بوصة × 75 بوصة) . [المترجم].

(**) يوم النصر D-Day: هو يوم إنزال الحلفاء في النورماندي بفرنسا، في أثناء الحرب العالمية الثانية (وهو يوم 6 يونيو 1944). [المترجم].

الفاخر. وفي غضون أيام كان 730 من أعضاء الوفود يعكفون على صياغة قواعد المالية الدولية. وأطلق أحد المشاركين الأمريكيين شعارا حماسيا: «نقاتل معا في ساحات الوغى المخضلة»[6]. كان اسمه فريد إم فينسون Fred M. Vinson، وسيتبوأ فيما بعد منصب كبير قضاة الولايات المتحدة. وأضاف: «نخوض معا البحر الأزرق المهيب. ونحلق معا في أثير السماء. إن الاختبار الحاسم لهذه الثقة يتمثل في مدى قدرتنا على السير معا، في الطريق نحو السلام، تماما كما أننا اليوم سائرون نحو النصر».

لا شك في أنهم سيسلكون الطريق نحو السلام، توجههم الولايات المتحدة في كل خطوة عبر هذا الطريق. يبدو أن أمريكا وبريطانيا كانتا تتقاسمان القوة المؤثرة في بريتون وودز؛ الولايات المتحدة لأنها كانت دولة غنية ومتفوقة عسكريا، وبريطانيا باعتبارها إمبراطورية مترامية الأطراف. لكن القوة البريطانية كانت قوة وهمية. وتُظهر إحدى وثائق اجتماعات بريتون وودز التي اكتشفت أخيرا أن الإمبراطورية «كانت تتفكك أمام أعيننا»، على حد تعبير أحد الخبراء الذين قرأوا تلك الوثيقة. لقد اتبعت بريطانيا، التي أنهكتها الحرب ورزحت تحت وطأة الديون، الطريق التي أرادتها الولايات المتحدة[7]. ومع أنها كانت تعارض الولايات المتحدة أحيانا، فقد كان هذا شأن كل الدول. وقد خاطب مورجينثاو أحد أعضاء فريقه قائلا: «إن الأفضلية لنا الآن. وأعتقد شخصيا أنه يتعين علينا انتزاعها عنوة»[8].

وقد انتزعوها حقا. ولم يكن هناك مجال للعودة إلى نظام معيار الذهب، لأن الولايات المتحدة كانت تمتلك 75 بالمائة من الذهب النقدي(*) في العالم. ووافق المشاركون في بريتون وودز على ربط عملاتهم بالدولار الأمريكي بدل الذهب؛ وأصبح الدولار قابلا للتحويل إلى ذهب. ونصّب هذا النظام الدولار عملة احتياطي(**) للعالم، وأسبغ عليه مزايا الأفضلية التي لايزال يتمتع بها. إن معظم أسعار السلع الأساسية Commodities مقومة بالدولار، ولا يضطر الأمريكيون الذين يشترون هذه السلع إلى تحمل تكاليف المعاملات التي يتعين على مواطني الدول الأخرى

---

(*) المقصود به الذهب الذي كان يُستخدم في تغطية إصدار النقد. [المترجم].

(**) عملة الاحتياطي Reserve currency: هي العملة الأبرز ضمن احتياطيات العملات الأجنبية لدى الدول. وتستخدم هذه العملة في المعاملات والاستثمارات الدولية وفي كل جوانب الاقتصاد العالمي. وتعتبر عملة الاحتياطي من عملات الملاذ الآمن، التي تلجأ إليها الدول وقت الأزمات الاقتصادية. [المترجم].

دفعها للحصول على الدولارات اللازمة لإتمام عملية الشراء. كما أن حاجة المجتمع الدولي إلى الدولار تعني أيضا أن لدى الخزانة الأمريكية سوقا جاهزة لديونها، وأن بإمكانها، بشكل عام، تقليص الفوائد التي تؤديها على تلك الديون.

لقد باتت الولايات المتحدة، بعد تعافيها من آثار الحرب، قرن الخصب(*) الذي يلبي حاجة العالم، خاصة إلى رأس المال. لقد أرادت الولايات المتحدة خلق أسواق منفتحة وتجارة حرة. وساعدت اثنتان من المؤسسات التي ولدت من رحم بريتون وودز، وهما صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، الولايات المتحدة في تحقيق هذه الغايات. وتدفق الدولار إلى الدول التي مزقتها الحرب، وبدأت اقتصاداتها تتعافى. وكما توقع الأمريكيون تماما، كان تدفق الأموال خارج الولايات المتحدة يقابل بتدفق الأموال إليها بمرور الوقت، حيث باتت الاقتصادات الوطنية بعد الإعمار تمتلك القدرة على شراء المنتجات الأمريكية.

ساد هذا الواقع ردحا من الزمن، حيث كانت اليابان وأوروبا «متعطشتين للدولارات اللازمة لشراء البضائع الأمريكية من سيارات وفولاذ وآلات»[9]. ولكن بدءا من العام 1950 هبطت حصة الولايات المتحدة من الناتج العالمي من 35 بالمائة إلى 27 بالمائة. وأدى الإنفاق الأمريكي أيضا، وخاصة إلى حرب فيتنام، إلى إغراق العالم بالدولار. وكان من المؤشرات إلى هذه النزعة السائدة ارتفاع ودائع الدولار المملوكة للأجانب في مصارف الولايات المتحدة ومشتريات الأجانب من دين الحكومة الأمريكية بأكثر من الضعف بين العامين 1950 و1960، أي من 8 إلى 20 مليار دولار، وقد سبق ذلك فرط الإنفاق الذي اقترن بحرب فيتنام. كان إنفاق مواطني الدول الأخرى دون معدلات ادخارهم. واشترى الأمريكيون السلع التي أنتجتها المصانع الجديدة في تلك الدول، وكانت هذه المصانع شُيدت على الأغلب برأسمال أمريكي. لكن تلك الدول لم تشتر من الولايات المتحدة بالمقدار نفسه. وتصاعدت فوائض الدولار لدى المصارف المركزية للدول الأجنبية[10]. وفي ضوء نظام معيار الذهب كان هذا سيعكس عملية توازن الحسابات(**). فالسبائك ستغادر الموانئ الأمريكية إلى وجهات أوروبية وآسيوية، وهذا ما حدث.

---

(*) أي مصدر الوفرة. [المترجم].

(**) يقصد بتوازن الحسابات عملية إقفال الحسابات في نهاية الفترة المحاسبية وذلك بإيجاد إجمالي الجانبين الدائن والمدين، ومن ثم تحديد الربح أو الخسارة لتلك الفترة. [المترجم].

يجثم في صلب نظام بريتون وودز ذلك الثعبان القديم: الذهب. وبينما تعتمد معظم المعاملات المالية على الدولار، فإن قابلية تحويله إلى ذهب كانت لاتزال تشكل غطاء للدولار. وفي السنوات الأولى التي أعقبت الحرب، ونظرا إلى حاجة الجميع إلى النقد، فقد كانت قابلية الدولار للتحويل إلى ذهب أمرا فنيا بحتا، ومن ثم تحول ذلك إلى ممارسة شائعة بسرعة بالغة. وفي غضون ثلاثة عشر عاما، أدت الآثار المشتركة لطفرة الثراء العالمي والحروب الخارجية والمؤسسة العسكرية الدولية وحالات العجز التجاري، إلى استنزاف نصف احتياطي الذهب لدى الخزانة الأمريكية[11]. إضافة إلى ذلك، تضاعف عدد الأجانب من حملة أوراق المديونية الصادرة عن الولايات المتحدة. ولو عمد الدائنون الأجانب جميعا إلى صرف دولاراتهم بالذهب في آن معا، لتلاشى مخزون الولايات المتحدة من الذهب جميعا. ولم يكن يحول دون إقدام الأجانب على صرف ما بحوزتهم من الأوراق النقدية الأمريكية إلا خشيتهم من إشعال شرارة نزيف الدولار وخسارة قيمة ما بحوزتهم منه. لكن العالم بدأ يستشعر الخطر. فعندما كانت ديون الولايات المتحدة 60 مليار دولار، وكان مخزونها من الذهب يقدر باثني عشر مليار دولار، ألمح أحد الاقتصاديين الفرنسيين إلى أن الطلب من الولايات المتحدة سداد ديونها ذهبا كان عديم المعنى، وذكر أن: «هذا أشبه بالطلب من الأصلع أن يمشط شعره. فهو لا شعر له أصلا».

وفي مطلع العام 1965 صرّح الرئيس الفرنسي تشارل ديجول، وكان ساخطا على أمريكا، في مؤتمر صحافي في قصر الإيليزيه بأن الدولار فقد الحق في أن يكون عملة العالم، وأن على المجتمع الدولي العودة إلى المعيار الوحيد الفعال. وقال بنبرة حادة: «الذهب!» إنه المعيار «الذي لا قومية له، وهو محل قبول عام على الدوام»[12].

وبعد عامين عبّر ديجول مجددا عن استيائه من الوضع القائم[13]، وأخرج فرنسا من نظام ما يعرف بتجمع (كارتل) الذهب اللندني London Gold Pool.

كانت غاية هذا الكارتل تثبيت الأسعار، وقد ضم في عضويته حكومات ثماني دول هي الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا وبلجيكا وهولندا. وقد حافظ الكارتل على سعر الذهب الرسمي عند المستوى المعتمد في اتفاقية بريتون وودز: 35 دولارا للأوقية. وللحيلولة دون قيام المضاربين برفع السعر، كان الكارتل مستعدا لطرح الذهب في السوق لتلبية الطلب، وكان دائما على

استعداد للبيع بسعر 35 دولارا. غير أن المضاربين، وقد راهنوا على استحالة ديمومة هذا الدعم، اكتنزوا الكثير من الذهب، وتوقعوا أن يتداعى هذا السعر (35 دولارا)، فيرتفع مع تراجع الثقة بالدولار. وبعد أن أخرج ديجول فرنسا وذهبها من الكارتل بعد مدة وجيزة، اضطرت الولايات المتحدة إلى تحويل مليار دولار من الذهب تقريبا إلى لندن للبيع بسعر 35 دولارا إلى المشترين الذين كانوا، على الرغم من ذلك، مستعدين لبذل ثمن أعلى، وهكذا تحطم السعر الرسمي. ورأى المضاربون في سعر قدره 35 دولارا صفقة رابحة. ومن هذا المنظور كان الذهب يباع بخصم، لكن البيع دون سعر السوق كان سيتوقف حتما.

وجاهد أعضاء الكارتل في مواجهة الأمر المحتوم. وفي 11 مارس 1968 بعد أيام من شحن كمية كبيرة من السبائك من الولايات المتحدة إلى بريطانيا، تعهد الكارتل بالمحافظة على السعر عند مستوى 35 دولارا[14]. وبعد ثلاثة أيام، في سوق بلغ فيه معدل حجم التداول خمسة أطنان في اليوم، تناهش المشترون في لندن مائة طن من الذهب. وفي غضون أسبوع انهار الكارتل[15]. وبعد مرور عام بلغ سعر الذهب في السوق المفتوحة 43 دولارا للأوقية، أي بعلاوة قدرها 20 في المائة على السعر الرسمي. كان لا بد من ردة فعل ما.

عندما تبوأ ريتشارد نيكسون منصبه في العام 1970، كان النقد يتدفق من الدولة لتمويل حرب فيتنام ومستوردات البضائع الأجنبية التي كان الأمريكيون يفضلونها على البضائع المحلية، مثل السيارات والأجهزة الإلكترونية اليابانية والألمانية. ومع ذلك ظلت المشكلة الأساسية الشاغلة لأذهان الناخب الأمريكي تتمثل في التضخم الذي كان يدفع الأسعار إلى الارتفاع. كانت تلك هي المشكلة التي وعد نيكسون بإيجاد حل لها. وفي الوقت نفسه كان يتعين على الإدارة الأمريكية أن تتصدى لمشكلة أخرى ولعلها أكثر فداحة: ما العمل بشأن تلال الأوراق النقدية الأمريكية المتراكمة في المصارف المركزية حول العالم، وكل منها يمثل صك مديونية على الذهب الأمريكي؟ إذا كانت الأسعار المتصاعدة التي أحدثها التضخم قد أقلقت معظم الأمريكيين، فإن ما كان يقلق أوساط الصيارفة هو نمو إيداعات الدولار خارج الولايات المتحدة. بالنسبة إلى الحكومات الأجنبية، كان ذلك موضوع الساعة الأكثر إلحاحا. كانت تلك الحكومات تدرك استحالة طلب صرف دولاراتها بالذهب

بأثر فوري، لأن الطلب على الذهب سيؤدي إلى إفراغ فورت نوكس. وأن احتمال الوقوع في مثل هذا المأزق الذي سيقوض سمعة الولايات المتحدة ربما سيدفع الولايات المتحدة إلى إلغاء «قابلية صرف الدولار ذهبا» (نافذة الذهب) والإحجام عن التحويل.

إضافة إلى ذلك، كان الدولار مستقرا في صلب النظام المالي العالمي. كما أن إزاحة الدولار ستخلق فوضى عارمة في كل أنحاء العالم. ولهذه الأسباب امتنعت الحكومات الأجنبية عن ذلك. وتصاعدت حدة التوتر. وبصورة حتمية، شعر كل من امتلك كميات كبيرة من الدولار بالقلق من حالة الدول الأخرى التي لديها كميات كبيرة من الدولار. ماذا لو خرق أحدهم الاتفاق الضمني الذي يحول دون الاندفاع في هذا الاتجاه؟ وماذا لو أبرمت دولة ما اتفاقا سريا مع واشنطن، وصرفت دولاراتها خلسة في حين احتفظ الآخرون بما يمتلكون من دولارات؟

كان حل المعضلة الأمريكية يبدو سهلا: أن تقدم الولايات المتحدة على فعل ما يخشاه حاملو الدولار الأجانب، أي إغلاق نافذة الذهب (إمكانية صرف الدولار ذهبا). وهذا يعني تعويم الدولار بحيث تتحدد قيمته مقابل العملات الأخرى وفقا لتقدير السوق. وقد أيد بعض مستشاري نيكسون هذا التوجه. لكن إغلاق نافذة الذهب وتعويم الدولار كان يثير جملة من المشاكل أيضا. فقد تهبط قيمة الدولار، وهذا يعني أن المنتجات المستوردة التي كان الأمريكيون يتوقون للحصول عليها ستغدو مكلفة جدا. وسيبدو الأمر كأن الإدارة الأمريكية لم تعد تلقي بالا لمحاربة التضخم. في مجمل القول، سيبدو نيكسون ناكثا بتعهداته.

وفي عموم البلاد، وبالنسبة إلى العالم، ستوجه أصابع اللوم إلى الرئيس. وفي الدوائر الرسمية في واشنطن كانت الأنظار تتركز، مع ذلك، على الخزانة. كان وزير الخزانة ضخم البنية متأنقا، وكان تعيينه مثارا للعجب: ديموقراطي في حكومة جمهورية. وهو نقيض نيكسون تماما - كان محاميا جريئا معسول اللسان ومقداما لا يهاب شيئا، متسامقا على الرئيس ذي البنية الجسدية المتواضعة. لقد شغل في السابق منصب وزير البحرية وحاكم تكساس. وتظهر صورته الرسمية لدى الخزانة رجلا في أوج سلطانه، جالسا خلف مكتب في غرفة صفراء يغمرها الضوء، رجلا مسيطرا، واثقا، ذا شعر فضي اللون، يرتدي بزة مقلمة، وقد استقرت إحدى

قبضتيه على وركه. كان هذا الرجل هو جون بي كونالي John B. Connally. وكان نيكسون مسحورا به.

لقد فاجأ نيكسون العديد من المراقبين عندما عين كونالي وزيرا للخزانة في ديسمبر 1970. إذ سبق لكونالي أن شارك في حكومة كيندي، وكان كيندي - بجاذبيته وكفاءته ومهاراته الاجتماعية - قد ألحق هزيمة نكراء بنيكسون المرتبك والمضطرب في الحوار المتلفز في العام 1960 على هامش الحملة الرئاسية. لقد كان لكونالي صلة جلية بحادثة كيندي الغامضة: كان بوصفه حاكم تكساس آنذاك، يستقل سيارة الليموزين الرئاسية المكشوفة عندما تعرض كيندي لإطلاق النار، وقد اخترقته الرصاصة نفسها التي قتلت كيندي.

كانت الرصاصة التي أصابت الرئيس قد اخترقت كونالي وأصابته في الظهر. وحفرت صورة كونالي والزوجين كيندي، مضرجين بدمائهم فيما هب العملاء السريون لحمايتهم، في ذاكرة العالم بأسره. ويعتقد كاتب سيرة كونالي أن حادثة الاغتيال عززت سمعة الرجل[16]. وذكر في أحد فصول هذه السيرة وهو بعنوان «الرجل الذي صنعته الرصاصة» أن كونالي كان بوفاة كيندي «يولد من جديد. فالرصاصة نفسها التي نفذت عبر جسم كيندي جعلت كونالي شهيدا إلى حد ما، ويعمل على الإفادة من هذا الدور إلى درجة أن صحيفة «بالتيمور سن» Baltimore Sun وصحفا أخرى، ذكرت بعد أربع سنوات من حادثة الاغتيال، بلغة تهكمية في افتتاحياتها أن «حامل الذراع السوداء الذي كان الحاكم كونالي مغرما بارتدائها صار باليا(*)».

كان كونالي الشريك المثالي لنيكسون. لقد أراد الرئيس حلا جريئا للأزمة؛ لكن كونالي لم يبالِ بماهية ذلك الحل. يقول هربرت شتاين Herbert Stein، الذي عرف كونالي وخبره في أثناء العمل[17]، والذي كتب وصفا للدراما التي وُقّعت فصولها في الدوائر المقربة جدا من نيكسون في ذلك الحين، إن كونالي «كان آسرا بديعا وساحرا ومتحدثا رائعا في التجمعات الصغيرة والكبيرة، وسياسيا من أخمص قدميه حتى رأسه». وهو لم يفرض على الخزانة سياساته الخاصة. كانت موهبته تتلخص في

(*) المقصود أن الذريعة التي كان يتخذها كونالي لتذكير الناس بإصابته في حادثة اغتيال كينيدي باتت قديمة. [المترجم].

عبقريته في تسويق السياسات التي يختارها الرئيس. كان يحبذ القول: «أستطيع اللعب بمواربة أو من دونها. كل ما عليك فعله أن تحدد لي طريقة اللعب»[18].

كان التضخم أبرز التحديات الماثلة أمام الإدارة الأمريكية. إذ كان ارتفاع الأسعار يقوض مستوى معيشة الأمريكيين. وكان من بين الحلول الجذرية وضع سقف للأسعار بقوة القانون، وربط زيادات الأجور بالقيود نفسها. وشعر مستشارو نيكسون الجمهوريون التقليديون بالخجل من هذا التدخل واسع النطاق في عجلة الاقتصاد الحر. ولم يكن كونالي كذلك، وقد ضمت وزارته تكنوقراطا(*) يؤيدون مثل هذه الضوابط. وكان من الطبيعي لرجل يتحلى بإصرار كونالي أن يسعى إلى جعل وزارته رأس الحربة في معالجة أبرز قضايا الساعة. وبرأي شتاين المطّلع على بواطن الأمور، فإن نيكسون، الذي كان ميالا إلى الاطلاع على عينات من آراء دوائره المقربة، شكل مع كونالي تحالفا ثنائيا لصياغة السياسات. كان أحدُ مساعدي نيكسون المقربين إتش آر «بوب» هالدمان H. R. «Bob» Haledman، كبير مستشاري البيت الأبيض، يعتقد أن نيكسون يهاب كونالي[19]. كان الاثنان يجتمعان وحدهما. وخلص شتاين إلى أن نيكسون عزل نفسه عن المستشارين الأكثر تحفظا، ولربما أراد من كونالي مساعدته على اتخاذ خطوة لم يكن ليتخذها هو نفسه، أو بالتشاور مع مستشاريه المعهودين. كانت الإجراءات التي بحثها كونالي ونيكسون ديناميتا سياسيا(**). وقد استخدما أزمة الذهب ليضغطا زر التفجير.

في ربيع العام 1971، وفي ضوء النمو المتواصل لودائع الدولار خارج الولايات المتحدة، وتزايد حدة التوتر في العواصم الأجنبية التي امتلكت مصارفها المركزية كميات من الدولار تفوق حاجتها، حزم كونالي ونيكسون أمرهما واتخذا قرارهما. إذا تقدم حملة الدولار الأجانب لصرف ما لديهم عبر نافذة الذهب، فسيغلق الأمريكيون تلك النافذة. ومنذ تلك اللحظة لن يكون الدولار قابلا للتحويل إلى ذهب. وفي الوقت نفسه، والأهم من منظور الناخب الأمريكي، ستفرض الحكومة ضوابط على الأجور والأسعار. وسيُربط بين السياسات المختلفة، وستُسوّق تلك

---

(*) التكنوقراط هم حكومة الكفاءات، المسؤولون المعينون على أساس خبرتهم وكفاءتهم، لا على أساس انتمائهم السياسي أو الحزبي. [المترجم].

(**) المقصود بالديناميت السياسي: كل ما من شأنه إحداث هزة عنيفة في الأوساط السياسية. [المترجم].

السياسات للشعب على أنها تدخل هيكلي لمصلحة الأمريكيين عامة، حماية لهم من وطأة ارتفاع الأسعار والممارسات الانتهازية للمضاربين الأجانب. وكان نيكسون يعتقد أنهما سيسوقان تلك السياسات بجسارة تفوّت على المعارضين أدنى فرصة لادّعاء عدم الإجراءات الكافية.

كانت السرية عاملا حاسما لنجاح الخطة ثنائية الخطوة[20]. ذلك أنه إذا تسرب الخبر، فسيندفع التجار والصناعيون إلى رفع الأسعار مقدما قبل صدور الضوابط الجديدة. وسيحتشد حملة الدولار الأجانب أمام نافذة الذهب. وبدلا من اتخاذ إجراء حاسم استباقي، ستتقوض الخطة إلى عمل دفاعي الهدف منه تحاشي انكفاء الاقتصاد المتعثر إلى الخلف. ولمنع تسرب الخبر أسرّ نيكسون إلى اثنين فقط من مستشاريه الموثوق بهما بالخطة التي وضعها مع كونالي. ولبضعة أشهر، لم يكن يعلم بخطة الولايات المتحدة لهدم النظام الذي قامت عليه المالية العالمية إلا أربعة أشخاص فقط من الدائرة الضيقة في البيت الأبيض. كان نيكسون بحاجة إلى ذريعة فقط.

ومع انقضاء صيف العام 1971 كانت أنظار الأمريكيين منصرفة إلى ارتفاع الأسعار، واتجهت أنظار بقية العالم إلى الدولار الأمريكي. وفي منتصف أغسطس، في أسبوع شهد عمليات بيع مكثفة للدولار أدت إلى دفع قيمة العملة نحو مزيد من التراجع، أوردت صحيفة «الجارديان» البريطانية أن «الهمس الدائر حول المستقبل الغامض للدولار قد تحوّل الآن إلى تنبؤات علنية بتخفيض قيمته Devaluation». ومضت المقالة تستعرض الحلول لمشكلة تراجع سعر الدولار والتي يحبذها حملة الكميات الهائلة من الدولار، خصوصا مصرف فرنسا المركزي: كان هذا الحل يتمثل في استردادها ذهبا. ثم أشار الكاتب إلى حقيقة تعرفها دوائر الصيرفة جميعها: «ليس ثمة ما يكفي من الذهب في فورت نوكس Fort Knox لتلبية جزء من إجمالي المطالبات المتوقعة لحملة الدولار الأجانب».

وبعد يومين[21]، كشفت صحيفة «نيويورك تايمز» في تقريرها عن «هجمات المضاربين» على الدولار في أوروبا، أنه وفقا للاحتياطي الفدرالي «تراجع مخزون الذهب النقدي للدولة بمائتي مليون دولار خلال الأسبوع إلى أدنى مستوى له منذ 31 ديسمبر 1935». وقد فاقمت الحقيقة المرة بوجود سعرين للذهب التوتر على

مستوى النظام المالي القائم أصلا (رغبة الحكومات الأجنبية القلقة بصرف أرصدة الدولارات المتراكمة لديها، وخشيتها في الوقت نفسه من إشعال فتيل رفض الصرف).

وفي منتصف العام 1971 كان السعر السائد في سوق الذهب المفتوحة أكثر بثلاثة دولارات من السعر الرسمي المحدد عند 35 دولارا للأوقية الذي اعتمد في اتفاقية بريتون وودز. وبذلك كان هناك سعران للذهب - واحد في سوق لندن الخاص، وآخر هو السعر «الرسمي» الذي يدفع من خلال نافذة الذهب في واشنطن. لقد خلقت حالة التفاوت فرصة لا تقاوم أمام من تيسرت له سبل الوصول إلى نافذة الذهب. إذ كان يستطيع شراء أوقية الذهب بـ 35 دولارا في واشنطن وبيعها في السوق الخاصة لقاء 38 دولارا، محققا بذلك ربحا فوريا قدره 8.5 في المائة. كان الفضل في تدني الطلب نسبيا على الصرف من خلال نافذة الذهب يعود إلى اتفاق غير رسمي بين الحكومات الأجنبية ذات الأرصدة الكبيرة من الدولار يقضي بعدم تقويض النظام القائم بمحاولة صرف تلك الأرصدة الهائلة من الدولار. وقد أدت هذه التهدئة إلى الحد من عمليات تحويل الدولار إلى ذهب، بيد أنها لم توقفها. واستمر نزف الذهب من الولايات المتحدة.

وعادت الأرباح الميسرة التي تحققت من هامش الفرق بين السعرين العام والخاص إلى الدخول عبر نافذة الذهب لتحويلها إلى الذهب الأقل سعرا.

وشعر كونالي ونيكسون بأن الوقت قد حان لتحرير البلد من أغلال الذهب. كانت الضغوط المتراكمة لا تُطاق، وأيقنت أسواق النقد الأجنبية أن لا مندوحة من تخفيض الخزانة الأمريكية قيمة الدولار. وذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» مستطردة في مقالها المذكور: «لم يكن عجز المدفوعات التي عانته الولايات المتحدة أخيرا هائلا فقط، لكنه حدث أيضا في ذروة تراكم الدولار الذي تعود بداياته إلى الخمسينيات من دون انقطاع تقريبا». كان جليا أن هذا الاختلال في التوازن لا بد من تصحيحه، وقد تبين العالم برمته أن هذا ما سيكون. بالنسبة إلى رجال الرئيس، كانت مدافع الإطلاق جاهزة، وكانوا يتحينون اللحظة المناسبة للضغط على الزناد. وأزفت اللحظة في الأسبوع الذي صادف فيه يوم 9 أغسطس. فقد حضر وفد من مصرف إنجلترا إلى الخزانة وطلب تحويل ثلاثة مليارات دولار إلى ذهب[22]. كان نيكسون قد استعد جيدا للتصرف حيال هذا الأمر. وفي يوم

الخميس 12 أغسطس قطع كونالي إجازته في تكساس وعاد مسرعا إلى واشنطن. وفي اليوم التالي نقل الرئيس ومستشاروه بالحوامة إلى كامب ديفيد لصياغة نص الإعلان الذي سيزيح الذهب من موقعه داخل النظام النقدي. لقد اقتربت نهاية النقد الذهبي، وباتت أيامه معدودات.

كان كل من انتقل جوا مسافة ستين ميلا شمالا إلى المعتزل الرئاسي الواقع على جبل كاتوكتين Catoctin Mountain في ماريلاند يعلم أنه سيشارك في صناعة التاريخ. وقد ضم المشاركون جورج شالتز George Shultz، وزير الخزانة اللاحق، والذي كان يتبوأ آنذاك إدارة مكتب الإدارة والموازنة، وبول فولكر Paul Volcker، وكيل وزارة كونالي للشؤون النقدية، ورئيس مجلس الاحتياطي الفدرالي لاحقا. وفي أول اجتماعات عطلة نهاية الأسبوع، أعاد نيكسون تذكير الجميع بأهمية المحافظة على السرية. كان محظورا عليهم إبلاغ زوجاتهم بمكان وجودهم. ثم تولى كونالي رئاسة الاجتماع[23].

وقد ألقت الحالة الدرامية لما خططوا له بظلالها على مجريات الاجتماع في أجواء من الإثارة البالغة. أما المواطن الأمريكي فكان يعتقد أن المواضيع الرئيسة المطروحة تتمثل في ضوابط الأجور والأسعار. وبالنسبة إلى بقية العالم سيكون لخطوة نيكسون المقبلة وقع الصدمة على الجميع. إذ إنها ستغير آلية إدارة شؤون العالم بأجمعه.

آنذاك، كانت الولايات المتحدة لاتزال، على الرغم من الضغوط المالية التي رزحت تحتها، القوة الاقتصادية العظمى في العالم. وكان الاتحاد الأوروبي لايزال مجرد اتحاد جمركي من ست دول. أما صعود الصين السريع كقوة اقتصادية فكان لايزال في المستقبل البعيد، في حين كان اقتصاد روسيا يلهث كمن أعوزه الأكسجين. وفي عالم ذلك الزمان، كانت الولايات المتحدة قادرة على التصرف كما يحلو لها في المجال النقدي. لم تكن مضطرة إلى استرضاء الحلفاء أو بناء التحالفات. لقد وقعت، كما الدول الأخرى، ضحية لتكاليف الحرب وارتفاع سعر النفط وعواقب تفضيل منتجات الدول الأخرى على منتجاتها. لكن اقتصادها تجاوز الاقتصادات الأخرى حجما، وكان رئيسها يُعرف دائما، على المستوى المحلي، برجل العالم الأكثر سطوة. وبالنسبة إلى أولئك الذين التفوا حول الرئيس في عطلة نهاية الأسبوع بكامب ديفيد، فقد طبعت تلك السطوة، في لحظة ستتمخض عن عواقب عظمى، تلك الأيام ببهجة

كانت تبدو، وفقا لما أرخه شتاين، وثيقة الصلة بإحساس المشاركين بالتشريف(*) بقدر ما كانت وثيقة الصلة بالوقائع الخطيرة الوشيكة.

احتل ذلك المعتزَل (كامب ديفيد) مكانة أسطورية في الشؤون الأمريكية منذ أن بدأ الرئيس فرانكلين روزفلت باستخدامه في العام 1942[24]، وأطلق عليه اسم شانجريلا، وجعل تصميمه محاكيا لتصميم المنزل الشتوي لعائلة روزفلت في ورم سبرينجز Warm Springs بجورجيا. وفي العام 1953 غيّر الرئيس دوايت إيزنهاور اسم ذلك المعتزل إلى كامب ديفيد، فأطلق عليه اسم حفيده. وهو يتكون من مجموعة من الأكواخ الريفية حيث جعلت الأشجار مجاورة لغابة من أشجار السنديان والحور والدردار والخرنوب والجوزية (القارية) والقيقب. وثمة سياج مخفور (بحماية أمنية مشددة) يحول دون دخول المتطفلين إلى هذا الحرم الذي تبلغ مساحته 125 فدانا. وتحت إدارة المكتب العسكري التابع للبيت الأبيض وطاقم موظفين من البحرية الأمريكية، أضفى المعتزل على الضيوف إحساسا بالتشريف والسلطة. وعلى الرغم من أن مقومات المبيت وسبل الراحة كانت بسيطة، ولم ترقَ إلى مستوى الرفاهية، فقد «وُفرت كل وسائل الراحة بما يلبي متطلبات المشاركين»، وفق ما تذكره شتاين، ومن ذلك «كل أنواع الطعام والشراب، والألعاب الرياضية مثل التنس والسباحة ورماية الأطباق Skeet Shooting وركوب الدراجات والفروسية». كان طاقم البحرية المشرف على كامب ديفيد «مضيافا وودودا إلى أبعد الحدود، وكان يعامل كل ضيف كأنه قائد البحرية بكل ما حملته الكلمة من معنى».

وانكبّ رجال الرئيس، وقد أُحيطوا بالرعاية والاهتمام والحراسة الأمنية وقطعت عنهم خطوط الاتصالات من الأسفل(**)، على إنجاز المهمة التي بين أيديهم، أي صياغة نص إعلان مفاجأة العيار الثقيل، والتي سيفجرها نيكسون على التلفاز في بث مباشر.

وجرت صياغة الأخبار كما أرادت الإدارة الأمريكية. إذ مع نقل رجال الرئيس بالحوامة خارج العاصمة إلى معتزلهم، كانت صحيفة «نيويورك تايمز» تحذر

(*) يقصد الكتاب إحساس المشاركين في ذلك الاجتماع بأن حضورهم كان تشريفا لهم، وامتيازا يغبطون عليه. [المترجم].

(**) المقصود الاتصالات الواردة من مستويات إدارية دنيا (أي من المرؤوسين). [المترجم].

قراءها من أن ثمة ترتيبات مالية دولية تترى في وتيرة متسارعة. وقالت الصحيفة، وقد وصفت الوضع بأنه «حالة هستيرية»[25]، إن «ثمة ثلاث عملات رئيسة هي المارك الألماني والدولار الكندي والجيلدر الهولندي [باتت] جميعها «معومة» من دون اعتبار لقيمها الاسمية الثابتة، ملمحة بوضوح إلى أن نظام أسعار الصرف الثابتة الذي اعتمده العالم غير الشيوعي منذ الحرب العالمية الثانية قد شارف على النهاية».

وتسربت الأنباء حول انعقاد اجتماع عالي المستوى في كامب ديفيد، وصبّت الزيت على نار المضاربة المشتعلة في العواصم الأجنبية. وأوردت صحيفة «الأوبزرفر» البريطانية أن نيكسون كان في خلوة مع مستشاريه للعمل على إيجاد حلول لأزمة «تتفاقم يوما بعد يوم»، وأن ذلك أحدث «موجة من التضخم التصاعدي للأجور والأسعار باتت تؤثر في حياة كل الأسر الأمريكية». وفيما يخص القارئ البريطاني، وكان لدى بريطانيا أرصدة هائلة من الدولار، وكان ممثلها في واشنطن حينذاك يحاول صرف تلك الدولارات ذهبا، أضافت الصحيفة تصريحا صادرا عن الخزانة الأمريكية، يقول: «إننا ملتزمون بالحفاظ على سلامة الدولار، ولن نخفض قيمته أو نعدل سعر الذهب. إن موقفنا من ذلك لا يتزعزع».

كان هذا صحيحا تماما. إنهم لم يكونوا يسعون إلى تخفيض قيمة الدولار أو تعديل سعر الذهب، بل كانوا عازمين على فك الارتباط بينهما.

وعمت البهجة معظم العقول المدبرة لكامب ديفيد مع نهاية الأسبوع، لكن القلق كان يساور نيكسون حيال التوقيت. كان قلقا، وهو على وشك تفكيك النظام المالي العالمي، من أن يقطع على المشاهد الأمريكي مسلسل الويسترن(*) التلفزيوني الأكثر رواجا «بونانزا» Bonanza[26]. إذ اعتاد ملايين الأمريكيين على التسمر أمام شاشاتهم في ليالي الآحاد، وقد أدمنوا متابعة قصة عائلة كارترايت Cartwright الخيالية، التي دارت أحداث فصولها في مزرعة بونديروسا. ولم يكن نيكسون أول رئيس يحترم تعلق مشاهدي مسلسل «بونانزا». فقد حرص الرئيس ليندون جونسون Lyndon Johnson على عدم السماح لشؤون الدولة أن تقطع على

---

(*) الويسترن Western: ضرب من المسلسلات والأفلام الأمريكية التي تتناول حياة الغرب الأمريكي. [المترجم].

المشاهد مجريات مسلسل «بونانزا»[27]. لكن مستشاري نيكسون أقنعوه بضرورة إلقاء كلمته قبل أن تعود الأسواق إلى العمل صباح يوم الإثنين.

وزار بوب هالدمان Bob Haldeman الرئيس في مقصورته الخاصة بكامب ديفيد ليلة السبت، قبل يوم واحد من كلمته التاريخية. لقد دوّن هالدمان في مفكرته: «كان الرئيس في مكتبه وقد أطفئت الأنوار، وكانت النار تضطرم في ركن المدفأة، مع أن الليلة كانت حارة في الخارج. كان الرئيس في غمرة إحدى حالاته التأملية»[28]. وأخبر نيكسون هالدمان: «يتعين علينا أن نرفع معنويات الأمة؛ هذا ما يجب أن يركز عليه أسلوب الخطابة في تلك الكلمة... علينا أن نغير المعنويات، ومن ثم ستبدأ عجلة الاقتصاد بالدوران بسرعة خاطفة».

وعمل مستشارو الرئيس السياسيون والفنيون يوم الأحد على استكمال صياغة الإعلان، ولا بد أن الأنباء قوّت عزيمتهم. وفي خبر من بروكسل يحمل تاريخ ذلك اليوم، وصفت «التايمز» Times مشهدا كانت فيه السوق الأوروبية تلفظ السندات المصدرة بالدولار. ووصف أحد تجار السوق التداول بأنه أقرب إلى السوق الشعبي (البازار) منه إلى سوق النقد[29]. كان سعر السندات المصدرة بالدولار يتهاوى بوقع يصعب على الحواسيب متابعته. كان عدد تجار السوق المستعدين لتداول الأدوات المسعرة بالدولار قد تقلص إلى قلة تعدّ على الأصابع. وعاد الفريق الرئاسي إلى العاصمة، وكان مستعدا ومبتهجا لتلك اللحظة التاريخية. وفي تلك الليلة، على التلفاز، أذاع الرئيس الإعلان الذي تردد صداه عبر عالم غلبت عليه الصدمة، والتي عرفت منذ تلك اللحظة بـ «صدمة نيكسون» Nixon Shock.

في السنوات السبع الأخيرة وقعت أزمة نقدية كل عام تقريبا[30]. ولكن من المستفيد من هذه الأزمات؟ بالطبع ليس العامل ولا المستثمر، ولا المنتجون الحقيقيون للثروة. إن المستفيدين هم المضاربون على العملات في مختلف أنحاء العالم. ولأن رواج أعمالهم رهن بالأزمات، فإنهم يساعدون على خلق تلك الأزمات.

في الأسابيع الأخيرة، كان المضاربون يشنون حربا شعواء على الدولار الأمريكي. إن أساس قوة عملة أي دولة هو قوة اقتصاد تلك الدولة، وإن الاقتصاد الأمريكي

هو الأقوى في العالم بلا منازع. وبناء عليه، فقد وجهت سكرتير الخزانة إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الدولار من المضاربين.

لقد طلبت من الوزير كونالي أن يعلق مؤقتا صرف الدولار بالذهب أو أي أصول احتياطية Reserve Assets، باستثناء ما يكون بالكميات ووفقا للشروط التي تصب في مصلحة الاستقرار النقدي وتخدم مصالح الولايات المتحدة.

كانت سوق طوكيو أولى الأسواق العاملة التي تهيأت لها فرصة إبداء ردة الفعل على ذلك الإعلان[31]، حيث بدأت السوق تداولاتها مع انتقال كلمات الرئيس عبر المحيط الهادئ وانطلاق دويها على منصة التداول. وفي ساعة واحدة تخلصت المصارف التجارية اليابانية من 300 مليون دولار أمريكي نقدا. وفي الوقت نفسه بدأ المستثمرون الأجانب بطرح أسهم الشركات المصدّرة للأسواق الأمريكية، ذلك أن نيكسون فعل أكثر من مجرد قطع الحبل الواصل بين الدولار والذهب. لقد أعلن حزمة من الإجراءات التي اشتملت على فرض ضرائب استيراد على المصنعين الأجانب. ولم يكد الذعر يدب وينتشر حول العالم، حتى راح البيت الأبيض يترقب ردة فعل الشعب الأمريكي[32]. لم يكن ثمة ما يدفعهم إلى القلق. بل على العكس، كان الشعب مبتهجا.

ولم لا؟ فالأسعار ستكف عن الارتفاع. وقد جمّلت الضرائب على الواردات في صورة إلغاء الضريبة الفدرالية على شراء السيارات الأمريكية. أي أن المال كان يتحول مباشرة إلى جيب الناخب الأمريكي، وبما يخدم أيضا مصلحة البلد! لقد كان كل ما ورد في الإعلان تلك الليلة يحمل الصبغة الوطنية. في أول الأمر كان نيكسون قلقا من أن إغلاق نافذة الذهب سيعتبر بمنزلة إشارة إلى الأمريكيين بأن حكومتهم مفلسة، لذلك أضفى على الإجراء سيما الدفاع عن العملة الوطنية في مواجهة المضاربين الأجانب. وعندما أطفئت أنوار البث التلفزيوني في المكتب البيضاوي عند ختام كلمة الرئيس، تحول الدولار الأمريكي من حق سحب Drawing right محله الذهب إلى ورقة نقدية ستكون قيمتها منذ ذلك الحين فصاعدا مسألة تقدير. لكن ماذا حل بالذهب؟

لقد استحال الذهب شيئا آخر. إذ تبدلت هيئته في العقل البشري. فهو لم يعد عملة صعبة، ولا شيئا يمت بصلة إليها، بل أصبح نقدا وهميا في مخيلة الإنسان،

نقدا رديفا خفيا Shadow Money. لكن مصدر التخيّلات كان عاطفتنا. بعد أربعة عقود مرت على صدمة نيكسون طرح رون باول Ron Paul، أحد كبار المستثمرين في الذهب، من تكساس، سؤالا على بين بيرنانكي Ben Bernanke، رئيس الاحتياطي الفدرالي (البنك المركزي للولايات المتحدة)، وهو الآتي: «عندما تستيقظ في الصباح، هل تلقي بالا لسعر الذهب؟».

وكان جواب بيرنانكي: «نعم ألقي بالا لسعر الذهب[33]. أعتقد أنه يعكس الكثير من الأمور. إنه يعكس حالة عدم التأكد على الصعيد العالمي. وأرى أن السبب الذي يحدو بالناس إلى حيازة الذهب هو التماس الحماية مما نطلق عليه «مخاطرة الاحتمالات المتطرفة»(*) - أي التداعيات أو العواقب السيئة حقا، حقا».

لقد اكتُشف أحد أكبر مناجم الذهب في العالم، وهو كارلين تريند Carlin Trend، في نيفادا، عندما كان سعر الذهب لايزال عند مستوى 35 دولارا للأوقية، ثم أُعيد اكتشاف ذلك المنجم عندما حُرر السعر. وتعكس قصة تلك الاكتشافات في الجبال الوطيئة شمال نيفادا النقلة من نظام الذهب القديم إلى النظام الجديد. لقد أنشأ أحد أساطين الثراء في كارلين تريند كبرى شركات التنقيب عن الذهب في العالم. ومع ذلك لم يكن مبتدأ القصة معه. ذلك أن بدايتها تعود إلى عصر آخر عندما كان الزمن يتهادى بوقع أكثر جلالا وأبهة. وقد تكشفت أحداثها بين أدغال الصنوبر والتلال الخاوية دافعها نبل المقصد، والرغبة في تجلية الحقائق العلمية، لا مجرد السعي وراء العائد المادي. وهذا ما تمخض عن اكتشاف بحر من الذهب.

(*) مخاطرة الذيل أو مخاطر الاحتمالات المتطرفة Tail Risk: هي مخاطرة وقوع حدث احتمال وقوعه ضئيل. ويعبر الذيل أو الجزء المتطرف عن إحدى نهايتي منحنى التوزيع الطبيعي، اليمنى أو اليسرى، وعندهما تقل احتمالات وقوع الحدث المدروس. [المترجم].

# 5

# اكتشاف الذهب الخفي

وبينما كنت أعمل في الحقل(*)[1] كنت أفضل ارتقاء المرتفعات دائما، لأنه حينئذ يمكنني أن أجد متنفسا وأجول بنظري بعيدا عبر الوادي.

**رالف روبرتس، «شغف بالذهب»(**)**

«ثمة بحر من الذهب الجديد بانتظار من يكشف اللثام عنه، ومع ذلك لم تحدث فورة الذهب»

**عثر رالف روبرتس Ralph Roberts على جحر الأرنب - تلك المتاهة الواسعة المؤدية إلى بلاد العجائب(***). يربض أكبر حقول الذهب في أمريكا متواريا عن العيان تحت طبقة ثخينة من الصخر. وقد وجد رالف موضعا استطاع**

---

(*) المقصود حقل الذهب. [المترجم].

(**) في الأصل A Passion for Gold - وهو من أعمال المؤلف رالف روبرتس Ralph Roberts. [المترجم].

(***) يلمح الكتاب إلى رواية «أليس في بلاد العجائب» للويس كارول، حيث يفضي جحر الأرنب إلى متاهة تؤدي إلى بلاد العجائب. [المترجم].

عنده أن ينفذ ببصره إلى الأعماق عبر فجوة في تلك الطبقة. وفي الوقت الذي أنجز فيه اكتشافه، كان قد أحاط بصورة وافية عن الجبال. إذ جاب سلاسل جبال تاسكارورا وشوشوني، وسانوما ودايموند وأنتلر، على مدار سنوات عديدة. وأوقدت تلك الجبال حماسته. بالنسبة إلى الجيولوجي(*)، تعتبر تضاريس المحيط الطبيعي مثل أجزاء مبعثرة من الكلام، لا بد من إعرابها وفق موقعها من الجملة المكونة للحقبة الجيولوجية. إذ إنها تظل مجرد ركام من الصخور والرمال إلى أن توضع ضمن إطار نظرية شاملة تفسر سبب وجودها في ذلك المكان.

ويجد القارئ في وصف روبرتس لحياته قدرا كبيرا من متعة البحث وطلب المعرفة، وكذلك متعة الشعور بالحرية. «في تلك الرحلات إلى الجبال، لم يكن بصحبتي إلا عصافير الدوري وقبرات المروج والنُّهس(**) التي راحت - في الحقيقة - ترفرف من حولي لدى اقترابي من أعشاشها»[2]. لقد شاهد الأيائل الأذانية(***) والظباء والنسور الذهبية. يقول: «كنت أحذّر حيوانات المرموط من اقترابي بإطلاق تصفيرات حادة، كانت فئران الحقل تقفز هاربة من تحت قدمي. بالكاد رأيت إنسانا، إلا في المزارع عند سفوح التلال، وكان هذا أمرا حسنا؛ ذلك أنني لم أشأ أن يرافقني أحد في رحلتي لاستكناه أسرار الصخور».

إن المسير على الأقدام إلى التلال التي اكتشفها روبرتس يعني الولوج إلى حيز مترامي الأطراف كالبحر، يتكون من المنحدرات ذات اللونين الخبازي(****) والصلصالي الأصفر(†). تتناثر في تلك البقعة من الأرض نباتات الصحراء الغربية الصغيرة الشوكية. وفي التلال شبه الجرداء، يتكشف تاريخ كوكب الأرض للعين الفاحصة.

كان روبرتس البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما مرشحا للدكتوراه في جامعة ييل Yale University عندما انضم إلى فريق الاستكشاف التابع لهيئة المسح الجيولوجي للولايات المتحدة في شمال وسط نيفادا في العام 1939. وفي وينيموكا Winnemucca

(*) الجيولوجي Geologist: الخبير أو الاختصاصي بعلم طبقات الأرض (عالم طبقات الأرض). [المترجم].
(**) نوع من الطيور غليظ المنقار - بالإنجليزية Shrike أو Butcherbird. [المترجم].
(***) الأيائل الأذانية Mule deer: هي الأيائل طويلة الأذنين. [المترجم].
(****) هو اللون البنفسجي الزاهي أو الأرجواني المزرق. [المترجم].
(†) ويعرف أيضا بلون المغرة. [المترجم].

خرج من الحافلة إلى لهيب شهر يوليو، وانكب أياما يتأمل في لغز وقائع نصف مليار عام خلت. كانت مهمة البعثة تحليل جيولوجيا سلسلة جبال سونوما[3]. وفي أثناء انخراطه في أعمال الاسكتشاف، أصاب روبرتس حظا موفقا. كان ثمة منجم ذهب نشيط في قلب نهر ويلو كريك Willow Creek، حيث منطقة عمله[4]. هذا المنجم سيوفر له الفرصة لمعاينة البنية الجيولوجية التي كان يحاول إماطة اللثام عنها.

بدأت أعمال التنقيب في نيفادا منذ عهد بعيد[5]. فقبل 13 ألف عام كان هنود حضارة كلوفيس Clovis ينقبون بحثا عن طبقات (جيوب) السَّبَج (الأبسيدان)(*) والأوبال الأرجواني والعقيق الأبيض (الخلقيدوني) والعقيق واليشب والمرو (الكوارتز). لقد صنعوا رؤوس الرماح والأسهم وأدوات سلخ جلود الحيوانات. وما بين نحو العامين 300 بعد الميلاد و1200 بعد الميلاد نقب شعب الأناسازي Anasazi بحثا عن الفيروز قرب مدينة بولدر سيتي Boulder City الحالية. ولعل المستكشفين الإسبان عبروا الحد الجنوبي للولاية في العام 1776 بحثا عن الذهب والفضة والفيروز. ويرجح أن سكان أمريكا الأصليين علموا بوجود الذهب في سلسلة جبال سييرا The Sierra. وهناك روايات تحدثت عن قيامهم بإطلاع البيض على أماكن البحث والتنقيب.

ووقعت أولى عمليات الاستكشاف المسجلة في العام 1849 حين خيَّمت مجموعة من المورمون، وكانت في طريقها إلى كاليفورنيا للمشاركة في حمى الذهب(**)، عند نهر كارسون Carson River بانتظار ذوبان الثلوج في الممرات الجبلية. وباستخدام الأوعية قاموا بشطف الأتربة والحصى عند قيعان الجداول بحثا عن الذهب، وعثروا عليه. وواصلوا طريقهم غربا في الربيع، لكن وادي(***) الذهب Gold Canyon، وهو الاسم الذي صار الموقع يشتهر به، استقطب المزيد من المنقبين. وحتى العام 1857 اندفعت موجات متتالية من الباحثين عن الذهب إلى منبع النهر، وقد وجدوه دائما. واجتذب اكتشاف ثانٍ إلى الشمال في وادي سيكس مايل Six-Mile المزيد من الباحثين عن الذهب إلى سفوح التلال. وأخيرا استطاعوا تحديد

(*) زجاج بركاني داكن اللون. [المترجم].

(**) فورة أو حمى الذهب Gold Rush: هي الواقعة التاريخية التي شهدت تهافت الجموع على التنقيب عن الذهب. بدأت حمى الذهب في كاليفورنيا في 24 يناير 1848 مع اكتشاف جيمس مارشال الذهب في بعض مجاري الأنهار في كاليفورنيا. [المترجم].

(***) الخانق أو الأخدود أو الوادي الضيق Canyon. [المترجم].

مصدر الذهب في العام 1859 - كان جيبا غنيا بالذهب والفضة يقع بالقرب من مدينة فرجينيا Virginia City، ويعرف بجيب كومستوك لود Comstock Lode الشهير. وفي الحال صارت المجازات الجبلية تعج بالرجال الذين غادروا فرجينيا بحثا عن مكامن الخام الجديدة. وتقاطر المنقبون إلى الولاية واندفعوا عبر الجبال. لقد عثروا على الذهب الرسوبي (الطموي) Placer Gold في الجداول قرب باتل ماونتين Battle Mountain وينيموكا Winnemuca. وفي الصدوع والمجاري المائية في التلال التي انصرف روبرتس إلى استكشافها، لايزال بإمكان المرء أن يشاهد المصوّلات(*) والسدود الحجرية والمداخل المنهارة للمسارب(**). ويعود منجم الذهب في ويلو كريك Willow Creek الذي أراد رالف روبرتس اكتشافه إلى أيام المخيمات المكتظة بالباحثين عن الذهب.

كان المنجم ملكا لوالاس كالدر Wallace Calder، وهو طبيب أسنان من وينيموكا. وقد ذكر كالدر لروبرتس أنه استخرج قطعا ضخمة من منطقة الفالق(***) في المنجم، وأعد روبرتس العدة لزيارة تلك المنطقة. وأطلعه كالدر على مصدر القطع الضخمة. وبعد أن فحص الصخور من كثب، استنتج روبرتس أنها حجارة مصدرها المحيط، وهي أقدم من الصخور الجاثمة فوقها. وفي المسار الطبيعي للتشكل الجيولوجي تصعد الصخور الجديدة من الدثار(****) في حالتها المصهورة وتترسب فوق الصخور الأقدم. لكن في هذا الموضع انقلبت تلك التوضعات النسبية. ولتفسير ما حدث، افترض روبرتس وجود رف قاري(†) Shelf سميك من الصخور المحيطية الأقدم اندفع إلى الأعلى وبلغ طبقة الحجر الجيري الأحدث عند الحافة الغربية من القارة[6]. وفي آخر الصيف، ومع أن

---

(*) المصولات: جمع مصوّل Sluice، وهو حوض لغسل الأتربة والرمال الحاملة للذهب. [المترجم].

(**) المسارب: جمع سرب، وهو دهليز داخل المنجم، وكذلك يشير إلى الحفائر الأفقية. [المترجم].

(***) الفالق أو الصدع: هو كسر في صخور القشرة الأرضية يقترن بحدوث انزلاق للكتل المتاخمة من طبقات الصخور على الجانبين نتيجة الضغط الشديد الذي تحدثه حركات القشرة الأرضية، سواء الشاقولية أو الأفقية. [المترجم].

(****) الدثار Mantle: دثار الأرض، ويسمى أيضا الوشاح أو الغشاء أو الستار، وهو طبقة تحت أرضية تبلغ سماكتها نحو 4 آلاف كيلومتر، وتقع فوقها القشرة الأرضية. [المترجم].

(†) الرف القاري: هو جزء من البحر الذي يلي اليابسة، ويمتد من خط الشاطئ إلى الخط الذي يبدأ عنده قاع المحيط بالانحدار واضح. [المترجم].

صياغة نظرية حول منطقة وجود الذهب ستستغرق منه عدة سنوات، تكوّن في ذهنه آنذاك جانبان من تلك النظرية: أولا، دفعت الصخور المحيطية الأقدم عمرا نحو الأعلى عند طبقة الصخور الأحدث القائمة على شاطئ البحر الذي تشكل في الأزمنة القديمة؛ وثانيا، أن الذهب أخذ مكانه داخل المنطقة التي حدثت فيها عملية الدّسر(*) وأسفلها.

ويفسر الجيولوجيون اليوم عملية الدّسر بأنها نتاج التصادم التكتوني (الصفائحي)(**) (على مستوى أديم الأرض) حيث تهشمت صفيحتان من قشرة الأرض بفعل التصادم في الماضي الجيولوجي(***). غير أن نظرية الصفائح لم تظهر قبل عقد الخمسينيات من القرن العشرين. وفي العام 1939، عندما شرع روبرتس في أعماله الاستكشافية[7]، كان أهم مرجع يتناول جيولوجيا المنطقة عبارة عن تقرير يعود إلى القرن التاسع عشر ويعرف بمسح دائرة العرض الأربعين Fortieth Parallel Survey. أُعد هذا التقرير بتكليف من وزير الحربية (وزير الدفاع) وطبع في العامين 1877 و1878، وهو عبارة عن ثمانية مجلدات تتناول التاريخ الطبيعي لأجزاء من نيفادا وإيداهو وويومينج(****). وقد تناول كتّاب التقرير بالوصف الصفائح الهائلة لصخور ترياسيك Triassic وسفوح الجبال الملأى بـ «بلورات الترمالين(†) السوداء اللامعة الدقيقة» و«حبات العقيق الأحمر(‡) صغيرة الحجم المائلة إلى اللون الحديدي البني، التي لم يتعد حجمها رأس الدبوس»[8]. إن لدى الجيولوجيين الميدانيين ظمأ شديدا لمثل هذه التفاصيل. وإن الباحثين عن الألماس مهووسون بالعقيق الأحمر، لأنه يمكن أن يقود إلى جيوب الألماس(§). لقد صب روبرتس اهتمامه على التشكيلات الجيولوجية الأكبر حجما في المنطقة. وذات يوم أقله طاهي المعسكر إلى منجم فضة مهجور. وراح يجوب المنطقة على طول سلسلة

---

(*) الدسر Thurst: الدفع والإقحام والإبراز- وأيضا البروز أو النتوء. [المترجم].

(**) التكتوني أو الصفائحي: نسبة إلى صفائح القشرة الأرضية. [المترجم].

(***) الماضي الجيولوجي: زمن تشكل الأرض. [المترجم].

(****) ولايات أمريكية. [المترجم].

(†) الترمالين Tourmaline: حجر نصف كريم. [المترجم].

(‡) العقيق الأحمر، أيضا الجارنيت أو البجادي. [المترجم].

(§) جيوب الألماس Diamond Pipes، وتعرف أيضا بالأنابيب الحاملة للألماس. [المترجم].

جبال أنتلر Antler في أسعد حالاته - حينما كان يتجول وحيدا بمفرده[9].

حدد الجيولوجيون الأسبقون ماهية تلك السلسلة الجبلية التي سار روبرتس بمحاذاتها بأنها تتكون من الحجر الجيري البالغ عمره 300 مليون عام. ويتكون الحجر الجيري من بقايا هياكل الحيوانات بالغة الصغر من البحار الضحلة، أي تلك البحار التي لطمت أمواجها ذات يوم الشاطئ القاري في نيفادا الحالية. ويستمد الحجر الجيري لونه الباهت من الهياكل العظمية الدقيقة الداخلة في تكوينه. وعندما تصادمت الصفيحة المحيطية والصفيحة القارية[10]، وفق دين هيت Dean Heitt، الخبير الجيولوجي من شركة نيومونت للتنقيب Newmont Mining Corporation ومؤلف تاريخ منجم كارلين تريند: «اندفعت الصخور الأقدم والأشد قتامة من المحيط العميق، مثل الشِّرْت(*) والطُّفال(**)، إلى الأعلى نحو الحجر الجيري ذي اللون الرمادي الفاتح، الأحدث عمرا، فغطته». وعندما شرع روبرتس في رحلته لاستكناه الطبيعة الجيولوجية للمنطقة، كان الخروج بنظرية تفسر سبب وجود الصخور الأقدم عمرا فوق الصخور الأحدث عمرا جزءا من تلك المهمة. وكتب قائلا: «لدى اقترابي من المحيط الغربي لسلسلة الجبال، برزت الحجارة الجيرية»[11]، وظهرت الصخور الأقدم على الحافة التي كان يجوبها. وأضاف: «استطعت تبين بضع كسرات من الحجر الجيري على الحافة الصخرية، بيد أنني بلغت نهاية الكتلة الهائلة التي كنت أقتفي أثرها».

ومن دون علم منه، كان روبرتس قد اجتاز ما سيطلق عليه لاحقا «النافذة» Window - موضع تآكل فيه الصخر الأقدم والأقتم وكشف اللثام عن الحجر الجيري الأحدث عهدا، القائم أسفله. وفي تلك الطبقة الفاصلة في الصخور الأقدم التي نبذت للأعلى من المحيط العميق، تبين روبرتس وجود فتحة تفضي إلى الصخور الحاملة للذهب، وهي الأغنى بالذهب في أمريكا. كان «ينفذ ببصره» إلى غطاء الصخر الأقدم الحاجب للحجر الجيري. وقد سبق أن شاهد في منجم ويلو كريك Willow Creek دلائل على ما سيحيط بعلمه تماما في المقبل من الأيام - وهو أن الذهب يتوضع في طبقة الحجر الجيري تحت الصخور الأقدم عمرا. وصادف موضعا

(*) من ضروب الكوارتز. [المترجم].

(**) الطفال: طين أو صلصال يتحول إلى حالة صلبة في صورة رقائق سريعة الانفلاق. [المترجم].

يسمح للمستكشف بالولوج إلى الأعماق والبحث مليا عن الذهب من دون الحاجة إلى النفاذ عبر حاجز الصخور الأقدم والأشدة صلابة. ولعل السبب في عدم رؤيته هذا الطريق المختصر مباشرة أن روبرتس لم يشرع في البحث عنه أصلا.

وقطعت الحرب العالمية الثانية على روبرتس عمله. وانضم إلى حملة البحث الحربي عن المعادن الاستراتيجية، وأُرسل على جناح السرعة إلى أمريكا الوسطى. ولم يعد إلى نيفادا حتى العام 1954، عندما ترأس وحدة مكلفة بإعداد الخرائط الجيولوجية ليوريكا كاونتي Eureka County. هذا التكليف وضعه على الطريق الذي سيقوده إلى اكتشافه.

وتحفل سيرة حياته الشخصية، التي دونها روبرتس عندما بلغ من العمر واحدا وتسعين عاما، بحيوية تلقائية غير متصنعة عبر صفحاتها. ولا يجد القارئ إلا أن يستشعر وجود ذلك الشخص ذي الحظ العظيم، رجل عاش بهجة الحياة التي وجدها ماثلة أمام ناظريه.

ولد رالف جاكسون روبرتس في روزاليا بواشنطن في العام 1911[12]. كان والداه يتحدران من العائلات العاملة في زراعة القمح، المقيمة في الجوار. وعلى حد وصف روبرتس فقد سئم والده من عتالة أكياس الحبوب التي تزن 120 رطلا، وهجر المزرعة ليعمل صيدليا. وقد سئم من ذلك العمل أيضا، بعد أن أنهكته ساعات العمل الطويلة في القيام بشؤون تلك الصيدلية الواقعة في بلدة صغيرة، وانصرف إلى بيع قارئ الأسطوانات(*) الذي ابتكره أديسون. وفي نهاية المطاف اشترى متجرا لبيع السكاكر في أوماك، شرقي واشنطن، وهي بلدة تقع في وادي أوكانوجان Okanogan Valley. وبينما انصرف إلى عمل الحلويات التي لم يضاهه فيها أحد مثل «حلوى الفول السوداني والنوغة(**) والبينوشيه والديفينتي Divinity والكارميل والزبدة الاسكتلندية(***) والطوفي(****) والفدج(†)»، فقد انصرف اهتمام ابنه إلى المشروبات الغازية.

وفي سعيه ليكون جيولوجيا في المستقبل، كان روبرتس محظوظا بمعلميه. كان

(*) قارئ الأسطوانات: جهاز يعرف أيضا بالحاكي أو الفونوجراف. [المترجم].

(**) النوغة: حلوى بيضاء ذات قوام كالعلكة، غالبا تعجن بالفستق وتقطع. [المترجم].

(***) الزبدة الاسكتلندية: حلوى صلبة دبقة قوامها الزبدة والسكر الأسمر. [المترجم].

(****) الطوفي: حلوى صلبة دبقة. [المترجم].

(†) الفدج: ضرب من الحلوى. [المترجم].

أحدهم كيميائيا بارزا وكان الثاني يدير منجما لاستخراج التوليت(*). والتوليت - ويعرف أيضا بروزالين Rosaline نظرا إلى لونه الوردي الفاقع - معدن بلوري يقطع إلى ألواح لاستخدامه في أعمال الإكساء لأغراض الزينة. وقد ساعد روبرتس في أعمال استخراجه من مقالعه. كما خرج في طلعات استكشافية إلى التلال المحيطة بحثا عن الذهب مع «الأب» هايس، وهو عامل مأجور كان قد خسر ثروة جناها من استخراج الذهب بالشطف(**) من جداول ألاسكا.

كما أخذ المعرفة بأعمال التنقيب عن أسرته. إذ كان لدى أحد أعمام والدته منجم فضة في كولورادو، وملأ أعمامه وأولاد أعمامه مسامعه بحكايا مغامراتهم في التنقيب. لا بل إن جبال روبرتس الواقعة في الشمال الأوسط من نيفادا، وكانت منطقة عمله الاستكشافي، قد عرفت بهذا الاسم نسبة إلى شخص تربطه به قرابة بعيدة[13].

وتتوالى فصول رواية روبرتس. وتحتل دروس الرقص في واشنطن زمن الحرب الفصل نفسه الذي انكب فيه على دراسة تشكل الأحواض الترسيبية القديمة لسلسلة جبال الكورديليران Cordilleran Geosyncline التي تشكلت قبل 380 مليون عام. وتتحدث الصفحات الست نفسها عن لقائه بزوجته المستقبلية، الصديقة وزميلة الدراسة. ويكتب قائلا: «تقابلت عيوننا وتشابكت نظراتنا برهة امتدت طويلا. كانت آنذاك ترتدي خاتم خطوبتها لوارين، لكن تحيتها له بدت مكبوتة.. ولا أتذكر الكثير عن تلك الزيارة، باستثناء أني كنت منجذبا لأرليدا Arleda. ولأنها كانت خطيبة وارين فقد حاولت ألا أظهر مشاعري تجاهها، لكنني لمست أنها أدركت استلطافي لها، وشعرتُ أنها كانت مهتمة بأمري»[14].

كان إحساسه صائبا. إذ كتبت له أرليدا بعد عامين، من دون سابق إخطار، أنها فسخت الخطبة وترغب برؤية روبرتس مجددا. واصطحبها إلى العشاء وطلب يدها قبل أن ينتقلا إلى طبق الحلويات. كان زفافهما سعيدا وحافلا واستمر طويلا. وفي صورة تعود إلى العام 1954 تظهر باسمة تحت أشعة الشمس برفقة أطفالهما الثلاثة أمام العربة المقطورة ذات الاثنتين والأربعين قدما التي كانوا يتخذونها مسكنا لهم

---

(*) توليت Thulite: منجنيز أحمر وردي. [المترجم].

(**) الشطف باستخدام الأوعية Panning. [المترجم].

حينما انطلق روبرتس في مهمة وضع الخرائط الجيولوجية ليوريكا كاونتي Eureka County، وأنجز اكتشافه العظيم.

وأعد روبرتس الخرائط الجيولوجية صاعدا شمالا عبر سلاسل جبال كورتيز وشوشون وتاسكارورا، وقد وجد أن ذلك الجزء من التضاريس المعروف بدسر(*) جبال روبرتس كان يظهر وجود علاقة جيولوجية مستمرة[15] - اندفاع صخور المحيط العميق إلى الأعلى لتغطي الحجر الجيري في منطقة المياه الضحلة. لقد اعتقد أن الدسر كان جزءا من تضاريس المنطقة، وليس مقتصرا على تلك البقعة. وهكذا أماط اللثام عن البنية الجيولوجية الأساسية لما يعرف اليوم بمنجم كارلين تريند. لقد قام بخطوة عظيمة في طريق الكشف عن مكامن الذهب، مع أن ثمة خطوة أخرى بالغة الأهمية كانت لاتزال أمامه: أي التحقق من وجودها. كان ثمة دليل تاريخي بالتأكيد مستمد من أعمال التنقيب عن الذهب الرسوبي التي جرت في مرحلة مبكرة، كما أن منجم ويلو كريك Willow Creek تمخض عن وجود شذرات الذهب(**). لكن هذه الحالات أو المشاهدات لم تكن دليلا بحد ذاتها على وجود احتياطيات هائلة من الذهب. ومع ذلك، ومع اقتراب روبرتس من فهم الطبيعة الجيولوجية للدسر، كان ثمة رجل آخر يراقب إنتاج الذهب المحلي من كثب، ليخلص إلى أن بعض الذهب كان مصدره فلزا يختلف عن كل الفلزات التي شاهدها. كان هذا الذهب يتميز بخاصية واحدة: أنه كان خفيا.

آنذاك، كان ويليام فاندربرج[16]، المهندس لدى مكتب المناجم الأمريكي U.S Bureau of Mines يجري مسوحا استطلاعية لنيفادا منذ ثلاثينيات القرن العشرين. إذ أجرى زيارات منتظمة للمناجم وقدم وصفا لمكامن الذهب فيها. وقد لاحظ أن الجزيئات في بعض مناجم الذهب كانت دقيقة جدا بحيث تعذر استخلاصها بعملية شطف التراب والحصى بالمياه باستعمال الأوعية. كانت المناجم تستخرج الذهب، لكن عندما طبق تقنية الشطف على عينة من الفلز لم يحصل على الذهب. وكتب قائلا: «كان من المستحيل التمييز بين الفلز والنفاية من دون

(*) الدسر: ورد شرحه سابقا، وهو نتوء أو بروز جيولوجي. [المترجم].
(**) شذرات الذهب Nuggets: هي كتل الذهب. [المترجم].

استخدام المعايرة(*)، إذ يكون الذهب في تلك الحالة التي يستحيل فيها الحصول على لون واحد [الذهب المشاهد بالعين المجردة] باستخدام تقنية الشطف. ولا بد أن الذهب المرئي(**) كان موجودا في مرحلة ما، وإلا لما جرت أعمال التنقيب. وفي مرحلة ما آنذاك استنفد المنقبون الاحتياطي الأصلي من الفلز، وتبينوا أن محطة الاستخراج (***) كانت لاتزال تنتج ذهبا، حتى بعد أن انتقلوا إلى ما بعد الجيب الأصلي وشرعوا في تلقيم الجهاز صخورا لا تحتوي على الذهب المرئي. وكانوا لايزالون يحصلون على الذهب، ولذلك استمرت أعمال التنقيب.

ويستذكر روبرتس قائلا: «أراد بيل أن يطلعني على هذا الفلز غير المألوف. واعتراني الفضول، فمضيت معه»[17]. واصطحب مدير المنجم الذي قصداه - وهو منجم جولد إيكرز Gold Acres - روبرتس وفاندربرج إلى منطقة التربة الغنية بالفلز Pay Dirt - وهي المنطقة التي تحتوي على الذهب. وشاهد روبرتس منطقة التصدع المألوفة - حيث اندفعت الصخور المحيطية الأقدم فوق الحجر الجيري الأحدث عهدا عند الحافة القارية. وكتب روبرتس: «سيدرك كل من يشاهد منطقة التّماس في حقل الذهب أن ثمة تباينا عجيبا في اللون بين الصخور المحيطية الغامقة التي تحتوي على السيلكات والصخور الكربونية للرف القاري(****) ذات اللون الرمادي، الواقعة أسفلها».

وعلى خلاف منطقة التصدع الضيقة التي شاهدها روبرتس في منجم ويلو كريك في أثناء زيارته لنيفادا أول مرة عندما كان طالبا في مرحلة الدراسة، كانت منطقة التصدع في منجم جولد إيكرز يتجاوز سمكها، في بعض المواضع، مائة قدم. وكانت ثمة «صفيحات» من الحجر الجيري متناثرة في تلك المنطقة - وهي عبارة عن ألواح من الحجر الجيري انفصلت عن الصخر القاري عندما اخترقها الصخر المحيطي. كانت هذه الصفيحات تضم فلز الذهب.

---

(*) المعايرة Assay: التحليل الكمي والنوعي للمادة. [المترجم].

(**) الذهب المرئي، أي الذي يمكن مشاهدته بالعين المجردة، وهو خلاف الذهب الخفي الذي يوجد في حالة جزيئية. [المترجم].

(***) محطة الاستخراج أو تحويل الفلز إلى ذهب. [المترجم].

(****) الرف القاري Continental Shelf: هو الجزء المغطى بماء البحر من الرصيف القاري، ويسمى أيضا المنحدر القاري. [المترجم].

كان ذلك اكتشافا هائلا لروبرتس. فإذا ثبت وجود الذهب في موضع التصدع، وكان هذا الموضع سمة تضاريسية مميزة للإقليم - أي سمة جيولوجية لتلك الناحية من الولاية - فإن وجود الذهب لا يقتصر على تلك الناحية، بل هو جزء من تشكيل جيولوجي يعمّ المنطقة بكاملها.

وكتب روبرتس: «عندما دخلنا وادي ماجي كريك Maggie Creek Canyon، وقفت للمرة الأولى على مشهد باهر، حيث كان الشرت(*) الأسود الواقع في الطبقة العليا متوضعا على الحجر الجيري الرمادي الملطخ بصدأ الحديد في الجانب الشرقي من الوادي (الخانق)(**)... بالنسبة إليّ كانت هذه الزيارة تجربة عميقة مؤثرة، لأنها أثبتت أن الدسر كان ظاهرة تضاريسية إقليمية، مما يعني أنه قد يهيمن على تركز المعادن في الإقليم»[18].

وقد عنى روبرتس بـ«الهيمنة» أن الدسر قد يكون سمة تحدد مكان وجود الذهب. ولاحظ أن تلك الرقعة في ماجي كريك كانت مكشوفة للعيان، وتحديدا في الحجر الجيري حيث يحتمل وجود الذهب. كان الحجر الجيري مساميا(***) أكثر من الصخور الأقدم عهدا الرابضة أعلاه. لقد تشكل الذهب في دثار الأرض، وهو يرتفع إلى الأعلى عندما يكون في ذوب(****) حار Hot Solution. فإذا كان الذهب قد اندفع صاعدا نحو الحجر الجيري المسامي في مرحلة زمنية أعقبت اندفاع الصخور الأقدم والأصلب والأكثر كثافة، إلى القمة، فإن الصخور الأقدم، باعتقاد روبرتس، قد تكون «علت وغطّت» الذهب، وأوقفت تدفقه صعودا، وحبسته في الحجر الجيري.

ويحدث أحيانا عندما يخترق الذهب الصخر أن يستقر في الصدوع والشقوق، فيبرد ويتحول إلى عروق صلبة. هذا الضرب من الترسبات (الجيوب) يعرف اصطلاحا بالعرق Lode. بيد أنه في الترسبات التي تصورها روبرتس، كان مركب حامضي حامل للذهب قد تدفق نحو الحجر الجيري المسامي، فأذاب الصخر وفتح مسالك لتدفق المزيد من الذهب. كانت الصورة التي تكونت في مخيلة روبرتس عبارة عن

---

(*) الشرت Chert: نوع من الكوارتز (المرو). [المترجم].

(**) الخانق هو الوادي الضيق. [المترجم].

(***) أي تتخلله المسامات. [المترجم].

(****) الذوب هو عبارة عن مواد ذائبة. [المترجم].

طبقة جيرية غنية بالذهب، تغطيها صخور أصلب وأقل نفوذية. لقد حبس الصخر الأصلب الذهبَ داخل الحجر الجيري. وكتب روبرتس: «ازداد حماسي لمّا تخيلت الطبقات الأغنى بفلز الذهب»[19].

ولم يذكر روبرتس إن كان ناقش أفكاره مع فاندربيرج، لكن وفقا لألان كوب Alan Coope، وهو جيولوجي وضع كتابا في تاريخ اكتشاف منجم كارلين، تملّك فاندربيرج أيضا اعتقاد أن ثمة المزيد من الذهب ينتظر الاكتشاف. كان يعتقد أن المستكشفين سيعثرون على الذهب محصورا بين طبقتي الطّفال والحجر الجيري وهو التشكيل الجيولوجي الذي توصل روبرتس إلى أنه السمة المميزة للإقليم. ورأى روبرتس الصورة الأعم. وشاهد ما هو أبعد من منجم الذهب، أي حقل الذهب(*). وأيقن أنه حيثما اكتشف الذهب، كانت الطبقة العليا من الصخر قد تآكلت، مفسحة المجال لظهور الطبقة الصخرية الهشة أسفلها. وكما عاينها، لم تكن مناجم ذهب المنطقة متوضعة على قطع منفصلة من الأرض الغنية بالذهب، بل في الرقعة الواسعة نفسها، وهي رقعة اكتشفت، إذا جاز القول، مصادفة. إذ عثر عمال المناجم (المنقبون) مصادفة على جيوب الذهب عبر الفتحات التي أحدثتها عمليات الحت والتآكل، ومن دون استيعاب الصورة الأكبر للتشكيلات الجيولوجية.

وتمثلت مهمة روبرتس في وضع الخرائط الجيولوجية ليوريكا كاونتي Eureka County. لقد عاش حياة ريفية هادئة، فكان يخيم مع أسرته في مقطورة داخل مزرعة دين رانش Dean Ranch في وادي كريسنت Crescent Valley. قام أبناؤه بأعمال الاستكشاف بالقرب من بلدات مهجورة في حين راح روبرتس ومساعدوه يجوبون منطقة الدسر عبر التلال. وبتعزز قناعته بأن منطقة الدسر كانت بؤرة تركز جيوب الذهب في المنطقة، وفي خضم بحثه عن أنماط جيولوجية تؤكد تصوره، وضع روبرتس خريطة تقريبية بينت جيوب الفلز وفتحات الانكشاف (النوافذ) في منطقة الدسر. وقد تمخض ذلك عن خط واضح كان مرتكزه في اتجاه الشمال الغربي عبر يوريكا كاونتي. صاغ روبرتس أفكاره في العام 1960 في بحث من صفحتين ونصف

(*) حقل الذهب Gold Field: منطقة تضم عددا من مناجم الذهب. [المترجم].

الصفحة بعنوان: «مخطط تركز قواطع المناجم في وسط - شمال نيفادا»(*)[20]. وقد أكد فيه اعتقاده أن فتحات الانكشاف (النوافذ) في الطبقة العليا من الصخر الأقدم عهدا وفرت مدخلا إلى مواضع تم «النفاذ عبرها بواسطة قنوات سمحت بارتفاع الصخور البركانية وغيرها من السوائل الحاملة للفلز. والمرجح أن تلك المواضع تفضي إلى أعماق سحيقة داخل القشرة... وعند التنقيب داخل النوافذ ينبغي بذل جهود استثنائية لاكتشاف الأجزاء السفلية». هذا يعني: احفر داخل النوافذ، واحفر عميقا.

وتجلت أمام أعين روبرتس حالة لم يلحظها سابقا. إذ وضع فرضية قامت على المعرفة المتوافرة لديه، وذلك على النحو الذي يخمن به الفلكي وجود جسم ما خارج دائرة الرؤية. فاستطاع أن يتبين أن الذهب الدقيق (غير المشاهد بالعين المجردة) كان موجودا في كتل الحجر الجيري. واستطاع أن يتبين أن الحجر الجيري كان جزءا من تشكيل جيولوجي يمتد عبر المنطقة. وشكل من هذه المشاهدات الصورة الذهنية المتخيلة لحقل الذهب المكون من جزيئات غير مرئية حُبست أسفل طبقة الطِّفال الأقدم. كانت الطريقة الوحيدة لاختبار هذه النظرية هي الحفر في الحجر الجيري المكشوف عند النوافذ. وبصفته جيولوجيا حكوميا لم يكن الحفر من اختصاصه، بل كان يتعين عليه إقناع شخص ما بتنفيذ بأعمال الحفر.

كان الرجل الذي عثر عليه روبرتس (لتنفيذ أعمال الحفر) شخصا مغامرا محبا للوحدة والعزلة - تماما مثل روبرتس الذي أحبّ صمت الجبال. كانت نشأته تختلف تماما عن نشأة روبرتس: فقد ولد لعائلة من كبرى العائلات في أمريكا، وخلف وراء ظهره حياة مرفهة عند أعلى مراتب السلم الاجتماعي بحثا عن حياة العزلة. ولسنوات عدة، ارتاد هو وروبرتس، ولم يكن أي منهما يعرف الآخر، الجبال نفسها للاستكشاف، وفي الفترة نفسها، بحثا عن الذهب نفسه.

ونشر بحث روبرتس عن النوافذ في العام 1960، وفي العام التالي كان يتحدث أمام مجموعة من الجيولوجيين في اجتماع عُقد في أحد فنادق إيلي Ely غير بعيد عن يوريكا. ولم يحفل معظم الحاضرين من علماء الجيولوجيا النفطية بروبرتس كثيرا. جاءت كلمته في آخر اليوم، وفور أن فرغ منها كانت قاعة الاجتماعات قد

(*) في الأصل: Alinement of Mining Districts in North-Central Nevada. [المترجم].

خلت من الحاضرين الذين توجهوا مباشرة إلى المشرب (البار). لكن رجلا واحدا لم يبرح مكانه[21].

كان جون ليفرمور John Livermore جيولوجيا متخصصا في التنقيب عن الذهب، طويل القامة، هزيل البنية، يبلغ طوله ست أقدام وخمس بوصات، وكان قد قرأ بحث روبرتس وذهل به. لقد سبق له في فترات متقطعة في خمسينيات القرن العشرين أن عمل في استكشاف الجبال بحثا عن ذلك الضرب نفسه من جيوب الذهب الذي تناوله روبرتس بالوصف، وفي ذلك البحث المقتضب عن مخطط تركز المناجم، قرأ عن مواضع التنقيب.

***

ترعرع جون سيلي ليفرمور John Sealy Livermore[22] في سان فرانسيسكو في عزبة محاطة بأشجار السكوية(*) الحراجية على التلة الروسية Russian Hill. يظهر اسمه وأسماء إخوته على نافذة زجاجية ملونة أعلى الجناح الجنوبي لكاتدرائية المدينة المعروفة بكاتدرائية جريس Grace Cathedral. وقد استمد جبل ليفرمور، الواقع على جزيرة أنجل Angel Island في خليج سان فرانسيسكو، اسمه من اسم والدة ليفرمور، كارولين، وكانت من الناشطات في مجال المحافظة على البيئة، وقد بذلت جهودا للمحافظة على ذلك الجبل. واعتادت العائلة قضاء فصول الصيف في مونتيسول، وهي مزرعة مساحتها 7 آلاف فدان وتقع في التلال شمال نابا Napa، وكانت من أملاك عائلة ليفرمور منذ العام 1880. لقد عاش ليفرمور «طفولة مثالية تماما»، بيد أنه لم يستهوهِ مستوى الحياة التي كانت تعد بها، أي المكانة الاجتماعية الرفيعة. وبفضل شهادة علم الجيولوجيا التي نالها من جامعة ستانفورد، أجاب داعي حياة الرحّل وصار منقبا عن الذهب.

بدأ بحث ليفرمور عن الذهب الخفي في العام 1949 في منجم ستاندارد Standard mine[23]، وهو منجم الذهب الواقع شمال لوفلوك Lovelock، بنيفادا. أغلق هذا المنجم زمن الحرب العالمية الثانية. وسعى مالكوه إلى إعادة تشغيله من جديد، لكن ذلك كان يتطلب إيجاد مصدر جديد للفلز. لقد أقيم المنجم

(*) شجر السَّكوية أو الجبّارة أو العروية Redwood: شجر حرجي ضخم يكثر في كاليفورنيا. [المترجم].

على عرق فلزي(*). ولو كانت الصخور الحاضنة قد تشققت وتفتتت، كما جال في ذهن ليفرمور، أو لو كانت ثمة تدخلات(**) من الذهب متكررة، لكانت جزيئات الذهب نبذت خارجا إلى الصخر المحيط في هيئة ذهب متدني الجودة (فلز منخفض التركيز). وقد عثر ليفرمور على الكثير من هذه الصخور التي تحتوي على الذهب متدني الجودة، بدلا من الصخور ذات المصادر عالية الجودة، والأكثر تركزا، التي كان ينبغي وجودها هناك أيضا.

ويستذكر ليفرمور فيما بعد قائلا: «أجرينا بعض أعمال الحفر بالدق(***)، ووجدنا بعض الفلز»[24]، ملمحا إلى استخدام آلات حفر عريضة القطر. لكن الفلز لم يكن ذا جودة عالية، وكان «المنجم مستنفدا في الأصل. كانت جودة الفلز في المنجم متدنية جدا، ولم يكن المنجم يحقق أرباحا تذكر. ولتحسين جودة هذا الفلز الذي عثرنا عليه كان لا بد من إجراء الكثير من أعمال التعرية [[إزالة الصخر غير الحامل للفلز]، ولم يكن ذلك يحقق أرباحا تكفي لمواصلة العمل». وفي بضعة أشهر أغلق المنجم وبات ليفرمور عاطلا عن العمل. وحاول العثور على عمل آخر، وعندما أخفق في ذلك، انصرف إلى عمل يستهويه أكثر من غيره - راح يجوب الأراضي ويعاين الصخور».

ومضى ينقب عن الذهب بمفرده مدة سنتين في جبال نيفادا. وقد تعلق بفكرة وجود جيوب الذهب غير المكتشف في ذلك الجزء من الولاية منذ أن طالع بحثا أعده ويليام فاندربيرج المهندس الذي اصطحب روبرتس إلى منجم جولد إكرز Gold Acres. ومع اضطلاع ليفرمور بالبحث، تساءل ما إن كان الفلز قليل التركيز (متدني الجودة) في منجم ستاندارد Standard يمثل ضربا من جيوب الذهب مختلفا وغير معروف سابقا، وليس مجرد ضرب قليل التركيز من جيوب عرق الذهب المألوف. وليتفق ذلك مع النموذج النظري Model المقبول لعرق الذهب، لا بد أن يكون الذهب قد تشكل في الصخور البركانية الصلبة. لكنه خلافا لذلك، كان قد تشكل

---

(*) العرق الفلزي Lode Deposit: الفلز الذي يملأ شقا صخريا في تشكيل صخري، أو هو عرق الفلز المحصور بين طبقات الصخور. [المترجم].

(**) التدخل: هو اندساس صهارة الذهب في طبقات الصخر أو تجاويفه. [المترجم].

(***) تقنية الحفر بالدق Churn Drilling: تستخدم آلة للحفر توضع على عجلات أربع ويحركها محرك يعمل بطاقة البخار أو الديزل أو الكهرباء... إلخ. [المترجم].

في الصخور الأقل صلابة مثل الحجر الجيري. إضافة إلى ذلك، كانت حبات الذهب فائقة الصغر بحيث تعذرت رؤيتها بالعين المجردة. ولا يمكن اكتشاف وجودها إلا باستخدام المعايرة. لكن إن كان هذا الذهب الخفي ضربا جديدا من جيوب الذهب، فما الذي يفسر وجوده؟ كان ليفرمور في حاجة إلى تخيل عملية تشكل جديدة تسهل حدوث عملية التركز المعدني Mineralization، أي نظرية تفسر وجود الذهب. وعكف على وضع هذه النظرية.

لقد تصور ليفرمور أن الذهب ارتفع من دثار الأرض إلى القشرة الأرضية في السائل نفسه الذي أدى إلى تشكل جيوب عرق المعدن العادية[25]. ولكن بدلا من أن يترسب خارجا نحو الصخور المكونة لجدران القناة، ويتركز هناك، تدفق نحو الحجر الجيري المسامي الأكثر هشاشة نسبيا، وأدى في أثناء ذلك إلى إذابة جزء من الصخر لفتح مسارات يتدفق عبرها. كانت الصخور في شمال وسط نيفادا متشققة ومتكسرة أصلا بفعل النشاط الزلزالي، مما وفر للسوائل الحمضية الحارة الحاملة للذهب التي تخيلها ليفرمور مسالك أكثر نحو الحجر الجيري. كان يبني تصورات عما سيفترضه روبرتس لاحقا.

وفي العام 1952 اتخذ ليفرمور عملا لدى شركة نيومونت للتنقيب Newmont Mining Corporation. لقد عمل منذ ذلك الحين ومدة ست سنوات في مشروعات بأمريكا الجنوبية والمغرب وتركيا. وفي العام 1958، وكان يتعافى من مرض أصابه، انتقل إلى العمل المكتبي في مقر الشركة، ومن ثم في نيويورك. وقد وجد ذلك العمل مرهقا، وعاوده التفكير في نيفادا. وفي العام 1960، وكان في مهمة عمل في منجم للمعادن الخسيسة(*)، أقنع رئيسه بأن يمنحه متسعا من الوقت للبحث عن الذهب.

لقد وصف ليفرمور المشاعر المتضاربة التي لازمته خلال انتقاله عبر المحيط الطبيعي الخاوي. ويقول: «اعتقدت حقا أني سأعثر على الذهب». هذا الشعور كان مشوبا بالشك. وقد أدرك باعتباره جيولوجيا أن فرص اكتشاف جيوب الذهب بكميات اقتصادية كانت ضئيلة جدا. وصرح للصحافي العامل في صحيفة نيويوركر The New Yorker، جون سيبروك John Seabrok، بعد ثلاثين عاما تقريبا:

(*) المعادن الخسيسة Base metals: مثل الحديد والنحاس والرصاص، وذلك على خلاف المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة. [المترجم].

«يفاجئك الذهب دائما - وباعتقادي أكثر من أي معدن آخر. إنك لا تستطيع التكهن به. قد تحصل على كميات لا بأس بها من الذهب في عينة من العينات، وقد تحدث نفسك بأنك أخيرا في طريقك إلى الذهب، وبأنك كشفت سره. ثم يتبين أنك لم تفعل - فالذهب كان يلاعبك فقط».

مع ذلك أصر ليفرمور على المضي قدما، وكان عزاؤه شغفه بالأرض، حتى إن خيبت آماله. واعترف قائلا: «أشعر بالوحدة أحيانا، وأنا أعيش في هذه الحجرات في الفنادق الطرقية (الموتيلات)، وأقضي سحابة اليوم بمفردي. إني لأسأل نفسي عن سبب بحثي عن الذهب. إنه ليس سعيا وراء الثراء. جميل أن يكسب المرء المال، ولكن هذا ليس سببَ بحثي عن الذهب في حقيقة الأمر. لا أدري، لعله كان من قبيل حب الاكتشاف. ولو تسنى لي العثور على ذلك الذهب، عندئذ ستكون أموري جميعها على ما يرام. قد يكون السبب هذا اللغز الذي لا قرار له، وأحيانا - لا أدري - لعله يبدو أعظم شأنا مما هو في الواقع»[26].

لم يكن سعر الذهب مرتفعا آنذاك، كانت الأوقية تباع بـ 35 دولارا. وكان أكبر المناجم في الولايات المتحدة حينئذ هو منجم هومستيك Homestake Mine في ليد Lead، ساوث داكوتا (داكوتا الجنوبية) - على عمق ثمانية آلاف قدم، وكان يعتبر أعمق مناجم أمريكا عندما أُغلق في العام 2002. لقد أنتج منجم هومستيك 40 مليون أوقية طوال فترة تشغيله - وكان العاملون في المنجم على يقين بأنه لم تبق جيوب كبيرة في الولايات المتحدة ليصار إلى اكتشافها. ولو كان اكتشاف مناجم جديدة ممكنا، فلن يعثر عليها في شمال - وسط نيفادا، وقد قُلبت تلك المنطقة ونُخلت نخلا لمائة سنة خلت. ومع ذلك، وجد ليفرمور الذهب فيها، لا جيوبا وإنما بحر من الذهب.

وعندما شاهد بحث روبرتس مع رسم بسيط يوضح مخطط انتشار المناجم، وهي المناجم التي كانت تستخرج الذهب من خلال مناطق النوافذ - علق ليفرمور بالقول: «أثار ذلك اهتمامي لأني وجدت حينذاك نموذجا منطقيا أسير عليه في محاولة اكتشاف بعض تلك الجيوب. وأعتقد أن ثمة احتمالا مقبولا بوجودها. ويحتمل أن القدماء أخطأوا السبيل إليها بسبب هذا الذهب الغباري (الدقيق)، أما الآن وبوجود هذه النظرية، ربما كان هذا الطريق الأفضل للبحث عن تلك الجيوب.

ولعله بمجرد وضع الخرائط والتنقيب بعناية وتركيز في دسر جبل روبرتس، نستطيع العثور على المزيد من هذه الجيوب»[27].

وباستخدام أدوات لا تتعدى المطارق وأكياس القنب لجمع العينات شرع ليفرمور ومساعد له بالبحث على امتداد الدسر. وأرسلا العينات إلى هاري تريويك Harry Treweek، وهو خبير في المعايرة كان يسكن مع زوجته في كوخ منعزل بوادي كريسنت Crescent Valley. يسخّن خبراء المعايرة الفلز باستخدام مواد كيميائية تعرف بالمواد المساعدة على الصهر(*). هذه المواد تندمج في كل شيء إلا الذهب، الذي ينتبذ خارج المزيج، بحيث يمكن وزنه. وينسب وزنه إلى وزن الفلز المعاير، سواء بعدد الأوقيات أو الجرامات في الطن الواحد - وهذا هو العيار (درجة جودة الذهب Grade).

وذكر ليفرمور عن خبير المعايرة الذي استخدمه: «لقد وثقنا به، لأن تلك العينات التي أخذناها كانت عينات ذات عيار منخفض جدا، وقد أردنا التأكد من أن القيم التي أوردها كانت صحيحة، وليست مجرد قيم تقديرية».

قد يبدو اكتشاف ليفرمور بسيطا: إذ أخبره روبرتس بالمكان الذي يتعين عليه البحث فيه، وما تبقى فكان سهلا. لكن النوافذ Windows التي وفرت منافذ إلى الحجر الجيري، حيث يحتمل وجود الذهب، كانت تتناثر على مساحة خمسة آلاف ميل مربع. ووفقا لتقدير ليفرمور، فقد مسح ما يعادل ميلا في اليوم الواحد. وبالنسبة إلى رجلين ينزلان في فندق طرقي بكارلين Carlin، وبمساعدة أدوات لا تتعدى مطارق الصخر وخريطة، كان الاستكشاف عملا مرهقا. بعد ذلك ذهب ليفرمور لزيارة هاري بيشوب Harry Bishop، مدير منجم جولد إيكرز Gold Acres حيث سبق لروبرتس أن عاين الفلز الذي احتوى على الذهب الخفي[28]. واستفسر ليفرمور من بيشوب عن المكان الذي سيجري البحث فيه بنفسه، إذ كان أمامه دسر جبال روبرتس بكاملها للبحث فيها. وأبلغهم بيشوب أنه سيبدأ أعمال البحث من شمال كارلين حيث عثر المنقبون على الذهب في منجم الفيروز المعروف باسم بلو ستار Blue Star.

---

(*) مفردها صهُور. [المترجم].

وفي يونيو من العام 1961 بدأ ليفرمور معاينة منجم بلو ستار. لقد أجرى مسحا للجيوب وفحص عينات منها على مدار ثلاثة أسابيع، وكان يرسل الصخور إلى هاري تريويك في وادي كريسنت. وعندما اكتملت عملية المعاينة، كان ليفرمور قد أحاط بوجود خمسمائة ألف طن من الفلز. وأكد لشركة نيومونت جدوى قطعة الأرض المدروسة. وعندما أخفقت نيومونت في التوصل إلى اتفاق مع مالكيها، انتقل ليفرمور إلى هدف آخر لم يكن بعيدا عنها.

في الأسابيع التي قضاها في منجم بلو ستار، توصل ليفرمور إلى فهم التشكيل الجيولوجي من كثب. وفي النموذج الذي طوّره، فإن السوائل الحرارية المهاجرة صعودا، والمحملة بالذهب، قد «استقرت» تحت إحدى طبقات الدسر فأدت إلى تركز كميات كبيرة من الذهب الحبيبي الدقيق. وبالاستفادة من هذه المعرفة الجديدة، بدأ ليفرمور بمسح منطقة تعرف اليوم بنافذة لين Lynn Window بالقرب من منجم بلو ستار. لقد أخذ عينات من الصخر وأثمرت المعايرة تأكيد وجود الذهب. وفي سبتمبر جمع ليفرمور سبع عشرة حجة(*) تعطيه حق التنقيب في أراض مساحة الواحدة منها 20 فدانا، فاشترى أوتادا لاستخدامها في رسم حدود تلك الأراضي ونقلها بنفسه. واستأجرت نيومونت جرافة وبدأت في أكتوبر بشق الخنادق عبر الصخر بالقرب من إحدى قمم سلسلة جبال تسكارورا Tuscarora Range. وقد تقاطع أحد تلك الخنادق مع ثمانين قدما من الصخر بلغ تركيز الذهب فيها عشري الأوقية (20% من الأوقية) في الطن الواحد. وفي نوفمبر قطع تساقط الثلج الغزير موسم التنقيب، لكنهما عادا في أبريل وبصحبتهما حفارة. وتقاطعت الحفرة الثالثة مع طبقة من الفلز سماكتها خمس وثمانون قدما. وقد ذكر ليفرمور أن: «هذه الطبقة كانت تحوي الذهب الدقيق جدا الذي لا يمكن تبينه بالمجهر العادي، والذي سبق أن شاهدته أول مرة في منجم ستاندارد Standard Mine. كان منتشرا بصورة منتظمة، ولم تظهر فيه أي عيوب فلزية ظاهرة - كان مجرد كتلة فلزية بديعة. يا إلهي، كان كتلة فلزية بديعة»[29].

قام ليفرمور بهذا الاكتشاف على مرتفع يعرف بتلة بوبوفيتش Popovich Hill،

(*) الحجة Claim: إثبات حق التنقيب في قطعة أرض يطالب بها أحد المنقبين أو المعدّنين. [المترجم].

وقد عُرفت باسم أحد المنقبين عن الذهب أقام كوخا له في ذلك المكان. لقد عاش بوبوفيتش على قمة الجبل سنوات. وكانت تحيط به سلسلة جبال تسكارورا من كل جانب. وأعتقد أنه سبر كل بوصة منها. في فيلم جون هاستون John Huston الكلاسيكي الذي تناول مغامرات البحث عن الذهب «كنز سيرا مادر»(*)، يتحدث المنقب العجوز قائلا: «أعرف ما يصنعه الذهب بأرواح الرجال».

لم يترك بوبوفيتش أثرا خلفه، إلا اسمه وكوخا مهجورا. ولا نعلم عنه شيئا إلا المكان حيث كان ينام هربا من آماله[30]، على قمة أكبر حقول الذهب في أمريكا - حقل الذهب الخفي. وعلى امتداد سنتين قضاهما يقلب القمة حيث عاش بوبوفيتش، استطاعت نيومونت اكتشاف احتياطي قدره 12 مليون طن.

ثمة بحر عظيم من الذهب الجديد بانتظار من يكشف اللثام عنه، ومع ذلك... لم تحدث فورة الذهب. لقد استطاع ليفرمور أن يضع يده على ضرب غير معروف سابقا من جيوب الذهب ذات الكميات الاقتصادية على منحى يمتد أربعين ميلا. كان بعرض خمسة أميال وأحيانا بسماكة مئات الأقدام. ومع هذا، فلم يتحقق إلا اكتشاف واحد معتبر في العقد السادس من القرن العشرين - في جبال كورتيز، بأحد الجبال جنوب كارلين. وقد أرسل ليفرمور في مهمة إلى كندا. ولم يكن معظم حقل الذهب قد اكتُشف آنذاك باستثناء منجم واحد في نيومونت Newmont افتُتح في العام 1965، ويضم حقل الذهب الكثير من المناجم التي تتخلله كأنها أضواء عيد الميلاد، ولم يكن معظمها مكتشفا في ذلك الوقت. كان سبب ذلك بسيطا ألا وهو انخفاض أسعار الذهب آنذاك.

---

(*) the Treasure of the Sierra Madre. [المترجم].

# 6

# جولد سترايك
# Goldstrike

كان أعظم المنقبين عن الذهب في العصر الحديث - من أساطين المال(*)، رخيم الصوت، طاهر اليد، مقداما، صلب العزيمة.

لم يعثر أحد على مناجم أخرى في نيفادا لأنها غير موجودة أصلا، ذلك أن سعر الذهب لم يجعل الفلز محل اعتبار. فالفلز يتحدد باعتبارات وضعها الإنسان، وليس الطبيعة. إذ تعمل الطبيعة على تشكيل المعدن، أما الفلز فهو نتاج الحسابات الرياضية. ويعرف الفلز بأنه الصخر الذي يمكن التنقيب فيه عند مستوى مدر للربح. ويتشكل الفلز فقط عندما

«كان المنجم ينتج أكثر من مليون أوقية ذهب سنويا، ولايزال. وبعد سنة من اكتشاف الطبقة العميقة فيه ارتفعت الأوقية من 380 إلى 500 دولار»

(*) من أثرى الأثرياء، شخص ذو ثراء فاحش. [المترجم].

تتجاوز قيمة المعدن بداخل الفلز تكلفة استخراجه من الصخر. وعندما حقق ليفرمور اكتشافه كان سعر أوقية الذهب 35 دولارا. وللحصول على هذا السعر كان يتعين على شركة نيومونت إقامة منشأة المعالجة وإزالة الطبقة العلوية الجاثمة على الصخر، ثم تفجير الصخر واقتلاعه، ثم نقله بالشاحنة إلى المصنع، ثم تفتيته إلى مسحوق دقيق، ثم تحويله إلى المعالجة عبر مجموعة من الحاويات الخاصة بحيث تعلق جزيئات الذهب بالكربون، ثم جمع الخليط الناتج في نهاية المطاف، وحرق الطّفاوة(*) وصب الناتج في سبائك. كل هذه المراحل تتطلب رأسمالا وطاقة وأجور عمال. وكان ثمة مصدر واحد تسترد منه نيومونت كل هذه التكاليف والنفقات - أي سعر الأوقية 35 دولارا، مضروبا في الكمية. وفي العام 1965، عندما وضع منجم كارلين قيد التشغيل، كانت ثمة جيوب هائلة من الصخر الحامل للذهب متركزة في التلال، لكنها لم تبلغ مستوى الفلز لأنها لم تكن غنية بالذهب بما يكفي لتوفير الدعم المالي للمناجم. وقد غيّرت صدمة نيكسون هذا الواقع.

وعندما عُطّلت آلية تحويل الدولار إلى ذهب في العام 1971، كان السعر الحقيقي للذهب - أي ما يدفعه القطاع الخاص - في ارتفاع. وحينذاك، بدأت وتيرة الارتفاع بالتسارع. وبعد ثلاث سنوات تجاوز سعر الذهب 180 دولارا[1]. وهكذا تحولت مساحات شاسعة من شمال - وسط نيفادا إلى فلز. وعمّت المرحلة الثانية من أعمال التطوير منجم كارلين تريند Carlin Trend. وحينئذ بدأت الحفلة.

في النصف الأخير من عقد السبعينيات من القرن العشرين اضطرت سلسلة من الأزمات - الثورة الإسلامية في إيران، وارتفاع أسعار النفط والركود الاقتصادي في أمريكا - المستثمرين إلى شراء سبائك الذهب للتحوط من تذبذب أسعار العملات. وارتفع سعر الذهب. ومن ثم، في عام واحد، من 1979 إلى 1980، قفز سعر الذهب إلى مستوى مرتفع جدا، من 222 دولارا إلى 825 دولارا للأوقية. كان مستوى هذه الزيادة وسرعتها غير مسبوقين. كان لهيب الشائعات والمضاربات يستعر حولها. واكتسب الذهب مكانا جديدا في عقول الناس. لقد بات وفق تعبير المحللين «مؤشرا على مزاج السوق Sentiment Indicator» - أي مقياسا للعواطف الإنسانية مثل

---

(*) الطفاوة Dross: وهي زبد المعدن المصهور أو خبثه. [المترجم].

الخوف والجشع أو الذعر. وعصفت حمى الذهب Gold Fever بالأسواق وغاب المنطق تماما. ويحكى أن تاجرا نيويوركيا صرح لصحيفة أسوشيتد برس في ديسمبر 1979، بعد أن تجاوز سعر الذهب 500 دولار: «لن يقبل العاقل أن يبيع عند هذه المستويات السعرية، إذ يخشى الجميع تعذر شراء الذهب مرة أخرى»[2].

لكن لم يتعذر ذلك عليهم. إذ انخفض سعر الذهب في عامين إلى 290 دولارا، ثم استرد عافيته. وفي عقد التسعينيات من القرن العشرين استقر في مجال يتراوح بين 300 دولار و400 دولار للأوقية. وباعتبار الذهب من مجالات الاستثمار (أي أصلا استثماريا) فإنه لن يعود إلى سابق عهده. لقد بات استخدام نظام جديد لتصنيف أسهم مناجم الذهب معيارا جديدا للصناعة(*) (حيث كان المستوى الصعودي لارتفاعات السعر المتوقعة يدمج في هيكلية تقييم الأسهم). وفي أقل من عشر سنوات ارتفعت القيمة السوقية (وفقا لسوق الأسهم) لمناجم ذهب أمريكا الشمالية عشرة أضعاف، من 200 مليون دولار إلى 30 مليار دولار، مع تدفق ملايين الأوقيات من الذهب خارج منطقة شمال - وسط نيفادا. لقد اعتمدت الأوضاع المالية لأكبر شركتي تنقيب عن الذهب في العالم على منجم كارلين تريند، إحداهما تأسست على يد رجل تعلم من التجربة المريرة أن يقيم اعتبارا لتذبذب أسعار السلع الأساسية(**)، وقد وجد طريقة للتغلب عليها. كان أعظم المنقبين عن الذهب في العصر الحديث، رجلا من أساطين المال، رخيم الصوت، طاهر اليد، مقداما، صلب العزيمة، وكانت له رباطة جأش أمير فلورنسي، تنذر بالتهديد والوعيد.

ولد بيتر مانك Peter Munk في العام 1927، وكان وريث عائلة هنغارية تجارية ثرية. وفي العام 1944، عندما بدأت قوات الاحتلال العسكري الألماني بالقبض على اليهود الهنغار لإرسالهم إلى معتقلات التصفية[3]، كان مانك ذو الستة عشر ربيعا وعائلته من الذين سمح لهم ثراؤهم بدفع المال والهرب على متن قطار كاتزنر Katszner، وهو وسيلة النقل التي رتب لها ريتزو كاتزنر المحامي اليهودي، لقاء رشوة قوامها المال والذهب والألماس دفعت إلى العقل

(*) المقصود بالصناعة قطاع الاستثمار في الذهب. [المترجم].

(**) السلع الأساسية: هي السلع المتداولة في الأسواق المالية وغيرها سواء بشكل مباشر (التسليم الفعلي) أو غير مباشر (التسوية النقدية)، ومثالها القمح والقطن والقهوة، والنفط والكيروسين... إلخ. [المترجم].

المدير لمعتقلات التصفية آدولف إيخمان Adof Eichmann. ووصل مانك سالما إلى سويسرا، ثم هاجر إلى كندا.

لا بد أن النجاة من مخالب الموت المذل الرابض على واحد من أطول طرق الهجرة في التاريخ، تخلف أثرها الدائم في الإنسان. لا يحب مانك الحديث عن ذلك، أو إذا جاز التعبير، لا يحب أن يحدثني عن ذلك. وثمة بيان بأحداث ذلك في مؤلف آنا بورتر Anna Porter «قطار كاتزنر». وبورتر، وهي من مواليد هنغاريا أيضا، ناشرة كندية، ومن أصدقاء مانك. وقد تحدثت عن الإقامة مع مانك في منزله، في حجرة أعتمتها السجف المنسدلة الكتيمة، والسجاد الفارسي الذي يغطي الأرضية، وعلى حائطها صورة لبيت جد مانك في أحد أحياء بودابست الراقية، ويبدو الرجل العجوز واقفا في الحديقة. وقد أخبرها مانك: «كنت أفرز بعض الصناديق، ولا أتذكر الكثير عن الماضي، كان علينا أن نحزم بعض الأشياء القديمة».

وقع الطلاق بين والدي مانك عندما كان في السادسة من عمره. عاش مانك أول الأمر مع والدته، ثم بعد زواج والده مرة أخرى، عاد إلى منزل جده لأبيه. ولدى دخول الجيش الألماني بودابست في مارس 1944، كان دأب مانك التنقل جيئة وذهابا عبر نهر الدانوب في زياراته لوالدته، كاثارينا. وبعد مدة قصيرة، أصبحت تلك الرحلات أكثر مشقة. وفي غضون أيام أصدر النازيون مراسيم تلزم اليهود بارتداء عصابات صفراء على سواعدهم تظهر عليها نجمة داود، وكانت تحظر عليهم استخدام وسائل النقل العام. ومع ذلك واصل مانك زياراته. كان فاتح البشرة أزرق العينين، ولم تظهر عليه سيماء اليهودي. وحشر العصابة الصفراء في جيبه، واستقل الترام المتجه عبر النهر، مخاطرا بحياته.

بدأت أعمال الترحيل، وفي مطلع يونيو 1944 اشترى جد مانك لأبيه، ويدعى جابرييل، أربع عشرة تذكرة لركوب قطار كاتزنر، ودفع الثمن، كما يذكر مانك، بحقيبة محشوة ذهبا ونقودا. من وجهة نظر الشاب، كانت خطة هرب العائلة تنطوي على جانب مروع: ذلك أنها استثنت والدته.

لم يشعر جابرييل بأن مسؤوليته تحتم عليه أخذ كاثارينا بالاعتبار، نظرا إلى أنها انفصلت عن العائلة. وروى مانك لآنا بورتر أنه للمرة الأولى في حياته، هبّ مواجها جده، فأكد أنه سيتخلف عنهم في بودابست للبقاء مع والدته. ونزعت كاثارينا فتيل

المشكلة بنفسها، حيث ألحت على ابنها أن يرافق عائلة والده. ونزولا عند رغبة والدة مانك، أضاف والده أيضا أن كاثارينا لن تعتقل إلا فترة وجيزة. يقول مانك: «أكد لي والدي أننا إن تركنا معها ما يكفي من المال للمؤونة ودفع الرشى، ستكون أمور والدتي على ما يرام. وباعتقادي كان والدي يعلم أنها ستُرحل».

وفي مشهد مؤثر يورده كتاب بورتر، يتذكر مانك أنه اصطحب كاثارينا إلى مركز الاعتقال الذي كان في الأصل معهدا لاهوتيا للأحبار. وقد ارتدت بذلة صيفية ذات لون أصفر شاحب وحذاء إيطاليا. وحمل بنفسه حقيبتها الجلدية الفاخرة. كانت تحتفظ بنقودها في محفظة صغيرة. وتحدثا عما سيفعلانه معا عندما تضع الحرب أوزارها.

وتبادلا عبارات الوداع عند البوابة. وفي اليوم التالي، وكان على وشك المغادرة على متن قطار كاتزنر، اتصل مانك بوالدته في مركز الاعتقال. والغريب في الأمر أنهم سمحوا بتحويل المكالمة الهاتفية إليها. وذكرت كاثارينا أنها كانت بخير، وأن خادمتها أحضرت لها دفعة جديدة من الملابس المغسولة النظيفة. واستقل مانك القطار المتوجه إلى سويسرا. وبعد بضعة أيام وضع الألمان كاثارينا في سيارة المعتقل المتوجهة إلى أوشويتز Auschwitz.

تجاوزت كاثارينا تلك المحنة، لكنها عادت من أوشويتز وقد طرأت عليها تغيرات مؤلمة. وهكذا قفلت عائدة إلى هنغاريا. وكما أخبرتني بورتر في محادثتي الهاتفية للتحدث إليها عن ذلك الفصل من قصة مانك، «أراد بشدة أن يكون معها، لما تبين أنها عادت سالمة، وبعد أن علم بالمحنة التي ألمت بها. كان يحب والدته كثيرا».

وأصرت كاثارينا على أن يذهب مانك إلى كندا ليكمل تعليمه. ثم أحضرها إلى هناك، مع أنها لم تحب ذلك البلد البتة، ولم تكن تجيد الإنجليزية. تقول بورتر: «لقد اعتنى بها عناية فائقة، كانت تلك العلاقة الأقوى في حياته».

وعندما قابلتُ مانك كان في الرابعة والثمانين، رجلا رشيقا، حلو المعشر، تبدو عليه سيماء الصرامة، ووجهه كوجه العُقاب. كان شعره القصير الأبيض معقوفا بإحكام على رأسه. وكان يتنقل بخطوات رشيقة. تقابلنا في جناحه الواقع في زاوية الطابق الخامس بفندق كلاريدج بلندن. كان يوما ربيعيا دافئا على غير المألوف وقد غمرت أشعة الشمس الشرفة. وتمايلت الستائر الشفافة نحو الداخل. وتناثرت

الأزهار البيضاء على إفريز المستوقد(*) برخامه البرتقالي. وطلب مانك إبريق قهوة وثلاث زجاجات من مشروب سان بيليجرينو. وجلس واحتسى فنجان القهوة عن آخره، ثم استوى قائما ليجري مكالمة هاتفية عند طاولة المكتب، واستخدم في محادثته مقاطع أحادية اللفظ(**). لم أعلم حينها، ولكن عندما تقابلنا، كانت شركة مانك، واسمها شركة باريك للذهب Barrick Gold Corporation، كبرى شركات التنقيب عن الذهب في العالم، في خضم حرب العطاءات السرية مع العملاق الصيني: شركة مينميتال ريسوروسز Minmetal Resources. وبعد شهر كانت شركة باريك على وشك أن تفاجئ عالم الأعمال بأنباء انتزاعها شركة أسترالية للتنقيب عن النحاس من فكي مينميتال مقابل مبلغ 7.6 مليار دولار.

كانت تلك كبرى عمليات الاستحواذ في تاريخ شركة باريك، والمرة الأولى التي تشتري فيها أصولا من غير الذهب. وارتقى مانك بشركة باريك إلى القمة في مجال التنقيب عن الذهب من خلال التركيز الحصري على معدن واحد وموقع واحد. وقد حولت استراتيجيته منجم الذهب الذي بلغت قيمته 14 مليون دولار إلى شركة وصلت قيمتها إلى 50 مليار دولار. كان ذلك المنتهى السعيد لهذه الرحلة. بيد أن الرحلة نفسها لم تكن سهلة.

تخرج مانك في العام 1952 في جامعة تورنتو حيث نال شهادة الهندسة الكهربائية. وبعد ست سنوات أسس وشريكه التجاري ديفيد جيلمور David Gilmour شركة كليرتون ساوند المحدودة Clairtone Sound Corporation Limited[4]. كان مجال عمل الشركة إنتاج مسجلات الصوت عالية الجودة ووضعها داخل هياكل وأطر وفقا لأفضل التصاميم. في تلك الأيام كانت معدات الصوت المنزلية تركب داخل خزائن صندوقية الشكل. وابتكرت كليرتون قطعا ومكونات مصقولة ذات تصاميم موحدة استوحت روح الستينيات من القرن العشرين.

كانت الشركة تستهدف الشريحة العليا من السوق، وقد استأجر مانك خدمات فرانك سيناترا ليعمل مقدما للإعلانات التجارية للشركة، وتدبرت الحصول على فرصة

---

(*) المدفأة أو مصطلى النار. [المترجم].

(**) عبارات قصيرة مقتضبة. [المترجم].

للإعلان غير المباشر(*) عن نظام الصوت المجسم (ستيريو) لبرنامج بروجيكت جي Project G ذي الصبغة العصرية المستقبلية في فيلم في العام 1967 الشهير «الخريج» The Graduate. وسطع نجمه في عالم الأعمال، فكان ينتقل بطائرته الخاصة وهو في عمر الثلاثين للتحدث إلى مجموعات الأعمال التي كانت ترى فيه شخصا ملهِما ثاقب البصيرة. وفي إعلان تجاري يرجع إلى العام 1967 - وهو متاح اليوم على يوتيوب YouTube - يظهر مانك وشريكه يتجولان عبر جسر بروكلين نحو مانهاتن في سيارة بيرس آرو Pierce Arrow المكشوفة[5]. وفي المقعد الخلفي كان أحدث منتجات الشركة، التلفزيون الملون كليرتون. كانت شركة كليرتون توشك على الانهيار عندما أذاعوا الإعلان[6]، وكان مانك رائعا صقيلا كالخزائن الدانماركية العصرية(**) التي استخدمت هياكل لمنتجاته، وهذا ما استقطب زبائن مثل هيو هيفنر(***).

بعد ذلك، وقد غلبتها المشكلات التصنيعية والتحول نحو التلفزيون الملون الذي لم يحقق رواجا في السوق، انهارت شركة كليرتون. وقد اقتبست نينا مانك في مقالة كتبتها عن الشركة وأبيها، وهي المحرر المشارك في مجلة فانيتي فير Vanity Fair، ما ذكره محام يعمل لمصلحة حكومة نوفا سكوشيا، التي خسرت ملايين الدولارات في شراكتها مع كليرتون: «كان مانك رجل مبيعات ممتازا لمصلحته الشخصية. كان قادرا على بيع أي شيء لأي كان - وإن كان هو نفسه»[7].

في أعقاب انهيار الشركة، غادر مانك كندا إلى لندن. وأسس في العام 1970 مع جيلمور شركة فنادق ساوثِرن باسيفيك، وترأس مانك مجلس إدارتها. وفي غضون ثلاث سنوات أصبحت كبرى سلاسل الفنادق الفاخرة في منطقة الهادئ (باسيفيك). وبدا أنه استعاد سمعته التجارية بكاملها إلى أن كان العام 1973، حين خرجت إسرائيل(****) منتصرة على الجيوش العربية في حرب يوم كيبور (يوم الغفران)(†) التي دامت

(*) الإعلان غير المباشر Product Placement أو التسويق السياقي: هو إظهار المنتجات في سياق أحداث الفيلم السينمائي بقصد ترسيخها في ذهن المشاهد بصورة غير مباشرة. [المترجم].

(**) في الأصل Danish modern cabinets. [المترجم].

(***) هيو هيفنر Hugh Hefner: ناشر مجلات ورجل أعمال أمريكي. [المترجم].

(****) الكيان الصهيوني. إن استخدام المؤلف اسم «إسرائيل» لا يغير واقع الأمر، باعتبارها الكيان الصهيوني المحتل لأرض فلسطين. [المترجم].

(†) وتعرف بحرب أكتوبر. [المترجم].

أسبوعين ونصف الأسبوع. وأدى فرض الدول العربية المصدرة للنفط حظرا على توريد النفط على بعض الدول إلى ارتفاع سعر النفط. وبذلك ارتفعت تكلفة السفر وتباطأ الاقتصاد العالمي. وانكمش مشروع مانك، وأدت محاولاته إنقاذ المشروع إلى عقد اجتماع مهين في لندن مع إيرل إينشكيب Earl of Inchcape، رئيس مجلس إدارة عملاق الشحن البريطاني بي أند أو P&O.

ووفقا لمقالة نشرت في صحيفة جلوب أند ميل Globe and Mail بتورنتو: «فإن السيد مانك، وقد كان بحاجة ماسة إلى رأس المال[6]، وانتابه الإعياء من رحلته الجوية التي استهلها من فيجي واستغرقت 40 ساعة، جاء راجيا مجلس إدارة اللورد إينشكيب النظر في تفعيل عرض لشراء الأسهم كانت شركته ساوث باسيفيك قد رفضته سابقا. ولم يكن اللورد المتعجرف لتلين له قناة: «ما العرض الذي تتحدث عنه سيد مانك؟ ليس ثمة عرض على الطاولة. ستعلن إفلاسك ثم نتحدث إلى مدير التفليسة وسنستحوذ على أفضل أصولك ثم إنك ستواجه نقمة المساهمين في شركتك، وأنت تستأهل ذلك تماما، لأنك كنت عنيدا متصلبا». وهكذا اصطُحب السيد مانك إلى الباب.

وقد تدبر مانك إنقاذ استثماراته، لكنه مر بظروف عصيبة مجددا، تمثلت هذه المرة في فشل أحد مشروعاته النفطية بسبب تراجع السوق. ووفق روايته، كانت تلك نقطة الحضيض التي وصل إليها، وهي تلك اللحظة التي أصابه فيها سوء الطالع بانتكاسة «خاطفة وساحقة ولا ترحم». وهكذا انكفأ إلى منزله في كلوسترز Klosters، في المنتجع السويسري، ليلعق جراحه. وفي العام 1982 وبينما كان مانك يستعرض شريط هذه الأحداث القديمة في غرفته الفندقية بلندن، كان مؤكدا أنه قد بلغ لحظة التجليات (انكشاف البصيرة). كان كلوسترز، وهو المعتزل المفضل للأمير تشارلز، وكان مقصدا لشخصيات مثل سليل الأسرة المصرفية نات روتشيلد Nat Rothschild، ملتجأ لمانك هربا من هموم الأعمال التجارية لسنوات عديدة. لكنه هذه المرة لم يفكر إلا في الأعمال التجارية. كان يفكر تحديدا في تقلبات الأسعار وقدرتها على إحباط أي خطة بأثر فوري. كان يفكر أيضا في أخطائه وعثراته التي ارتكبها عند اتباعه حكمة الحشود(*). كان مانك قد بلغ الثالثة والخمسين من العمر -

(*) حكمة الحشود Wisdom of Crowd - التصرفات الجمعية للحشود القائمة على امتلاك مصادر المعلومات نفسها، مما يجعلها تبني قراراتها عليها وتنحو المنحى نفسه في القرار وردة الفعل. [المترجم].

وهو أوج سن النضج. وعكف على البحث عن فرصة لاسترداد ملايينه وملايين مشاركيه الضائعة - يحدوه الفخر والإصرار. كان يسعى وراء فرصة تجارية يمكن من خلالها مقاومة تقلبات الأسعار. «أردنا إيجاد مجال عمل تجاري لم يصل بعد إلى مرحلة الانتشار، عمل تجاري مغمور وغير مطروق البتة بحيث لم يرغب أحد في مزاولته». وتحول انتباهه إلى أصل معدني لم يكن سعره في ارتفاع، بل في تراجع. وحسبما لمس بنفسه، كانت الدولة الموردة الأساسية لهذه السلعة هي جنوب أفريقيا، وكانت على شفا الفوضى السياسية. والأهم من ذلك أن الشركات المنقبة عن ذلك المعدن حافظت على قيمتها على الرغم من تراجع سعره.

وأفصح مانك عن السر: «إنه الذهب، سيدي. الذهب! فهو يحقق أعلى القيم الرأسمالية للإيراد المحقق(*). إذ تباع أسهم الذهب بقيم عالية جدا بالنسبة إلى إيراداتها لأن سهم الذهب لا يعتبر مجرد سهم بل أيضا حق اختيار(**) أو حق اختيار شراء محله الذهب أيضا. فإذا اشترى التاجر ساعات سواتش Swatch أو منتجات نستله، فإنه كمن يشتري الحق في الحصول على الإيرادات المستقبلية. أما إذا اشترى الذهب فإنه يشتريه لأن - أجل لأن- تلك الشركة البائعة تمتلك مليوني أوقية من الذهب، وفي اعتقادي سيرتفع الذهب في غضون خمس سنوات!»

«لدينا فقط بضعة ملايين من الدولارات في الصندوق، ليس أكثر من 20 مليون دولار. لذلك قلت: «أيها الرفاق، دعونا نفتش عن منجم ذهب».

وفي العام 1983 أسس مانك ومشاركوه شركة باريك ريسوروسز Barrick Resources. إن معظم مشروعات التنقيب الناشئة تهدف إلى تحقيق النمو عن طريق الاكتشافات الجديدة. كان مانك متحمسا من دون إبطاء للبدء بأعمال التنقيب. وكانت استراتيجية شركة باريك تقوم على شراء احتياطيات المعدن، بدلا من البحث عنه. بهدف تحقيق «النمو السريع». وأسس مانك شركته لبنة لبنة كما في مراحل لعبة ليجو Lego، فكان يقتنص مناجم الذهب ويضعها في موقعها

---

(*) تعرف أيضا بنسبة السعر الحالي لسهم الشركة منسوبا إلى دخلها الصافي (اختصارا P/E ratio). [المترجم].

(**) حق الاختيار أو حق الخيار Option: عقد أو ترتيب تعاقدي يعطي حامله الحق في بيع أو شراء أصل ما عند سعر محدد ضمن فترة محددة أو في نهاية تلك الفترة. ويقسم حق الاختيار في حق اختيار الشراء Call وحق اختيار البيع Put. [المترجم].

الصحيح بعد أن يختار الصالح منها. واشترى بعض المناجم لأجل ذهبها، وبعضها الآخر لأجل العاملين فيها. لقد كُتب الكثير من الشائعات عن مانك. إذ تذكر إحدى تراجم السيرة الشخصية أنه وصل إلى ترحيله من هنغاريا في حالة من اللامبالاة[9] - وقد أحدثت هذه الرواية أثرا مؤلما في نفسه، مع أنها كانت سخيفة لا أساس لها. ويقدم وصف آخر حكاية متقنة الحبكة عن مانك[10]، الذي خطا نحو مصعد، وهناك قابلته فتاة حسناء غريبة عرضت عليه مرافقته. فقال مانك: «حسنا» مبديا موافقته على عرض الفتاة للمبيت معه. ويعلق قائلا: «ولكن ما فائدة ذلك لحملة أسهم شركتي؟». ومع ذلك تظل قصة مانك ذات طابع بطولي. فقد نجا من براثن الموت بآلة قتل منهجي. وتجاوز محن الفشل المهني. وأسس أكبر شركة تنقيب عن الذهب في العالم بعقلية فريدة وسرعة تستحقان الإعجاب[11].

اشترت شركة باريك أول مناجمها في العام 1984[12]، وكان عبارة عن منشأة تصارع لأجل البقاء في شمال أونتاريو. ولتحديث المنشأة - وذلك من خلال إدخال تحسينات أساسية الغاية منها ضمان ربحية المنجم - احتاجت الشركة إلى استثمار 15 مليون دولار مباشرة، وكان مانك لا يملك ذلك المال. ولجمع المال اللازم، أظهر مانك جرأة مالية استطاع توظيفها في سبيل تحقيق طموحه[13]. ذلك أنه طرح نوعا جديدا من الاستثمار: ترست الذهب(*).

لم يحصل المستثمرون في هذا الصندوق على أسهم في شركة باريك، بل على نسبة مئوية مسبقة (قبل أي اقتطاعات) من الإنتاج المستقبلي للمنجم (نسبة مئوية من الإنتاج الإجمالي). واحتوت الصفقة على فقرة «التصاعدية» Escalator Clause لتشجيع المستثمرين (من خلال تحسين شروط الصفقة): إذا ارتفع سعر الذهب، ترتفع كذلك النسبة المئوية الإجمالية. وفي كلتا الحالتين، يحقق المستثمر ربحا وإن لم تحقق الشركة أي أرباح، باعتبار أن الصندوق يدفع قيمة الحصة فيه قبل اقتطاع التكاليف. وقد وفر الصندوق للمستثمرين سبل التحوط باستخدام الذهب، بحيث ينصب التركيز فقط على سعر الذهب من دون التعرض لمخاطرة تغير تكاليف التشغيل. ومن ذلك الحين، سيصبح التحوط تكتيكا أساسيا لشركة باريك في سعيها إلى تحقيق النمو.

---

(*) ترست الذهب Gold Trust: صندوق استثماري يتركز عمله على الاستثمار في الذهب. [المترجم].

كانت صفقة الشراء التالية التي نفذتها باريك هي مناجم كامفلو Camflo Mines ومقرها كيبيك، وكانت تنتج 50 ألف أوقية سنويا، لكنها كانت تواجه مشكلة كبرى: مديونيتها لأحد المصارف بمائة مليون دولار. وقد وافق المصرف الدائن للمنجم على صفقة الشراء بالمديونية(*) وأمهل شركة باريك عاما واحدا لسداد كامل الدين. وإضافة إلى عبء الدين كانت هناك الاستثمارات النفطية الخاسرة لشركة باريك، المسجلة في دفاترها بقيمة 30 مليون دولار.

أولا، عمل مانك على التخلص من الأصول النفطية الخاسرة لقاء مبلغ 32 مليون دولار. واستطاع جمع 30 مليون دولار أخرى في طرح خاص(**) لأسهم باريك لخمسين من كبار المستثمرين، و53 مليون دولار إضافية بطرح صندوق ترست ذهب آخر. واسترد المصرف الدائن دينه البالغ 100 مليون دولار، وحصلت شركة باريك على الذهب. الأهم من ذلك، حصلت الشركة في صفقة الاستحواذ الوحيدة على ما كان ينقصها وتحتاج إليه - فريق من أمهر المنقبين عن الذهب.

يقول ألان هيل Allan Hill، وهو أحد المديرين التنفيذيين الذين انضموا إلى شركة باريك من جراء صفقة شراء منجم كامفلو: «إلى ذلك الحين، لم تمتلك شركة باريك فريقا تشغيليا. كانت تدير شؤون منجمها من خلال الخبراء الاستشاريين».

وفقا لخطة مانك العظيمة، كان المتوقع أن تنمو شركة باريك إلى مستوى يضمن اجتذاب مديري صناديق الاستثمار الأوربيين الذين دأبوا دائما على استثمار جزء من أصولهم في الذهب وأسهم التنقيب عن الذهب. وقد دأبت تلك الصناديق الاستثمارية على الاستثمار في أسهم التنقيب عن الذهب لمناجم جنوب أفريقية، وكانت تلك المناجم رائدة على مستوى قطاع المناجم. لكن ارتفاع حدة العنف في بلد التفرقة العنصرية، وحالة الاحتقان العام في أوروبا وأمريكا طلبا لسحب الاستثمارات من جنوب أفريقيا، ستؤدي باعتقاد مانك إلى إجبار مديري صناديق الاستثمار على البحث عن بدائل أخرى لتوظيف استثماراتهم التقليدية في مناجم

(*) الشراء بالمديونية Buyout: من أساليب الاستحواذ على الشركات، ويعرف بأنه الاقتراض بهدف السيطرة، وكذلك السيطرة من خلال الاقتراض. حيث تمول عملية الشراء من خلال الدين. [المترجم].

(**) الطرح الخاص أو الاكتتاب الخاص Private Placement: طرح أسهم الشركة على عدد محدود من كبار المستثمرين، بدلا من طرحها للجمهور. [المترجم].

الذهب. وقد خطط مانك لتوفير الفرصة لهم للاستثمار في شركة كبرى للتنقيب عن الذهب تعمل في بيئة استثمارية آمنة: الولايات المتحدة. وحالما استحوذت شركة باريك على طاقمها الجديد من المديرين التنفيذيين للمنجم، أرسلهم مانك للبحث عن صفقة الاستحواذ الأهم على الإطلاق في أمريكا. يقول هيل: «درسنا كل مناجم الذهب المعروضة للبيع في أمريكا الشمالية». ووجدوا ضالتهم في موقع يبعد مسافة خمسة وثلاثين ميلا جنوب غرب مدينة سولت ليك سيتي Salt Lake City.

كان لمنجم ميركر Mercur Mine ماض حافل، لكنه أغلق في العام 1913.

وفي العام 1981 اشترى قسم التنقيب عن الذهب في شركة جيتي أويل Getty Oil المنجم وأنفق 100 مليون دولار على إعادة تأهيله. وفي العام 1984 استحوذت شركة تيكساكو Texaco على جيتي. ولأن منجم الذهب لم يكن جزءا مما أرادته تيكساكو، فقد وكلت بعض المصرفيين للبحث عن مشترين. وتوجه آلان هيل إلى أوتا Utah للمعاينة.

كان هيل وفريقه يتدارسون الأرقام عندما تقدمت شركة إيكسون Exxon، العملاق النفطي، في يناير 1985 بعرض تنافسي جريء. وترك فريق شركة باريك الميدان لإيكسون، ومضى يفتش عن فرص أخرى. وبعد مرور شهر، ولأسباب مجهولة لم تعد إيكسون مهتمة بالصفقة، وانسحبت. وعاد هيل إلى منجم ميركر ووجد هذه المرة ما كان يراه خطأ حسابيا جسيما قد يحقق لشركة باريك صفقة رابحة.

كان يعتقد للوهلة الأولى أن احتياطيات ميركر، التي تكفي للاستمرار مدة ثماني سنوات، كانت متدنية جدا بحيث لا تكفي لتبرير تكلفة شرائها. ولكن بتقليب النظر في المسألة مرة أخرى، خلص هيل إلى أن تيكساكو ربما بالغت في تقدير التكاليف. فباعتبار أن الفلز تابع رياضي للتكلفة ولسعر الذهب أيضا، فإن انخفاض التكاليف سيعني وجود احتياطيات تفوق تقديرات تيكساكو.

ويستذكر هيل أن تيكساكو، آنذاك، سدت في وجهه سبل الدخول إلى المنجم. كانت الشركة تخشى أن يعلم العاملون في المنجم بعرضه للبيع فيؤثر ذلك سلبا في معنوياتهم. وبدلا من ذلك، أنشأت تيكساكو مركز بيانات في دينفر. وهناك عاين هيل الأرقام مجددا ووجد الخطأ الحسابي الجسيم الذي ارتكبته شركة النفط. ولم يرغب في أن يبوح لتيكساكو عن تقييمها لاحتياطياتها دون المستويات الفعلية،

ولكنه وجد أن الطريقة الوحيدة للتحقق من حساباته كانت إدخال أرقامه في برمجيات الشركة النفطية المستخدمة في حساب الاحتياطيات. واستخدم في الإشارة إلى تكاليفه الأقل عبارة «تكاليف مرحلية»، وطلب من تيكساكو إدخال الأرقام. وعندما تم ذلك، ارتفعت الاحتياطيات بنسبة 25 في المائة. كان هيل يعتقد أن الرقم الحقيقي أكبر من ذلك. وهكذا سعى مانك إلى الحصول على المنجم.

كانت تيكساكو قد حددت أقل مستوى للسعر عند 40 مليون دولار، وهو مبلغ كبير بأرقام العام 1985 بالنسبة إلى شركة صغيرة مثل باريك. وكانت تيكساكو، العملاق النفطي متعدد الجنسيات، ترفض أيضا أن تجعل الأمان الوظيفي لعمالها رهنا لهذه المؤسسة الصغيرة. وفي لقاء أجراه وجها لوجه مع المدير التنفيذي المسؤول عن عملية البيع، بين مانك أن باريك قادرة على إدارة المنجم والوفاء بالتزاماته. ومن ثم أضاف إلى عرضه طعما(*) مغريا: إذا ارتفع سعر الذهب بمقدار محدد، فسيدفع لتيكساكو مبلغا إضافيا قدره 9 ملايين دولار. وأبرمت الصفقة. ويذكر آلان هيل، مستعيدا تلك الأحداث: «بإمكان بيتر مانك تمويل شراء أي شيء على وجه هذا الكوكب».

حصل مانك مقابل 40 مليون دولار على منجم أنفق مالكوه السابقون 100 مليون دولار على أعمال تحسينه. واستطاع مديرو المنجم المتمرسون زيادة تدفق الفلز عبر محطة المعالجة من 3 آلاف طن إلى 4 آلاف طن يوميا، ولاحقا إلى 5 آلاف طن يوميا. وفي ثلاثة أشهر خفضوا تكاليف استخراج الأوقية الواحدة من الذهب من 290 دولارا إلى 212 دولارا. وارتفع إنتاج ميركر السنوي من 34 ألف أوقية إلى 116 ألف أوقية، وزادت الإيرادات من 13 مليون دولار إلى 42 مليونا. وهكذا حققت شركة باريك مشروعا ناجحا، وكان هذا المشروع في أمريكا، وهذا الأهم.

لقد أسست شركة باريك منجم ميركر باعتباره شركة منتجة للذهب متوسطة الحجم لإيجاد موطئ قدم لها في الولايات المتحدة. كان العامل المكاني، أي الموقع، من عوامل القوة الاستراتيجية التي امتلكها مانك. وبذلك كان بحاجة إلى العامل الثاني، وهو إيجاد شركة لها من الحجم ما يكفي لجذب الاستثمارات الضخمة. وتعين

(*) الطعم: ما يوضع من طعام للأسماك في صنارة الصيد لجذبها. [المترجم].

على شركة باريك العثور على شركة ذات احتياطي مهم من الذهب، وحيازتها. وكان ثمة مكان واحد تستطيع فيه شركة باريك إيجاد مثل هذا الاحتياطي، وأن تظل في الولايات المتحدة: إنه نيفادا. وعلى حد تعبير هيل، أزف الوقت للذهاب إلى الصيد في بلد الفيلة. كان الفيل الذي عثر عليه وحشا يثير الشفقة. بيد أنهم استطاعوا تحويله إلى أشهر مناجم الذهب في العالم.

بدأ العمل في منجم جولد سترايك Goldstrike في العام 1986 عندما احتاج أحد المشاركين فيه إلى المال، وكان يمتلك نصف المنجم. وتوجه آلان هيل وفريقه الإداري بالطائرة لتقييم المنجم. ولم يتأثروا بما رأوه. «كان جولد سترايك مشروع أعمال منزليا محدودا(*) يُدار بالنزر اليسير من الموارد الاقتصادية، وكان الإهمال سيد الموقف». على حد تعبير أحد المطلعين لاحقا. وقد أيد هيل ذلك قائلا: «كان مشروع أعمال منفلتا»(**). كان المديرون الميدانيون يشرفون على سير العمل في المنجم انطلاقا من قاطرة متداعية. وكانت معظم المعدات في حالة رثة. وقد وضعت صهاريج السيانيد المستخدم في استخراج الذهب خلف مكتب مستأجر في إيلكو Elko الواقعة في الجوار. وعلى نقيض ذلك، وفي جوار جولد سترايك كانت تقوم مناجم نيومونت العامرة. بالمقارنة، كان منجم جولد سترايك في حالة يرثى لها. لكن ماذا لو أن إدارة جولد سترايك قد أخفقت، فقط، في استغلال هذا المورد الذي بين أيديها؟ كان منجم نيومونت يتدفق ذهبا من كل حدب وصوب. وكان من السهل أن يخلص المرء إلى أن منجم جولد سترايك المتداعي ينقصه شيء. لقد تساءل أحد الجيولوجيين العاملين لدى شركة باريك ما إن كانت أعمال الحفر الضحلة العديدة الموجودة في منجم جولد سترايك مؤشرا إلى وجود مزيد من الاحتياطيات أسفلها، والتي انتقل منها الذهب إلى المستويات الأعلى. وبأخذ هذا الاحتمال بعين الاعتبار، وفي آخر الجهود لإضافة عامل جذب لقطعة الأرض التي كانوا يسعون إلى بيعها، حفر مالكو جولد سترايك الجيب الرئيس إلى عمق 1800 قدم... وأصابوا كتلة عملاقة.

---

(*) مشروع الأعمال المنزلي Ma-and-pa operation: مشروع أعمال يدار على نطاق ضيق من قبل المالك نفسه وعائلته، وبموارد يسيرة. [المترجم].

(**) خارج عن السيطرة. [المترجم].

لقد اصطدمت الحفارة بكتلة صخرية عالية الجودة (عالية التركيز) سماكتها 391 قدما. وكان ثمة كتلة أعمق. لكن الجيب الفلزي كان عصيا على الحفر. وكان الذهب محصورا بشبيكة من السلفايد Sulfide lattice ستجعل عملية الاستخراج صعبة ومكلفة جدا. تعتبر الربحية السمة التي تميز الفلز عن الصخر عديم القيمة. ويمكن لتكاليف الاستخراج العالية أن تستنزف القيمة من الفلز المستهدف، ويمكن باستخدام الأساليب الاقتصادية تعزيز تلك القيمة.

إن الذهب عنصر كيميائي صعب المراس. فهو يربض بالقرب من إحدى زوايا الجدول الدوري للعناصر، إلى جانب العناصر الخاملة(*) الأخرى. ومن الناحية الكيميائية، لا يسعى الذهب إلى هجر حالته الطبيعية الأصلية، ولا بد من سحبه من ناصيته(**)، وغالبا بمساعدة مواد كيميائية سميّة. ومن هذه المواد السيانيد، وتقنية شائعة تستخدم السيانيد تعرف اصطلاحا بـ «الترشيح بالكربون النشيط»(***).

ينقل الفلز من الحفرة بالشاحنات ويجمع في منطقة التخزين المسماة منصة الفلز الجاهز للمعالجة، عبر محطة المعالجة والاستخراج التي تعمل بتقنية الكربون النشط. وينقل جهاز البكرات الفلز ويلقمه داخل أسطوانة دوارة عظيمة الحجم. في داخل الأسطوانة، تقذف كرات الفولاذ على الصخر، فتفتته إلى قطع. وتقوم آلة أخرى قاذفة لكرات الفولاذ بتهشيم قطع الصخر التي لم تعالجها الأسطوانة الأولى. ثم يُمزج المسحوق الصخري بالماء لتتشكل الردغة(****) التي تُضخ إلى أولى سلاسل حاويات الترشيح ذات العلو المرتفع.

في الحاويات يضاف السيانيد إلى المزيج، فيعمل على تحليل حبات الذهب الصغيرة من الصخر الغباري (المسحوق الصخري). وفي الوقت نفسه، تُضخ كريات الكربون إلى الحاويات البعدية (اللاحقة) وتُدفع إلى الحركة عكس التيار باتجاه الحاويات القبلية (السابقة). ويُزوّد الكربون بشحنة كهربائية ليجذب محلول

---

(*) العناصر الكيميائية الخاملة: هي العناصر التي لا تتفاعل مع غيرها، ولا تستجيب لوجود العناصر الأخرى. [المترجم].

(**) أي إجباره على ذلك، قسرا. [المترجم].

(***) الترشيح بالكربون النشيط أو المنشط Carbon In Pulp (CIP): من تقنيات استخراج الذهب التي تقوم على تحرير الذهب من فلزه باستخدام محلول السيانيد. تعتبر هذه الطريقة من أرخص وأبسط أساليب استخراج الذهب. [المترجم].

(****) الردغة Slurry: طين أو ملاط طري أو رقيق القوام. [المترجم].

السيانيد والذهب، فيلتصق به. وبإتمام الفلز دورة العبور في كل الحاويات، يكون الكربون قد تشرب معظم الذهب.

وأخيرا تمر كريات الكربون عبر السائل الحمضي لانتزاع الذهب منها. ويتوجه السيانيد إلى حوض المخلفات، ثم يعاود الكربون دخول عملية المعالجة، فيمر السائل الحامل للذهب عبر مجموعة من الصفائح المعدنية المكهربة، المغلفة بالصوف الفولاذي(*). ويتشكل الذهب في صفائح كهربائية على الصوف الفولاذي. يفكك القائمون على التشغيل هذا الجهاز إلى أجزاء مرة كل أسبوع، ويشطفونه بقوة الماء النفاثة، ويستخلصون رملا ذهبيا ناعما. ثم يجففونه في الفرن لليلة كاملة، ثم يصهرونه ويصبونه في سبائك.

في موقع كارلين تريند يستخدم المنقبون طريقة لاستخراج الذهب أقل تكلفة تسمى الترشيح بالأكوام Heap leaching. لقد حققت هذه التقنية مليارات الدولارات للمنقبين عن الذهب من خلال تحويل قطاعات واسعة من الأراضي الحدية(**) إلى فلز. وتعود طريقة استخراج المعدن برش رذاذ السوائل على كومة الصخر إلى أكثر من 500 عام خلت، لكن استخدام السيانيد في استخلاص الذهب من أكوام الصخر ظهر في كورتيز بنيفادا في العام 1969. غير أن التنقيب عن الذهب لم ينظر إلى الوراء البتة.

إن طريقة الترشيح بأكوام الصخور، الأقل تكلفة من طريقة الكربون النشيط، تتيح للقائمين على المنجم معالجة حمولة طنية ضخمة من الفلز منخفض التركيز (متدني الجودة)، هذا الفلز كان سينتهي بين المخلفات لولا استخدام هذه الطريقة. يلقم القائمون على العملية الصخر عبر سلسلة من آلات التهشيم، ثم يجمعونها في أكوام بارتفاع مئات الأقدام. وتستقر كل كومة على «طبقة كتيمة»، وهي صفيحة لدنة (بلاستيكية) معدة للاستخدام الصناعي(***). وتصل المساحة التي تغطيها

(*) الصوف الفولاذي Steel wool: أيضا الليف السلكي، وهو عبارة عن حزمة من الشعيرات الفولاذية الرفيعة، تستخدم في أعمال فصل الذهب. [المترجم].

(**) الأراضي الحدية أو الهامشية: هي أراض ذات قيمة فلزية متدنية، أي إنها دون الأراضي الفلزية أو لم تصل بعد إلى مستواها. ويتفق هذا التوصيف مع مفهوم الريع التفاضلي في علم الاقتصاد. [المترجم].

(***) الاستخدام الصناعي: يصف المواد ذات الصلابة أو الحجم أو المقاومة القادرة على تلبية الحاجات الصناعية من الأدوات أو المعدات. [المترجم].

الكومة الكبيرة ذات الحجم النظامي إلى 160 فدانا. ويرش محلول السيانيد على الكومة عبر شبكة من الخراطيم المثقّبة. وهكذا يرشح السيانيد من خلال الفلز المهشم، فيحرر الذهب ويحمله في المحلول إلى الأسفل باتجاه الصفيحة اللدنة المستخدمة في التجميع. ويفرغ المحلول الحامل للذهب في أحواض التجميع. ثم يضخ السائل عبر الكربون لانتزاع الذهب.

لقد واجهت شركة باريك، في منجم جولد سترايك، تحديا من نوع خاص. فكتلة الفلز الجديد تتكون من فلز الكبريتيد (السلفيد) Sulfide Ore، وهو لا يتأثر بعملية المعالجة بالسيانيد. وكما تحاط الشوكولا في «إم آند إم» M&M بقشرة صلبة، يكون الذهب أيضا محاطا بقشرة صلبة. ولا يمكن للسيانيد اختراق قشرة صخر الكبريتيد. وثمة طريقتان للتغلب على هذه المشكلة. أن يحرق الكبريتيد في المعقام Autoclave(*)، أو أن تستخدم بكتيريا متخصصة لالتهامه.

تعيش هذه البكتيريا في الطبيعة في أماكن مثل الينابيع الحارة بحديقة يلوستون الوطنية Yelowstone National Park، حيث تتغذى على الكبريت منذ آلاف السنين. ويثير المنقبون على الذهب شهية البكتيريا من خلال مزج مركّز الذهب بالمواد المغذية. يذهب هذا المزيج إلى الحاويات حيث تتغذى البكتيريا على طبقة الكبريتيد، وتحرر الذهب. قد تبدو هذه العملية «ذات أثر بيئي حميد» لكن البكتيريا تصدر الحرارة، التي ينبغي التخلص منها عن طريق التبريد عالي التكلفة. كما أن أجهزة المعقام باهظة التكلفة أيضا، سواء من حيث تركيبها أو تشغيلها، غير أن شركة باريك علمت بذلك مسبقا. وقد ضمت قطعة الأرض التي يقع منجم ميركر داخلها أيضا جيوب رواسب الكبريتيد. يقول هيل: «لقد استفدنا كثيرا من استخدام أجهزة المعقام». لم يستطع مانك أن يقاوم احتمالات اكتشاف الفلز في مستويات عميقة في جولد سترايك، على الرغم من النفقات الإضافية التي ستترتب على ذلك.

للوهلة الأولى، كانت المصارف التي قصدها مانك طلبا للاقتراض مترددة. فقد أثار المصرفيون السؤال التالي: إذا كان منجم جولد سترايك شاسع المساحة، فلماذا لم تتقدم نيومونت لشرائه؟ بوجود المناجم المحيطة بجولد سترايك كانت شركة

---

(*) وعاء معدني محكم الإغلاق يستخدم البخار المحمي والضغط. [المترجم].

نيومونت عاملة بطبيعة الأرض بلا ريب. واستطاع مانك أن يكسب المصرف إلى جانبه، لكنه واجه تهديدا آخر أمام إتمام الصفقة: سرعة انغلاق نافذة المناورة التكتيكية. زِيد عمق الحفرة التي أحدثتها الحفارة في الجيب العميق في أكتوبر. وفي نهاية ذلك العام، 1986، كانت الإعفاءات الضريبية على الأرباح الرأسمالية، التي تعتبر عاملا مهما لحسابات شركة باريك، على وشك أن تُرفع.

انكب محامو الجانبين، في دينفر، على العمل حتى في أيام العطلة، وكان نصب أعينهم الموعد النهائي المضروب. واكتفوا بعطلة واحدة فقط: عيد الميلاد (الكريسماس). وفي 26 ديسمبر عادوا إلى عملهم. وفي آخر لحظات المهلة يوم 31 ديسمبر، وعلى حد تعبير أحد المشاركين «وأعني بدقائق معدودة قبل حلول منتصف الليل»، أدرك المحامون أن منجم جولد سترايك لم يشكل مجلس إدارته وفقا للأصول المرعية. وتعذر على فريق الإدارة الحالي تنفيذ الاتفاقيات المبرمة بصورة قانونية. وكان المبلغ الذي عرضته شركة باريك، وقدره 10 ملايين دولار، لإبرام الصفقة لايزال على الطاولة في حالة انتظار. وباقتراب عقرب دقائق الساعة من بلوغ الثانية عشرة قدم محامو جولد سترايك لشركة باريك تأكيدا شفهيا بالموافقة السريعة فور تشكيلهم مجلس الإدارة. وانتقل الشيك عبر الطاولة، وحصلت شركة باريك على منجم جولد سترايك.

من الصعب اليوم تخيل تلك القطعة من الأرض، التي كانت فريسة التردد، والتي تناقلت ملكيتها الأيدي في تلك الليلة. لقد مضيت في أحد الأيام لمعاينتها بصحبة دين هيت Dean Heitt. قدنا سيارتنا صعودا في طريق ضيق على طول نهر شيب كريك Sheep Creek، ناظرين إزاء السدود الحجرية التي يبلغ عمرها مائة عام، والتي أنشأها المنقبون الأوائل. وتناثرت الأزهار الصفراء على سفح الهضبة. ومضينا عبر سرب (حفير) أفقي مهجور وخرجنا أعلى التلة القائمة في سلسلة جبال تاسكارورا على ارتفاع سبعة آلاف قدم، وهناك وتحت قبة السماء الزرقاء الصافية امتدت لوحة بانورامية للمناجم القائمة هناك - ذا بيت the Pete وكارلين Carlin ونورث لانترن North Lantern وبيست Beast وجينيسيس Genesis وجولد سترايك Goldstrike وبوتستراب Bootstrap - كانت تلك الرقعة من السفوح الجبلية ذات القمم المشرئبة تنتج 8 ملايين أوقية من الذهب سنويا. وتشكلت

أعلى الحفر تلال صناعية مفلطحة من المخلفات، وأميال من أكوام نفايات الترشيح. لقد انكشفت الطبقة الأرضية العليا، وكانت بلون المغرة الصفراء واللون الأحمر، عن التربة السوداء الغنية بالفلز أسفلها. وتحلقت عربات المنجم المحملة بالفلز الغضاري في طريقها خارج حفرة منجم جولد سترايك.

لقد دفع مانك 62 مليون دولار لشراء جولد سترايك وحصل على مكتب إلكو Elko الذي كانت تغطيه شبكات العنكبوت، وكانت شاحناته من دون أبواب، وقد أرهقته مشكلات الإنتاج. وبأخذ تكاليف الاستخراج، مثل إنشاءات المعقام، بعين الاعتبار، يمكن القول إن شركة باريك دفعت 300 دولار لأوقية الذهب الذي كان يباع آنذاك بما دون 400 دولار للأوقية. ووفقا لواضع تاريخ شركة باريك، راحت نيومونت تراقب «بشك حذر» توافد القادمين الجدد من شركة باريك. كان الطريق الوحيد إلى جولد سترايك يمر بأرض تملكها نيومونت. وقد أطلق عليه العاملون لدى شركة باريك «ممر هوتشي مين» على اسم طريق التوريد الحربي الذي استخدمته فيتنام الشمالية. لكن المالكين الجدد لجولد سترايك كانوا على عجلة من أمرهم، كان لديهم ميزانية للتنقيب قدرها مليون دولار، وقناعة راسخة. يقول هيل: «كان لدى المالكين السابقين إحدى أفضل حفر التنقيب على الإطلاق، لكنهم عدموا المال أو المعرفة الفنية أو الحاجة إلى معاينة فلز الكبريتيد. أما نحن فكنا مستعدين لكل شيء. كنا متعطشين للعمل».

وبعد الانتقال إلى قطعة الأرض بثلاثة أشهر، أحدثت شركة باريك حفرة تقاطعت مع 600 قدم من الفلز عالي التركيز (عالي الجودة). كان الفلز يحوي 0.36 أوقية من الذهب في الطن الواحد - وهذه نتيجة رائعة، وقد تحققوا منها مرتين. كانت الحفرة التالية أفضل حالا، وكان الذهب المستخرج من حفرة أخرى عمقها 450 قدما عالي التركيز بمعدل 1.089 أوقية للطن. يقول هيل: «استنتجنا وجود حالات تباين واسعة، مباشرة عبر كتلة الفلز». لقد قاموا بالحفر باتجاه الغرب ووجدوا امتدادا لحالة التباين المذكورة. وشرعوا يحدثون حفرا متقاربة، لكي يستدركوا ما فاتهم من الإحاطة بحجم الكتلة المستهدفة ودرجة تركيز الفلز فيها. كانوا يصيبون فلزا حيثما وجهوا الحفارة. وفي واحد من أكثر الفصول إثارة في سجل الاكتشافات المعاصرة، كان جيولوجيو شركة باريك يستخرجون مليون أوقية

من الذهب شهريا. وبعد ستة عشر شهرا من منتصف الليلة التي شهدت توقيع الاتفاقية في دينفر، ارتفعت احتياطيات جولد سترايك من 600 ألف أوقية إلى 15 مليون أوقية، ومع هذه الثروة الهائلة برز تحد جديد وملح: توفير اليد العاملة للمنجم، وإيجاد قرية لسكن العمال.

كانت شركة باريك تزيد مساحة الجيب الفلزي كل يوم. يقول هيل: «كنا نعثر على ما يعادل منجم ذهب صغيرا كل أسبوع». كانوا بحاجة ماسة إلى اليد العاملة للتنقيب. وكان هيل يعلم أين سيجدهم، لكن أين سيجعل سكنهم؟ كانت إلكو Elko بلدة صغيرة ليس فيها إلا القليل من المساكن الفائضة عن الحاجة. كما أن العمال الجدد سيجلبون معهم مشكلاتهم. يقول هيل: «لقد أردنا عمالا متمرسين، وقد جاء الكثير منهم من القرى المحيطة بالمناجم التي آلت إلى الإفلاس. كان لهؤلاء بيوتهم وقروضهم العقارية التي كان عليهم أن يخلفوها وراء ظهورهم. لذلك كانوا يفتقرون إلى مستوى جيد من الجدارة الائتمانية».

ووضع باريك خطة لتشجيع المصارف على تقديم القروض العقارية لهؤلاء العمال. إذ اشترت الشركة قطعة أرض شمال الطريق الدولي الواصل بين الولايات في إلكو وقسمتها إلى قطع صغيرة. وقبل أحد المقاولين من مدينة سولت ليك سيتي Lake City بناء مساكن بمواصفات موحدة يتكون الواحد منها من ثلاث غرف مقابل مبلغ 50 ألف دولار. كانت تكلفة قطعة الأرض الصغيرة على باريك 12500 دولار، وبذلك وصلت التكلفة الإجمالية للبيت الواحد إلى 62500 دولار. وستعمل شركة باريك على تقديم قرض بتكلفة الأرض البالغة 12500 دولار إلى عامل المنجم بحيث تعفيه الشركة من هذا المبلغ إذا استمر في العمل لدى الشركة لمدة ثلاث سنوات. وبتوافر الأمان الوظيفي ودفعة مقدمة قدرها 20 في المائة في جيوب العمال، تدبروا أمر الحصول على القروض العقارية. وفي غضون خمس سنوات ارتفعت قيمة المسكن الواحد لدى شركة باريك إلى 80 ألف دولار، كما ارتفع إسهامها الذي قدمته على شكل إعفاء من التكلفة الإجمالية إلى 20 ألف دولار. وبذلك ارتفع عدد المساكن في قطعة الأرض المقسمة إلى 700 مسكن.

وفي أقل من عشر سنوات استطاعت شركة باريك أن تحصر وجود 30 مليون أوقية من الذهب. وهكذا دفع منجم جولد سترايك بالشركة إلى مصاف أكبر منتجي

الذهب في العالم[14]. كان المنجم ينتج أكثر من مليون أوقية سنويا، ولايزال. وبعد سنة من اكتشاف الطبقة العميقة في جولد سترايك، ارتفع سعر أوقية الذهب من 380 إلى 500 دولار. في الحقيقة، لم يجعل مانك شركة باريك في مصاف عمالقة الشركات عن طريق المضاربة على سعر الذهب: إذ إنه ضارب عكس هذا السعر. لقد بدأ بتوفير الحماية للمستثمرين من المخاطرة القطرية(*). وسيعمل لاحقا على توفير الحماية لهم من مصدر قلق آخر - وقد سبق أن أحبط خططه - ألا وهو تقلبية (تذبذب) السعر.

في أول أيام شركة باريك كان سعر الذهب يتذبذب في هامش عريض. فقد استهل العام 1985 عند 300 دولار للأوقية، وبلغ 500 دولار للأوقية عام 1987، ثم هبط إلى 360 دولارا في العام 1989. ثم ارتد متخطيا مستوى 400 دولار مع بداية عام 1990 بيد أنه تراجع بعد ثلاث سنوات إلى 330 دولارا. وعمل مانك، وقد أوشك على الإفلاس نتيجة الخسائر التي لحقت به بسبب تقلب سعر الذهب، على تطوير آلية توفر الحماية لشركة باريك من التقلبات السعرية الحادة، وتضمن للشركة عوائدها، وتحقق لها تدفقات نقدية مستقرة ستوظفها في شراء المزيد من المناجم وتوسعتها. لقد لجأ إلى البيع في السوق الآجلة.

في عمليات البيع بالسوق الآجلة، يتعاقد المنجم مع أحد المصارف التجارية لتسليم كمية محددة من الذهب عند سعر مستقبلي محدد[15]. عندئذ يقوم المصرف التجاري باقتراض ما يعادل تلك الكمية من سبائك الذهب من المصرف المركزي، ويبيعها في السوق ويودع الأموال المتحصلة في حساب أمانة خاص بشركة التنقيب (مالكة المنجم)، ويحقق عوائد تتمثل في الفوائد التي يتقاضاها على تلك الأموال. فإذا سلم المنجم الذهب المتفق عليه إلى المصرف التجاري، يحصل المنجم على الأموال المودعة في الحساب الخاص ومعظم مبلغ الفائدة. ويعيد المصرف التجاري الذهب الذي تسلمه من المنجم إلى المصرف التجاري، مع القليل من الفوائد. يحقق المصرف التجاري عوائده من حصته في الفائدة

(*) المخاطرة القطرية أو مخاطرة الدولة أو مخاطرة البلد Country risk: هي المخاطر الناشئة داخل حدود قطر/ بلد ما، وتضم المخاطر السياسية والاقتصادية والمالية التي تواجه مشروعات الأعمال القائمة في ذلك القطر/ البلد أو التي تسعى إلى دخوله. [المترجم].

المترتبة لحساب الأمانة مطروحا منها مبلغ الفائدة الذي يدفعه إلى المصرف المركزي. وبذلك تكسب كل الأطراف المعنية في الصفقة. فالمصرف التجاري يحقق ربحا من الصفقة ذات المخاطرة المتدنية؛ ويكسب المصرف المركزي الفائدة التي ما كان ليحققها على احتياطياته المجمدة؛ وتقي شركة التنقيب نفسها من تراجع السعر باعتبار أن السعر الذي ستحصل عليه يعادل السعر السائد في السوق وقت إبرام الصفقة، كما أنها تحقق فوائد مباشرة على ما لم تنتجه بعد. وهكذا وفر البيع الآجل لشركة باريك الوقاية من تراجع السعر.

بيد أن ثمة متغيرا واحدا يمكن أن يخل تماما بحسابات البائع بالأجل Forward Seller[16]، ويتمثل في ارتفاع سعر الذهب. لنفرض أن العقد الآجل يقضي بالتسليم بعد خمس سنوات عند سعر قدره 800 دولار للأوقية. إذا كان السعر الفوري دون ذلك، فلا بأس: فهذا هو مقصود التحوط. لكن إذا وصل السعر الفوري (الحال) إلى 1400 دولار، يكون البائع بالأجل قد «خسر» 600 دولار عن كل أوقية. هذه المصيدة أطبقت سريعا على شركة باريك.

بحلول العام 2009 كان لدى شركة باريك مركز تحوطي هائل في السوق الآجلة(*)، يقل كثيرا عن القيمة الفعلية للمعدن. هذا المركز الآجل كان يلقي بوطأته على سعر سهم الشركة كأنه أصفاد معدنية عملاقة. كان البيع الآجل، وفقا لما دأبت عليه شركة باريك، يعطي المنجم الخيار لتمديد أجل استحقاق العقد كلما حل هذا الأجل. بعبارة أخرى، استطاعت باريك تأخير موعد تسوية الحساب لإعطاء فرصة للسعر الفوري بالعودة إلى الانخفاض. لكن السعر لم ينخفض، وإنما ظل في طور الارتفاع. وكان على مجلس إدارة مانك أن يواجه الأمر المحتوم في العام 2009، حيث أفاد من تراجع السعر للتخارج من العقود المستقبلية لقاء مبلغ ضخم قدره 5.6 مليار دولار. وباتخاذهم هذا الإجراء كانوا قد استوعبوا الرسالة الضمنية من ارتفاع السعر. لقد وصل مشترون جدد إلى السوق، وفرضوا واقعا جديدا إلى الأبد.

(*) المركز التحوطي الآجل Forward Hedge: الاستثمارات التي تهدف إلى توفير التحوط أو التوقي الآجل أو المستقبلي. [المترجم].

لقد بدأ سعر الذهب بالارتفاع منذ أمد بعيد، قبل أن تسبب الأزمة المصرفية تصاعده بوقع متسارع. وقد كان المحرك لذلك عاملين مهمين: أحدهما كان ظهور فئة من استثمارات الذهب الجديدة التي سهلت عملية شراء السبائك. أما العامل الآخر فكان التشكل السريع لسوق جديد، سوق يرغب فيه المستهلكون في كل شيء ويشترون كل شيء - من سيارات بي إم دبليو BMW إلى الخمور الفرنسية إلى الآيبود والهامبورغر والألماس والناقلات الجوية، وطبعا الذهب. كان هذا السوق سوق الأحلام: الصين.

# 7

# لينغلونغ
# Linglong

«كان يتعين على الصين، كي تصبح في طليعة الدول المنتجة للذهب في العالم أن تطوّع عداء الأيديولوجيا الشيوعية المتأصل لمادة تعتبر الأساس للثروة الشخصية».

«تمثل قصة لينغلونغ حكاية تغير الآمال والأحوال المادية بفعل التغير الذي طرأ على الدولة الصينية»

بعد انغماس في أعمال الاستكشاف استمر عشر سنوات[1]، تحولت الصين من دولة هامشية في إنتاج الذهب إلى أولى الدول المنتجة له في العالم، فتفوقت على جنوب أفريقيا في العام 2007. كانت الصين تشتري الذهب أيضا[2]. وفي العام 2012 توقعت شركة الاستشارات الرائدة عالميا المتخصصة في المعادن الثمينة (شركة جولد

فيلدز لخدمات المعادن)(*) التي تملكها تومسون رويترز أن تبلغ مشتريات الصين الخاصة والحكومية من الذهب نحو ألف طن ذلك العام، وسيجعل منها هذا المعدل الاستهلاكي أكثر الدول شراء للذهب، متقدمة على الهند التي ظلت، إلى ذلك الحين، تحتل المركز الأول عالميا. تعتبر قصة الذهب الصيني حكاية الدولة الصينية نفسها - حكاية تحولها من دولة منطوية على نفسها، يسيطر عليها رهاب الأجانب، ومن دولة متخلفة تكنولوجيا، إلى منظومة لتوليد الثروة.

لدى الصين عشرة آلاف منجم ذهب، أو ربما ستون ألفا. هذه هي الحقيقة، إذ يبدو أن لا أحد يعرف الرقم الفعلي. فالذهب الصيني هو حالةُ سُعار، بقدر ما هو صناعة قائمة بذاتها. وليست بعض المناجم إلا مجرد عائلة واحدة عدتها أوعية معدنية للبحث عن الذهب وواجهة نهرية؛ آخرون كانوا يستغلون جيوب الفلز الكبيرة الواقعة بين بورما (وتعرف اليوم بميانمار) والحدود المنغولية. كان الإنتاج الإجمالي يتجاوز 300 طن من الذهب سنويا[3]. وأردتُ معاينة هذه المناجم من كثب، خصوصا منجم لينغلونغ الأسطوري، فسافرت جوا إلى يانتاي Yantai الواقعة على البحر الأصفر.

وصلت العاصفة الاستوائية ميري Meari إلى الساحل وضربت شبه جزيرة شاندونغ ليلة وصولي. ورشح المطر عبر العوازل المطاطية غير المحكمة المثبتة حول النوافذ، وانطفأت الأنوار. ووقفت عند نافذتي في الطابق الثامن والثلاثين ورحت أحدق خارجا. استطعت رؤية الأضواء الخلفية للسيارات تزحف على الطريق الساحلي، وهذا كل ما رأيته.

في الصباح كان كل شيء يتلألأ في الهواء البارد المنعش. واندفعت طبقات من الغيوم السوداء عبر السماء البراقة، محدثة زخات مطرية متلاحقة. تناولت فطوري في حجرتي، تنتابني مشاعر السعادة وأنا أفكر في زيارة منجم الذهب القديم، ونحيت الصينية جانبا وأدرت ناظري إلى كنزي الثمين - كتاب أصفر من القطع الكبير يتناول مناجم ذهب شاندونغ. واستقر نظري على صورة أحد وزراء عهد الإمبراطورية

---

(*) شركة جولد فيلدز لخدمات المعادن (خدمات المعادن لمناجم الذهب) بالإنجليزية Gold Fields Mineral Services واختصارا GFMS؛ هي شركة بحثية استشارية متخصصة في مجال المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة والبلاتين والبالاديوم والنحاس. [المترجم].

منطلقا في رحلة إلى لينغلونغ في العام 1007[4]. كان يمتطي صهوة حصان أشهب، وكان يجرجر ذيول كابه(*) الذهبي خلفه. راح الإمبراطور يراقب الوزير بينما كان يمضي في طريقه. وتتهادى عبر الغابة حاشية من عمال المناجم المحملين بالأرفاش والسلال وحقائب الأدوات. وفي العاشرة صباحا رنّ هاتفي الخلوي ومضيت إلى صالة الفندق لمقابلة الأدلاء الذي سيصحبونني في الرحلة.

لقد جاءوا بسيارة بنفسجية اللون، صغيرة الحجم، وتلافت السيارة كومة من النفايات التي خلفتها العاصفة أمام الفندق، ثم توقفت، فاحتلت حيز موقفين داخل المرآب. نظرتْ نحوي من وراء المقود سيدة ضخمة تبدو عليها أمارات السرور، وتدعى بانغ مين Pang Min. كانت المقاعد الخلفية ملأى بلعب الأطفال. وقد حُشر بينها فينغ تاو Feng Tao، وهو جيولوجي متخصص في مجال الذهب، ظهرت عليه علامات الوقار، وقد انتقل جوا من بكين ليكون مترجمي الفوري. تعرفتُ على فينغ عبر وسيط قدمها، وقد بينت لي، بنبرة حازمة، أنه من دون مثل هذه الوساطات ستوصد أبواب الصين بكاملها أمامي، وتحديدا في موئل صناعة الذهب في شانغدونغ العريقة التي تضرب الفوضى فيها أطنابها. تدين بانغ مين نفسها بالفضل لهذه الوساطة التقديمية. ولذلك فقد بينت فينغ بجلاء أن مبلغ أتعابها اليومية المرتفع يجب اعتباره أمرا نافلا، بحيث يقبل من دون مساومة.

قلت: «لا بأس، لكننا بحاجة إلى سيارة أكبر حجما»، فيما رحت أحشر نفسي في المقعد الأمامي.

وأجابت فينغ: «أجل لقد وافقت [أي بانغ] على استبدالها».

وانطلقنا من الفندق وقد بدت علينا علامات العزم والجدية. أعقبت ذلك نصف ساعة قضيناها نجوب بحماس الشوارع المهجورة المحيطة بالفندق. أهّلت الحكومة المحلية (البلدية)، وقد أنعشتها عوائد الذهب، وتوقعات النمو، رقعة شاسعة المساحة بالطرقات العامة خماسية المسار، وحديقة على ضفة النهر، وملعبين رياضيين دوليين، ومركزا للمؤتمرات. كانت مواقف السيارات خاوية. ولم يكن هناك أي نشاط في الملعبين الرياضيين. لقد امتدت الشوارع أميالا عبر أرض خلاء إلا من

---

(*) الكاب: رداء خارجي لا أكمام له، يطرح على الكتفين (معادله المشلح أو البشت). [المترجم].

شجيرات خفيضة. ولحسن الطالع لم تكن ثمة ازدحامات مرورية، بحيث إن إيقاف بانغ مين للسيارة بشكل مفاجئ في وسط هذه الفلاة الإسمنتية لم يعرقل طريق أحد خلفنا. أخيرا، تدبرنا الخروج من تلك المنطقة، وحصلنا على سيارة أكبر حجما، ومضينا باتجاه الغرب عبر الأرياف المخضلة(*) لمشاهدة منجم لينغلونغ الشهير.

يقع منجم لينغلونغ ضمن الطبقة الجرانيتية غير المنتظمة في شبه جزيرة شاندونغ، وهو حقل الذهب الشهير في الصين. ويحتمل وجود المئات من مناجم الذهب الأخرى التي تتخلل الهضاب المجاورة بمسارب ضيقة خطرة. يعود عديد منها إلى قرون خلت، وهي صغيرة الحجم. تنتج الصين أكثر من 300 طن من الذهب سنويا، ومع ذلك لا يوجد فيها منجم كبير واحد. تلخص قصة إنتاج الذهب الصيني حكاية تحول الصين. كان يتعين على الصين، إذا أرادت أن تصبح أعظم الدول المنتجة للذهب في العالم أن تطوع عداء الأيديولوجيا الشيوعية المتأصل لمادة تعتبر الأساس للثروة الشخصية. تمثل قصة لينغلونغ حكاية تغير الآمال والأحوال المادية بفعل التحول الذي طرأ على الدولة الصينية. ومع التغير الذي طرأ على الدولة، كذلك تغير موقفها من التنقيب عن الذهب. وبعيدا عن نظرة الشك إلى الذهب باعتباره رمزا للثروة الخاصة التي تهدد القيم الشيوعية المثلى وصلت الصين إلى اقتناع، تعكسه احتياطياتها المتنامية من سبائك الذهب، مفاده أن الذهب قد يكون أداة تحوُّط نافعة في عالم الدولار المتقلقل.

كانت الأمطار تأتي كل صباح وتمضي، زاحفة من اتجاه البحر في غلالات طقسية سوداء كثيفة، تطرق على سقف السيارة، ثم تحملها الرياح بعيدا بسرعة خاطفة. وكان على امتداد الطريق أشجار قلعت من جذورها. وغادرنا الطريق الرئيس ومضينا صعودا عبر فتحة في الهضاب. لقد أرخت أشجار الصنوبر ظلالها على سفوح الهضاب. وهدأت العاصفة، وتلاشت قمم المنحدرات الوردية وسط الضباب. ومرت سيارتنا بالقرب من مجموعة بيوت صفراء باهتة، ثم بلغنا المنجم الشهير. كان ثمة معسكر مكون من أبنية بيضاء يقوم مقابل الجبل. تركنا السيارة في المرآب وصعدنا راجلين، وأشارت بانغ مين إلى أعلى سفح الهضبة نحو الموضع الذي اخترق فيه النفق

---

(*) المخضلة: المشبعة بالماء من جراء هطول المطر. [المترجم].

الرئيس الصخرَ. لم يوحِ المشهد بوجود موقع اصطناعي، بل كان أشبه بمنظر طبيعي صيني رُسِم على لفيفة من الرق.

تقول الأسطورة إن نهرا كان يتدفق في العصور القديمة نحو السماء من بستان الدراق الذي تملكه سيدة الغرب القديمة العظيمة(*) إلى إحدى القمم في هضاب لينغلونغ[5]. كان النهر يغذي الجداول التي انحدرت عائدة أسفل الجبل، وتجمعت في بحيرة. في أحد الأيام اكتشف صياد أن البحيرة تذخر بالأسماك الذهبية. كانت الأسماك تندفع بأعداد كبيرة عبر الكهوف وتقفز فوق سطح الماء فتطلق من أفواهها رشات من السائل الذهبي. وبلغت أخبار هذه البحيرة القصر الإمبراطوري. لقد تأثر أحد موظفي البلاط، الذي وصل إلى شانغدونغ ليعدّ وصفا لتلك الأسماك، بما شاهده فألقى بنفسه في البحيرة وتلاشى. وصل مبعوث آخر إلى المكان بيد أنه وجد البحيرة قد جفت. وخشية العودة إلى المدينة المحرمة(**) بهذه الأنباء، جنّد عشرة آلاف مزارع للتنقيب داخل الجبل عن تلك الأسماك. وعثروا على ذهب لينغلونغ.

كان الصينيون ينقبون عن الذهب نحو العام 1300 قبل الميلاد[6]. لقد اتبعوا طرائق منهجية في أعمال التنقيب. وكتب أحد الموظفين في القرن السابع: «إذا كانت طبقة التربة العليا تحتوي على الزنجفر (كبريتيد الزئبقيك) Cinnabar، فلا بد أن الطبقة السفلى تحتوي على الذهب». وقد اكتشفوا أيضا أن النباتات يمكن أن تقدم دليلا على وجود المعادن الثمينة. «فإذا كانت نباتات كراث الربيع تنمو في الجبل، فستكون ثمة فضة تحت الأرض؛ وإذا ظهر الكراث(***) في الجبل، فثمة الذهب»[7]. ربما أصابوا عين الحقيقة. فالنباتات تمتص المعادن من التربة. إذ وجد الباحثون في جامعة لندن، في العام 1980، أن النباتات تستطيع امتصاص الذهب وتخزينه في أنسجتها[8]. وتصف مقالة نشرت في العام 1998 في مجلة «نيتشر» Nature إحدى التجارب التي امتصت فيها النباتات الذهب من الفلز الملوث[9]. وفي العام 2004 طور باحث نيوزيلندي نظام «المعالجة النباتية»(****) وبموجبه تنتزع النباتات

(*) سيدة الغرب القديمة العظيمة Grand Old Lady of the West: من شخصيات الأساطير الصينية القديمة، وترمز إلى سيدة العالم الآخر. [المترجم].

(**) المدينة المحرمة Forbidden City: عاصمة الإمبراطورية. [المترجم].

(***) الكراث العادي Leek، ويعرف بالبقل في بعض مناطق الخليج العربي، وبالبراصيا في بلاد الشام. [المترجم].

(****) المعالجة النباتية Phytoremediation: استخدام النبات في التخلص من الملوثات العضوية وغير العضوية في الأرض. [المترجم].

المعادن من المخلفات السامة لمناجم الذهب[10]. وكان العائد من ذلك رطلين من الذهب للفدان الواحد. وقد أشارت ورقة علمية قدمت في المؤتمر العالمي لعلوم التربة في القرن التاسع عشر، ونشرت في العام 2010، إلى أن بعض المنقبين عن الذهب يستخدم حتى اليوم «أصناف النباتات دلائل بيولوجية على وجود الذهب في التربة»[11]. وقد لاحظ الصينيون وجود مثل هذه العلاقات في العصور القديمة.

كما استخدموا طرائق جديدة لتنقية الذهب مثل إطعامه للبط[12]. في المرحلة الأولى، استطاعوا إزالة ما أمكن من شوائب الذهب المستخرج بطريقة الشطف باستخدام الأوعية المعدنية، وخلطوا ما تبقى مع عصافة الحنطة (القش) وأطعموه للبط. ومن ثم جمعوا روث البط، وشطفوا الذهب مرة أخرى، وخلطوا الناتج المكرر بكمية أخرى من العصافة وألقموها البط. كرروا العملية ثلاث مرات، وكانوا في كل مرة يزيلون الذهب المستخرج، ثم يطعمون البط آخر دفعة من العصافة - العصافة الخالصة - لانتزاع حبات الذهب المتبقية.

وفي مطلع الألفية الأولى كان لدى حكام الصين احتياطيات من الذهب قدرها مائتا طن، أي ما يعادل احتياطيات الذهب لدى الإمبراطورية الرومانية آنذاك[13]. ثم تراجعت أعمال التنقيب بحدة إلى مستويات متواضعة جدا. ومع تحول المغول إلى قوة مهيمنة في القرن الثالث عشر حاولوا إعادة تأهيل مناجم الذهب[14]. وأخضعوا قطاع الطرق وكفوا أيدي الحكام المحليين المتنفذين الذين كانوا ينهبون المناجم، وحذروا قادة جيوشهم من سرقة الذهب. ولإنعاش صناعة التنقيب، أمر إمبراطور مغولي أربعة آلاف عائلة في شانغدونغ بالبحث عن الذهب بطريقة الشطف بالأوعية المعدنية.

وفي القرن السابع عشر بات منجم لينغلونغ تحت سيطرة الخصي الشهير وي شونغزيان Wei Zhongxian[15]. خسر وي، وكان في الأصل مجرما ومقامرا يائسا، تنازل عن خصيتيه مقابل الحصول على وظيفة في البلاط الملكي. إذ كان التقليد السائد يحظر شغل العديد من الوظائف في البلاط الإمبراطوري لغير المخصيين. ولم يكن مسموحا لداني وي بملاحقته إلى المدينة المحرمة (العاصمة الإمبراطورية). وحالما استقر في القصر، أنشأ صداقة مع الممرضة المكلفة بالعناية بولي العهد. وعندما أصبح الصبي إمبراطورا، وكان في سن الخامسة عشرة، بدأ وي بارتقاء سلم السلطة.

اغتال وي المناوئين، وشيد المعابد والتماثيل لنفسه، واتخذ له لقب «تسعة آلاف عام»، وهو معادل تقريبا في المكانة الرفيعة للإمبراطور، الذي اشتهر بلقب «عشرة آلاف عام». ووهبه الإمبراطور منجم لينغلونغ في العام 1621. وعمل على تشغيل المنجم مدة ست سنوات، ارتفع فيها إنتاج البلد من الذهب إلى أربعين ألف أوقية في العام. وعندما توفي الإمبراطور عمد أعداء وي إلى خنقه ونزع أحشائه. وانهارت الأسرة الحاكمة بعد سبعة عشر عاما، ومعها منجم لينغلونغ أيضا.

كان الحكام الجدد من أسرة مانشو Manchu يبغضون التنقيب عن الذهب[16]. كان لديهم اعتقاد بأن عروق الذهب هي عروق التنين، وأن استخراجها يعني تعطيل الفينغ شوي Feng Shui، منظومة القوانين التي تحكم التناغم مع الفضاء المحيط. والأهم من ذلك، أن أسرة مانشو كانت تخشى اندلاع الشغب بين ظهراني الشعوب التي احتلها الصينيون، وكانت ترى أن الحصول على المعادن الثمينة قد يوفر المال الذي يساعد تلك الشعوب على الانتفاض. وقد أصدروا مرسوما يحظر التنقيب عن الذهب. وأعدموا كل من قبض عليه متلبسا بمخالفة هذا المرسوم. وهكذا استنزفت الخزائن الإمبراطورية مع توقف إنتاج الذهب.

وانتزعت آخر سبائك الذهب من الخزينة الإمبراطورية في العام 1842، لأداء التعويضات إلى قوى الاحتلال الأجنبي - روسيا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا واليابان. وفي ضوء الحاجة الماسة إلى المال، نقضت الحاكمة الإمبراطورة الأم Dowager Empress(*) حظر التنقيب عن الذهب.

وعاد الإنتاج السنوي إلى الارتفاع. وبحلول العام 1888 باتت الصين تنتج سبعمائة ألف أوقية سنويا، مما جعلها في المركز الخامس عالميا في إنتاج الذهب[17].

من المؤكد أن المنقبين لم يتوقفوا عن التنقيب البتة. إذ مضوا إلى أمكنة أخرى تحريا لوجود الأسواق. وقد كتب أحد الموظفين البريطانيين في المستعمرات، وكان مقر عمله في بورما، وذلك في زمن سريان الحظر الصيني لأعمال التنقيب عن الذهب: «كانت أكبر نسبة على الإطلاق من إجمالي كمية الذهب المستخدم [في بورما] تأتي من الصين. إذ كانت تستورد في هيئة وريقات الذهب الرقيقة، وقد

(*) الإمبراطورة الأرملة تسيشي Cixi حكمت في أواخر عهد أسرة تشينغ، مدة 47 عاما (1861-1908). [المترجم].

ضمت معا في حزم صغيرة، وزن الواحدة منها نحو فيس Viss واحد». ويعادل الفيس 3.6 رطل، وتعتبر كمية كبيرة من الذهب بمقاييس كل القرون. وهذا محتوى حزمة واحدة فقط. كان الذهب يهرب خارج الصين على طول طرقات التهريب عبر الهيمالايا. وعندما أبطل حظر التنقيب عن الذهب، تحول الذهب مباشرة إلى أقرب الأسواق، السوق المحلي.

مثل هذه التحولات في الموقف الرسمي إزاء الذهب تكررت في العصر الحديث. لقد تغير موقف الصين الشيوعية من حيازة الناس للذهب من القبول إلى الرفض ثم إلى القبول مرة أخرى، وفق ما أملته تقلبات الأحوال. ومع هذا، كان لا بد أن يتبوأ منجم لينغلونغ مكانة رفيعة في ميثيولوجيا الحكومة الصينية. فقد استعاده الصينيون من عدو بغيض، هو اليابان، بعد أن وضعت يدها عليه عند اندلاع الحرب العالمية الثانية.

لقد اعتمدتُ، في كتابة وصفي لمنجم لينغلونغ، وفي الكثير مما كتبته حول الذهب الصيني، على كتاب قيم عنوانه «تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان، مع وصف لأحوال صناعة الذهب في جمهورية الصين الشعبية»، ويقدم هذا الكتاب تأريخا دقيقا بالإنجليزية والصينية. وضع هذا الكتاب جونغ رانتان Gong Runtan، وهو من الخبراء المخضرمين في صناعة الذهب في شانغدونغ، ويبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما، وجو فينغسان Zhu Fengsan وهو العقل الخبير الذي ساعد على الارتقاء بالصين إلى طليعة الدول المنتجة للذهب في العالم. هذا الكتاب يقدم، وفق معلوماتي، الوصف الوافي للذهب الصيني، باللغة الإنجليزية. لا يغفل هذا المجلد شيئا، بدءا من استخدام الذهب في حبوب الدواء طلبا للخلود إلى عرض الخطة الخمسية التاسعة. ويشدّ أسلوب الكتابة القارئ، كما في قصة مصير لينغلونغ زمن الحرب، عندما سيطرت اليابان على المنجم.

«لم تكن الثلوج المتراكمة على جبل لينغلونغ قد ذابت بعد. وبعثرت الريح القارسة الأغصان والأوراق الذابلة في الهواء، وأحدثت صوتا عاصفا حادا.

وفي الصباح الباكر احتشدت مجموعة من المزارعين الغاضبين، وقد جلبوا معهم العجائز والناشئة، وانطلقوا من مساكنهم صوب جبل لينغلونغ. ودوّت فرقعة البنادق غير بعيد، واندفع الرصاص فوق رؤوس الحشد، ومن بعيد كانت تشاهد أعمدة الدخان الكثيف تتصاعد في القرية، وراحت تتراكم على الطريق [الترابي]»[18].

وزحف سبعمائة جندي ياباني، تدعمهم القاذفات، إلى الهضاب واحتلوا المنجم. وعزلوا دفاعات الجبل والبيوت الخرسانية(*) وحلقات الأسلاك المكهربة. وأقاموا سواتر للبنادق الآلية وخفروا المنجم بما يسميه الصينيون «الكلاب الذئبية» Wolf Dogs. وقد عاملوا المدنيين بوحشية، فكانت أجساد الصينيين الذين قُتلوا في المجازر، واستُخرجت أحشاؤهم بالحربة، تعلق على أعمدة خطوط الهاتف القريبة من المنجم.

وكتب جونغ: «تحت وطأة العقب الحديد للغزاة اليابانيين، أصبح منجم لينغلونغ جحيما على الأرض مسكونا بالشياطين والوحوش.. والأرواح الشريرة مطلقة العنان، ومركز اعتقال وحشي يزداد ضراوة. وعاش عمال المنجم الحياة المأساوية التي يعيشها المهزوم».

وفي غضون ست سنوات ونصف السنة استخرجت اليابان 290 ألف أوقية من منجم لينغلونغ. وتحفل الصفحات التي تتناول تلك القصة بنقمة جونغ. لقد رغبتُ في مقابلته، ولأنه حمو بانغ مين، فقد كانت تعرف أين تجده. في الساعة الثانية ظهرا والجو حار جدا، انتقلنا بالسيارة إلى فناء مجمع سكني رمادي اللون في قلب جاويوان، وتوجهنا إلى الطوابق العلوية.

كان جونغ آنذاك في الخامسة والسبعين. طلب مني الجلوس على مقعد أمام طاولة خفيضة عليها صحن كبير من البطيخ الأحمر المقطع. كانت الشقة السكنية صغيرة، لكن سقفها كان عاليا وكان نسيمٌ يتدفق عبر الحجرات ذات الأرضيات المغطاة برخام التيراتسو. كانت عرائش الأزهار البلاستيكية تتفتح بغير انتظام على أحد الجدران. وجلس جونغ مستقيم الظهر، واستقرت يداه على ركبتيه. كانت بشرته صفراء، وبدا جذابا. وقد جعل تسريحة شعره الرمادي المائل إلى الأحمر الحديدي مثل قصة شعر الجنود. وارتدى عدسات مسنفرة(**) حجبت عينيه.

لما وقع الغزو الياباني للبلاد كان عمره لا يتجاوز السنتين. لقد أجرى بحثا بغرض تقديم وصف لمنجم لينغلونغ، وذلك بالتحدث إلى الرجال الذين عملوا في المنجم

(*) البيوت الخرسانية Blockhouses: أسلوب دفاعي يتكون من مبان خرسانية تتركز في النقاط الحيوية (الثغور)، وتسمح للمدافعين بإطلاق النار في كل الاتجاهات لصد المتسللين والمهاجمين. [المترجم].

(**) العدسات المسنفرة أو المبرغلة Frosted lenses: عدسات الغرض منها بعثرة الضوء عند انتقاله عبرها، وهي تسمح بالرؤية من خلالها، لكنها تجعل العين محجوبة عن الناظرين. [المترجم].

تحت إدارة اليابانيين. كان من بين الذين أجرى مقابلات معهم رجل اخترق لينغلونغ لمصلحة الشيوعيين.

وقد أخبرني جونغ عبر المترجم فينغ تاو أن ذلك الرجل: «ساعد على سرقة الذهب من اليابانيين. كان ثمة العديد مثله، وكان هذا عملهم، لقد أرسلهم الحزب. كان في صفوف الحزب الكثير من المزارعين، لذلك كان يبدو على هؤلاء الرجال سيماء المزارعين، وقد استأجرهم اليابانيون. بيد أنهم كانوا أعضاء ميليشيات في واقع الأمر. كان لديهم مصهر ذهب في موضع سري داخل لينغلونغ حيث كان الذهب يصب في القوالب ويبرد بالماء. لقد شكلوه في سبائك يمكن خياطتها إلى الملابس وتهريبها خارجا».

لا بد أن جونغ كان سعيدا وهو يرى لينغلونغ بعيون المحب لوطنه. لقد طبعت كتاباته مسحة أخلاقية. ومثال ذلك، ما يذكره عن عميل يدعى جيانغ كيجو Jiang Qixu: «لقد أوغل في الإجرام، وكانت يداه ملطختين بدماء الناس». وللأسف، لا يجد المرء كثيرا من أدب المناجم في هذا الضرب من الروايات(*).

وانتهى احتلال منجم لينغلونغ على نحو درامي وسط وابل من العيارات النارية، وأشهر قائد اليابانيين المحاصر سيفه بوجه ضابط صيني متحديا، فأطلق عليه الضابط الصيني النار وأرداه قتيلا. وسُحل العميل جيانغ من مخبئه وأُعدم. «وتردد صدى الطلقة الحادة في أرجاء جبال لينغلونغ».

وقد تصادف استرداد منجم لينغلونغ مع نهاية الحرب العالمية، لكن القتال بين الإخوة استمر أربع سنوات، إذ تقاتل الصينيون فيما بينهم لوضع حد للحرب الأهلية. وعلى الرغم من تراجع إنتاج لينغلونغ، فإن المنجم كان يقدم سبعة آلاف أوقية سنويا تذهب إلى خزائن ماو. وربما كان حريا بهم عندما كسب الشيوعيون الحرب في العام 1949 أن يجعلوا لينغلونغ جزءا من قصة الانتصار - أي ذلك المنجم الذي يعود إلى العصور الإمبراطورية، وقد وضع الآن في خدمة الشعب! لكن بدلا من ذلك توارى الذهب تحت حجاب عاتم. وفي حروب الأيديولوجيا التي أعقبت ذلك كانت أي صلة بهذا المعدن كفيلة بتعريض المرء لخطر العدوى (عدوى التأثر بأفكار أعداء الثورة).

---

(*) المقصود بالروايات وصف الأحداث. [المترجم].

لقد جسّد الذهب مفهوم الثروة الشخصية. وخلق ذلك معضلة أمام الشيوعيين: هل كان الذهب نعمة للدولة البائسة في مرحلة ما بعد الحرب، أم تهديدا للنقاء الاشتراكي؟ جاءت الإجابة عن هذا السؤال، على ما يبدو في العام 1957 عندما دعم رئيس الوزراء جو إينلاي Zhou Enlai مذكرة توجيهية الغرض منها «تنظيم الجماهير العريضة لإنتاج الذهب». لربما كانت الجماهير العريضة قد سبقت إلى ذلك، لكن هذا العمل اكتسب الآن الصفة القانونية، وبات جزءا من خطة إعادة إحياء المناجم وتحفيز إنتاج مورد اقتصادي عالي القيمة. ومع ذلك، لم يمض وقت طويل على هذه المبادرة حتى نُحّيت جانبا في حملات التطهير (الاجتثاث) التي عرفتها الصين: الحملة المناوئة لليمين، وحملات التطهير الأربع(*)، والكارثة التي تعرف أحيانا بحرب الشباب على الموروث القديم - أي الثورة الثقافية.

لقد أرسلت هذه الحركة، بناء على موافقة ماوتسي تونغ على أعمال اجتثاث ما كان يرى فيه تعاطفا مع الرأسمالية في أوساط القيادة، كتائب من شباب الحرس الأحمر Red Guards إلى الأرياف لمطاردة «المنحرفين»[19]. وفي حملة شعواء دامت عشر سنوات، نكلت عصائب المتطرفين بالطبقة المثقفة وقوضت النظام القانوني، ودمرت عائلات بكاملها، اغتصابا وقتلا وبترا وحرقا. وفي هذه الظروف المنذرة بالسوء كان الذهب أيضا عرضة للهجوم. لقد أصبحت الحروف الصينية المعبرة عن الذهب مرادفا للطبقة البرجوازية البغيضة. وتوقف الجيولوجيون عن البحث عن الذهب. واعتبرت مؤسسة مجموعة الذهب الوطنية الصينية(**)، المنتج الرئيس للذهب في الصين، وكانت نفسها صنيعة الدولة، «احتكارا بورجوازيا»، وحُلت. وهكذا لم تعد صناعة الذهب الصينية قائمة رسميا.

اجْتُثَّ أحد الرجال الذين عملوا فيما بعد على تحويل صناعة الذهب في الصين إلى القوة الاقتصادية المحركة في عالم اليوم، وكان عرضة للاضطهاد أول الأمر. عندما قابلته، كان جو فينغسان Zhu Fengsan في الثانية والثمانين. كان منتصب القامة، أنيقا، وذا شعر كثيف مسرّح إلى الوراء، وكان تعبير وجهه المميز ابتسامة ساخرة

---

(*) حملات التطهير الأربع The Four Clean-Ups قادها ماوتسي تونغ في العام 1963 للتخلص من العناصر الممانعة في كوادر الحزب. [المترجم].

(**) بالإنجليزية China National Gold Group Corporation. [المترجم].

ممحصة. لدى زيارتي له، كان يتعافى من حادث ألمّ به، عندما صُدمت دراجته الكهربائية. وقد تشظت رضفة ركبته من جراء الاصطدام. ورفع كمّ بنطاله ليريني إصابته. ورحنا نعاين الرضوض الصفراء وندبة طولها ثماني بوصات، وقد خيم علينا الصمت برهة. ثم قال: «يعتقدون أن ذلك خطئي، لأنني في الثمانينات من عمري، وما كان ينبغي لي أن أجرب الدراجات الكهربائية الجديدة».

ولد جو في مدينة هانغزو Hangzhou، وكان الابن الأصغر لأحد صيارفة شنغهاي التي وصفها ماركو بولو بأنها: «أفخم وأرقى مدن العالم، بلا منازع»، ويوافقه الصينيون الرأي. ويضيف ماركو بولو إلى وصفه قائلا: «في الأعلى ثمة السماء، وتحت ثمة هانغزو».

التحق جو بالمدرسة الثانوية التابعة لجامعة القديس يوحنا (سانت جون)، وهي من مؤسسات كنيسة إنجلترا المرموقة في شنغهاي. وبعد المدرسة الثانوية التحق بالجامعة سنة واحدة، لدراسة العمارة. كان يأمل إتمام دراسته في الولايات المتحدة، لكنه أخفق في أثناء الحرب الأهلية الصينية في الحصول على جواز سفر. وبعد انتصار الشيوعيين، قُيد القبول الجامعي، وحصرت فروع الدراسة في المجالات التي اعتبرت ذات فائدة للدولة. واختار جو علم الجيولوجيا، وتخرج في أرقى الجامعات، جامعة تسينوغوا Tsinghua University في العام 1952. وتخرجت، في الوقت نفسه، خطيبته وزميلته في الدراسة، جو مينغباو Zhou Mingbao، وهي جيولوجية أيضا. وبينما كان جو يفكر في مساره المهني بعد التخرج، اختارت إيميلي، كما كان يسميها، أن تعمل مُدرسة.

يقول جو، وهو يربت على ركبتي للتأكيد على ما يقول: «حينذاك، لم يكن أحد يرغب في أن يعمل مدرسا باستثناء إيميلي. كانت المتقدم الوحيد للوظيفة». وتنهد وهز رأسه: «لقد أحببتها، لذلك كنت ملزما بالتأكيد بأن أفعل كما فعلت».

وانتقلا إلى تشانغشون، شمال شرق بكين، عبر رحلة طويلة بالقطار، والتحقا بالعمل في الكلية الجيولوجية Geological College. وبعد ست سنوات، في العام 1958، اكتشف الحرس الأحمر أمره.

ووفق ما أكد في قصته التي رواها لي، لم ينتقد بلده على الإطلاق، وكان دائما يصف نصر الشيوعيين في العام 1949 بالـ «التحرير». كان قد تبوأ منصب عمادة

كليته لأربع سنوات عندما انتزعه الحرس الأحمر من عائلته ونفاه إلى الأرياف لـ «إعادة تثقيفه» على يد الفلاحين. عمل هناك في إنشاء الطرقات وكدح في أعمال المناجم. وعاد إلى التدريس في العام 1962، ووجهت له التهم مرة أخرى في العام 1969، وانضم إليه هذه المرة زوجته وأولاده، واشتغلوا جميعا في إحدى المزارع لمدة ثلاث سنوات.

وعندما سمحت له الدولة بالعودة إلى التدريس في العام 1972، كانت لاتزال تعده شخصا لا يعوّل عليه. وهكذا لم يسمح له في كليته الجامعية بتدريس المعادن الاستراتيجية مثل اليورانيوم. أما الذهب فكان خاملا(*) من الناحية الأيديولوجية. وقد حدد لينين موضعه في الفكر الاشتراكي في العام 1921 عندما قال: «عندما ننتصر سنصنع المراحيض العامة من الذهب». وهكذا سُمح لشخص لا يعوّل عليه، من أمثال جو، بتدريس هذا المعدن الوضيع. يقول، وقد بسط يديه الرشيقتين كمن أماط اللثام عن اكتشاف جديد: «وعلى الفور، وجدته مجالا ممتعا».

توفي ماو(**) في سبتمبر 1976، وبعد شهر أطاح انقلاب بعصبة الأربعة Gang of Four، وهم الجماعة المتنفذة التي كانت مسؤولة عن تنفيذ سياسات ماو. وتبوأ السلطة الرئيس الإصلاحي دينغ جياوبينغ. وعاد الذهب إلى سابق عهده، وقد حظي بالقبول، باعتباره معدنا ذا مزايا جلية بالنسبة إلى بلد متعطش للعملات الأجنبية. وفي العام 1978 بلغ سعر الذهب الوسطي 200 دولار. وفي العام التالي وصل إلى 520 دولارا. وقد عمل الجيش الصيني، وقد حفزته فرص تحقيق المكاسب، على تأسيس وحدة للتنقيب عن الذهب[20]. وتوسع جيش الذهب Gold Army كما كان يطلق عليه إلى قوة قوامها 20 ألفا من المنقبين عن الذهب[21]. وأصبح جو مستشارا لكبار قادة جيش الذهب. وترقى في ثلاث سنوات من آخر الصفوف في الدوائر الجيولوجية الصينية إلى المقدمة. وقد عكس صعوده بهذه الطريقة التحول الارتدادي السريع للصين. وألغى دينغ التمييز على أساس الطبقة الاجتماعية. وهكذا لم يستعد ابن الصيرفي اعتباره فقط، بل وجد نفسه أيضا وسط صناعة رائجة، أعيد

(*) المقصود في هذا السياق أنه لم يكن ذا أهمية أو مكانة من الناحية الأيديولوجية. [المترجم].
(**) ماو تسي تونغ. [المترجم].

إحياؤها. وقد كان تحت تصرف ضباط جيش الذهب قوات ضخمة وسلطات واسعة. كانت تنقصهم المعرفة فقط.

إن تحول الصين من مجرد منتج للذهب إلى مقدمة دول العالم في إنتاج الذهب حكاية أسهم في تأليفها جو. وقد فتح الباب، في رحلاته إلى المناجم الأجنبية وتأسيس ملتقى علمي لجيولوجيي الذهب الغربيين، أمام التكنولوجيا التي ساعدت الصين على الكشف عن احتياطياتها. لقد أظهرت الصين، في استراتيجيتها لاستغلال هذا المورد الذي بات يحتل مكانة خاصة أخيرا، حنكة في مجال التنقيب فاقت قدراتها الفعلية فيه: وتتجسد في ميلها إلى الاستفادة من خبراء التنقيب الغربيين.

# 8

# عصابة قطّاع الطرق

إنه أغنى جيوب الذهب في الصين. لقد عثرنا عليه، لقد حصرناه، بيد أنهم لن يسمحوا لنا بالاحتفاظ به.

**كولن ماك أليناك(*)**

عملت الصين في العام 1993، بهدف تشجيع أعمال التنقيب وتوسيع احتياطياتها من الذهب، على تخفيف الضوابط، وفتحت الباب أمام المنقبين الأجانب[1]. وسمحت للشركات التي تملكها الدولة بجمع الأموال لأغراض التنقيب من خلال إصدار الأسهم وطرحها للمستثمرين من القطاع الخاص.

«كان ذلك أكبر جيوب الذهب في الصين، ولم يقبل الصينيون أن يكون تحت سيطرة مشروع مشترك يتحكم فيه الأجانب»

(*) كولن ماك أليناك Colin McAleenan: الرئيس التنفيذي ورئيس مجلس إدارة شركة ماندورو لأعمال التنقيب Mundoro Mining (تأسست 1997). [المترجم].

كان من بين كبرى شركات التنقيب الأجنبية التي أفادت من هذه الفرصة شركة بلايسر دوم Placer Dome Inc، وهي شركة تنقيب دولية مقرها فانكوفر. كانت بلايسر دوم تزاول النشاط التجاري في الصين منذ ستينيات القرن العشرين، حيث عملت على توريد النحاس والموليبدينوم(*) لمصلحة المؤسسة النووية الوطنية الصينية. وفي العام 1997، وظّفت الشركة، من خلال الشركة التابعة لها في أستراليا، جيولوجيين صينيين، وأسست بلايسر دوم «فرع الصين»، وبدأت أعمال التنقيب عن الذهب.

كانت الصين تصنّف الخامسة عالميا في إنتاج الذهب في العام 1997[2]. وقد مثّلت، وكان لايزال معظمها غير مكتشف(**) وفقا للمعايير الغربية، فرصة واعدة. ولم تخفف الدولة قيودها فقط، بل جعلت الخطة الخمسية ذات المكانة المعتبرة، وهي البيان الاقتصادي المعتاد للحكومة، عملية إعادة هيكلة صناعة التنقيب هدفا أساسيا. لقد اعتمدت شركة بلايسر دوم خطتها الخمسية الخاصة: تدريب طاقم العمل الصيني وفقا لأعلى المعايير، والتحقق من وجود مستويات عالية من «تشكيلات فلزات المعادن» في الصين، والحصول على الحق الشرعي (الترخيص) اللازم لاستغلالها[3]. وقد عملت الشركة على تدريب طاقم عملها، وتحققت من وجود منظومة المعادن المستهدفة، وحصلت على الترخيص اللازم في خمس سنوات. ومع اقتراب نهاية مدة الترخيص كانت الشركة قد توصلت إلى جملة من الحقائق، ومنها القائمة الآتية:

- يمكن إصدار الترخيص من قبل ثلاثة مستويات مختلفة من الجهات الحكومية.
- لم تكن كل المعلومات المتعلقة بالترخيص مدرجة في السجل نفسه.
- كان حق الاطلاع على البيانات الجيولوجية للدولة مقيدا.
- كانت المعلومات الطبوغرافية سرا من أسرار الدولة.
- لم تكن حسابات الاحتياطيات تجري وفقا لمعايير السوق الدولية.
- ستكون حصة المالكين في الإيرادات «متواضعة».

---

(*) الموليبدينوم Molybdenum: عنصر كيميائي فلزي ذو صفات كيميائية مشابهة لصفات الكروم، عدده الذري 42، اكتشفه الفيزيائي السويدي كارل ويليام شيل. [المترجم].

(**) المقصود معظم أراضيها غير مكتشفة من خلال أعمال التنقيب. [المترجم].

في نهاية المطاف خرجت شركة بلايسر دوم خالية الوفاض، ولم تحظ إلا بترحيب مريب بنقل الخبرة إلى الصين. ووجد كولين ماك أليนان أن إسباغ ذلك الترحيب على الأجانب كان مصدر قلق للصينيين[4].

درس ماك أليนان، وهو إيرلندي، الجيولوجيا في كلية ترينيتي بدبلن Trinity College Dublin. وعمل عقب تخرجه في أصقاع نائية جدا من كندا، إلى أن استقر في فانكوفر. كان جيولوجيا ميدانيا متمرسا ومديرا تنفيذيا في مجال التنقيب عندما استهل رحلته الأولى إلى الصين في العام 1994 في مهمة استطلاعية بحثا عن أهداف محتملة. وعاين في السنوات القليلة اللاحقة منطقة في سيشوان Szechuan يحتمل وجود الذهب فيها، وسافر إلى منغوليا الداخلية لمعاينة قطاعات من الأراضي.

وفي العام 1999 زار ماك أليnan مدينة داليان Dalian، وهي ميناء تجاري نشيط، لحضور أول مؤتمر دولي للتنقيب عقد في الصين. وقد حصل على الدعم من مستثمرين أمريكيين: روبرت كيوساكي Robert Kiyosaki مؤلف سلسلة الكتب التحفيزية الأكثر مبيعا «والد غني، والد فقير» Rich Dad Poor Dad، وفرانك كريري Frank Crerie، وهو مموّل يتخذ من أريزونا مقرا له، كان قد أصاب الثراء من نشاطه في مجال اليورانيوم والنفط.

كانت الحكومة الصينية تأمل أن يساعدها مؤتمر التنقيب المنعقد في داليان على استقطاب رؤوس أموال التنقيب إلى الدولة. وقد جسّد ماك أليnan المالَ الباحثَ عن الأرض لغرض التنقيب. يقول: «كانت تلك أول سنة يعقد فيها هذا المؤتمر. أراد الصينيون تنظيم أبرز حدث في مجال التنقيب، تشهده آسيا، لكن الحضور كان متواضعا أول الأمر. وجرت مناقشات فنية حول رصيد الصين من المعادن وسياسة الباب المفتوح التي تنتهجها الدولة، ولم يكن ثمة إلا اثنان أو ثلاثة من أكشاك التسويق حيث كانت المؤسسات الحكومية المحلية تعرض المشروعات». وقد لفتت إحدى قطع الأراضي انتباه ماك أليnan. كانت ملكا لشعبة الموارد المعدنية في إقليم لياونينغ، حيث كان يقيم. يقول: «لقد جاءوا ببحوث حول عدد من المشروعات، وكان أحدها مثيرا للفضول. وقد أخذته معي على الفور، وتدارسناه، ثم عدت أدراجي لإلقاء نظرة».

سافر ماك ألينان جوا إلى عاصمة إقليم شينجيانغ وسلك الطريق السريع المار بمحور شبه جزيرة لياودونغ. كان الطريق من أوائل الطرق الدولية السريعة متعددة المسالك التي استُحدثت في الصين، والتي تنتشر اليوم على نطاق واسع. لقد شق هذا الطريق بو جيلاي Bo Xilai عمدة داليان وأحد أسرع سياسيي الصين صعودا. وقد قوّضت الفضيحة مستقبله المهني فيما بعد، وكانت شرارتها اتهامات بالفساد، والصراع الداخلي في الحزب الشيوعي، وتورط زوجته المحتمل في اغتيال رجل أعمال بريطاني. لكنه عاد في العام 1999 إلى تصدر واجهة صعود الصين السريع جدا إلى مصاف دول العالم الحديث، وجسّد الطريق السريع فكرة الفرصة الحيوية التجارية التي أراد قادة الصين إظهارها.

كانت تضاريس شبه الجزيرة قاسية، لكنها لم تكن جبلية. وثمة سلسلة من الهضاب مسننة الشكل، شبه جرداء، تمتد إلى خليج بوهاي Bohai Gulf. ووصل ماك ألينان إلى موضع التنقيب المستهدف في مكان يسمى ماولينج Maoling أو كات هيل Cat Hill. وكانت شعبة الجيولوجيا في الإقليم قد حفرت بعض الآبار بحثا عن عروق الكوارتز (المرو). يقول ماك ألينان: «كانوا يستخدمون معدات قديمة جدا مثل الحفارات الروسية العملاقة التي تستطيع حفر آبار عمودية بعمق مئات الأمتار فقط، هذا كل ما هنالك. ولم تكن تلك الحفارة قادرة على اكتشاف عروق المعادن التي تميل بدرجة حادة. كانت تلك المعدات عتيقة».

وأخذ ماك ألينان عينات صخرية من البروزات الصخرية، وكذلك عينات من العروق نفسها والتربة الفاصلة بينها. وأرسل العينات إلى الولايات المتحدة لإخضاعها للمعايرة، وانتظر النتائج. وعندما وصلت النتائج أثارت دهشته. يقول: «لم تكن العروق الرفيعة وحدها غنية بالفلز، بل كانت التربة الفاصلة بينها تحتوي على الذهب أيضا».

واعتقد ماك ألينان أن أفضل طريقة لمعالجة جيب الفلز هي التنقيب في الهضبة جميعها عن طريق أعمال الحفر الشاملة باستخدام الحفر المفتوحة، بدلا من محاولة اقتفاء أثر عروق المعدن. هذه الطريقة ستؤدي إلى الحصول على فلزات ذات تركيز منخفض عموما، ولكن باعتبار انخفاض التكاليف الرأسمالية والتكاليف التشغيلية في الصين، ولأن التوقعات كانت تشير إلى ارتفاع سعر الذهب، فقد كان يُرجَى أن تحقق أعمال التنقيب ربحا.

وتأسست شركة لاستغلال الموارد الصينية محل الاهتمام، لمصلحة الممولين الأمريكيين وشركة ماندورو للتنقيب Mundoro Mining Inc.، وأجرى ماك ألينان مفاوضات لإبرام صفقة مع الذراع المؤسسية لشعبة المعادن في إقليم لياونينغ. وفي يوليو أسس الطرفان مشروعا مشتركا لاستغلال ماولينغ. وبموجب الاتفاق تحصل ماندورو على 79% من الأرباح مقابل تقديم التمويل والإشراف على أعمال التنقيب وتهيئة المشروع لمرحلة الإنتاج.

وعملت شركة ماندورو بجد وحماس مدة سنتين، وحفرت اثنتين وستين بئرا، واستخرجت ما يعادل 20 ألف متر من عينات الحفر Drill Core من الهضبة، وشقت خنادق على مساحة امتدت 13 ألف متر. وحللت التركيبة الكيميائية للتربة، وترجمت الوثائق الصينية المتعلقة بالموقع، وعمّقت بعض الحفر. وفي نهاية المطاف حصلت على الدليل الكافي لنشر المعلومات في أوساط صناعة التنقيب عن جيب فلزي يحوي 1.1 مليون أوقية من «مورد مستدل عليه»(*) وأكثر من 4 ملايين أوقية «بالتخمين الاستدلالي»، أي الدليل القائم على توقعات الوصول إلى مستوى «المورد المستدل عليه» عند إجراء المزيد من أعمال الحفر. وفي نوفمبر 2003 طرحت أسهم الشركة للاكتتاب العام وتدبرت جمع 13 مليون دولار[5].

كانت ريح نشيطة تهب عبر أروقة صناعة الذهب الصينية. فقد أدت سياسة الباب المفتوح أمام الأجانب إلى توافد شركات التنقيب الصغيرة إلى المناطق الريفية بحثا عن قطع الأرض الصالحة للتنقيب. ومن مواقع التنقيب المستهدفة التي نالها القسط الأكبر من الدعاية المبالغ فيها منجم بوكا Boka، الواقع في يونان Yunnan[6]. لقد اكتشف القرويون الذهب في الهضاب، ونقبت هناك كتيبة الذهب العاملة في الإقليم. ثم تقدمت شركة صغيرة من فانكوفر تدعى ساوثويسترن ريسورسز كورب Southwestern Resources Corp. وانتزعت الترخيص. والمقصود بالشركة الصغيرة شركة صغيرة الحجم يتركز مجال عملها في الكشف والتنقيب. استحدثت ساوثويسترن ستا وسبعين حفرة وقدرت وجود احتياطي قدره 150 طنا. وفي تراكيز الفلز التي حصلوا عليها كان الجيب يحتوي على خمسة ملايين أوقية. وبدأ القائمون

(*) مورد مستدل عليه Indicated resource: مورد ثبت وجوده بدرجة عالية من التأكد في جيب رسوبي باستخدام العينات. ويقابل ذلك المورد المقيس بدقة Measured resource. [المترجم].

بأعمال التسويق يروجون لمنجم بوكا على أنه أغنى الجيوب بالذهب في الصين، وتحدثوا عن فرص تحقيق ثروة طائلة قدرها 40 مليون دولار للاقتصاد المحلي. وارتفعت القيمة السوقية لشركة ساوثويسترن بأكثر من ثلاثة أرباع مليار دولار[7]. يقول أحد المسؤولين بعد انقضاء سنوات عدة: «المشكلة أنه لا أحد، آنذاك، كان يعلم متى ستكتشف أول قطعة من الذهب»[8].

للأسف، كان هناك من يعلم ذلك، وهو الرئيس التنفيذي الكندي لشركة ساوثويسترن. كان يعلم أن أول قطعة من الذهب لن تظهر في وقت قريب، لأنه كان يحرّف نتائج الحفر. ثم انهار سعر سهم الشركة[9]، وانتهى الأمر بالرئيس التنفيذي إلى السجن، لكن في خضم فورة الذهب الصينية الجامحة في العام 2003، وبينما كان البلد بأجمعه منفتحا على مصراعيه مثل نسخة شرقية من إقليم يوكون(*) Yukon كانت أنباء اكتشاف بوكا تنعش آمال الجميع. يقول ماك ألينان: «ربما ساعد ذلك فعلا على تحسين أحوالنا المالية».

ومن العوامل الأخرى المساعدة أن كل الحفر التي أحدثها ماك ألينان كانت تصيب ذهبا. «ما كان لنا أن نخطئها، كانت لدينا تقاطعات طويلة [حيث كانت الحفارة تخترق الصخر الحامل للذهب]». وقد عرضت الصفحة الأم في الموقع الإلكتروني لشركة ماندورو صورة شاملة بانورامية للموقع، وإذا كانت لاتزال هناك فإنها تستحق التأمل. تمتد كتلة الفلز عبر طوق حلزوني صغير من الطرقات المحفورة صعودا إلى قمة كات هيل Cat Hill إلى اليسار، مباشرة على امتداد الهضاب إلى جهة اليمين، وعلى نحو غير منتظم - دفعة واحدة لمسافة نصف ميل. ويمكن للمرء أن يشاهد أثلام التنقيب التي شقت عبر الأراضي الخضراء. كان سعر الذهب في ارتفاع. وكذلك كان سعر سهم شركة ماندورو، وبعد سنتين من أعمال التنقيب المكثفة عادت الشركة إلى السوق طلبا لمزيد من الأموال. وتدبرت جمع 25 مليون دولار أخرى[10]. كان حملة الأسهم واثقين بالنتائج، وكذلك ماك ألينان. ولا بد أن أرباب التمويل الأمريكيين الداعمين لماندورو كانوا واثقين بها أيضا. ثم حل موعد تجديد الرخصة التجارية، ولم تُجدَّد.

(*) يوكون: إقليم في كندا. [المترجم].

حل موعد التجديد، وانقضى. في أول الأمر لم يبدُ ذلك سببا للقلق. يقول ماك ألينان: «أرسلنا وفدنا للاستعلام عن سبب عدم حصولنا على الترخيص. وسيقت لنا أجوبة من قبيل: لا شيء في ذلك - فهكذا تسير الأمور في الصين فقط. أو: تسير الأمور بوقعها الخاص. أو: أنهم بطيئون دائما، لذلك لا يقلقنا ذلك. ولكن بعد انقضاء الشهور، بدأ القلق يساورنا. ولم يحرك المسؤولون في إقليم لياونينغ ساكنا، لذلك توجهنا إلى بكين».

كان ثمة ترخيصان يتعين على شركة ماندورو استصدارهما. أولهما رخصة تجارية محلية، أما الآخر فهو رخصة التنقيب. ولمواصلة العمل بأي حال كانت رخصة التنقيب شرطا أساسيا. وقد اشترطت هذه الرخصة الصادرة في بكين تقديم بيانات محاسبية منتظمة بالأموال المنفقة في أعمال الحفر والتنقيب. يقول ماك ألينان: «تجاوزنا الاشتراطات الدنيا. لقد حفرنا سابقا 40 ألف متر. وكنا أجرينا دراسات بيئية وجيوتقنية. وقد حققنا تقدما في المشروع على عدة جبهات معا. ووضعنا سيناريوهين: الأول إنشاء محطة لمعالجة 30 ألف طن يوميا، والآخر لمعالجة 50 ألف طن يوميا. كنا ندعو ذلك أكبر جيوب الذهب غير المستغلة في الصين، إن لم يكن في آسيا جميعها. كان سعر سهم شركتنا في العرض الأولي(*) 1.25 دولار، وتجاوز الآن 4 دولارات».

وفي بكين، توجهت شركة ماندورو إلى وزارة موارد الأراضي، واستفسرت إن كان ثمة خطب مع رخصتها [رخصة التنقيب]. وكان جواب المسؤولين بالنفي، مادامت ماندورو تستطيع الحصول على رخصة العمل [الرخصة التجارية]. فمن دونها، وفقا للوزارة، تعدم شركة ماندورو الوجود القانوني.

وللمرء أن يستنتج مآل الأمور: قناعة ماك ألينان أن السلطات ستخذلهم في نهاية المطاف؛ والالتماسات المقدمة إلى الدبلوماسيين في بكين، ومعاملة الملحقيات التجارية ببرود وتجاهلها من قبل الوزارة. وفي شبه جزيرة لياودونغ حبس موظفو الإقليم الرخصة التجارية، بناء على طلب إحدى الجهات، ومن ثم «لم تمتلك» شركة ماندورو ترخيصا لاستغلال قطعة الأرض، وكذلك لم تكن طرفا في مشروع مشترك لهذا الغرض.

(*) العرض الأولي أو الطرح الأولي Initial offering: طرح أسهم الشركة للبيع لأول مرة (في السوق الأولية). [المترجم].

وترك ماك ألينان الشركة في نهاية العام 2006، بعد عام من المحاولات العقيمة للإبقاء على رخصة ماندورو. وبعد خمس سنوات تدبرت الشركة استرداد 13.5 مليون دولار، وهو المبلغ الذي جمعته من المكتتبين في العرض الأولي للأسهم. وبدلا من نسبة 79 في المائة من الأرباح، خفضت النسبة إلى 5 في المائة[11].

يقول ماك أليتان: «لو كان ذلك جيبا من الزنك - الرصاص، لما اعترضتنا أي مشكلات. لكن القيادة السياسية قررت أنها تريد الاحتفاظ بالذهب لنفسها، إذ كان الذهب يعتبر موردا وطنيا. كان ذلك أكبر جيوب الذهب في الصين، ولم يقبل الصينيون أن يكون تحت سيطرة مشروع مشترك يتحكم فيه الأجانب. أعتقد أن جيبا فلزيا كانت التوقعات تقدر احتواءه على تسعة ملايين أوقية، سينتج أكثر من 18 مليون أوقية في الواقع. ذلك أنه أغنى جيوب الذهب في الصين. لقد عثرنا عليه، لقد حصرناه، لكنهم لن يسمحوا لنا بالاحتفاظ به».

في ماولينغ حققت الصين مكسبين: منجم الذهب، والمهارات التي اشتغلت في تطويره. كانت الصين تتصدر المشهد في حين راح شركاؤها ينقبون عن جيوب الذهب. وأعتقد أن من المنصف القول إنها ارتأت استخراجه من ذلك الموقع باستخدام جملة من المهارات المتوافرة لديها - جهود طبقة بيروقراطية يتعذر اختراقها. في فورة الذهب الصينية آنذاك عادت معظم الشركات الغربية أدراجها بخفي حنين. أما توكسيك بوب Toxic Bob فلم يكن هذا حاله.

عندما اتخذت الصين قرارا في العام 1993 لتشجيع تطوير المناجم، سُمح للشركات الصينية، مهما كان مجال عملها الأساسي، بأن تنقب عما تشاء من المعادن[12]. وفي العام 1995 استخرجت المؤسسة النووية الوطنية الصينية بعض الفلز من منصة حفر وحيدة كانت قائمة في منغوليا الداخلية، في منطقة تشانغ شان هاو. كانت المؤسسة النووية الصينية تعلم بوجود الذهب في المنطقة لأن المنقبين الفلاحين كانوا يصيبون شيئا من الذهب يعتاشون عليه. نقّبت الشركة في إحدى الحفر، وأنشأت ثلاث أكوام اختبارية من الفلز، ورشّت عليها السيانيد لمدة اثنين وثلاثين يوما، ثم استخرجت 65 في المائة من محتوى الذهب الذي قدرت وجوده. ثم مضت تبحث عن شريك غربي.

رفضت أولى شركتين عاينتا الموقع المشاركة. ثم لفت ذلك انتباه روبرت فريدلاند Robert Friedland[13] وهو ملياردير أمريكي من أقطاب صناعة المعادن اشتُهر

بلقب توكسيك بوب Toxic Bob، بعد حادثة تسرب السيانيد والمعادن الثقيلة في العام 1991 في منجم شركته بسميتفيل Summitville، كولورادو. لقد حققت تقنيات السيانيد في سميتفيل عوائد مربحة من الذهب المستخلص من الفلز منخفض التركيز. وقد وفر منجم تشانغ شان هاو فرصة مماثلة[14]، وفي مايو 2002، ومن خلال شركة صغيرة مسجلة في تورنتو تحت اسم جينشان جولد ماينز Jinshan Gold Mines، اشترى فريدلاند قطعة الأرض.

يقول ج. د. جيانغ X. D. Jiang، المدير العام للمنجم، وهو جيولوجي مغمور، وكان العقل المدبر لمنجم تشانغ شان هاو: «كان لايزال يعمل في الموقع مائة منقب من الحرفيين. وكانت الفوضى سيدة الموقف».

لكن فريدلاند وضع يده على المنجم بطبيعة الحال، واستأجر خدمات جيانغ في العام 2002. أنشأ جيانغ كومتين اختباريتين وزن الواحدة خمسون طنا. وأجرى التجارب بتهشيم الفلز إلى مسحوق دقيق، خلاف ما كانت تفعله الشركة النووية الصينية في السابق، وأعد دراسة الجدوى الاقتصادية، وفي فبراير 2007 أتم بناء محطة استخراجية قادرة على معالجة 20 ألف طن من الفلز يوميا. وقد جعلوا الفلز في أكوام، ورشحوا الذهب باستخدام السيانيد، ووجهوا المحلول الحامل للفلز إلى أحواض تحوي الكربون السائل، وانتزعوا الذهب. وفي يوليو صبوا أول سبيكة بوزن 500 أوقية. كانت هناك مناجم أخرى تصب السبائك أيضا. وبعد عام، في 2008[*]، تفوقت الصين على جنوب أفريقيا وحلت في المركز الأول عالميا في إنتاج الذهب.

في العام الذي تقدمت فيه الصين إلى المركز الأول[15] أبطلت سياسة التنقيب عن المعادن المتبعة سابقا، واستبدلتها بأخرى. وأصبح الذهب سلعة[16] مقيدة، حيث صار الصينيون يفضلون التنقيب عنه بأنفسهم. كان فريدلاند يسعى وراء الأرباح بطبيعة الحال؛ لأجل استرداد الأموال التي أنفقها في بحثه عن الذهب والنحاس في أويو تولجوي Oyu Tolgoi عبر الحدود مع منغوليا[17]. وفي مايو 2008 باع حصته في منجم تشانغ شان هاو إلى مجموعة الذهب الوطنية الصينية المملوكة من الدولة مقابل مبلغ 200 مليون دولار. واعتبر فريدلاند علاقته بمجموعة الذهب

(*) المقصود هنا أن إرهاصات تحول الصين إلى المركز الأول عالمياً في إنتاج الذهب بدأت تظهر في العام 2007 وتحقق ذلك حوالي منتصف العام 2008. انظر ص 141. [المترجم].

الوطنية «استراتيجية». كانت كذلك بالتأكيد بالنسبة إلى الصينيين[18]، فقد حافظوا على علاقاتهم مع الرجل الذي كان يطوّر أكبر مشروعات التنقيب عن المعادن في العالم، أويو تولجوي. وفي نهاية المطاف أزاحه شريكه في المشروع المشترك في منغوليا، الشركة العملاقة ريو تنتو Rio Tinto PLC، عن مجلس الإدارة، ولم يأبه الصينيون لذلك. إذ بلغت حصتهم في ريو نحو 10 في المائة أيضا.

كان منجم تشانغ شان هاو، للوهلة الأولى، مغنما مشكوكا في قيمته - كان عبارة عن حفرة متواضعة ذات تركيز فلزي منخفض. وبالكاد تحقق أمثالها في معظم أرجاء العالم ربحا. لكن إذا كان الفلز نتاج الحسابات الرياضية فإن تلك الحسابات كانت صائبة في منغوليا الداخلية. كان الإقليم يضم أكبر جيوب الفحم في العالم. وبفضل توافر الفحم كانت تكلفة إنتاج الطاقة في الإقليم منخفضة. وقد ساعد انخفاض تكاليف الطاقة على خفض إنتاج الفولاذ. وهكذا ساعد انخفاض تكاليف الطاقة والفولاذ واليد العاملة على جعل منجم تشانغ شان هاو مجديا من الناحية الاقتصادية.

***

لقد جلبت احتياطيات الفحم الهائلة في منغوليا الداخلية الثراء الواسع إلى الإقليم فظهرت أعداد كبيرة من أصحاب الملايين[19]. وفي قائمة نشرتها في العام 2012 والتي ضمت مليون مليونير صيني (وهم الأشخاص الذين تجاوزت قيمة صافي أصولهم عشرة ملايين رينمينبي أو 1.6 مليون دولار)، قدرت صحيفة بيزنس ريفيو ويكلي Business Review Weekly الأسترالية العدد الكلي في منغوليا بـ 13500 شخص. ويبدو أن العديد منهم نزل في الفندق حيث كنت أقيم في أثناء زيارتي إلى المدينة الصناعية باوتو Baotou. كان المنهل(*) الواقع في الطابق الأرضي يتلألأ ببريق ساعات رولكس الذهبية. وكانت النساء يخطرن عبر الردهة الرخامية بأحذيتهن ذات الكعب العالي، وقد حملن في أيديهن أكياس التسوق من المتاجر الفاخرة المجاورة. وفي الخارج مرت سيارة ماساراتي حمراء متألقة وسط صفوف السيارات الرياضية السوداء اللامعة. ووقف فصيل من السائقين متبلدي الوجوه، يرتدون نظارات عاكسة، فيما كانوا ينتظرون أرباب عملهم. وجاءت سيارة لاند كروزر -

(*) المنهل أو المشرب: مكان احتساء الشراب. [المترجم].

تويوتا بيضاء مغبرة تصعد هادرة عبر الطريق وتوقفت بالقرب مني. ركبت السيارة، وانطلقنا مسرعين نحو تشانغ شان هاو.

يصعد الطريق شمال باوتو نحو جبال برتقالية اللون. ويمكن للمرء من فوق المرتفعات أن يشاهد الضباب السديمي المائل إلى الخضرة الذي يغطي الحقول بمحاذاة النهر الأصفر. في أول الأمر اتخذت سيارتنا طريقا دوليا سريعا ذا مسالك أربعة، متعرجا عبر سفوح الهضاب. وكان السائق يبطئ سرعة السيارة كلّ بضعة أميال إلى حد الزحف، وقد تهادى بجوار سيارة شرطة متوقفة، وعندما تجاوزها انطلق مرتدا إلى سرعته الطبيعية. وفي سلسلة من الانطلاقات السريعة شققنا طريقنا عبر الجبال باتجاه السهل إلى أن ابتعدنا عن مرأى الشرطة، وزاد السائق السرعة باطّراد إلى مستويات خطرة.

واندفعنا عبر الطريق السريع مدة نصف ساعة. وشاهدت الألق الأخضر للمزروعات بعيدا إلى اليسار. وفجأة ومن دون سابق إنذار أدار السائق المقود، وخرج من الطريق السريع إلى مسار طيني غير واضح المعالم، ينحدر إلى قعر جدول جاف. وارتجت المركبة و«نخعت» فوق الحصى والرمال الناعمة، مطلقة سحائب دخان حمراء عبر غطاء المحرك. لا بد أن هذا الطريق كان طريقا مختصرا معروفا في المنطقة. واقترب منا صف من الشاحنات الزرقاء الكبيرة بحمولات تنتفخ كأرغفة الخبز. وتقاذفت المركبات سحبا من السخام بلون القرفة استقرت على زجاجها الأمامي، فيما كنا نبتعد عنها.

وبلغنا طريقا مرصوفا، ثم اندفعنا عبر طريق سريع تحفه أشجار الحور. كانت الأكواخ الكئيبة المتداعية تلوح وتختفي من بعيد. وعند أحد تقاطعات الطرق قامت قرية صينية صغيرة بجوار بعض متاجر المحركات ومقهى لسائقي الشاحنات. ومررنا بموقع لإنشاءات السكك الحديد. كانت ثمة حافة مرتفعة فُرشت بالحصى، وكانت تمتد مثل مسطرة عبر السهل، واصلة خط الأفق بخط الأفق المقابل، وقد تُرك فيها هامش بسيط للطريق السريع.

بدت حدبات تلال المدافن المنغولية عبر السهب، وكانت تظهر أحيانا قبور متقنة مبنية من الإسمنت المكسو بالطلاء وتعلو كلا منها قبة وطيئة، وأمامها فناء محاط بجدار أبيض خفيض. ورحت أتخيل المغول وهم يعتلون صهوات جيادهم مندفعين

عبر هذا السهل في القرن الثالث عشر - بأعتى جيوش الخيالة التي عرفها العالم قاطبة. يخشى المنغوليون اليوم من أن أعمال التنقيب وهجرة الصينيين الأصليين ستأتي على ما تبقى من حياتهم الرعوية. قبل ذلك بشهر زرت تلك البقعة في يونيو 2011، وقد سببت احتجاجات المنغوليين نزول شرطة الشغب إلى شوارع عاصمة الإقليم[20]، هوهوت Hohhot، بعد أن دهس سائق شاحنة راعي أغنام منغوليا فأرداه قتيلا بينما كان يحاول منع موكب شاحنات الفحم من عبور المراعي الخضراء. وأعدمت الصين سائق الشاحنة[21]، ولم يحل شيء دون مرور موكب الشاحنات.

شاهدتُ، مرتين في غضون ساعتين، رعاة الأغنام في البعيد يسوقون الحيوانات تحت السماء المكفهرة. كانت السحب السوداء تتراكم منذ ساعة، ثم هبّت ريح شديدة مصحوبة بالمطر، وكانت تقرع على سقف السيارة. وعند بوابة جباية الرسوم على الطريق السريع توقف منغوليان شابان، ودراجتهما محملة بالأمتعة، للاحتماء من المطر. وما وراء ذلك، انخفض الطريق السريع باتجاه نهر فاض من هطول الأمطار. وانجرفت كتل الطين عبر الطريق فشكلت منزلقا مزبدا، وتماهت الحفر إلى جداول جارية. وسارت سيارتنا ببطء شديد عبر الطريق وماسحات الزجاج تخفق جيئة وذهابا. ثم بلغنا منجما يديره اللصوص.

لقد هُجر الموقع بسبب الأمطار. كانت ثمة جرافة أمامية وشاحنة اصطفتا بجانب أحد الأكواخ. وانبعث دخان إحدى المداخن مندفعا أسفل الجدار. كانت هناك مصوّلات(*) ومنخل بجانب النهر، وكانت ثمة منحدرات للشاحنات التي تجلب الفلز. لقد حوّل المنقبون مجرى النهر، وعمّقوا قاعه، وشطفوا الحصى عبر المصوّلات لجمع حبات الذهب. وقد أشاعوا الفوضى بالنهر على امتداد أميال، ولا بد أنهم قدّموا الرشى للمسؤولين المحليين. في بعض الأحيان شاهدت المنقبين في الصين يبحثون في الأنهار. وفي أثناء وجودي في تشانجدونغ شاهدت عمال رصف الطرقات السريعة ومعهم حفارة ذات مجرفة خلفية، وراحوا يغرفون بها الماء من أحد الجداول لتزفيت الطريق، وبينما هم يفعلون ذلك كانوا يمررون الحصى عبر المصولات.

---

(*) جمع مصول - حاشية سابقة. [المترجم].

وبالقرب من تشانغ شان هاو قام المنقبون غير القانونيين بنسف الهضاب باستخدام الديناميت، فسحقوا الفلز وجمعوا التربة الغنية بالذهب في أكوام الترشيح. كانت الأكياس الورقية التي تشبه أكياس الإسمنت مكدسة بالقرب من الفلز. وقد احتوت الأكياس على قويلبات(*) سيانيد الصوديوم. وشطف المنقبون السيانيد باستخدام مياه الجداول المحلية وجعلوا المحلول يرشح من خلال الأكوام لاستخلاص الذهب. كانت صفائح بلاستيكية رخيصة الثمن موضوعة أسفل الأكوام تلتقط رواسب سيانيد الصوديوم. وجمع اللصوص المادة المركزة وشحنوها إلى محطات تكرير (مصافي) صغيرة في باوتو كانت تعالج الخام وتضرب الذهب في سبائك.

وصلنا إلى رقعة ممتدة من المراعي الخضراء تحفها التلال البعيدة. كان هناك حصن متهدم بالقرب من الطريق. وطوقت بوابته أبراج متداعية. وامتدت الاستحكامات الدفاعية نحو ألف قدم في الجانب البعيد. تبدو آثار النزاع الصيني - المغولي محفورة في تضاريس الإقليم. وتتبدى أسوار قديمة وتختفي في الصحراء. وعلى خريطتي الصينية كانت تلك الأسوار جميعها تسمى: «سور جنكيز خان».

كان الحصن من بقايا ذلك النزاع القديم أيضا. وكانت تقوم بجواره مجموعة من بيوت المنغول وبعض حظائر الماعز. رحت أراقب فتاة مغولية تهش ماعزا حرونا بحبل معقود. وتطاير رداؤها، وضربت الماعز بحركة خاطفة من ذراعها، وحاول الماعز عبثا تفادي الضربة. وانتقلنا بالسيارة مسافة ميل عبر الطريق، ودلفنا من خلال بوابة منجم الذهب.

كان ثمة صف من الشجيرات يقاوم الرياح. وعند سفح إحدى التلال، كان هناك رسام يقف متوازنا على سلم، وقد انكب بجد يرسم بالفرشاة صورة لمجموعة من راكبي القوارب على قبة الباجودا(**). لقد اتبعت شركة الذهب الصينية China Gold سياسة تقضي بتجميل مناجمها. على المنحدر أعلى الباجودا كان يقوم بيت اليورت Yurt، وهو خيمة المنغول التقليدية المصنوعة من الجلد، وتبدو للعيان

(*) القويلبات Briquets: قوالب صغيرة الحجم. [المترجم].

(**) باجودا Pagoda: معبد بوذي ذو قباب مدببة مشرئبة إلى الأعلى. [المترجم].

شاهدا على ماضي البلاد. كان يعوز موقع المنجم وجود المساكن، وكان بيت اليورت يكتظ بالعمال الصينيين.

في أعلى التلة طريق يفضي إلى نقطة مراقبة. ومن تشانج شان هاو كان السهل يمتد غربا إلى آسيا الوسطى. وتراءى في مخيلتي جميع الذين عبروا هذه الصحارى. في العام 1935 قام بيتر فليمينج Peter Fleming (أخو إيان فليمينج) برحلة في سبيل المغامرة استغرقت سبعة أشهر من الصين إلى كشمير. وقد وصف في مؤلفه «أخبار من بلاد التتار» News from Tartary مَن صادفهم في رحلته من الحكام الصينيين في المناطق النائية وحجاج التبت وأحد الأمراء المغول وجماعات صغيرة من المنقبين عن الذهب بالشطف، والمنقبين عن الذهب الرسوبي الجوالين الذين جابوا جداول آسيا الداخلية. مثل هذه الجماعات كانت تنقب عبر القرون عند التضاريس السطحية للجيوب العظيمة التي يكشف النقاب عنها اليوم.

كان في منجم تشانج شان هاو تسع عشرة منصة حفر تعمل داخل نطاق ضيق بطول ثلاثة أميال وعرض 200 ياردة[22]. في الماضي تتبع المنقبون أثر الفلز إلى عمق 500 قدم، وكان الجيب الفلزي «ذا نهاية مفتوحة من الأعماق»، أي أن أعماق آبار الحفر لم تصل بعد إلى نهاية كتلة الفلز. وقد استدعت خطة التنقيب حفر 175 ألف قدم إضافية من آبار التنقيب. ويتوقع أن يضاعف المنجم احتياطياته من 168 مليون طن من الفلز إلى أكثر من 300 مليون طن، أو نحو 5 ملايين أوقية من الذهب. وكان يتوقع أن تؤدي توسعة محطات معالجة الفلز إلى زيادة الناتج إلى 260 ألف أوقية سنويا بدءا من العام 2015.

صعدنا بالسيارة إلى فتحة المنجم على الطريق المحيط، وترجلنا عند منصة مشرفة على الأراضي المجاورة لمعاينة المكان. كانت الشاحنات الناقلة للفلز، الحمراء والصفراء، تتجمع بأعداد كبيرة عند فتحة المنجم. وكانت صفوف المركبات المحملة بالفلز الأسود الرمادي تتسلق المرتفع، فيما راحت المركبات الفارغة تهبط نزولا. إن نظرة واحدة تكفي ليتبين المرء أن الأمور لم تكن على ما يرام. بعد أن تأملت برهة الحركة النشيطة أمامي، أدركت السبب في ذلك. إذ تنم الحركة أمام فتحة المنجم عن عدم انتظام في حركة المرور، مقارنة بحال المناجم في الدول الغربية. كانت فتحات المناجم المفتوحة، التي عاينتها ذات يوم خلوا من التكلف، لا بل مهيبة في مظهرها، على عكس فتحة المنجم المزدحمة في تشانج شان هاو.

في منجم مثل جولد سترايك، حيث تحمل الشاحنة 370 طنا، يبقي المشرفون على فتحة المنجم حركة المرور بطيئة. وهم لا يسمحون بازدحام المنجم على الإطلاق. أما في تشانج شان هاو فقد كانت أرضية فتحة المنجم تضج بالشاحنات. كانت تلك الحركة النشيطة تتناسب مع حجم الشاحنة. بمقارنة تلك العربات الضخمة بمثيلاتها في المناجم الغربية، كانت الشاحنات الصينية لا تحمل أكثر من خمسين طنا. ولضمان وجود الفلز في محطات المعالجة اضطروا إلى حشد أعداد كبيرة من الشاحنات أمام المناجم. وعندما انطلقنا في رحلتنا إلى محطة المعالجة التقينا طابورا من شاحنات المنجم الصفراء الجديدة تتهادى نحو فتحة المنجم، وقد أشرت لجيانج إلى أنها لا تختلف عن شاحنات المناجم في الأمكنة الأخرى. وكان جوابه: «آه، أجل. إنها تبدو مثلها. لكن هذه تعطل في شهر واحد».

والأمر ذاته ينطبق على المضخات الصينية. كان لدى جيانج مضخات أمريكية في تشانج شان هاو استمرت في العمل بلا توقف مدة عامين. أما المضخات الصينية فكانت أقل تحملا إلى حد كبير. وإن استخدام مثل هذه المعدات لم يمثل بحد ذاته خللا في خطط الأعمال، بل كان جزءا منها. ففي ضوء انخفاض تكلفة الفولاذ (في الصين) فإن الخيار الأقل تكلفة كان شراء المنتجات المحلية، وعندما كانت تلك المنتجات تعطل، كان يُشترى المزيد منها.

كانت اليد العاملة أيضا وفيرة ورخيصة. عندما كنت في تشانج شان هاو، كانت قوة العمل التي قوامها ألف عامل تنتج 110 آلاف أوقية من الذهب سنويا. كان العامل يحقق في الأحوال العادية دخلا شهريا قدره 650 دولارا. إن شركة المقاولات القائمة بأعمال التنقيب هي السكك الحديدية الصينية China Railway[23]، وهي كبرى الشركات في الصين. كانت الشركة التي اشتهرت بفسادها تستهلك واحدا بالمائة من الناتج المحلي الإجمالي للصين[24]. ويعمل لديها أكثر من مليوني موظف، وتمتلك قوة الشرطة الخاصة بها ونظامها القضائي ومدارسها ومشافيها وأنظمة اتصالها. وهي تمتاز بثقافة الانضباط العسكري التي اكتسبتها من أصول نشأتها عندما كانت شعبة عسكرية في الجيش. وفي المنجم كان عمال شركة السكك الحديدية الصينية يتشاركون حجرات المهاجع بمعدل ثمانية لكل حجرة مكونة من أربعة أسِرَّة، حيث كانوا يتناوبون على الأسرة في أوقات تغيير مناوبات العمل. لقد حافظوا على مقصوراتهم في نظام تام.

وقد عملوا ساعات طوالا في ظروف قاسية بعيدا عن بيوتهم وأسرهم. وعندما أبديت ملاحظتي على هذه النقطة، أشار أحد مديري المنجم بالقول: «ثمة دائما عاملون غيرهم ينتظرون عند المدخل ليشغلوا مكان من لا يرغب في العمل».

لقد عاش جي دي جيانج X. D. Jiang، سيد منجم تشانج شان هاو، حياة مرفهة نسبيا. كان ينزل في جناح خاص بآخر القاعة القائمة في جناح الإداريين من مقصورات المعيشة الشبيهة بالفنادق الطرقية (الموتيلات). كانت مساحة غرفة نومه تتجاوز أربعة أضعاف مساحة الحجرات النموذجية الأخرى التي احتلت بقية الجناح. لقد حظي ممثل الشركة الحكومية المتنفذة، شركة الذهب الصينية China Gold، والرئيس الإداري للمنجم، جيانج، بأمارات التقدير التي لن تخطر ببال رؤساء المناجم الغربيين. كان طاقم العمل في المنجم يهب واقفا لدى دخوله أي حجرة.

كان يبدو أن جيانج لا يتوقف عن العمل. ذهبت لرؤيته ذات ليلة في مكتبه الكائن في الطابق الثاني من مبنى الإدارة. وعند نهاية ممر مظلم، تسرّب الضوء إلى القاعة في المكتب الكائن على الزاوية. كانت هناك ثلاث أرائك من الجلد البني صفت على شكل صندوق مفتوح مقابل مكتب جيانج المصقول الفاخر. وكان تنين ذهبي بطول ثلاث أقدام تقريبا يزمجر وقد انبثق من قاعدة المكتب. وعلى خريطة معلقة على الجدار، احتلت الصين مركز العالم. وجلس جيانج صغير البنية وقد غاص في كرسيه الجلدي الأسود الكبير، محاطا بسحابة من دخان السجائر - وقد انعزل عن محيطه بحكم المنصب كما كان حاكم الحصن المجاور في الماضي، منفصلا عن المحيطين به بأسوار السلطة والمؤهلات التعليمية والخلفية الاجتماعية.

ولد جيانج، أكبر أولاد أبيه أستاذ الأدب الصيني، في العام 1958 في ويهاي Weihai، وهي مدينة في شاندونج تقع على البحر الأصفر. وكان بعمر التاسعة عشرة في العام 1977 عندما أعاد دينج جياوبينج العمل بنظام امتحانات القبول الجامعي. وفاز جيانج بالقبول في إحدى الجامعات، ووفق الأنظمة السائدة آنذاك، فرض عليه اختيار الجامعة والاختصاص الدراسي. ودرس وفق نظام الكليات (أربع سنوات) في معهد تشانجشن الجيولوجي(*) وتخرج في العام 1982.

(*) Changchun Geological Institute. [المترجم].

وطوال السنوات العشرين اللاحقة أعمل جيانج حفاراته في مواقع التنقيب المحتملة، بدءا من الصين ووصولا إلى منطقة القطب الشمالي. وقد عمل بالتنقيب في مناجم بأونتاريو وأفريقيا الشرقية. وعاد في العام 2002 إلى فانكوفر، حيث كانت عائلته قد استقرت سابقا، ووصل عندما كان توكسيك بوب Toxic Bob على وشك شراء منجم تشانج شان هاو. واستأجر فريدلاند خدمات جيانج، وشرع جيانج في رحلته ليعاين إمكانية تحويل أكوام الصخور الفلزية متدنية التركيز المتراكمة فوق التلة المنعزلة إلى منجم ذهب.

وصل جيانج إلى الموقع المهمل الذي كان يضم بضع أكوام اختبارية وفتحة. لقد حفر لصوص المناجم الموقع برمته. كان المورد الطبيعي الذي أراد جيانج تقييمه يتطلب دقة وصبرا، وعزيمة بالتأكيد. وكانت ثقافة الأعمال السائدة في الإقليم تقوم على السلب والنهب، وكان هذا أيضا واقع الحال في أنحاء الصين الأخرى. لقد استهزأ أثرياء صناعة الفحم (المليونيرات) بفكرة الجيوب متدنية التركيز، وخاصة ذلك الجيب الذي يتطلب تقييما دقيقا جدا. كانوا يفضلون المورد الطبيعي الذي يمكن استخراجه من الأرض بكميات كبيرة، وتحويله إلى مال في الحال. أما الذهب فكان يستغرق استخراجه وقتا طويلا جدا.

وحاول المسؤولون الحكوميون المحليون تحقيق الثراء على حساب المنجم عن طريق الابتزاز. لقد شقوا الخنادق عبر الطريق الرئيسي وطلبوا رسوما مقابل إصلاحه. يقول جيانج عندما سألته عما فعله لإيجاد حل لذلك: «في الصين، أول ما يتعين عليك معرفته هو عدو رب عملك. وبمجرد معرفته لن تكون المشكلة عويصة جدا، لأنك عندئذ ستعلم الجهة التي يتعين على رب العمل الاتصال بها». لقد حلت مكالمة هاتفية شديدة اللهجة واردة من بكين مسألة الطريق السريع.

وثقت العديد من القصص قضية الفساد في الصين، وإن الثروات الطائلة التي أصابها «الأمراء الصغار» المتحدرون من أصلاب قادة الثورة الصينية معروفة جيدا. لكن عندما يتعلق الأمر بالتنقيب عن الذهب تتحول الصين بكاملها إلى عصابة من قطاع الطرق.

***

تعتبر الصين أكثر دول العالم إنتاجا للذهب، ليس لوجود المناجم الكبيرة فيها، بل لوجود أعداد كبيرة جدا من المناجم الصغيرة. ووفق جريج هول Greg Hall، وهو جيولوجي أسترالي ورئيس إداري يعمل في مجال التنقيب عن الذهب، ومدير لشركة مدرجة في السوق المالية تشرف من خلالها شركة الذهب الصينية China Gold على منجم تشانج شان هاو، يوجد في الصين نحو 11 ألف منجم ذهب مسجل رسميا. في العام 2011 بلغ الإنتاج السنوي الإجمالي لأكبر عشرة مناجم في الصين أقل من خمسين طنا. أما الكمية الباقية وقدرها 270 طنا فكان مصدرها المناجم الأخرى البالغ عددها 10950 منجما. معظم هذه المناجم التي تعد بالآلاف صغير الحجم. علاوة على ذلك، ربما يتجاوز عدد هذه المناجم فائقة الصغر الرقم الذي أورده هول. وقد أخبرني جيانج أنه اطّلع على وثيقة حكومية، في العام 2004، حينما كانت السلطات تحاول القضاء على أعمال التنقيب غير القانونية، قدرت عدد المنقبين عن الذهب من دون ترخيص رسمي في الصين بستين ألفا. قد يتعذر تصديق هذا الرقم لو لم تكن الحكومة نفسها مسؤولة عن خلق تلك الطفرة.

في ثمانينيات القرن العشرين، وقبل أن تفتح الصين باب التنقيب أمام الشركات الغربية، حاولت الحكومة تحفيز الإنتاج من خلال رفع الرقابة الحكومية عن المناجم الصغيرة[25]. كان العديد من صغار المنقبين يعملون في التنقيب عن الذهب الرسوبي Placer Mining في حقول الذهب الصينية، وقد تسببت السياسة الجديدة بفورة الذهب. وهكذا نهب الساعون وراء الذهب الأراضي التي كان يحتمل وجود الذهب فيها في كل أنحاء الصين[26]. وتقاطروا بأعداد كبيرة إلى الأصقاع المقفرة مثل إقليم تشينغهاي Qinghai في هضاب التبت، ومنطقة الحكم الذاتي جينجيانج أوجور Xingjiang Uygur، أكبر التقسيمات الإدارية للصين: 641 ألف ميل مربع من الصحارى والجبال والجداول حيث يوجد الذهب. لم يندفع جميع المنقبين الجدد إلى هذه القفار النائية. ذلك أن البعض منهم انحدر إلى حقول الذهب القريبة من أمكنة عيشهم، وشرعوا بسرقة الفلز من المناجم الموجودة. وظهرت مشكلات أخرى أيضا.

يعتمد استخراج الذهب المعاصر على استخدام عمليات معقدة تستهلك الطاقة والمواد الأولية وتتطلب معرفة متخصصة. لكن المنقبين كانوا يستخرجون الذهب

من الفلز طوال قرون خلت من دون مساعدة المهندسين المتخصصين أو توظيف رؤوس أموال كبيرة. وربما تكون أكثر الأساليب شيوعا ما يعرف بطريقة الخلط بالزئبق (عملية الملغمة).

يذيب الزئبق معظم المعادن، ويكون الناتج محاليل تعرف بالملغم Amalgam. ومن أساليب تكوين ملغم الزئبق - الذهب وضع الزئبق في التيارات التموجية للمصوَّل وغسل الفلز المهشم في تيار الماء على طول المجرى التموجي. وتعتبر تموجات المجرى أخاديد عرضية قائمة على امتداد اتجاه التيار، مثل ثنيات البنطال. إذ مع تدفق الفلز فوقها «تلتحم (تتملغم)» جزيئات الذهب بالزئبق، وتلتصق بها. وبذلك يمكن للقائمين على عملية الاستخراج نزع الذهب واستخدام الزئبق من جديد. لكن المشكلة أن الزئبق يصيب العاملين في معالجته بالتسمم، وهو ذو أثر مدمر للبيئة. ولم تكن الملغمة بالزئبق الطريقة السامة الوحيدة التي استخدمها الصينيون.

في رحلة تنقيبية في الجبال بإقليم هونان، عند الحدود مع بورما، شاهد جيانغ منقبين عن الذهب من أوساط الحرفيين يستخدمون حمض الكبريتيك(*) - وهذه تقنية شديدة الخطورة. يقول: «مررنا بوديان صغيرة يملؤها الدخان الأبيض المنبعث عن الأبخرة الحامضية». لقد استخدم المنقبون في التلال السيانيد أيضا. إذ كان الرجال يحملون على ظهور الدراجات النارية براميل السيانيد صعودا في الطرق الجبلية غير المرصوفة. وأنشأ المنقبون فتحات ترشيح عند مصب النهر من مواد الحفر وسكبوا فيها السيانيد. وهكذا تسرب السيانيد، وسمم البشر وقتل أعدادا كبيرة من الماشية.

تراجعت الحكومة الصينية في العام 1988 عن سياسة حرية التنقيب[27]. وأصبح الذهب «معدنا ذا وضع خاص» تحت حماية الحكومة. لكن المارد لن يعود إلى المصباح. بالنسبة إلى عديد من الصينيين، ترسخت الفكرة القائلة بأن الذهب وحده سيحررهم من الفقر المدقع. في العام 1989 عرضت صحيفة كريستشيان ساينس مونيتور Christian Science Monitor خبرا عن النهاية المؤسفة لمغامرة أقدم

(*) حمض الكبريتيك Sulfuric Acid. [المترجم].

عليها مزارع اسمه ما Ma، وكان قد انطلق في أحد أيام مارس سعيا وراء الثروة في حقول الذهب بإقليم تشينغهاي[28]. «استأجر ما اثني عشر رجلا، وأنفق مدخراته جميعها على شراء الأرفاش والخيام والطعام وشاحنة، وترك لزوجته مسؤولية الاعتناء بمحصوله من الشعير الذي قارب النضج». وخرج الرجال من قريتهم وعبروا جبال الشمس والقمر Sun and Moon Mountains، واندفعوا غربا عبر السهل الأعلى في تشينغهاي. كان ما وفريقه يتبعون طريق قوافل المنقبين والحفارين غير القانونيين الباحثين عن الذهب الذين تجاهلوا الحظر المفروض على التنقيب الخاص. كان إغراء الذهب قويا جدا بحيث تعذرت مقاومته، وقد دفعتهم وعود الثراء السريع في خضم «الفورة الصفراء المجنونة» Yellow Rush وحكاياها عن الذين أصابوا ثراء فاحشا بلمح البصر، إلى الأصقاع النائية من الإقليم. كما خرج المسؤولون المحليون على هذا القانون، فساعدوا المنقبين وحصلوا على رشى و«رسوم» عظيمة. ويروى أن مجموعة من المسؤولين المحليين في مدينة جولمد Golmud الواقعة في مركز إقليم تشينغهاي(*) حققت 270 ألف دولار من بيع تراخيص التنقيب الوهمية.

وانحدر ما وفريقه عبر السهب يملأهم العزم والإصرار. وقطعوا مسافة ألف ميل تقريبا عبر الطرقات الوعرة التي تفضي إلى بلاد الذهب. وهطل المطر وعصفت الثلوج وتحول الطريق إلى أرض طينية. والتقوا بغيرهم من الساعين وراء الذهب العالقين في حمأة الطين الجاذب(**). وعلق أكثر من ثمانية آلاف رجل وألف شاحنة في شرك هذه الحالة المضطربة التي تبعث على اليأس. وصلوا إلى ارتفاع 16500 قدم، وقد باتت «منصة الذهب» Gold Platform على بحيرة هو جيل Hoh Xil Lake في نطاق رؤيتهم، وعندئذ نفدت مؤونة الطعام.

وتناهت أنباء الكارثة إلى علم السلطات، وحاول الجيش إلقاء الطعام من الجو. لكن تعذر على الطيارين العثور على المنقبين الذين تقطعت بهم السبل، وقد حجبت الغيوم الكثيفة الرؤية الجوية. وقضى أكثر من سبعين رجلا في المعبر المتجمد. وأخيرا تمكن الجيش من الوصول إلى المنقبين باستخدام الحوامات، وجلب

---

(*) تشينغهاي Qinghai: هي مقاطعة صينية تقع في الغرب الأوسط من البلاد. وهي غير شنغهاي Shanghai كبرى مدن الصين من حيث عدد السكان، وعاصمة البلاد الاقتصادية. [المترجم].

(**) الذي يجذب من يخوض فيه إلى الأسفل، فيعرقل تقدمه. [المترجم].

لهم الغذاء. وطلب من ما والآخرين ترك القافلة المنكوبة ومغادرة المنطقة سيرا على الأقدام.

لكن الكارثة التي وقعت في تشينغهاي لم تحل دون استمرار أعمال التنقيب عن الذهب محدودة النطاق. فقد استفحلت حمى التنقيب. إضافة إلى ذلك، كان التنقيب على نطاق محدود تقليدا قديما جدا. واعترافا منها بهذا النوع من التنقيب، وجدت الحكومة طريقة لغض النظر عن أنشطة التنقيب المحدودة، وذلك بموجب قانون غير مكتوب، بيد أنه معروف على نطاق واسع، يعرف بـ «حماية الطابع المحلي» Localistic Protection - وهو مفهوم ماوي Maoist كانت غايته مراعاة التقاليد الشعبية للسكان. كان السكان يدركون أن ثمة فرصة سانحة في ضوء سريان مثل هذا القانون.

في إقليم هينان Henan استغل 178 فريقا للتنقيب محدود النطاق الغطاء الذي وفره قانون حماية الطابع المحلي لوضع اليد على الأراضي المجاورة للمناجم التي تعود ملكيتها للدولة[29]. وتجرأ بعضهم على اقتحام المناجم، وجمعوا الفلز عند فتحاتها. وفي حادثة وقعت في منجم وينيو Wenyu جمع الناس «الذين حملوا الفلز على ظهورهم» كميات كبيرة جدا من الفلز بحيث اضطروا إلى أخذ الشاحنات عنوة لنقل تلك الكميات[30]. وقد عمل مدير المنجم، الذي حرص على إخفاء عجزه أمام جولة تفتيشية حكومية وشيكة، على الاتفاق مع القائمين بأعمال النهب على هدنة من ثلاثة أيام تعلق فيها أعمال النهب فيما يرافق مدير المنجم الوفد الحكومي الزائر في الجولة التفتيشية.

وقد عمل المنقبون غير المحترفين(*) على تنظيم أنفسهم في تعاونيات ريفية، عبر نظام يعرف بـ«مين كاي» Min Cai، أو ما يعرف بالتنقيب القروي Village Mining. لا بل إن كبرى الشركات الحكومية استخدمت نظام مين كاي لاستخراج الفلز صعب المنال[31]، فعمدت ذات مرة إلى ربط المنقبين بالحبال وإنزالهم مسافة 120 قدما من خلال مهابط المنجم. وفي إقليم شانجدونج وفر نظام مين كاي مصدرا مهما للدخل. لكن في العام 2001، في تحول آخر لمزاج الحكومة المركزية[32]، ألغت

(*) وهم المنقبون غير المتفرغين، أي الذين يتخذون التنقيب مصدرا إضافيا للدخل، لا مهنة أساسية. [المترجم].

الدولة هذا النظام، وأعلنت أن 295 منجما و138 منشأة استخراجية تعتبر غير قانونية في إقليم شانجدونج وحده. وطلبت الحكومة من أكثر من سبعة آلاف عامل قدموا من الأنحاء الأخرى في الصين مغادرة الإقليم.

لم تعد مثل هذه الأنشطة التنقيبية صغيرة النطاق قائمة على الأرض رسميا، فقد عهد بأعمال استخراج الذهب إلى الأجهزة الصناعية. لا تنطلي هذه القصة التخيلية على أحد، وإن بأبسط عمليات التمحيص. مع انتقالنا بالسيارة عبر حقول الذهب في شانجدونج، ألححت على فينج تاو أن يطلب من بانج مين أخذنا لمشاهدة أعمال الاستخراج محدودة النطاق. أخيرا، رفعت يديها إلى الأعلى، وخرجت من الطريق الرئيسي السريع، واتخذت طريقا ضيقا عبر الحقول والبساتين إلى أن بلغنا هضاب الكوارتز (المرو). لقد انتهى بنا الطريق إلى منجم ذهب متوسط الحجم، وظننت أن جهود فينج تاو ذهبت سدى بعد الصعوبات التي كابدها في فهم اللهجة المحلية لبانج مين، لهجة إقليم شانجدونج. غير أننا عندئذ شاهدنا المنجم، في حقل لا يبعد مائة ياردة عن بوابة المنجم الحديث. واندفع البخار من البنية السفلية الصدئة المتقادمة للرافعة الأسطوانية التي ارتفعت فوق سياج متماوج الشكل نُصب لحجبها عن النظر. كان حجم سحابة البخار المتصاعد وكثافته مؤشرين إلى عمق المنجم. إذ ترتفع حرارة الصخر مع زيادة العمق، ويتطلب الأمر تيارات مائية لتبريد سطح الصخر. لقد تحول الماء إلى بخار ثم اندفع عائدا على امتداد سرب التنقيب صعودا عبر المهابط. وعلى مسافة ميل شاهدنا عمودا من البخار الأبيض يندفع صاعدا عبر برج الحفر المتداعي، وكان هذا ينم عن وجود مهبط ثان.

إن مصدر العداء الرسمي لأعمال التنقيب الصغيرة يتمثل، من جملة أمور أخرى، في الدور الذي تؤديه تلك الأعمال في توفير الغطاء لسرقة الفلز من المناجم المحيطة. ولا تعتبر حمولة شاحنة الفلز التي تضبط في حيازة المنقبين عن الذهب، مهما كانت صغيرة، دليلا على السرقة، لأن مثل هؤلاء المنقبين يشحنون الفلز إلى محطات التكرير بدلا من القيام بأعمال التكرير بأنفسهم. وبالتواطؤ مع جهات تعمل داخل المنجم، يقوم اللصوص بالسرقة من أحد المناجم والبيع لمنجم آخر. لا بل ربما يبيعون الفلز للمنجم الذي سرقوه منه. وقد يفضل المنجم، إذا كان السعر مناسبا، أن يشتري الذهب المسروق نفسه

بدلا من فقدانه برمته. وفي شانجدونج لن يكون بيع مثل هذا الفلز المسروق، حيث يوجد الكثير من الباعة، أمرا صعبا.

ثمة في مدينة جاويوان وحدها ست محطات تكرير كبرى، لكن بانج مين كانت تعلم أني مهتم بأعمال التنقيب صغيرة النطاق، التي يزاولها غير المحترفين. بعد أن استطلعنا التلال قفلنا عائدين إلى المدينة وتوقفنا عند إحدى محطات التكرير الصناعية. وتحدثت بانج مين إلى الحراس ريثما خرج إلينا شاب، وصعد إلى المقعد الخلفي من السيارة إلى جانب فينج تاو. وانطلقنا إلى وجهتنا ثم اندفعنا عبر الشوارع المزدحمة في استعراض حماسي آخر لمهارات بانج مين في قيادة المركبة. وأخيرا سرنا بسرعة عبر أحد الجسور باتجاه ضاحية من المدينة. سألت فينج: «ما الأمر؟»، وأجاب: «لا أعرف. لا أستطيع أن أفهم كلمة واحدة». خرجنا من شارع عريض ومضينا صعودا في مجاز موحل إلى أن وصلنا إلى جدار آجري متهدم ارتفاعه عشر أقدام. على الجانب الآخر كانت ثمة كومة عملاقة من مخلفات المناجم، وكانت ذات لون أصفر مائل إلى الرمادي.

تنقلنا عبر البوابات الصدئة، وتوقفنا عند مسكن صغير آيل للسقوط. خرج بعض الرجال بسراويلهم القصيرة وقمصانهم قصيرة الأكمام ونعالهم البلاستيكية، وتحدث إليهم دليلنا الجديد. ترجلنا أنا وفينج وألقينا نظرة حولنا. كانت تلك محطة لتركيز الفلز Concentration Mill. كان الفلز المستخرج من المناجم الصغيرة الواقعة في التلال، أو الفلز المسروق من المناجم الكبيرة، ينقل إلى هنا بواسطة الشاحنات ليسحق بحجر الرحى، ويتم تكريره للحصول على فلز مركز في أحواض التعويم. في عملية التعويم، يضيف عامل التكرير سائلا بنيا غامقا زيتي القوام نفاذ الرائحة إلى ردغة(*) من الفلز المسحوق. تجتذب المادة الكيميائية الكبريتيد الحامل للفلز إلى الزبد المتشكل على سطح الحوض، ويجمّعه العمال في حالته المركزة، ثم يبيعونه إلى المصاهر الصناعية التي تعمل على التخلص من خبثه بحرقه في أفران ضخمة.

لقد باتت الصين أكبر منتج للذهب في العالم لأنها تحولت، جميعها، إلى منظومة فعالة لاستخراج الذهب من الأرض. تعتبر الهيكلية الصناعية لعملية التنقيب عن

(*) طين رقيق القوام. [المترجم].

الذهب جزءا من هذه المنظومة. ويتمثل الجزء الآخر في الجموع الجشعة التي أطلقتها الحكومة من قمقمها في العام 1978 بعد أن شجعتها على البحث عن الذهب، وقد تعذر عليها إعادتها إلى ذلك القمقم. إذ عندما أجبر المسير الطويل المضني بعض تلك الحشود على الاستسلام والتخلي عن سعيها للوصول إلى منصة الذهب Gold Platform في تشينغهاي في العام 1989، كان ثمة الآلاف أيضا ممن هم مستعدون ليأخذوا مكانهم.

في العام 1995 كان لايزال «أسياد الذهب» وعصاباتهم من المنقبين المهنيين يتحدون الحكومة، ويتصارعون فيما بينهم[33]. لقد أخبرت امرأة أربعينية أحد المراسلين الصحافيين: «سمعت الرصاص يئز قريبا من أذني، ورأيت الناس قربي يلقون حتفهم. إذا أرادت الحكومة وضعنا تحت السيطرة، فإننا أكثر منها قوة في الوقت الراهن، وإن بنادقنا أفضل بطبيعة الحال من البنادق التي تحملها [الشرطة]».

لقد حارب أسياد الذهب من أجل الحصول على أفضل الأراضي الصالحة للتنقيب. وقد قال أحدهم: «إن أول ما سنفعله عندما نكتشف الذهب إقامة نقطة محصنة على قمة الجبل وتدريب المزيد من عمالنا على استخدام البنادق؛ ثم إننا سنحيك من أغطيتنا علما، هذا العلم معناه أن هذا الجبل ملك لنا».

خاضت العصابات المتنافسة معارك بالمسدسات والأسلحة الأوتوماتيكية، لا بل أيضا بالمدافع محلية الصنع. لقد قلبت تلك العصابات الأرض في أعمال التنقيب، وجرفت التربة الناتجة عن أعمال الحفر إلى الأنهار، وبذلك عرضت للخطر المحيط الحيوي لحيوانات نادرة من النمور المرقطة الثلجية والغزلان بيض الشفاه. وفي العام 2012 حارب البدو الرحل التبتيون في تشينغهاي المنقبين الصينيين للحيلولة دون قيامهم بالحفر في الجبل المقدس لدى سكان التبت[34]. لا يبدو أن ثمة شيئا يحول دون تجريد الصين من ذهبها.

ذات يوم استقللت السيارة إلى خارج مدينة يانتاي عبر البساتين لأعاين إحدى حفر المناجم في منطقة تضاريسية تسمى حوض جياو لي Jiao Lai. كانت الشاحنات ذات الحمولة الزائدة ومحاور العجلات ذات الصرير تلهثُ صاعدة المرتفع انطلاقا من مستوى أعمال التنقيب. كانت حفرة المنجم في فوضى عارمة، وقد تخددت منحدراتها بفعل كسرات الحصى. وكان السياج منكفئا على الأرض المحيطة. وقد

نهب المنقبون غير القانونيين، باعتراف مدير المنجم، الموقع وحوض جياو لي برمته بلا هوادة. وعند مستوى التكاليف السائدة، خلق المنجم بفلزه منخفض التركيز وعمليات النهب الجارية من حوله الذريعة الناجعة لتبرير أعمال استخراج الذهب، وذلك في طول الصين وعرضها، إذا جاز التعبير. لكن هذا يطرح السؤال الآتي: في ضوء هذا التنقيب المحموم، كم بقي من الذهب؟

حذر مجلس الذهب العالمي في العام 2010 من أن «فرص الصين المستقبلية في إيجاد مصادر جديدة للذهب تبدو محدودة»[35]. هذا المجلس مؤسسة بحثية وتسويقية تديرها صناعة التنقيب عن الذهب. وباستخدام البيانات المتاحة في تقرير المسح الجيولوجي للولايات المتحدة أشار مجلس الذهب العالمي إلى أن «الصين قد تستنفد مناجم الذهب الحالية في ست سنوات إذا استمر الطلب الصيني بالنمو بمعدلات مرتفعة».

بالنسبة إلى جميع الأطراف العاملة في قطاع الذهب، باستثناء المنقبين الصينيين، ينطوي ذلك على أخبار سارة. هل سينفد ما لدى الصين من ذهب؟ لنا أن نتصور أثر ذلك في السعر.

إن سيناريو نفاد مخزون الذهب الصيني يطلق بعبع «وصول إنتاج الذهب إلى ذروته»[36]، ويجسد حكاية ما قبل النوم المفزعة التي يحب منتجو الذهب قصّها. ويعبر ذهب الذروة عن المستوى النظري لأقصى ما يمكن استخراجه من الذهب، في العالم أجمع، وما بعد هذا المستوى يبدأ الانحدار بصورة مطردة مع تقلص الإنتاج، وصولا إلى آخر أوقية، عندئذ تنفد احتياطيات الذهب المتاحة للتنقيب. لا أعلم ما كمية الذهب الموجودة لدى الصين تحت الأرض، ولا يعلم ذلك مجلس الذهب العالمي. وحدهم الصينيون يعلمون ذلك. لكن إن صدرت عنهم مؤشرات نفاد الذهب، عندئذ سيرتفع سعر الذهب إلى مستويات عالية جدا. وحينئذ سيغيب المنطق البشري.

9

# سبايدر
# (العنكبوت)

- كانت سوق لندن تتداول، كل ثلاثة أشهر، ضعف كمية الذهب المستخرجة عبر التاريخ.

«سبايدر (العنكبوت) اسم على مسمى؛ إذ يسمح للمستثمرين فيه بالتجاوب بسرعة العنكبوت مع أدنى تغير في مزاج الاستثمار»

الذهب بازار(*) لا منطق فيه، إذ تتجاوز كمية السبائك الذهبية(**) المعروضة في السوق اليوم، بألف وستمائة ضعف، الكمية المسجلة في القرن السادس عشر، حينما كانت الأساطيل الإسبانية المحملة بالكنوز تتقاطر أعلى النهر نحو إشبيلية[1]. ولا يشتري الناس اليوم كل هذا الذهب الجديد، بل يشترونه ويبيعونه ثم يشترونه مرة أخرى.

---

(*) يشبه الكاتب سوق الذهب بالسوق الشعبي الذي لا يخضع لضوابط وأحكام واضحة في التعامل. [المترجم].

(**) السبائك الذهبية جزء من المسكوكات الذهبية التي تتضمن أيضا القطع النقدية الذهبية. [المترجم].

بلغت القيمة الإجمالية للذهب المستخرج في أعمال التنقيب في العام 2011 نحو 143 مليار دولار أمريكي[2]، أما القيمة المتداولة فقد تجاوزت كثيرا ذلك المستوى. إذ شهدت لندن، في مدة ثلاثة أشهر فقط، تداول 11 مليار أوقية من الذهب بقيمة 15 تريليون دولار[3]. ولم يتبين الحجم الفعلي لهذا السوق إلا في ذلك العام، ذلك أن حركة تداول الذهب غير منظورة. ومعظم عمليات التداول تنفذها مجموعة من المصارف في لندن[4]. هذه المصارف نفسها قادت جهود الكشف عن حجم السوق، وكان مسوغها في الكشف عن حجم تداول السبائك الوصول إلى فئة جديدة تماما من العملاء - أي المصارف. وضمن الجهود المبذولة لتعزيز مكانة الذهب باعتباره «غطاء للسيولة»، وهو نوع من الأصول (الموجودات) الرأسمالية التي كان يطلب من المصارف التجارية الأوروبية حيازتها، فقد أرادت الجهات العاملة في سوق السبائك أن تكشف للجهات الرقابية المصرفية الأوروبية حجم سوق الذهب. في أول الأمر، كان على تلك المصارف أن تعرف ذلك بنفسها.

أجرت مؤسسة سوق المعادن النفيسة اللندنية London Bullion Market Association استبيانا لآراء أعضائها عن حجم التداول اليومي[5]. ومعظم تداولات السبائك تتم في لندن، أقدم أسواق العالم وأهمها، على أساس مباشر من دون وسيط. هذه الصفقات تطلع عليها الأطراف ذات العلاقة من دون غيرها، ولا تترك خلفها أي أثر للجمهور. وعندما ظهر حجم هذه التداولات إلى العلن كان الأثر يبعث على الدهشة. ففي الأشهر الثلاثة الأولى من العام 2011 بلغت قيمة الذهب المتداول 15 تريليونا و200 مليار دولار. من حيث حجم التداول، كان هذا الرقم يعادل 125 ضعف ما أنتجه العالم في ذلك العام، أو ضعفي كمية الذهب المستخرجة عبر التاريخ.

لقد أدى نشر حجوم التداول المذكورة إلى تغيرات سريعة في سعر الذهب. وتجعل الوسائل الاستثمارية الجديدة من تداول السبائك أمرا في غاية السهولة. فلا يضطر المضارب إلى شراء سبائك الذهب من التجار المتداولين. إذ يستطيع أن يرفع سماعة الهاتف ويشتري حصصا في صناديق الاستثمار التي توظف أموالها في السبائك. وقد ظهر أكبر هذه الصناديق في العام 2004، قبل سبع سنوات من معرفة سوق سبائك لندن حجمه الحقيقي. وقد أحدث مؤسسو هذا الصندوق شرخا في

جدار كان يحجز وراءه فيضا من الطلب، وهكذا تدفقت الأموال [إلى هذا السوق]. وفي بضع سنوات تجاوز ما في خزائن ذلك الصندوق من الذهب احتياطيات الذهب لدى المصرف المركزي الصيني. وبدأ محللو السبائك(*) بمراقبة تدفقات الذهب الداخلة إلى الصندوق والخارجة منه بانتباه كبير، على غرار متابعتهم لمؤشرات السوق الأساسية مثل الطلب على المجوهرات. في عالم الذهب يعرف هذا الصندوق باسم سبايدر **Spider**.

وسبايدر من صناديق الاستثمار المتداولة في الأسواق المنظمة **Exchange-Traded Fund**[6]، وهو عبارة عن استثمار يتكون من سلة من الأصول (الموجودات) يجري تداولها بسهولة تداول الأسهم. لكن الصندوق يضم أصلا واحدا فقط: سبائك الذهب. لقد اشتقت تسمية «سبايدر» من الاسم الكامل للصندوق، وهو حصص الذهب المرتبطة بأداء شهادات إيداع مؤشر ستاندر أند بورز(**) (أول صندوق استثماري متداول يأخذ هذا الاسم، أو **SPDR** اختصارا).

وسبايدر (العنكبوت) اسم على مسمى؛ إذ يسمح للمستثمرين فيه بالتجاوب بسرعة العنكبوت مع أدنى تغير في مزاج الاستثمار. وبتوفير سبل التخلص من متاعب حيازة الذهب في صورته المادية وإيجاد خزائن له واستئجارها، فقد طور الصندوق أساليب ملكية الذهب أكثر من الوسائل الأخرى التي عرفت منذ نشأة النقد الذهبي في القرن السابع قبل الميلاد. وجعل حيازة السبائك في متناول الجميع. ذلك أنه يتيح لمن يملك بضع مئات من الدولارات الاستثمار في الذهب. والأهم من ذلك، وهذا ما أكسب الصندوق عامل القوة، أن فرصة الاستثمار متاحة أيضا لمن يملك مئات الملايين من الدولارات.

كان سبايدر صنيعة مجلس الذهب العالمي. ذلك أن أرباب التنقيب عن الذهب الذين كانوا قائمين على إدارة هذا الصندوق سعوا إلى إيجاد وسيلة ناجعة لبيع الذهب، خصوصا في ضوء إنتاجهم الكبير منه. وما بين العامين 1975 و1985

---

(*) فئة من المحللين الماليين متخصصة في متابعة أسعار سبائك الذهب وأسواقها من حيث العرض والطلب والاستثمار... إلخ. ومن الأمثلة الأخرى من المحليين: محللو الأسهم ومحللو السندات، وغيرهم. [المترجم].

(**) Standard and Poor's Depositary Receipts Gold Shares ويكتب الاسم اختصارا SPDR Gold Shares. [المترجم].

تراوح الإنتاج العالمي من الذهب ما بين 40 و50 مليون أوقية سنويا. وقد ساعدت التكنولوجيا الجديدة - مثل تقنية ترشيح الأكوام - على زيادة الإنتاج نظرا إلى ما قدمته من احتياطيات إضافية. وبحلول العام 1995 قفز الإنتاج العالمي بنحو 50 في المائة إلى ما يقارب 75 مليون أوقية، وبعد عشرة أعوام، ارتفع إلى 80 مليون أوقية. وهكذا تضاعف عرض الذهب في الأسواق في غضون ثلاثين عاما.

ومع الزيادة المطّردة في عرض الذهب، سعى مجلس الذهب العالمي من خلال مكتبه في نيويورك إلى البحث عن وسائل لتوسيع قاعدة المتعاملين في الذهب بما يتجاوز طلب أسواق المجوهرات. لقد اتبع منهجا بسيطا: ذلك أنه استكنه آراء المستثمرين الذين لا يستثمرون في الذهب، واستفسر منهم عن أسباب ذلك. يقول المدير التنفيذي الذي أجرى الاستبيان: «تظهر الرسالة الواضحة التي حصلنا عليها أن الاستثمار في الذهب ليس بالأمر السهل، وهو أيضا عمل مكلف ومعقد». لقد أراد المستثمرون شيئا سهل التداول، ولا يتطلب من المشتري الحفظ والتخزين، ويتيح المجال في الوقت نفسه للاستفادة من تقلبات السعر الفوري للذهب. باختصار، كان المستثمرون يرجون أن تتوافر لهم سبل المضاربة بالذهب تماما على غرار المضاربة بالأسهم. وفي العام 2000 شرع مجلس الذهب العالمي بابتكار منتج استثماري يساعد على تجنب تعقيدات سوق السبائك، ويلبي في الوقت نفسه ضوابط هيئة الأوراق المالية والبورصة(*).

وقد وصف أحد أعضاء إدارة مجلس الذهب العالمي حالة هيئة الأوراق المالية والبورصة بأنها: «ليس لديها أدنى معرفة بآلية عمل سوق الذهب».

وأضاف: «سأمضي إلى واشنطن بصحبة محامٍ وتاجر ذهب وخبير في الصناديق المتداولة في الأسواق المنظمة، ومجموعنا خمسة أشخاص تقريبا، وسيدعوننا إلى قاعة اجتماعات رحبة، وسنتحلق حول طاولة عظيمة. سنشرع في التحدث عن آلية عمل سوق الذهب، وستلحظ أن الناس بدأوا يدلفون إلى القاعة تباعا، وفي نهاية المطاف سأجد نفسي أتحدث إلى أربعين أو خمسين شخصا. ثمة اهتمام بالغ بآلية عمل هذا المنتج الاستثماري المستحدث غير المألوف».

---

(*) هيئة الأوراق المالية والبورصة Securities and Exchange Commission (الولايات المتحدة). [المترجم].

كان لا بد من إقناع الجهات الرقابية، في سبيل إصدار تراخيص للصناديق المتداولة ببيع حصصها، بأن الحصة الواحدة في الصندوق تعادل كمية محددة من السبائك المحفوظة في خزائنه. في العام 2004 أصدرت هيئة الأوراق المالية والبورصة ترخيصا لصندوق الاستثمار سبايدر. بالنسبة إلى المستثمر الذي يعتقد بجدوى الاستثمار في الذهب، كان هذا الإحساس الغامر لا يتطلب أكثر من مكالمة هاتفية. وطرحت حصص صندوق سبايدر للبيع في نوفمبر 2004، واستطاع الصندوق جمع مليار دولار في أربعة أيام. وبعد ثماني سنوات ارتفعت حيازة سبايدر إلى نحو 1300 طن من الذهب بقيمة 70 مليار دولار تقريبا. كان تحت تصرف صندوق سبايدر من الذهب ما يتجاوز احتياطيات الذهب لدى المصرف المركزي الصيني[7].

لقد جعل الصندوق الاستثماري المتداول «سبايدر» ملكية السبائك في متناول المستثمرين العاديين، الذين كانوا يسعون إلى امتلاك الذهب حالما تذلل العقبات الماثلة أمام ذلك. بيد أن سهولة امتلاك الذهب أضافت إلى سوق الذهب أكثر من مجرد طلب إضافي على الذهب. لقد جلبت عنصر عدم الاستقرار إلى هذا السوق.

وهكذا زعزع صندوق سبادير استقرار سعر الذهب من ناحيتين، الأولى من خلال تسهيل شراء كميات كبيرة من السبائك وبيعها، والأخرى في التبعات الهيكلية لآلية عمل الصندوق الاستثماري.

لدى تحليل أثر صندوق سبايدر، من المفيد معرفة ماهية المستثمرين فيه، للوصول إلى فهم مستوى حنكتهم الكامنة خلف عملية التداول. ولا تتوافر البيانات حول مالكي هذا الصندوق. إن حجم استثمارات بعض مالكيه تظهر في نماذج التسجيل لدى هيئة الأوراق المالية والبورصة التي يرمز لها بـ – 13F[8] وهي عبارة عن إفصاحات فصلية إجبارية تطلب من المستثمرين المؤسسين الأمريكيين في تقاريرهم المالية بشأن تداولاتهم. على سبيل المثال، أظهرت هذه النماذج الإفصاحية أن الملياردير جورج سوروس باع ما قيمته 650 مليون دولار من حصص صندوق سبايدر في الربع الأخير من العام 2010، في حين لم يتغير المركز الاستثماري لملياردير آخر هو جون باولسون John Paulson، الذي استثمر 4.5 مليار دولار من الأموال تحت الإدارة لدى صندوق سبايدر. لكن النماذج الإفصاحية لا توثق إلا الأموال الموضوعة تحت إدارة المؤسسات، أي المنتجات الاستثمارية المطروحة للجمهور.

ولو كان لدى باولسون أو سوروس مليار دولار مستثمر باسم أحدهما في صندوق سبايدر، فلن تظهر هذه الأموال في النماذج الإفصاحية. لقد علمت من أحد أعضاء إدارة مجلس الذهب العالمي، جيسون توسان Jason Toussaint، أن النماذج الإفصاحية كانت الدليل الوحيد المتوافر لديهم حول ملكية هذه الصناديق. كما لم يستطع تقديم معلومات حول عدد المستثمرين أصحاب الحصص في الصندوق، ومن ثم تعذّر عليه تقدير الحجم الوسطي للاستثمارات في الصندوق. هذا يعني أنه ليس ثمة طريقة لقياس درجة حنكة المستثمرين. ونستطيع القول إن بعض هؤلاء المستثمرين ليسوا بمستوى حنكة سوروس أو باولسون.

يسهم سبايدر (وصناديق الاستثمار المتداولة التي تستثمر في الذهب، والتي ظهرت إلى حيز الوجود بعد النجاح الباهر الذي حققه هذا الصندوق) في زيادة درجة تقلبية الأسعار من خلال توفير سبل التداول السريع في السبائك لجمهور عريض. ويفترض أن تحركات المستثمرين الأكثر حنكة تؤثر في بعض هذه التداولات. وبهذا الصدد، تزداد أعداد المستثمرين الأقل حنكة، وهم يلقون بأنفسهم في دائرة التداول في هجمة مسعورة دافعها تقليد الآخرين. إن تداول الحصص في صناديق الاستثمار المتداولة لم يكن القوة المحركة الأساسية لتغيرات الأسعار وفق ستيرلينغ سميث Sterling Smith، المحلل المالي المختص في تداولات الذهب، بل جَعلت هذه التغيرات «أكثر حدة».

إن الأثر الهيكلي لصناديق الاستثمار المتداولة في عدم استقرار السعر ينشأ عن الضوابط التي تشترط على هذه الصناديق «إعادة التوازن» لعملياتها في نهاية يوم التداول، بحيث تشتري أو تبيع أصولها بما يتناسب وعمليات البيع والشراء التي ينفذها الصندوق في ذلك اليوم. وعند إجراء عملية إعادة التوازن تتدفق الكثير من أوامر التداول إلى السوق في الوقت نفسه. ويتجاوب السوق بالآلية نفسها التي يتجاوب فيها مع أمر التداول كبير الحجم، فيرتفع السعر في حالة أمر الشراء، وينخفض في حالة أمر البيع. ولأن ردة فعل أصحاب الحصص في صناديق الاستثمار المتداولة قد تكون مجرد استجابة لحركة السوق في المقام الأول، فإن تحركاتهم تؤدي إلى تفاقم تلك التغيرات.

لقد أورد عمود الصفقات - ديل بوك «DealBook» في صحيفة نيويورك تايمز[9]، أن ستيفن دافيدوف Steven Davidoff، أستاذ القانون الخبير في مجال

الضوابط الرقابية المالية، رأى في حالة الحماسة العامة حول الذهب بوادر تشكل فقاعة سعرية «تزداد فيها حدة المضاربة بفعل الابتكارات المالية. في الماضي كان المستثمرون الأفراد مضطرين إلى شراء الذهب من خلال التجار الوسطاء وتجار التجزئة. أما اليوم فيمكن شراء الذهب عن طريق الإنترنت بضغطة زر، من السوق مباشرة، عبر صناديق الاستثمار المتداولة». وكتب دافيدوف: «عند نشوء الفقاعة، يؤدي التلفزيون والإنترنت دورا كبيرا في نشر الشائعات. وهذا ما كنا نفعله. إذ يعتبر تسويق الذهب في أوساط الجماهير الغفيرة، في مثل هذه الأحوال، نذير شؤم».

يمكن إصدار أوامر شراء الذهب بسهولة إجراء طلبات شراء السلع التي تُباع في البقالات. إذ إن بعض الباعة مستعد للتوصيل إلى البيوت. ومثال ذلك شركة جولدلاين إنترناشيونال Goldline International، ومقرها سانتا مونيكا، بكاليفورنيا. من أشهر الشخصيات الإعلانية لدى شركة جولدلاين جلين بيك Glenn Beck[10]، وهو مقدم برامج حوارية شهير، ينتمي إلى أوساط المحافظين. قدم في العام 2011 برنامجا على شبكة تلفزيون فوكس Fox. وبنبرة صوته الحادة عرض تنبؤات عن التضخم الهدّام. وكانت نصيحته إلى مشاهديه أن يضعوا ثقتهم بـ «الله، والذهب، والسلاح». وفي بث مباشر استمعت له عبر شبكة الإنترنت تنبأ بيك بانهيار الاتحاد الأوروبي واندلاع حرب أوروبية.

لقد ارتفعت مكاسب شركة جولدلاين كثيرا مع ارتفاع سعر الذهب. وفي أواخر أغسطس 2011 بلغ سعر أوقية الذهب مستوى 1917.90 دولار. وأورد مجلس الذهب العالمي أن الطلب على فئة واحدة من استثمارات الذهب - أي السبائك - قد تضاعف في السنتين السابقتين إلى 850 طنا متريا في العام. وتنبأ المراقبون في برامج المال والأعمال المتلفزة بأن يصل سعر أوقية الذهب إلى 2500 دولار، وضجت مواقع الإنترنت التي انتابتها حماسة الحديث عن الذهب بتقارير تفيد بأن جون باولسون، الذي تصل قيمة ما يملكه من السبائك في صناديقه الاستثمارية إلى مليارات الدولارات، كان يتنبأ بارتفاع الذهب إلى مستوى 4 آلاف دولار للأوقية[11]. وباستثناء الكميات التي كانت بحوزة المضاربين في العملات الذهبية والسبائك التي تملكها الجهات غير الحكومية، والكميات المتفرقة التي تحصى لدى الأفراد الذين صهروا مجوهراتهم في مصاهر منزلية، بلغت كمية

الذهب بأيدي المستثمرين في صناديق الاستثمار المتداولة وحدها 2250 طنا متريا[12]. ثم في سبتمبر 2011 وصل سعر الذهب إلى نهاية النزعة الصعودية التي استمرت عشرة أعوام، وهوى من علاه.

وفقد الذهب في غضون شهر 300 دولار من قيمته، فهبط إلى مستوى 1600 دولار للأوقية في أكتوبر 2011. ورأى بعض المستثمرين مكاسبهم تتلاشى. وفي 3 نوفمبر تقدم النائب العام في سانتا مونيكا بكاليفورنيا بشكوى تحايل جنائي اشتملت على تسع عشرة تهمة ضد شركة جولدلاين، بدعوى بيع عملات ذهبية بأكثر من سعرها إلى أشخاص ظنوا أنهم اشتروا سبائك ذهبية[13]. وقبلت شركة جولدلاين إعادة 4.5 مليون دولار إلى المشترين[14]، وفق التقارير الواردة، وأن تدفع مبلغ 800 ألف دولار لتأسيس صندوق مخصص لتسوية المطالبات المستقبلية. وقد أشارت محطة إي بي سي نيوز ABC News إلى أن من المهم أن تكفّ شركة جولدلاين عن إخبار زبائنها أن الحكومة تسعى إلى مصادرة ذهبها.

وبانخفاض سعر الذهب[15]، بدأت صناديق التحوط بتصفية استثماراتها في الذهب لتوفير المال لتلبية متطلبات زيادة مستوى الضمان Collateral التي فرضتها المصارف المقرضة لصناديق الاستثمار عندما بدأت أصول تلك الصناديق، مثل الأسهم، بالتراجع أيضا. لقد مثل هذا الانخفاض الشامل في قيم الأصول تحديا للقاعدة التي تقول إن سعر الذهب يرتفع عندما تنخفض أسعار الأسهم. هذه المرة كانت السفينة برمتها تغرق. هذه الحالة تعرف بلغة المحللين الماليين بـ «اطّراح المخاطر»(*): وهي حالة يتخلص منها المستثمرون من كل مخاطر الاستثمار، ويتحولون إلى الأصول النقدية. وليست الأصول النقدية في هذه الحالة إلا شيئا واحدا: الدولار الأمريكي.

قد يتبنى المرء وجهة النظر القائلة إن بيع الذهب لرفع قيمة الضمان نتيجة تراجع قيم استثمارات الأسهم دليل على فائدة استخدام الذهب في سبيل التحوط. فلو تجاوز الذهب على سبيل المثال حالة اطراح المخاطر بصورة أفضل من الأصول الأخرى، فسيختار المستثمر الاحترازي أن يتحمل خسائر تراجع أسعار الذهب لأجل

---

(*) اطّراح المخاطر (حالة المخاطر السالبة) Risk-off: سعي المستثمرين إلى التخلص من الأصول ذات المخاطر العالية والتحول نحو الأصول متدنية المخاطر. [المترجم].

أن ينأى بنفسه عن الخسائر الأكبر الناجمة عن بيع الأصول التي اضمحلت قيمتها بدرجة أشد، أي تلك الأصول، التي إن تمت حيازتها، فإنها قد تسترد قيمتها لاحقا. علاوة على ذلك، أبرزت السوق الفورية للذهب، حتى في ضوء تراجع سعره، إحدى خصائص هذا المعدن التي لا ينازعها الشك: أنه مصدر للسيولة، وهذا يعني سهولة تحويله إلى مال.

والآن وقد حدث ذلك الأمر، كانت تلك الخاصية عنصرا أساسيا في الانقلاب الذي كان مجلس الذهب العالمي يحاول تنفيذه[16]. كان المجلس يطلب من الجهات الرقابية المصرفية الأوروبية أن تدرج الذهب في فئة خاصة ضمن أفضل الأصول المالية(*). وإذا أدخل الذهب في هذه الفئة من الأصول، سيتعين على المصارف امتلاكه. ويبدو التوقيت غريبا لإثارة هذا المطلب، إذ كان سعر الذهب في طور التراجع، وكانت الأسواق تعاني الضعف. لكن القائمين على مجلس الذهب العالمي كانوا يتحلون بالعزيمة، وكانوا يملكون الذهب أيضا وفق قولهم، لجلب الاستقرار لمصارف الاتحاد الأوروبي المترنحة.

بعد الأزمة المصرفية التي أعقبت انهيار مصرف ليمان برذرز Lehman Brothers العام 2008، عملت لجنة بازل للرقابة المصرفية، وهي تجمع متنفذ، محاط بغلالة من الغموض، يتكون من وزراء مالية دول مجموعة العشرين G20، على إصدار جملة جديدة من متطلبات رأس المال للمصارف. وقد اشتملت هذه المتطلبات على السيولة الوقائية Liquidity Buffer التي تتكون من أصول عالية السيولة يمكن أن توفر النقد الجاهز في حالة الطوارئ، عندما تنضب المصادر الاعتيادية للنقد الجاهز مثل القروض من المصارف الأخرى. إذ يمكن أن تدخل في هذه الفئة من الأصول عالية السيولة الديون الحكومية الممتازة - مثل السندات الألمانية أو أذونات الخزانة الأمريكية. ووفق الاقتراح الذي تقدم به مجلس الذهب العالمي، كذلك يمكن أن يدرج الذهب في هذه الفئة. وفي يوم مشمس آذن ببداية الخريف في لندن، حيث كنت أعيش حينها، مضيت إلى حي المال القديم، المعرف بالمدينة the City، لأبحث عن تفسير لذلك.

---

(*) أفضل الأصول المالية Top-flight assets: الأصول التي تصنف من ضمن أفضل الأصول التي تحوزها المؤسسة المالية لاعتبارات مثل جودة الأصول وقابلية تحويلها إلى مال. [المترجم].

كان الوقت عصرا، وقد ازدحمت درجات كاتدرائية القديس بول بالناس الجالسين تحت أشعة الشمس، وهم يتناولون الشطائر ويلاحقون بوجوههم أشعة الشمس. تمشيت عبر البوابة إلى ساحة باترنوستر Paternoster Square. كان هناك حشد متأنق قد خرج من بناء بورصة لندن باتجاه المطاعم المتحلقة حول الساحة. وإذا كانت المخاوف من تراجع الأسواق تعصف بالقلب المالي للمدينة، فقد عزم هؤلاء على تناسيها فيما راحوا يتناولون طعامهم.

وسلكت باتجاه شارع نيوجيت Newgate Street. كان المحامون بلممهم المستعارة يدخنون السجائر على الرصيف خارج المحكمة الجنائية الرئيسة في لندن، أولد بايلي Old Bailey. وإلى الأمام عبر الشارع من المحكمة القديمة ذات السحنة القاتمة، كان يقوم المدخل إلى بناء مكتبي حديث الطراز ذي جدران زجاجية، وهناك جلست في غرفة الاجتماعات الكائنة في الطابق الثالث وجها لوجه مع ناتالي ديمبستر Natalie Dempster.

عملت ديمبستر، وهي اقتصادية أسكتلندية نشيطة، لدى مصرف رويال بنك أوف سكوتلاند Royal Bank of Scotland وجي بي مورغان تشيس JP Morgan Chase قبل التحاقها بمجلس الذهب العالمي، حيث تعمل الآن رئيسا للشؤون الحكومية. عندما التقينا كانت قد عادت من بروكسل، من مهمة غايتها حث السلطات الرقابية المصرفية الأوروبية على إدراج الذهب مصدرا للسيولة الوقائية. وألقت على الطاولة ملف الوثائق التي استخدمت في حشد الدعم لهذا التوجه، وبدأت تعدد الأسباب التي تبرر قبول السلطات الرقابية الأوروبية للذهب، متنقلة بمهارة الخبير عبر الأسس والمعايير المعتمدة، شارحة الكيفية التي يلبي فيها الذهب هذه المعايير:

**المعيار:** لا يجوز أن يكون الأصل Asset أداة تصدرها المؤسسة نفسها التي ستستخدمها مصدرا للسيولة الوقائية.

**الذهب:** ليس ثمة من «يصدر» الذهب. كما أن قيمته لا ترتبط بالوضع الائتماني لأي جهة. ولذلك فهو لا ينطوي على المخاطرة الائتمانية Credit Risk.

**المعيار:** سهولة حساب سعر الأصل لتوفير معلومات للجمهور.

**الذهب:** يعتبر الذهب، على الأرجح، أفضل أسعار الأصول المعروفة في العالم.

**المعيار:** أن يكون الأصل قابلا للتداول في السوق الذي يضم عددا كبيرا من المشاركين، ويرتفع فيه حجم التداول، ويتميز بصفتي العمق(*) والاتساع(**).

**الذهب:** بلغ حجم التداول في سوق الذهب بلندن، وحده، 240 مليار دولار في اليوم.

وتجدر الإشارة مجددا إلى أن الحجم الفعلي لتداولات السبائك في لندن أثار دهشة الجهة نفسها التي أماطت اللثام عنه، أي هيئة سوق السبائك اللندنية London Bullion Market Association. كانت تلك المرة الأولى في ست عشرة سنة التي تستطلع فيها آراء المؤسسات الأعضاء حول حجم التداول. وقد أجرت استطلاع الآراء لفائدتها الخاصة. وإذا قبلت السلطات الرقابية إدراج الذهب بين مصادر السيولة الوقائية، فسترتفع مبيعات الذهب للمصارف. وإذا كانت السيولة أداة وقاية من المخاطر، وفقا لما خلص إليه استطلاع الهيئة، فإن الذهب يلبي هذه الشروط. كانت السيولة تابعا لوتيرة التداول. وإذا كان حجم التداول هو المقياس، وفق ديمبستر، فسيكون بيع الذهب أسهل من بيع السندات الحكومية. فثمة مشترون على الدوام - وهذا تعريف السيولة.

ولأن الطلب على المزيد من السيولة الوقائية ينبع من المشكلات التي واجهتها المصارف عندما تعذر عليها الحصول على المال (السيولة)، فقد درست ديمبستر أداء الذهب في وقت الأزمة. وخلصت إلى أن سوق السبائك ظل متماسكا فيما ترنحت الأسواق الأخرى. وقد وضح أحد الأشكال البيانية الارتفاع الحاد في أسعار الفائدة مع توقف المصارف عن إقراض بعضها بعضا. وظل سوق السبائك محافظا على سيولته. لقد تبين أن العديد من الأسواق الأخرى «التي يفترض أنها تمتلك موجبات العمق والسيولة، لم تكن كذلك البتة. لم يكن ممكنا بيع الأصول إلا عند خصومات (حسومات) سعرية كبيرة. كان هذا ينطبق أيضا على بعض الأصول ذات التصنيفات الائتمانية الممتازة AAA-Rating: «فقد ثبت أن التصنيفات

---

(*) عمق السوق Market depth: هو التدفق المستمر لأوامر التداول، بيعا وشراء. ويعبر عنه أيضا بحجم الصفقة الذي لا يؤثر في السعر. [المترجم].

(**) اتساع السوق Market breadth: هو الحالة التي يكون فيها الطلب عند مستوى السعر الحالي كبيرا، ومصدره مجموعات واسعة غير مترابطة من المشاركين في السوق. والسوق الواسع هو سوق عميق تتدفق فيه أوامر التداول بأعداد كبيرة. [المترجم].

الائتمانية لا تعتبر دليلا على السيولة»، وفقا للملاحظات التي أثبتتها ديمبستر في الوثائق الداعمة لهذه الدراسة.

وترى ديمبستر أن الذهب استفاد أيضا من وجود آلية السعر الأدنى Pricing Floor. إذ تقول: «ما يحدث للذهب هو أن ثمة طلبا هيكليا (حقيقيا) مصدره سوق المجوهرات، هذا الطلب يشكل الأرضية السعرية له. فما حدث خلال الفترة التي شهدت انهيار مصرف ليمان، هو أن الذهب هبط فجأة، لكن الطلب الصناعي وطلب سوق المجوهرات حالا دون مزيد من الانخفاض، وشكلا الحدود السعرية الدنيا التي لا يمكن تجاوزها. ولذلك لا تنصب المسألة حول عدم تراجع الذهب إطلاقا، بل حول عدم انكفاء السعر إلى مستويات جد متدنية عند الحاجة إلى بيع الذهب طلبا للسيولة. وهذه ناحية بالغة الأهمية. أما وجهة نظر الأطراف العاملة في قطاع المجوهرات والقطاع التكنولوجي فتختلف تماما. إذ إنهم يرغبون في الذهب، عندما ينخفض سعره».

كما يحبذ أنصار الذهب الإشارة إلى مشتريات المصارف المركزية من الذهب، وهذا ما أشارت إليه ديمبستر أيضا. لقد كان المصرف المركزي الصيني يزيد احتياطياته من الذهب بمعدل مائة طن سنويا تقريبا، واشترت المكسيك وروسيا وكوريا الجنوبية جميعها كميات كبيرة من الذهب. واليوم تبدو المصارف المركزية الأوروبية قد غيرت موقفها من حيازة السبائك. لقد دأبت طوال أكثر من عشر سنوات على اتخاذ مركز البائع، فكانت تتخلص من نحو 400 طن سنويا. لقد توقفت تلك النزعة، وتحولت تلك المصارف إلى مركز المشتري.

وفي إطار الجهود الحثيثة التي بُذلت لإقناع السلطات الرقابية الأوروبية، حاولت ديمبستر ومجلس الذهب العالمي إثناء لجنة بازل المكونة من وزراء مالية دول مجموعة العشرين عن القرارات التي اتخذتها سابقا. لقد درست اللجنة، في السابق، إدراج الذهب مصدرا للسيولة الوقائية، لكنها رفضت الفكرة أساسا بسبب تقلبية سعر الذهب، وفقا لما ذكره لي متحدث باسم الخزانة البريطانية عبر البريد الإلكتروني. وبين أيضا أن توصيات لجنة بازل تصدر على النطاق الدولي. ويتعين على السلطات الرقابية الأوروبية أن تحولها إلى ضوابط، «وليس التخفيف من أثرها» بأي شكل من الأشكال.

في نهاية المطاف لم تعمل السلطات الرقابية على التخفيف من أثر تلك التوصيات. لكن الوقت لم يكن حينها مناسبا للتوصية باستخدام الذهب ضربا من دعائم السيولة. كانت التقلبية تهز سوق السبائك، وكان شهر سبتمبر 2011 حافلا بالتذبذبات السعرية، وسط تقلبات حادة في الاتجاهين. كانت كل التحولات الحاصلة تؤثر في سعر الذهب. ولم يكن سلوك الذهب يوحي بأي شكل أنه أصلٌ يوفر ملاذا آمنا وقت الأزمات. كان سلوكه متوائما مع الواقع الذي آل إليه - أي كأحد المشتقات(*). كانت تلك الكينونة عرضة للاستهداف والهجوم، وقد شنت هذا الهجوم جهة ما.

لم يكن سعر الذهب في منأى عن الخطر لأن التلاعب به كان أمرا سهلا. وقد أدرك تجار الذهب أن السيولة لجةٌ تتفاوت أعماقها. إذ عندما تبدأ التداولات في سوق لندن، يكون ثمة الكثير من الذهب المتاح للتداول. وعندما يقفل السوق، تكون الكمية المتاحة للتداول قد انخفضت. ولبيع كمية كبيرة من الذهب بطريقة نظامية تحول دون التشويش على السعر، يجب أن تتم عملية البيع عندما يفتح السوق أبوابه للتداول. لكن ماذا لو كانت الغاية من عملية البيع إحداث أثر في السعر؟ عندئذ سيكون من المنطقي اختيار التوقيت الذي يكون فيه التداول ضعيفا.

تراقب شركات التنقيب الكبرى الأسواق بأعين الصقور، لأنها تبيع ذهبها هناك. وهي تدرك إلى درجة معقولة عواقب التداول في فترات ضعف السوق (أو ما يعرف بالسوق الضيق)(**). فقد خلص قسم البحوث لدى شركة باريك جولد Barrick Gold[17]، على سبيل المثال، إلى أن طرح 100 ألف أوقية للبيع خلال ساعات عمل سوق لندن سيؤدي إلى خفض سعر الذهب بمقدار 4 دولارات. ولو بيعت الكمية نفسها (100 ألف أوقية) عند إقفال سوق لندن، لأدى ذلك إلى انخفاض السعر بما يتراوح بين 10 دولارات و15 دولارا. وعندما طرحت نصف مليون أوقية، كأنها

(*) المشتقات أو الأدوات المشتقة Derivatives: من أشكال الأدوات المالية التي تشتق قيمتها من قيمة أصول مالية أو حقيقية، ومثالها مشتقات الأسهم (الأصل الضمني فيها هو الأسهم) أو مشتقات السلع الأساسية (الأصل الضمني فيها من السلع الأساسية كالنفط أو الغاز أو القمح... إلخ). وتأتي المشتقات المالية في عدة صور مثل حقوق الاختيار Options والعقود الآجلة Forward contracts والعقود المستقبلية Futures والمبادلات المؤقتة Swaps . [المترجم].

(**) السوق الضيق Thin market: الحالة التي تنخفض فيها عمليات البيع والشراء في السوق إلى مستويات متدنية جدا. [المترجم].

القنبلة، يوم 7 سبتمبر 2011 في سوق لندن، في فترة ضعف التداول، قبل ساعات العمل الرسمية، عندئذ لم يحدث شيء.

لقد وقع الهجوم خلال فترة تصاعدت فيها التقلبية. وفي شهر سبتمبر من العام 2011 الذي عصفت به الاضطرابات، ارتفع سعر الذهب وانخفض من دون أن يستقر عند مستوى يقبله السوق. في هذا الوسط المتقلقل، وفي السابع من سبتمبر، في أثناء تداولات الظهيرة في شنغهاي، وقبل ساعات من افتتاح شريط الذهب Gold Plotter ذائع الصيت في سوق لندن، قامت جهة ما بطرح 500 ألف أوقية للبيع. وبذلك هبط سعر الذهب مثل غراب خرّ ميتا بطلقة نارية[18].

وحامت الشكوك حول ليبيا[19]، حينما كان نظام معمر القذافي يتداعى وسط ثورة دموية. لقد حذر محافظ سابق لمصرف ليبيا المركزي من أن احتياطيات ذهب البلاد كانت في يد الديكتاتور. وتبين لاحقا أن عملية بيع ذهب القذافي تمت وانتهت. إذ تدبر القذافي بيع نحو ثلاثين طنا من السبائك في شهر أبريل الفائت، لقاء مبلغ مليار دولار - وفق التقارير الواردة - إلى تجار وفدوا إلى ليبيا لإبرام الصفقة. وقد ذكر تجار الذهب في المدينة القديمة بطرابلس، الواقعة بالقرب من مصرف ليبيا المركزي، أن النظام كان قد استهل عملية البيع بطرح كميات صغيرة من العملات النقدية عيار 22 قيراطا ثم زاد الكمية إلى سبائك بوزن ستة وعشرين رطلا، لدفع مرتبات الجيش الليبي المنهار. لكن تلك الصفقة سبقت مبيعات شنغهاي بستة أشهر.

لأتبين السبب الذي قد يكون وراء إقدام أحد باعة السبائك على اتخاذ إجراء مضر جدا بالسعر، تحدثت إلى جيم مافور Jim Mavor، وهو أحد الخبراء المخضرمين - على مدى 18 عاما - لدى شركة باريك Barrick في مجال تداول الذهب. وتبوأ مافور بعد ذلك منصب نائب الرئيس المالي لشركة ديتور جولد كوربوريشن Detour Gold Corporation. غير أننا لما تحدثنا كان لايزال يعمل مديرا ماليا لدى شركة باريك.

يقول: «حسنا، إن شخصا يحوز 500 ألف أوقية من الذهب بقيمة 900 مليون دولار [آنذاك]، لا بد أن يكون شخصا عالما بخفايا الأمور. لذلك من الطبيعي أن نتساءل عن سبب تنفيذه عملية التداول التي لا ريب أنها ستدفع بسعر الذهب

إلى الانخفاض. لقد هبط الذهب بمقدار 50 دولارا. ومحاولة لاستيعاب ما حصل، من المفيد الخروج بتصور أساسه افتراض أن الشخص الذي تسبب في ذلك قد كسب المال بسبب ذلك».

هذا السيناريو أو التصور، برأي مافور، سيكون على النحو الآتي: لنفرض أن بائع الذهب يمتلك أيضا نوعا من أنواع حقوق الاختيار (الخيارات(*) Options) يعرف بحق اختيار البيع Put. إن حامل (مالك) حق اختيار البيع له الحق ببيع الأصل محل العقد - أي الذهب في هذه الحالة - عند سعر محدد في العقد. لنفرض أن السعر كان 1800 دولار للأوقية. فإذا كان مالك حق الاختيار أيضا يمتلك السبائك الذهبية، إضافة إلى حق بيعها، فعندئذ يكون حق اختيار البيع بسعر 1800 دولار بمنزلة حد أدنى للخسائر المحتملة. ويعلم البائع أن بإمكانه دائما ممارسة حق اختيار البيع عند سعر 1800 دولار مهما انخفض سعر الذهب.

لكن في السيناريو الذي تخيلناه، لم يتراجع سعر الذهب، بل ارتفع، ووصل إلى مستوى 1825 دولارا. وقد حقق مالك الذهب مكاسب من سبائكه، لكن حق اختيار البيع الذي يملكه بات عديم القيمة في الوقت نفسه. وليس ثمة قيمة لحق بيع الذهب مقابل 1800 دولار عندما يكون سعره السوقي 1850 دولارا. وبذلك، فإن حق اختيار البيع ينطوي على الخسارة لأن المالك دفع ثمنا مقابل شرائه. لن يسترد حق الاختيار الذي اشتراه قيمته إلا في حالة واحدة: أن ينخفض سعر الذهب. إذا قرر حامل حق الاختيار أن يدفع السعر باتجاه الانخفاض لإنعاش قيمة ما يملكه من حقوق الاختيار، فإن الوقت الأنسب لذلك هو فترة فتور التداول التي تتميز بانخفاض السيولة، والتي تسبق بدء التداولات في سوق لندن. إن العملية الحسابية الوحيدة اللازمة لتكون هجماته السعرية مجدية تتلخص في قدرة المتداول الافتراضي في الذهب، الذي استخدمناه في مثالنا السابق، على تحقيق ربح من بيع حقوق اختيار البيع في سوق يسوده الهلع، وبمستوى يتجاوز ما سيخسره من التراجع الذي يصيب قيمة سبائكه الذهبية. إننا نفرض أن لدى هذا المتداول القدرة على إجراء هذه العملية الحسابية. لقد كان المتداول الافتراضي، وفق تقدير مافور، أحد

(*) ورد تعريفها في حاشية سابقة. [المترجم].

صناديق التحوط(*)، وهي قادرة بطبيعتها على الجمع بين التكتيكات الجريئة جدا ومبالغ التداول الطائلة.

لو أن الذين سعوا إلى التخلص من الذهب يوم 7 سبتمبر كانوا يستهدفون إشاعة الهلع في السوق، فقد اختاروا التوقيت المناسب. إذ كان السوق في حالة هلع قبلا. كانت أوروبا على شفا ما أطلقت عليه مجلة ذي إيكونومست The Economist «أعظم الأزمات التي أحاقت بالمشروع الأوروبي في تاريخها» - وهو اليورو الذي أوشك على الانهيار[20]. وفي الولايات المتحدة تحول الصراع بين الأحزاب حول ما ينبغي فعله بشأن الدين الوطني إلى حرب دينية. كان البعض يرى أن الاقتصاد سيترنح إذا لم تتدخل الحكومة، مثلا بفرض زيادات ضريبية على الأغنياء؛ في المقابل كان هناك من يرى أن مثل هذا التدخل سيؤدي إلى انهيار الجمهورية. وفي هذه الأثناء، تراجعت قيمة الأسهم الأمريكية بمقدار 1.1 تريليون دولار في خضم اضطرابات استمرت أربعة أيام[21]. وأوشكت الحكومة الأمريكية على الإفلاس، ودخل ممثلو الأحزاب الغاضبون في مماحكات داخل الكونغرس[22]. لقد وصل الأمر بسعر الذهب إلى مقصلة اليأس. وفقد في أسبوع واحد 200 دولار[23].

كانت الثقة في الذهب تتهاوى في أكبر أسواقه، أي سوق المستقبليات (العقود المستقبلية) Futures. باستخدام العقود المستقبلية يستطيع المستثمرون المراهنة على المستوى الذي سيبلغه السعر في تاريخ مستقبلي محدد سلفا. للدخول في التعاقد يتعين على البائع إيداع نسبة محددة من قيمة العقد لدى بورصة السلع. هذا الضمان يوفر للبورصة شيئا تضع يدها عليه إذا انقلب السوق في غير مصلحة الطرف المتعاقد، وكان هناك ما يضطره إلى التخلي عن العقد. ولمواجهة التقلبية المتصاعدة في سعر الذهب في نهاية سبتمبر[24]، عملت مجموعة بورصة شيكاغو التجارية Chicago Mercantile Exchange Group وتعرف اليوم اختصارا بمجموعة سي إم إي CME Group، وهي أكبر أسواق السلع في العالم، على رفع مستوى الضمان الذي تطلبه على الذهب إلى 21 في المائة. كانت تلك الزيادة في هامش تداول الذهب الثالثة في غضون أسابيع. وهكذا وصلت الزيادة الإجمالية،

---

(*) صناديق التحوط Hedge Funds: ورد تعريفها سابقا. [المترجم].

وفقا لإشعار صادر إلى العملاء من أحد المصارف الكبرى[25]، إلى 90 في المائة، مما اضطر المستثمرين - الذين تعذر عليهم تقديم مثل هذا الضمان - إلى تسييل مراكزهم الاستثمارية في الذهب، والخروج من السوق. كانت عمليات التسييل تضغط على السعر نحو الانخفاض.

كان سعر الذهب أيضا فريسة للشكوك الدائرة حول صناديق الاستثمار المتداولة[26]. ذلك أن سوق الذهب يعمل ضمن حلقة يسودها الشك. يعتبر المتحمسون للذهب عادة من المتشككين: فهم يشككون في النقد الورقي والحكومات، لكن قد يصدر هذا السلوك أيضا عن أي شخص. ولا يحتاج المرء إلى التمحيص كثيرا ليلمس الشكوك الدائرة حول حيازة صناديق الاستثمار المتداولة للذهب بصورته المادية، كما هو حري بها. وربما أن المنتجات الاستثمارية مثل سبايدر بطبيعتها مثار شكوك، خصوصا في ضوء النجاح المبهر الذي حققه. وقبل أن يتحول السوق إلى موقف الضد من الذهب، بات سبايدر أكبر صناديق الاستثمار المتداولة من نوعه.

وصلت ملكية الصندوق في سبتمبر 2011 إلى 1232 طنا متريا من الذهب، أو ما يعادل 40 مليون أوقية. وكانت تلك الكمية جميعها محفوظة في مخازن الذهب بلندن العائدة إلى أمين الحفظ الذي يقدم خدماته للصندوق، وهو مصرف إتش إس بي سي HSBC. وباعتبار أن صندوق الاستثمار المتداول هو في نهاية المطاف صنيعة شركات التنقيب عن الذهب، فيمكن القول إنه استطاع تبسيط عملية تدفق الذهب من حيز تحت أرضي إلى حيز تحت أرضي آخر. هل هذا صحيح؟ هل كان الذهب عند نهاية مجرى التدفق حقيقيا كالذهب عند بدايته؟ لقد حيّر هذا السؤال عقول البعض.

على موقع حصص الاستثمار في الذهب (سبايدر) على الشبكة الدولية spdrgoldshares.com، يمكن للزائر التصفح ليجد صورة للسبائك الذهبية الموجودة في حساب صندوق سبايدر. ويشير الصندوق إلى أن الحصص فيه تمثل ملكية سبائك حقيقية محفوظة في خزانة موجودة فعلا. هذا الذهب يسمى «الذهب المخصص»(*). في الحساب المخصص لا يبرز الأصل بمجرد أن يطلبه صاحب

(*) الذهب المخصص Allocated gold: هو حساب لدى صندوق الاستثمار أو المصرف أو التاجر تقيّد فيه لصاحب الحساب المحدد المعلومات التفصيلية لما يملكه من السبائك المعينة، كل سبيكة على حدة. وتُخصص سبائك الذهب وتُحدد من خلال مجموعة من المعلومات التي تميز كل سبيكة من حيث الوزن ودرجة النقاء والسابك والرقم التسلسلي... إلخ. [المترجم].

الحساب كما هي حال المال في الحساب المصرفي، وإنما يظل في وعائه الخاص دائما، فلا يستخدمه أحد سواه، أيا كان. إن الأمر شبيه بإيداع النقود لدى المصرف، ووضع المصرف تلك النقود نفسها في صندوق منفصل وحفظه فيه لأجل المودع، وبصورة مستقلة عن أموال المودعين الآخرين. فمهما حدث للودائع الأخرى، تظل وديعة ذلك المودع على حالها. وعندما ينص صندوق سبايدر على أن الذهب الذي لديه ذهب مخصص فهذا يعني أن أمين الحفظ يبقيه مستقلا عن باقي الذهب. فهو دائما ذهب سبايدر، ولا أحد سواه.

يقدم الموقع الإلكتروني لسبايدر أيضا قائمة بكل السبائك الموجودة في حساب الصندوق، وتحمل كل سبيكة رقمها التسلسلي الخاص، ولها وزنها الإجمالي ووزنها «الصافي» - وزن محتواها الفعلي من الذهب. ويشار أيضا إلى أن تحديد نقاء السبائك يقوم على معايير التسليم الصحيح Good Delivery المعتمدة في سوق لندن - والتسليم الصحيح هو معيار تجاري يحدد نقاوة الذهب الدنيا بـ 995 جزءا لكل 1000 جزء من الذهب الخالص. وتتوالى الشائعات عموما حول صناديق الاستثمار المتداولة التي محلها الذهب من حيث عدم امتلاكها ما يكفي من الذهب لتلبية طلبات استرداد كل الحصص فيها. ووفقا لذلك، فإن ارتفاع طلبات الاسترداد سيؤدي إلى انهيار تلك الصناديق، باعتبارها لا تمتلك الذهب الكافي لمواجهة تلك الطلبات. هذه الشائعات، وفقا لما أشار إليه أحد العملاء في مذكرة قدمها لهذا الغرض، كما ورد سابقا، ساعدت على دفع سعر الذهب نحو الانخفاض.

وقد كتب أحد المعلقين في ورقة ألحقت بتلك المذكرة: «تتخذ أكبر صناديق الاستثمار في الذهب والفضة الآن موقفا دفاعيا، باعتبار أنها قد تواجه قريبا انسحاب أعداد كبيرة من المستثمرين على خلفية الحسومات الكبيرة في الأسعار الفورية للمعادن الثمينة [أي السوق الهبوطية] والشكوك حول مستويات الذهب الحقيقي الذي بحوزة تلك الصناديق فعليا».

لقد أقفل شهر سبتمبر من العام 2011 بنعوت جمعت معاني الألم والوحشية والفوضى[27]. وفي أسوأ فصول العام على مدار ثلاث سنوات، تحول السوق إلى ضرب من سلسلة أفلام الرعب «الجمعة ثالث عشر أيام الشهر» Friday the 13th، كانت طعنات السكاكين تطول كل من تصادف وجوده في المكان. ولو كان الذهب يعتبر

من أصول الملاذ الآمن، فإن الصوت الذي لا بد أننا سمعناه صوت غلق باب الخزانة، وقد حبس المستثمرون أنفسهم داخلها مع سبائك الذهب. ولكن خلافا لذلك، لم تؤد حالة الإنذار إلى دفع رؤوس الأموال المذعورة نحو الاستثمار في الذهب، بل نحو ذلك الملاذ الورقي الذي استخف به أنصار الذهب - أي الدولار الأمريكي.

لقد فقد الذهب دعامة ارتكازه عندما انقطعت علاقته الرسمية بالنقود. وهو اليوم يتقلب على أمواج بحر الأحداث نفسها، مثل غيره من الأصول. فهو لا يشكل فئة أصول قائمة بذاتها كما قضى بذلك التاريخ: لقد كان كذلك في الأيام الخوالي، فقط.

ارتفع احتياطي العالم من الذهب في 150 عاما من 10 آلاف طن متري إلى 170 ألف طن متري[28]، من مكعب متواضع، طول ضلعه ست أقدام، إلى كتلة هائلة تغطي الملعب الداخلي في إستاد يانكي Yankee Stadium. إننا نضيف إلى هذه الكتلة، في كل ثلاث سنوات، ذهبا جديدا يعادل ما استخرجه أجدادنا في ستة آلاف عام. وإننا نتداوله وقد غلب علينا الهوس. ففي كل ثلاثة أشهر تتنقل كمية من الذهب تعادل ضعفي الكمية المستخرجة عبر التاريخ رواحا ومجيئا في لندن عبر زوبعة من عمليات التداول. وهذا هو حال المعدن فقط. أما التداول الرديف فيمثل إعصارا عاتيا من الأدوات المشتقة. ومع ذلك فقد تسارعت وتيرة تجارة الذهب إلى مستويات السرعة الفائقة التي اكتسبتها التجارة المعاصرة، وإن أعرافها وتقاليدها محاطة بغلالة السرية كما الحال دائما، إذ إنها أقرب إلى مكائد أروقة الحكم منها إلى أصول العمل التجاري.

10

# ذهب الظل

كانت جلسات تحديد أسعار الذهب اليومية تُعقد، تحت إشراف مصرف روتشيلد، في غرفة مكسوة بالألواح الخشبية، علقت فيها تصاوير النبلاء الراحلين.

تعتبر السرّية من الخصائص التي تميز عالم الذهب. ويحرص سدنة هذا العالم على التخفي حرصهم على إرثهم من الفضيات الثمينة. لنأخذ مثلا عملية تحديد سعر الذهب المبهمة[1].

يرفع صباح كل يوم من أيام العمل الأسبوعية(*)، عند الساعة العاشرة والنصف، أحد التجار في غرفة تداول المعادن الثمينة لدى

(*) المقصود أيام الأسبوع باستثناء عطلة نهاية الأسبوع - وفي هذه الحالة: السبت والأحد- والعطل الرسمية. [المترجم].

«عندما تصل المصارف إلى تحديد نقطة التوازن التي تتطابق عندها أعداد المشترين والبائعين يُعلن السعر المحدد للذهب حول العالم»

أحد مصارف لندن التي تتعامل بالذهب سماعة الهاتف، ويتصل بخط هاتفي خاص، يربطه بأربعة مصارف أخرى. تشكل المصارف الخمسة مجموعة نافذة مستقلة تعمل وفقا لسياساتها الخاصة، تعرف باسم مجموعة تحديد سعر الذهب بلندن London Gold Fixing. وأعضاؤها هم: سكوشيا موكاتا ScotiaMocatta الذراع المختصة بتداول الذهب لدى مصرف نوفا سكوشيا Nova Scotia وباركليز كابيتال Barclays Capital ودويتشه بانك Deutsche Bank المصرف الألماني المتنفذ، وسوسييتيه جنرال Société Générale وإتش إس بي سي HSBC، وهو المصرف متعدد الجنسيات الذي يتخذ من لندن مقرا له، والذي تعود نشأته إلى مؤسسة هونغ كونغ وشنغهاي المصرفية(*)، سابقا. هذه المصارف تحدد سعر الذهب.

ووفق جيرمي تشارلز Jeremy Charles، وهو من سكان لندن الأصليين، ويبلغ السابعة والخمسين من العمر؛ حسن الهندام، تغلب عليه سيماء الخشونة، وقد بدأ حياته المهنية ساقيا للشاي في غرف تداول الذهب لدى مصرف روتشيلد الأسطوري، وانتهى به المطاف مديرا لعمليات تداول الذهب العالمية لدى مصرف إتش إس بي سي HSBC: «ثمة الكثير من أسواق الذهب في العالم. لكن في العاشرة والنصف صباحا، توشك الأمور على التوقف فيما تتجه أنظار العالم بأجمعه إلى لندن».

تبدأ عملية تحديد السعر بتعيين المصرف الذي يرأس الجلسة سعرا ما. يمثل هذا الرقم الافتتاحي غالبا سعرا وسطا بين آخر أسعار الشراء وآخر أسعار البيع في لندن. يطلب رئيس الجلسة تحديد الراغبين في الشراء والبيع عند السعر المقترح. «ويرسل الأعضاء الخمسة هذا السعر إلى زملائهم في غرف التداول. لنفرض أن عملية تحديد السعر اليوم بدأت عند سعر قدره كذا، وأن تجارنا اتصلوا بجميع عملائنا، وأن عملاءنا اتصلوا بعملائهم، وهلم جرا، إلى أن يصل التجار إلى جميع الراغبين باعتماد السعر المحدد للذهب».

وإذا تعذرت مطابقة أعداد المشترين والبائعين عند السعر المقترح، يعدّل الرقم بالزيادة أو النقصان إلى أن تبلغ النقطة التي تتساوى عندها دوافع المشترين والبائعين للتعامل في السوق بكميات متطابقة من الذهب، والاتفاق على السعر.

---

(*) Hong Kong and Shanghai Banking Corporation. [المترجم].

يقول تشارلز: «تتم كل تعيينات الأسعار باستخدام السبائك. فقد أقول: سأشتري ثمانين سبيكة. ويرغب شخص آخر أيضا في ثمانين سبيكة، فإذا اتُّفق على السعر، عندئذ يتحدد السعر».

وعندما تصل المصارف إلى تحديد نقطة التوازن المذكورة - التي تتطابق عندها أعداد المشترين والبائعين - يُعلن السعر «المحدد» حول العالم. وتُعاد الكرّة في فترة ما بعد الظهيرة.

دأبت بعض الشركات المتعاملة في الذهب في لندن على القيام بهذه العملية طوال قرون. وتعود أصول سكوشيا موكاتا إلى العام 1671، عندما بدأ موسى موكاتا بتداول السبائك في لندن. وعندما استهل جيرمي تشارلز عمله في غرفة إعداد الشاي لدى مصرف روتشيلد في العام 1975، كان المصرف لايزال يمارس نشاطه من مبناه الحجري القديم الواقع في شارع وان كينج ويليام ستريت(*).

كانت جلسات تحديد سعر الذهب اليومية تعقد في غرفة مكسوة بالألواح الخشبية، علقت فيها تصاوير النبلاء الراحلين. في تلك الأيام كانت نسخة مصغرة من علم بريطانيا تثبت على محور مائل على أحد جانبيه فوق طاولة المكتب أمام ممثل كل مصرف من المصارف الأعضاء. وفي أثناء عملية تحديد السعر كان المصرفيون يرفعون أعلامهم ويهتفون «علم!»(**) إذا ما أرادوا لفت انتباه رئيس الجلسة إلى رغبتهم في إجراء تعديل في مواقفهم (مراكزهم). ولم يكن السعر يتحدد إلا إذا وضعت كل الأعلام على جانبها مجددا، مما يعني حصول التوافق بين البائعين والمشترين. واليوم انتقل معظم هذه المراسم أسفل النهر حيث تقوم الأبراج الحديثة في الضاحية المالية كاناري وارف Canary Wharf. ولايزالون حتى اليوم يهتفون بكلمة «علم!» عبر الهاتف للإشارة إلى مراكزهم الجديدة، وكذلك لم يطرأ تغيير على معيار السبائك التي تتداول اليوم. إذ لا يتداول صانعو السوق(***) إلا سبائك التسليم الصحيح(****)

---

(*) One King William Street. [المترجم].

(**) Flag!. [المترجم].

(***) صانع السوق Market Maker: تاجر فرد أو مؤسسة يكون مستعدا لتداول الأصل (مثل الأوراق المالية، أو الذهب) بأن يتعهد بالبيع أو الشراء عند سعر محدد، في أي لحظة ضمن فترة التداول. فهو يصنع السوق بالنسبة إلى جانبي العرض والطلب، أي يجعل التداول ممكنا في جانب البيع أو في جانب الشراء أو في كليهما. [المترجم].

(****) سبائك التسليم الصحيح: ورد تعريفها في الفصل التاسع. التسليم الصحيح هو معيار تجاري يحدد نقاوة الذهب الدنيا بـ 995 جزءا لكل 1000 جزء من الذهب الخالص. [المترجم].

بلندن London Good Delivery. فعندما ترغب المصارف المركزية وأثرياء صناديق التحوط في الحصول على الذهب، فإن المقصود هذا النوع من الذهب.

ولا يسمح لغير الأطراف المعنية بحضور عملية تحديد السعر. وعندما تحدثت إلى تشارلز، أجرينا مقابلتنا في غرفة اجتماعات بأحد الطوابق العليا في المصرف، وكنا نشرف على نهر التايمز الذي يتدفق مرورا بغرينتش. وبينما راح يطلعني على المكان، سألت إن كان في إمكاننا أن نعرّج على غرفة تداول المعادن الثمينة، لكي أتعرف عليها من كثب. فكان جوابه: «أوه، هذا ممنوع قطعا».

ثمة الكثير عموما من خفايا الذهب، ومن ذلك صعوبة تعامل عامة الناس به. وإن وصف الذهب بأنه نقد يحقق قبولا واسعا Universal Money مدعاة إلى السخرية. فمن الذي سيقبل به؟ لا بد أن الذي سيقبل التعامل به يحمل بيده معدات الفحص. فليس من السهل بيع الذهب، ولهذا السبب لا يقبل المتداولون في سوق لندن بالتعامل المباشر (من دون وسيط ضامن)، بل من خلال المصارف التي تتاجر بسبائك الذهب. إن تحويل الذهب إلى نقد حاضر أمر سهل إذا كان من يقوم بعملية التحويل يعمل لدى إتش إس بي سي HSBC، وإلا فالتحويل ليس سهلا. لقد وقفت عصابة إجرامية لندنية على هذه الحقيقة المرة قبل ثلاثين عاما[2]، ذلك أن أعضاءها وجدوا بحوزتهم، من دون سابق إنذار، كمية كبيرة من السبائك، وبدأت رحلة العذاب التي لم تنته فصولها حتى اليوم.

***

كان يفترض أن تتم العملية بسهولة بالغة. لقد انتهى إلى علم «ماد ميكي» مكافوي Mad Mickey McAvoy، وهو شاب لندني تردى في مهاوي الجريمة، وأحد المخضرمين في عمليات السطو المسلح ويدعى برايان روبنسون Brian Robinson، ويشتهر بـ«العقيد»، أن مبلغ ثلاثة ملايين جنيه إسترليني سيشحن عبر مخازن شركة الأمن برينكز - مات المحدودة Brink's-Mat Ltd.، الواقعة في مطار هيثرو. وقد أذاعت الشركة الأنباء عن بحثها عن طرف موثوق به لمساعدتها على عملية الشحن، فشكلت فريقا لهذا الغرض، وفي الساعة السادسة صباحا يوم 26 نوفمبر 1983 انطلق الفريق بالسيارة خارج المدينة التي لايزال يلفها الظلام باتجاه المطار.

كان يفترض أن الفرار سهل مضمون، لأن اللصوص المختصين بأعمال السلب يتمتعون بأفضلية لا تتوافر عموما للصوص العاديين - أي امتلاك مفتاح المخازن. وقد حصلوا على المفتاح من أخي زوجة روبنسون، وكان يعمل هناك. لقد أطلعهم أيضا على المخطط العام للمكان، وكشف لهم عن الإجراءات الأمنية التي كانت بانتظارهم في الداخل. لقد وضعوا خطة واضحة لتجاوز تلك الإجراءات الأمنية: فعطلوا أجهزة الإنذار وألقوا القبض على الحراس الذين كانت بحوزتهم شيفرة الخزنة، وسكبوا عليهم البنزين، وهددوهم بإضرام النار فيهم إن رفضوا فتح قفل الباب الفولاذي الثقيل. وهكذا فتح الحراس القفل، واندفعت العصابة إلى الداخل لأخذ المال، بيد أنها وجدت بدلا من ذلك كومة من 6800 سبيكة ذهب. عندئذ لم يعد الأمر بغاية السهولة.

كان عليهم أولا إيجاد مركبة كبيرة لحمل الذهب ونقله. وقد أجروا اتصالا هاتفيا وتدبروا الحصول على شاحنة. واستغرقت العملية، التي كان يفترض أن تتم في غضون دقائق، ساعتين من الزمن. ثم ظهرت مسألة أخرى، ماذا سيصنعون بهذا السلب؟ فالذهب ليس مالا نقديا. ولو أنهم وجدوا خبيئة الأوراق النقدية التي كانوا يتوقعون، لحشوها في حقائب رياضية وقفلوا عائدين إلى المنزل، وقسموها بينهم في قبو المنزل. لم يكن ذلك يتطلب أي مهارات خاصة، باستثناء مهارة عدّ النقود. أما تحويل الذهب إلى نقد فيحتاج جملة من المهارات المختلفة، لم تكن لدى اللصوص.

لقد وجدوا أنفسهم أمام مشكلة تحويل معدن ثمين إلى سيولة نقدية. وتشير السيولة إلى وجود سوق جاهز لبيع ما يراد تحويله إلى نقد، تماما كالسوق الجاهز الذي يتداول فيه الذهب. ولم يكن سوق الذهب بذلك السوق الذي يسمح للمرء وأصحابه(*) بأن يطرحوا فيه ما بحوزتهم من الذهب(**)، في طريق عودتهم من المخزن. وتوجه السلّاب إلى حي بريان بيري Brian Perry، وهو معزل (جيتو)(***) لندني.

ولدى دخول نوي Noye أُلقيت رمانة يدوية إلى طابق شركة برينكز - مات. ووفق موقع murderpedia.com، وهو موقع إلكتروني متخصص في شؤون

---

(*) يشير الكاتب هنا إلى اللصوص السلاب. [المترجم].

(**) المقصود بيع ما بحوزتهم من الذهب بسهولة. [المترجم].

(***) المعزل أو الجيتو Ghetto: حي الأقليات أو الفقراء في المدينة. [المترجم].

القتلة، كان السكين سلاح نوي المفضل. وقد أطلقت عليه صحيفة «التلغراف» Telegraph وصف «القاتل القادم من عالم العصابات، المليونير فاحش الثراء». كان يمتلك عزبة من ثماني حجرات في كينت، وفيلا في قبرص، ويختا بقيمة 700 ألف جنيه إسترليني. كان مهووسا بصهر المعادن، وقد بدأ بخلط الذهب بالنحاس لتشكيل سبائك متدنية الجودة (العيار) وبيعها (كما كان يعتقد) في سوق الذهب المستعمل من دون لفت الانتباه. يمثل سوق الذهب المستعمل تجارة قوامها شراء الذهب نقدا وإعادة تدوير المجوهرات في هيئة سبائك. ويحتاج الأمر إلى الكثير جدا من خواتم الزواج الذهبية للوصول إلى ما يعادل 10 ملايين جنيه إسترليني، وهو المبلغ الذي أودعه نوي ومشاركوه، رزمة رزمة، في أحد مصارف بريستول. وقد أثارت عملية الإيداع انتباه مفتشي المصرف، الذين أبلغوا جهاز الشرطة البريطانية (سكوتلنديارد).

وبدأت الشرطة بمراقبة نوي. وفي ليلة من ليالي يناير 1985 كان المحقق ضابط الشرطة جون فوردهام John Fordham مختبئا في الفناء الخلفي لمنزل نوي يراقب المنزل عندما عثرت عليه كلاب روتويلر Rottweiler التي تحرس المنزل. ولأن الشرطة البريطانية لا تحمل المسدسات في العادة، كان فوردهام قد ارتدى زيًا مموها بقصد التخفي. وانقض عليه نوي بالسكين، وطعنه إحدى عشرة مرة، فأرداه قتيلا. واستطاع نوي في أثناء المحاكمة التي أقيمت للنظر في هذه الجريمة إقناع هيئة القضاة أن ما فعله كان لردّ خطر هجوم مطوف يتربص به لسرقته. وهكذا نال البراءة. بيد أن المحققين الذين فتشوا منزله تفتيشا دقيقا عثروا على إحدى عشرة سبيكة ذهبية لفت بالقماش ودفنت في حفرة للصرف الصحي. وأودع نوي السجن لتواطئه في الاتجار بالمسروقات.

كان الجناة المتواطئون، وهم العقل المدبر للجريمة، قد أودعوا السجن مسبقا. واستطاعت الشرطة، على الفور، أن توقع بحارس الأمن الذي كان يعمل مع الشركة، واعترف بفعلته. وبعد ثلاثة عشر شهرا من عملية السطو جرت محاكمة زعيمي العصابة في محكمة أولد بايلي، وصدر بحق كل منهما حكم بالسجن خمسة وعشرين عاما. ويبدو أن الاثنين حاولا التوصل إلى تسوية لتخفيف الأحكام الصادرة بحقهما، من خلال الكشف عن مكان إخفاء الذهب.

بيد أن الذهب لم يكن في المكان الذي اعتقدا وجوده فيه، لأن بيري نقله إلى نوي، أو على نحو ما نقل بعضا منه.

يعيش أرباب الجريمة حياة مضطربة، سواء كانوا ممن ينشلون محفظات النساء أو ممن يسرقون سبائك الذهب. خرج نوي من السجن في العام 1993، وفي العام 1996 قتل سائق سيارة عابرة طعنا في مشاحنة نشبت بينهما على الطريق. وهرب إلى إسبانيا في طائرة وضعها تحت تصرفه جون «جولدفينجر» بالمر John Goldfinger Palmer وهو من تجار الذهب وأرباب الاحتيال في بريستول، وقد وجهت إليه قبلا تهمة المتاجرة في ذهب برينكز - مات، بيد أنه بُرّئَ منها. وبعد هرب نوي بعامين تعقبته الشرطة وأعادته إلى إنجلترا، وحكم عليه في العام 2000 بالسجن المؤبد. وبعد عام توفي بريان بيري، الذي جند نوي، في الشارع بعد أن أطلقت عليه النار مجموعة من القتلة المأجورين فأردته قتيلا بثلاث طلقات في مؤخرة الرأس. وترنحت أجساد أخرى على الأرض أيضا. وقد عددت صحيفة «ميرور» Mirror في العام 2012 ثمانية عشر رجلا قتلوا على مر السنوات، وكانوا على صلة بذهب برينكز - مات، ومنهم قاتل محترف من أوساط الجريمة يعتقد أنه دفن في ناحية ما داخل الأساسات الإسمنتية لحلبة الحفلات أو تو O2 بغرينتش، جنوب شرق لندن.

وهكذا يكتظ المشهد بالجثث، لكن أين الذهب؟ لقد تلاشى في عمليات بيع الذهب المستعمل ببريستول، واسترد بعضه من الحفرة التي عثر عليها في منزل نوي. وفي العام 2008 في مداهمة شملت آلاف صناديق حفظ الودائع عبر لندن، اكتشفت الشرطة حقائب محشوة بطرود بلاستيكية بداخلها حبيبات الذهب. ووفق قائد عمليات الشرطة البريطانية: «كانت ملفوفة كأنها رزم كبيرة من حبوب البازلاء». كانت المداهمة عملية عشوائية هدفها الكشف عن عوائد الجريمة، وقد اعتقد المحققون أن الذهب كان جزءا من خبيئة برينكز - مات. إذ لايزال نحو ثلثي الشحنة مفقودا. كانت قيمتها بأسعار اليوم ستبلغ نصف مليار دولار. وفي العام 2012 أخبر أحد المحققين صحيفة ديلي ميل Daily Mail عن اعتقاده أن بقية الذهب كان لايزال مخبأ في مكان ما، وأن عصابتين لندنيتين على الأقل بدأتا منذ مدة «كسر بضع أذرع» للوصول إليه.

الذهب والجريمة صنوان. إن من الغايات الأساسية لطقوس إصدار النقود المهيبة[3]، المعروفة بمحاكمة البيكس[*] Trial of the Pyx، الكشف عن حالات الاحتيال. ففي أحد هذه الطقوس التي تعود إلى العام 1282، يجر الحمالون العاملون لدى دار السك الملكية Royal Mint صناديق القطع النقدية إلى قاعة صاغة الذهب Goldsmith's Hall حيث ينتظر القاضي الإنجليزي برداثه الأحمر، ويعرف بحامي إيرادات التاج[**]، مع هيئة خبراء المعايرة. كانت تلك الطقوس أسهل مهمات تنظيم شؤون الذهب، ولم يكن من السهل اكتشاف حالات التلاعب التي كانت تنتاب تجارة الذهب. كانت تلك الحالات أحداثا خفية، أطيافا غير منظورة تجوب فضاءات الأعمال التجارية، ولا يمكن إدراكها أو تفسيرها، وكانت تثير الهلع للسبب نفسه.

لقد هزّ السوق أحد تلك الأحداث على مدار أسبوعين في شهر يوليو 2010[4]، عندما جلبت صفقة عظيمة الحجم، تعذر تفسيرها، قدرا كبيرا من السبائك إلى حيث لم يتوقع القائمون على رصد تلك التحركات وجودها. ولدى الكشف عنها، تعاظم ارتباكهم حول الأسباب الكامنة وراءها، وذلك بفعل الصمت المطبق الذي انتاب المصرف السويسري المغمور، بنك التسويات الدولية (BIS). يعرف هذا المصرف، الذي يقع مقره الرئيس في بازل، بأنه مصرف المصارف المركزية، وذلك باعتباره الجهة التي تلجأ إليها المصارف المركزية للاقتراض. ولهذا السبب، يتمتع المصرف بنفوذ عظيم. ويضم بين أعضاء مجلس إدارته رئيس مجلس الاحتياطي الفدرالي بين بيرنانكي Ben Bernanke، إضافة إلى محافظي المصارف

---

(*) يشير اسم «بيكس» Pyx إلى الصناديق التي نقلت فيها النقود، وهو مأخوذ عن حجرة بيكس في دير وستمنستر حيث كانت تلك الصناديق تحفظ زمن الملك هنري الثالث. ولم تتغير تلك الطقوس كثيرا عبر السنين، حيث ظلت تقوم على الاختيار العشوائي للنقود من كل إصدار نقدي جديد، فتوضع العينة المختارة في صناديق يحتوي كل منها على 50 عملة نقدية، وكانت هذه الصناديق تقفل بأختام وتنقل إلى المحاكمة، وكانت هيئة المحكمة تضم وجوه عالم المال وستة على الأقل من المختصين في معايرة النقد لدى شركة ورشيبفل كومباني أوف جولدسميثز Worshipful Company of Goldsmiths. كان يتعين على هيئة المحكمة خلال شهرين أن تفحص النقود للتحقق من تركيبها المعدني ووزنها وحجمها ضمن الحدود القانونية. [المترجم].

(**) حامي إيرادات التاج Queen's Remeberancer: موظف قضائي تابع للمحكمة العليا الإنجليزية. كان في السابق يلحق بالدائرة المالية Exchequer ويضطلع بوظائف رفيعة منها حماية إيرادات التاج الملكي وعوائده من الضرائب. [المترجم].

المركزية لدول مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وكندا واليابان. وأستطيع القول، من واقع الخبرة، إن هذه الشخصيات هي الأكثر اعتصاما بالصمت في أوروبا. لقد رفع بنك التسويات الدولية حالة الصمت المطبق إلى مستوى المنافسة في الرياضات الأولمبية. وفي كل منافسة، حيث كان الهدف إعاقة حركة الخصم، حصد البنك كل الميداليات. إن عجزه عن تقديم تفسير كامل لتلك الصفقة أضاف مزيدا من الغموض لمسائل تكتنفها السرية أصلا، وهكذا اتجه سعر الذهب إلى الهبوط وسط حالة من الهلع.

كان سبب الهلع حاشية ظهرت في التقرير السنوي للبنك. إذ كشفت تلك الحاشية أن مصرفا أو مجموعة من المصارف قد أقرض/ أقرضت بنك التسويات الدولية 349 طنا متريا من الذهب مقابل النقد. كانت الصفقة هائلة الحجم- ما يعادل سدس إنتاج العالم السنوي من الذهب - بحيث إن خبر الصفقة، ومن دون إيراد تفصيلات توضيحية- أصاب سوق سبائك الذهب بالذهول. من كانت الجهة المقرضة للذهب، وما السبب؟ هل ثمة مصرف يعاني مشكلات مالية؟ هل هذا المصرف مصرف مركزي؟ وما المعلومات التي توافرت لديه، ولم تتوافر لدى سوق السبائك؟ وهكذا ملأت الأسئلة الأجواء، وبدأ المستثمرون يخرجون من استثمارات الذهب، وفقد سعر الذهب 40 دولارا في يوم واحد.

فيما يأتي تعليل لانخفاض السعر. لقد أخذت الصفقة هيئة المبادلة المؤقتة Swap- حيث تمت مبادلة الذهب بالنقد، مع الاتفاق على استرداد الذهب في موعد مستقبلي. وعلى غرار رهن المجوهرات في محلات الرهن، لا يستردها مالكها إلا إذا سدد القرض. وبغض النظر عن الجهة التي أجرت المبادلة، ارتفع عرض الذهب أربعة عشر مليار دولار. كان ما أثار حفيظة سوق الذهب التساؤل حول مصير الذهب إذا لم يسدد قرض الأربعة عشر مليار دولار. كان السعر قد تراجع فعلا، في خضم إقبال صناديق الاستثمار المتداولة على بيع الذهب. هل كانت كمية 349 طنا ستطرح بصورة مفاجئة للبيع إذا لم تستطع الجهة القائمة بالمبادلة سداد القرض؟ لا شك في أن طرح كمية 349 طنا من الذهب في السوق سيقوض سعر الذهب.

ودارت الشكوك حول الجهة التي أعوزها النقد. كان ثمة كثير من المرشحين المحتملين. وكانت المخاوف من تخلف الدول الأوروبية عن سداد ديونها قائمة أصلا،

وقدمت هذه المخاوف تفسيرا لعملية المبادلة. لا بد أن أحد المصارف المركزية كان في حاجة ماسة إلى النقد.

لبرهة من الزمن، كان هذا اعتقاد جميع من تحدثت إليهم - اتجهت الشكوك إلى اليونان أو إسبانيا أو إلى سلة عملات Currency Basket دولة ما، وقد بلغت مرحلة الإنعاش(*). حينذاك أشارت إيدل تلي Edel Tully، المحللة المالية لدى يو بي إس UBS، إلى استبعادها أن تكون تلك الجهة مصرفا مركزيا. كانت ترى أن السلطات الرقابية الأوروبية لم تكن تسمح بأن يقوم المصرف المركزي بتحويل الأموال إلى حكومته أو بشراء السندات الحكومية الصادرة عنها - وهي الإجراءات التي ستضطر تلك المصارف إلى اتخاذها للحيلولة دون تخلف الدولة عن سداد ديونها. إذا لم تكن تلك الجهة مصرفا مركزيا، وإنما سلطة نقدية. لقد أشارت تلي بأصابع الاتهام أيضا إلى صندوق النقد الدولي. وهكذا تحولت الشكوك نحوه[5].

يمثل صندوق النقد الدولي مصرف الملاذ الأخير في العالم. فقد أنقذ آيسلندا من مشكلاتها المالية، وكانت أولى حالات الانهيار المالي لجهة حكومية بعد اندلاع الأزمة المالية. مع ذلك، كان صندوق النقد الدولي «يبيع ما لديه من الذهب من دون أن يحدث جلبة»، وفق صحيفة «التلغراف» Telegraph. وفي خبر بعنوان «مبادلة ذهب سرية تثير الهلع في السوق(**)»، ذكرت الصحيفة أن صندوق النقد الدولي كان يشكو من نقص حاد في السيولة. ولم يمض إلا وقت قصير على استقرار الرأي بشأن دور صندوق النقد الدولي، قبل أن يقوض بنك التسويات الدولية نفسه هذا الاحتمال[6]. فقد أذاع البنك الواقع في بازل أن الجهة التي أجرت مبادلة السبائك لم تكن صندوق النقد الدولي، ولم تكن أيضا مصرفا مركزيا، بل كانت مصرفا تجاريا أو مجموعة من المصارف التجارية. إذا كانت الغاية من هذا الإعلان تهدئة السوق، فقد أخفقت المحاولة. كانت كمية 349 طنا كبيرة جدا بحيث يتعذر على السوق التصديق بأن مصرفا تجاريا واحدا استطاع أن يجمع تلك الكمية بمفرده. لقد أصاب الحجم المحض للصفقة السوق بالذهول - ذكرت صحيفة «وول ستريت جورنال» Wall Street Journal أن تلك الكمية تعادل ثلاثة أضعاف الذهب الذي اقتناه

---

(*) مرحلة الإنعاش: يشبه الكاتب الحالة النقدية بحالة المريض، وقد بلغ حالة الإنعاش. [المترجم].

(**) Secret Gold Swap Has Spooked the Market. [المترجم].

بنك التسويات الدولية قبل شهر واحد من الحادثة. كانت كمية الذهب كبيرة جدا حتى بالنسبة إلى تجمع مصرفي، وظل السؤال المطروح: لماذا؟ من الجهة التي عدمت الموارد المالية بحيث اضطرت إلى أن ترهن ما لديها؟

يقول خبير استراتيجي رفيع في مجال المعادن، مقره لندن: «الأمر مثير للريبة، وربما يكون سيئا»، معبرا بإيجاز عن حالة سوق السبائك التي كانت مزيجا من الحيرة والخوف.

ومع تصاعد حدة الظنون والتخمينات[7]، أثارت المسألة اهتمام لجنة محاربة احتكار الذهب Gold Anti-Trust Action Committee، وهي مجموعة تعتقد بوجود مؤامرة واسعة النطاق للتلاعب بسعر الذهب. «كما الحال دائما، تحاط أنباء كل ما يتصل بالإجراءات المتخذة بشأن سوق الذهب بغلالة من السرية والمعلومات المغلوطة والهمز واللمز» وذلك وفق مقالة نشرتها لجنة محاربة احتكار الذهب على موقعها الإلكتروني. وقد وصفت عملية المبادلة بأنها «صفقة ثلاثية» Tripartite Transaction أجرى بموجبها «مصرف تجاري أو عدة مصارف تجارية مبادلة مؤقتة Swap مع مصرف مركزي أو عدة مصارف مركزية، ومن ثم أجرى المصرف التجاري أو المصارف التجارية مبادلة أخرى مع بنك التسويات الدولية». لقد مثّلتُ تلك الصفقة بالرسم البياني: المربعات والسهام الصغيرة، ثم تأملتُ فيه إلى أن انتابني الصداع. ولم أفهم تلك العملية إلى الآن، بيد أن لجنة محاربة احتكار الذهب وبنك التسويات الدولية على اطّلاع بالسياق التاريخي للمسألة.

في العام 2000 قاضى محام كلفته لجنة محاربة الاحتكار المصرف وسكرتير الخزانة الأمريكية (وزير المالية الأمريكي)[8]، ورئيس الاحتياطي الفدرالي (محافظ المصرف المركزي الأمريكي)، وسواهم أمام المحكمة المحلية في ولاية ماتساتشوستس. وقد وجه إليهم تهمة «التواطؤ لتحديد الأسعار، والاحتيال في تداول الأوراق المالية والإخلال بالواجب الاستئماني Fiduciary Duty»، وأيضا بتجاوز سلطاتهم التي خولهم إياها القانون. كان الطرف المدعي ريجينالد هاو Reginald Howe، وهو محام ومستثمر كان يمتلك أسهما في بنك التسويات الدولية. وقرر بنك التسويات الدولّية تسييل ملكية الأسهم العائدة إلى الأفراد (من القطاع الخاص)، وادّعى هاو أن السعر الذي عرضه البنك لاسترداد الأسهم كان دون القيمة الحقيقية لما يمتلكه

البنك من سبائك الذهب، وأن ذلك كان جزءا من خطة متعمّدة للضغط على سعر الذهب. وكان دافع الحكومة في الضغط على سعر الذهب إخفاء أحد المؤشرات على معدل التضخم الأمريكي. وباعتبار أن الذهب كان مقوما بالدولار، سيؤدي ارتفاع سعر الذهب إلى الكشف عن واقع الدولار الفعلي. ومع أن هاو أخفق في تحقيق غاياته الكبرى، فإن محكمة أوروبية قضت بأن ما حصل عليه، وغيره من المستثمرين، من بنك التسويات الدولية أقل من حقوقهم المخولة لهم بموجب ملكية الأسهم فيه، وأصدرت أمرا للبنك بأن يدفع لهم مزيدا من المال.

بالعودة إلى المبادلة المؤقتة. فقد انخفض سعر الذهب بمقدار 80 دولارا متأثرا بوابل المخاوف غير المنقطعة[9]، وذلك عندما أعلنت صحيفة فاينانشال تايمز Financial Times، في نهاية الشهر، عن التوصل إلى حل اللغز. وذكرت الصحيفة أن المبادلة كانت من بنات أفكار بنك التسويات الدولية من دون سواه. كان البنك يبحث عن طريقة للاستفادة ماليا من احتياطياته الكبيرة من الدولار، واقترح إجراء مبادلة الذهب مع بعض المصارف التجارية الأوروبية التي كانت في حاجة إلى الدولار. وقبل أكثر من عشرة مصارف أوروبية بمبادلة احتياطياتها الذهبية بالنقد. وقد ذكر أحد المصرفيين أنه: «من حين إلى آخر، يرغب بنك التسويات الدولية في تحقيق عوائد مثلى على احتياطيات العملة التي لديه». ووفقا لما نقلت بعض المصادر لصحيفة فاينانشال تايمز كانت المبادلات المؤقتة في مصلحة كل الأطراف.

لنعاين هذه المسألة. لو كانت المبادلات عملا حميدا محضا، فلماذا استغرق الأمر وقتا طويلا جدا للحصول على تفسير بنك التسويات الدولية؟ ذلك أنه عندما تتسلل سبائك الذهب خلسة عبر أوروبا وصولا إلى مصرف سويسري مجهول الهوية تهيمن عليه مجموعة من مسؤولي الخزانة الأجانب، فلا غضاضة أن نتحرى وجود تفسير آخر غير مقولة إن ما حدث كان في سياق العمل التجاري المعتاد. لكن ثمة تفسيرا آخر.

بعد اندلاع الأزمة المصرفية في العام 2008 دفع احتمال انهيار المصارف بالجملة الجهات الرقابية الأوروبية إلى اعتماد متطلبات جديدة لرأس المال لدى المصارف التجارية. كان عديد من تلك المصارف يمتلك كثيرا من سندات الدول التي ساءت تصنيفاتها الائتمانية. وللتحقق مما إذا كانت المصارف التجارية تلتزم بالمعايير

الجديدة، اعتزم المصرف المركزي الأوروبي إجراء عمليات تدقيق محاسبي عرفت باسم «اختبارات التحمل/ الإجهاد» Stress Tests. كان من الشكوك المنطقية الدائرة آنذاك حول مبادلات الذهب بالدولار النظر إليها باعتبارها حيلة الغرض منها حشد الأموال النقدية داخل النظام المصرفي الأوروبي بغرض تحسين ميزانيات المصارف الخاصة قبل إخضاعها لاختبارات التحمل[10]. كانت أوضاع المصارف التجارية مقلقة جدا مما حدا بمصارفها المركزية إلى الامتناع عن إيداع المال لديها، والتحول عنها إلى بنك التسويات الدولية لإيداع فوائض أموالها، كان ذلك مصدر الأموال الفائضة. لقد وفرت المبادلة لبيت المال الدولي(*) طريقة لتجنب الأزمة التي كانت ستعقب، بلا شك، حالات عدم اجتياز اختبارات التحمل. وكان الجمهور وحده الضحية... وكذلك من يملكون الذهب فعلا. لم يكن الذهب المبدَل (في عملية المبادلة المؤقتة) ملكا للمصارف التجارية. ذلك أن تلك المصارف اقترضته، وغالبا من عملائها أنفسهم[11]. ولو أن هؤلاء العملاء طلبوا استرداد ذهبهم، لما وجدوا الذهب لدى تلك المصارف.

***

حصلت المصارف التجارية على الذهب من مصدرين: اقترضت بعضه من المصارف المركزية، أما المصدر الآخر، وهو الذهب الخاص بعملائها، فقد جاء من حسابات «غير مخصصة» Unallocated Accounts. إن الذهب المودع في الحساب غير المخصص، وعلى خلاف الذهب المودع في الحساب المخصص، لا يكون مملوكا لصاحبه بصفة مستقلة. وللمصرف أن يتاجر به إلى أن يطلب العميل استرداده.

في عملية المبادلة التي تمت مع بنك التسويات الدولية، كانت المصارف التجارية تحصل على النقد لقاء ذهب الآخرين، وتستخدم المال لتعزيز وضعها المالي المتداعي. لم تكن تلك المناورة مخالفة للقانون، لكنها ربما كانت أكثر دهاء مما ينتظر من المصارف التجارية. لقد استخدمت المصارف التجارية الذهب مثل استخدامها الودائع النقدية. كانت تلك المصارف «تدين» بالذهب إلى مالكه باعتباره التزاما عليها من ضمن الالتزامات الناشئة عن الودائع الأخرى. لكن إذا كان المصرف في ضائقة تجعل بنك التسويات الدولية يضع يده على الذهب

(*) المقصود به مصرف التسويات الدولية، باعتباره مصرفا مركزيا للمصارف المركزية. [المترجم].

المرهون، فلن تتوافر لأصحاب السبائك الحظوظ الكافية لاسترداد المعدن. وقد تكون حقوقهم ذاتها محل خلاف ونزاع.

وقد يكون المودع اقترض بضمان الذهب وظل مالكا له. في هذه الحالة يقال إن الذهب «مرهون رهنا غير حيازي - أي لم تنقل ملكيته، وإنما تكون الأصول (الموجودات) تحت سيطرة طرف آخر من دون حيازة، لكن مع حق حبسها (وضع اليد عليها)، وهذا الطرف الآخر هو المصرف. فإذا ما اقترض المصرف بضمان الذهب المرهون من خلال مبادلته بالدولار، فيقال إن الذهب «أُعيد رهنه رهنا غير حيازي». لقد وصل الذهب المبدل بالنقد في نهاية المطاف إلى بازل، مخلفا في إثره سلسلة من الالتزامات.

وباعتبار أن شيئا من جاذبية الذهب الاستثمارية يستمد من وظيفته المفترضة كملاذ آمن، فمن المنطقي التساؤل: ما الذي سيحدث إذا طلب مالك سندات الملكية استرداد المعدن بعينه (أي فعليا). في ظروف تسودها الشكوك حول كمية الذهب الفعلية التي تشكل غطاء لسندات ملكية الذهب، سيتجه تفكير المستثمرين إلى صناديق الاستثمار المتداولة. هل تمتلك تلك الصناديق الذهب الذي يفترض أن يكون لديها؟ وإذا كانت قد خصصت الذهب، فلا بد أن يكون محفوظا في الركن المخصص لها داخل المخازن. وما لم يكن ذلك الذهب المكتنز قد شابهُ شيء من السبائك المغشوشة التي هي خليط من التنجستين[12]، والتي وجدت طريقها أخيرا إلى الأسواق، فإن المستثمر يظل في منأى عن مخاطر انعدام التغطية(*).

بيد أن مصدر القلق المنطقي الذي ينتاب المستثمر يتمثل فيما سيحدث لصناديق الاستثمار المتداولة التي محلها الذهب إذا استشرى الهلع في السوق. بفرض أن هبوطا حادا في سوق الأسهم أدى إلى حدوث طلبات تغطية الهامش(**)

---

(*) تشهد تكنولوجيا تزييف الذهب حاليا تطورا ملحوظا، ويقوم معظمها كما يبدو على استغلال تطابق كثافة الذهب والتنجستين. يقوم المزيفون بحفر الذهب واستخراج قطع أسطوانية من السبيكة، وإبدال الذهب بخليط (أشابة) من التنجستين، ثم يغطون الفراغات الأسطوانية المملوءة بالتنجستين بطبقة رقيقة من الذهب. وقد أوردت صحيفة فايننشال تايمز خبرا عن عملية احتيال جرت في الصين استخدم فيها «خليط (أشابة) مركب ذو خصائص مماثلة للذهب». وقد حوت السبيكة المزيفة نحو 51 في المائة من الذهب المسبوك، وسبعة معادن أخرى: الأوسميوم والإيريديوم والروثينيوم والنحاس والنيكل والحديد والروديوم. صنع تلك السبيكة خبير متمرس في علم المعادن. وقد وقعت ضحية هذا الذهب المزيف واحدة من كبريات شركات المجوهرات في هونغ كونغ، وهي مجموعة لوك فوك جروب Luke Fook Group. [المترجم].

(**) طلبات تغطية الهامش Margin calls: الحالات التي يطلب فيها السمسار من المستثمر (المتداول) إيداع مبالغ إضافية في حسابه لدى السمسار لتعويض النقص الحاصل في قيمة الهامش المودع لديه. [المترجم].

وقرر بعض المستثمرين بيع الذهب لتغطية مراكزهم الاستثمارية. لنتخيل أن كثيرا من المستثمرين الذين اعتمدوا على الذهب في إنقاذ مراكزهم يملكون حصصا صغيرة في صندوق الاستثمار المتداول نفسه. تشكل هذه الحصص بمجموعها حصة كبيرة. عندما يحاول المستثمرون استرداد حصصهم، لن يكون ثمة كثير من الذهب لتلبية طلبات الاسترداد. وبذلك يتردى صندوق الاستثمار المتداول في مهاوي الإفلاس. ويؤدي هذا الفشل إلى احتشاد طلبات الاسترداد على صناديق الاستثمار المتداولة الأخرى جميعها، تلك التي يتوافر لديها الذهب فعلا لتغطية كل الحصص فيها. وتبدأ الصناديق ذات الملاءة ببيع الذهب لتلبية طلبات الاسترداد. وهكذا تتدفق موجات متتالية من الذهب إلى السوق. ويترنح سعر الذهب، وكذلك تتراجع أسهم شركات التنقيب عن الذهب. ونتيجة الصدمة الناشئة عن هذا الانهيار، تتحول حالة التزاحم للتخلص من تلك الأسهم إلى فوضى عارمة.

وإذا كان البعض يرى في هذا التوصيف (السيناريو) أمرا بعيد الاحتمال، فإنه يظل يعبر عن السيناريو الذي يفترض في الذهب أن يحول دون وقوعه. إن جزءا من السبب الكامن وراء الاستثمار في الذهب مرده هذا الاحتمال دون غيره: اشتر الذهب، وانعم براحة البال. بيد أن الذهب ليس خلوا من الهموم والشجون. إنه حمى تغذيها الشكوك. فالشك والريبة هما العاملان الممرضان المسببان لتلك الحمى. وإلى جانب وظيفته التزيينية (الحلي والمجوهرات) وبعض الاستخدامات الصناعية، ليس ثمة أسباب أخرى تدعو إلى اقتنائه. فالذهب لا ينفصل عن التكهنات الدائرة حول الكوارث وإساءة تطبيق القانون وعمليات التلاعب. لا بل تنتاب من يملكون الذهب، عند ارتفاع سعره، تلك الحمى التي تتجسد في خشيتهم من تراجع هذا السعر.

وفق لائحة الأسعار الصباحية في لندن يوم 5 سبتمبر 2011، بلغ سعر الذهب 1896.50 دولار للأوقية. كان بلوغ هذا المستوى السعري أمرا حتميا، وقد ساعد على ذلك المنحى الصعودي الذي اتخذه مدة عشر سنوات. وفجأة بلغ السعر عتبة ألفي دولار - كانت قبضته محكمة! وطوال عام بكامله، كان المحللون الماليون يتنبأون بتجاوز الذهب ذلك الحاجز. وقد تساءلت، باعتباري أحد المتابعين لشؤون الذهب، كم سيدوم ذلك، وكيف سيمكن تبرير السعر؟ من حسن الطالع، كان لدي

موعد للاجتماع مجددا ببيتر مانك. لقد اتصل بي مدير مكتبه لإبلاغي بأنه سيعرج على لندن. وكان يرغب في التحدث عن سعر الذهب، وكنا سنجتمع في تلك اللحظة التي اندفع فيها الذهب صعودا ليتجاوز ألفي دولار.

كانت ريح عاصفة تشق طريقها عبر جنوب إنجلترا حينما استقللت سيارة أجرة ومضيت إلى مايفير Mayfair. كانت الريح في بارك لين Park Lane تهب وتقلب المظلات إلى الخارج وتلصق معاطف المارة بسيقانهم. وعندما مرت السيارة من أمام فندق دورشستر، اندفعت نبتة إبرة الراعي (الغرنوقي) وقد علقت كتلة من التراب بجذورها نحو زحمة السير واصطدمت بإحدى السيارات وتناثرت عليها. في ردهة فندق فور سيزونز Four Seasons كانت النسوة يسترقن النظرات إلى شعور بعضهن، وينفضن الماء عن أحذيتهن. وفجأة عند الساعة الخامسة والربع خرج مانك من المصعد. ونظر شزرا إلى الردهة المكتظة، وأمسك بذراعي قائلا: «الأفضل أن نصعد إلى الأعلى».

كان يرتدي سترة غير رسمية (بليزر) قاتمة اللون وبنطالا فحمي اللون وقميصا أزرق فاتحا، ذا ياقة منسدلة. والتمع على ثنية سترته دبوس وسام كندا(*) المزين بطبقة المينا البيضاء. كان مانك قد عاد من فوره مع زوجته من بينالي البندقية Venice Biennale. لقد أقاما في البندقية على ظهر يخته البالغ 140 قدما طولا، والمسمى جولدين إيجل (النسر الذهبي) Golden Eagle. يتطلب الإبحار بهذا اليخت طاقما من تسعة أشخاص. وقال مانك: «تعتقد أن اليخت كبير؟ إنه لا شيء! لقد أجبروني على الرسو عند أبعد نقطة من حوض المرسى لأفسح المجال لأصحاب المراكب الأكبر حجما. تبدو تلك المراكب كسفن الرحلات (السفن المطوفة Cruise Ships). لا يمكنك أن تتخيل كبر حجمها!»

كان لدي تصور عن حجمها، لأني دأبت على مطالعة أخبارها في مقالات تناولت أحدث مشروعات مانك، مرفأ اليخوت العملاقة في تيفات Tivat، وكانت في الماضي قاعدة بحرية يوغوسلافية في الجبل الأسود (مونتينيغرو). لقد استخدم مانك العدد الكبير لتلك المراكب الترفيهية العملاقة لتوضيح فكرته - أي إن عدد أثرياء العالم

---

(*) وسام كندا Order of Canada: الوسام الوطني الكندي، ويمنح إلى الدرجة الفخرية الثانية. [المترجم].

اليوم هو الأكبر على مر العصور، وإن لدى هؤلاء مقتنياتهم وأصولهم التي يتعين عليهم صونها وحمايتها.

وأضاف قائلا: «إنني أتحدث اليوم إلى الناس، وقد مكثت هنا ردحا طويلا من الزمن، وثمة ما يربطني بالذهب، وهؤلاء الناس يثقون بي. ويقبل كل من تحدثت إليه على شراء الذهب الآن. وهم ليسوا من المهووسين بالذهب، يا ماثيو، وإنك لتعلم أن بيتر مانك ليس من المهووسين بالذهب أيضا». وهبّ واقفا من كرسيه وأجال بصره عبر النافذة نحو المطر المنهمر، وقد غمرت وجهه تعابير حادة. إن المهووسين بالذهب هم بالتعريف أشخاص متعصبون - وهم يعتقدون أن الذهب هو النقد الحقيقي، ولا شيء سواه. وأعلم أن مانك لا يعتنق هذه النظرية، لكنني أعتقد أنه لا يجد غضاضة في بيع الذهب لمن يعتنقها. أما وجهة نظره فكانت أن أعدادا جديدة من الساعين إلى شراء الذهب قد ظهرت مع ارتفاع مدّ الثروات المحدثة.

ويستأنف قائلا: «هؤلاء الناس الذين أتحدث إليهم يُقبلون على الشراء لأنهم يطلبون وسائل الحماية للحفاظ على نسبة من أصولهم، ويعتقدون أن الذهب يؤدي ذلك الغرض. وهم يعتقدون أن النظام [المالي] لن يتغير إلا إذا وقعت الكارثة، أو ثورة عارمة (كالثورة الفرنسية)، أو اندلعت الحرب، أو خُفضت قيمة العملة إلى درجة أن تتخلف حكومة الولايات المتحدة عن سداد التزاماتها. عندها لن يقدم أولئك الذين كانوا يكنزون الذهب على البيع».

بيد أنهم كانوا في الواقع يبيعون الذهب. فقد ذكر مدير تنفيذي في شركة ستونهيغ Stonehage[13]، مقيم في زيورخ، وتقدم شركته المشورة في مجال إدارة الثروات، لوكالة رويترز قبل أيام قلائل أن بعض العملاء الأثرياء جمعوا المكاسب التي حققوها على امتداد عشر سنوات من الموجة الصعودية لسعر الذهب، ووظفوها في مجال يعتقدون أنه قبلة الاستثمار الرابح في المستقبل: الأعمال الفنية الراقية. وقد اشتملت هذه النقلة على كميات هائلة من الذهب، لأن بعض العملاء استثمروا 15 في المائة من أصولهم في سبائك الذهب. إن الأموال التي حُوِّلت إلى ذهب في هذه الخطوة الاستباقية كانت أيضا تتحول عن الذهب في خطوة استباقية أيضا، لا بل في الرمق الأخير. لقد هبط سعر الذهب في اليوم الذي أعقب حديثي مع مانك. وانخفض في غضون ثلاثة أسابيع بمقدار 300 دولار.

كان من بين الذين خسروا من جراء انخفاض سعر الذهب جون بولسون John Paulson[14]، أبرز نجوم عالم صناديق التحوط Hedge Funds. لقد كسب بولسون مبالغ خيالية من الذهب. وقد حقق في العام 2010 بجهوده الشخصية مكاسب قدرها 4.9 مليار دولار من استثماراته في الذهب. وخلصت صحيفة نيويورك تايمز New York Times عبر حسابات أجرتها إلى أن عوائده تعادل ضعفي الأجور الإجمالية للاعبي دوري الدرجة الأولى لكرة القاعدة (البيسبول)[15]. وهو يعيش في عزبة مشيدة من الحجر الجيري مساحتها 28500 قدم مربعة في الجانب الشرقي العلوي من مانهاتن. وقد استثمر بولسون معظم عوائده من الذهب في منتج استثماري خاص يقوم على تخصيص الحصص في ملكية الذهب، وقد طرحت شركته هذا المنتج للبيع. لم تكن الحصص تمثل ملكية سبائك ذهبية، وإنما كانت مرتبطة بأصول قائمة على الذهب مثل أسهم شركات التنقيب عن الذهب.

كان لبولسون لمسة ميداس Midas Touch (التي يستحيل بها كل شيء يلمسه ذهبا)، إلى أن فقدها. فقد بدأت حظوظه تتبدل مع انهيار استثمار قيمته 834 مليون دولار في شركة سينو - فوريست كوربوريشن Sino-Forest Corporation وهي شركة صينية تعمل في إنتاج الأخشاب[16]، وتتخذ من تورنتو مقرا لها، ولديها إقطاعات من الأراضي في إقليم يونان Yunnan الصيني. وبدأ بشراء الأسهم فيها منذ العام 2008، وبحلول العام 2011 صار مالكا لحصة الأغلبية. وفي يونيو من ذلك العام وجهت شركة تعمل في مجال البيع على المكشوف(*) واسمها مادي ووترز Muddy Waters اتهاما لشركة سينو - فوريست بممارسة عمليات «تضخيم السعر وإطراح الأسهم» Pump and Dump بصورتها التقليدية[17]، وهي عمليات يقوم بها مالكو الأسهم باستخدام معلومات مغلوطة لتضخيم قيمتها - عملية تضخيم السعر Pump - ومن ثم بيعها عند ارتفاع أسعارها - عملية إطراح الأسهم Dump. وقد ادّعت شركة مادي ووترز أن سينو - فوريست قد بالغت في تقدير احتياطياتها من الأخشاب بمبلغ 900 مليون دولار، وعملت وفق خطة احتيالية طوال عشرين

---

(*) البيع على المكشوف Short selling: في الأصل بيع شيء لا يملكه البائع توخيا لانخفاض سعره. وفي مجال عمل الأسواق المالية، يمثل بيع الأصول مثل الأسهم التماسا لانخفاض أسعارها لاحقا، بحيث يعمل البائع على شرائها من السوق وتسليمها للمشتري. [المترجم].

عاما. وانهارت أسهم الشركة. وخسر بولسون نصف مليار دولار. كما خسر أحد أكبر صناديقه الاستثمارية 47 في المائة من قيمته. حدث ذلك حينما بدأ الذهب رحلة الهبوط الحاد. وخسر صندوق الذهب الذي يملكه بولسون 16 في المائة من قيمته في شهر واحد.

وأورد أحد التقارير الصحافية أن بولسون استشاط غضبا بسبب التسريب المستمر لأنباء خسائره بحيث فرض قيودا مشددة على سياساته الإعلامية، مما صعب على وسائل الإعلام الحصول على المعلومات[18]. كانت التقارير المتاحة للعموم حول تعاملاته في الذهب هي نماذج الإفصاح المطلوب من المستثمرين المؤسسيين 13F التي تفرضها هيئة الأوراق المالية والبورصة SEC بصورة إلزامية. وقد أظهرت هذه النماذج أن بولسون بدأ يتخلص من الذهب الذي بحوزته. فقد باع ثلث استثمارات شركته في صندوق سبايدر لقاء مبلغ 1.4 مليار دولار[19]. ووفقا لمصدر لم يفصح عنه منسوب إلى وكالة رويترز[20]، لم يكن تحول بولسون عن صندوق سبايدر يمثل تحولا عن الذهب نفسه، وإنما كان تحولا نحو ضروب أخرى من الأصول لم يكن يشترط الإبلاغ عنها في نماذج الإفصاح العام، ومثالها المبادلات المؤقتة Swaps والعقود الآجلة Forward Contracts والذهب بحالته المادية الملموسة. كان يخفي ما لديه من الذهب عن الأنظار.

إن مخزن الذهب هو مكان إخفائه. ويعرف قاموس أكسفورد[21] كلمة «خبيئة» (مال مكنوز) بالمعنى نفسه، أي ما «يُخفى أو يُرفع جانبا للاستخدام المستقبلي»؟ لكن السؤال المطروح: يُرفع جانبا للاستخدام المستقبلي مقابل ماذا؟ إن الذهب ملاذ آمن مشكوك فيه[22]. إذ مع تراجع السعر في شهر سبتمبر المذكور، عزا أحد الصحافيين الماليين هبوط السعر إلى تفضيل المستثمرين للأسهم، لأن سوق الأسهم كان في طور الصعود تجاوبا مع ما ورد من أنباء سارة حول أزمة ديون اليونان. وبعد ثلاثة أسابيع، عادت أزمة الديون إلى حالتها الاعتيادية الباعثة على اليأس، وهبطت أسعار الأسهم، وهبط معها سعر الذهب. بيد أن المراسل الصحافي أشار هذه المرة إلى أن السوق الهبوطي جرّ معه معدن الذهب أيضا. وهكذا فإن ارتفاع السوق ينعكس سلبا على الذهب، كما أن انخفاضه ينعكس سلبا على الذهب أيضا.

ما مصدر قيمة الذهب؟ إن من يقبل على شرائه يمارس شعائر قديمة تجعل من المتعذر علينا فصل الذهب عن كينونتنا. وهذه هي معضلة (محيرة) علماء الآثار: إننا متداخلون مع ذلك الشيء الذي نحاول فهمه. في دراسة الثابت الذهبي(*) The Golden Constant[23]، وهي دراسة كلاسيكية سعت إلى تتبع القوة الشرائية للذهب عبر التاريخ، يعترف عالم الاقتصاد روي جاسترام Roy Jastram بوجود «إحساسٍ مُلحٍّ بوجود شيء يتجاوز التفكير الواعي، وهو ليس بالغريزة، وإنما قد يكون ذاكرة باطنة موروثة»، وهذا ما يفسر سبب ارتباطنا بالذهب.

تشتمل استخدامات الذهب التي عددتها شركة باريك Barrick على موقعها الإلكتروني على أدوات مثل ميزان الحرارة الطبي الذي يستطيع التقاط أدق التغيرات في حرارة المريض. صحيح أن الذهب يدخل في صناعة ميزان الحرارة الجيد، غير أن قيمته الاستعمالية لا تُستمد من قدرته على قياس التغيرات التي تطرأ على جسم المريض، بل من قدرته على قياس التغيرات التي تطرأ على الجنس البشري.

(*) الثابت الذهبي: في الأصل مفهوم رياضي ينص على أن مقدارين اثنين (وزنين، مسافتين... إلخ) يحققان النسبة الذهبية إذا كانت النسبة بينهما تعادل نسبة مجموعهما إلى أكبرهما. أما في سياق هذا الكتاب فيعبر الثابت الذهبي عن ثبات (تجانس) القوة الشرائية للذهب عبر القرون. [المترجم].

11

# الذهب في غابة الخيزران

نشأت الإمبراطوريات وبادت في الصحراء - خفية وملغزة وذات ثراء أسطوري.

«من بين الممالك التي سادت ثم بادت في الصحراء إمبراطورية مالي التي انصبت عليها عمليات البحث عن الذهب في السنغال»

يعدّ كتاب «مناجم الملك سليمان»(*) من الأعمال الأدبية التكسّبية(**) التي طبعت العصر الفيكتوري، حيث يعثر المغامرون فيها على الكنوز في قلب أفريقيا. لقد عبّر هذا الكتاب بدقة عن روح العصر، وحقق رواجا في عالم النشر. وتحول مؤلفه إتش رايدر هاغارد H. Rider Haggard إلى مليونير. تخاطف

(*) King Solomon's Mines. [المترجم].

(**) الأعمال الأدبية التكسبية: هي الأعمال أو الآثار الأدبية التي تنتج لتلبية الذوق العام لغرض التكسب - أي كسب المال من بيع ما يروق للجمهور مطالعته، مثل القصص البوليسية أو قصص الاكتشافات، ويقال عن مؤلفها «المتكسب». [المترجم].

جمهور القراء الرواية فور ظهورها، وقد شدته آخر الاكتشافات مثل وادي الملوك في مصر، وشقّ على الناشرين توفير طبعة هذه الرواية في السوق دائما. وعندما سلك آلان كواترماين Alan Quatermain، بطل المغامرات العنتري، طريقا قديمة نحو المدينة الملكية لو Loo، وجد جمهور القراء المغامرة قابلة للتصديق. وقبل مدة ليست بالطويلة، عثر المكتشفون على آثار زيمبابوي العظمى Great Zimbabwe، المدينة الصخرية التي يعود أقدم مبانيها إلى القرن الحادي عشر. لقد أوجد كتاب هاغارد جنسا أدبيا جديدا، وكان الملهم لظهور أعمال حققت أعلى المبيعات مثل رواية إدغار رايس باروفز Edgar Rice Burroughs «الأرض التي نسيها الزمن»(*)، ورواية آرثر كونان دويل «العالم المفقود»(**).

ويكشف نجاح هذه الكتب عن تعطش أمة بكاملها إلى المغامرة.

واليوم، تجسد فورة الذهب تلك المغامرة. وهي تأخذنا بعيدا عن روتين الحياة اليومية إلى عالم الحلم الواعد بالثراء والمغامرة. إن أفريقيا تطفح بالذهب، وتعتبر مهد الجنس البشري. وربما حمل البشر - المهاجرون منها - فكرة الشغف بالذهب معهم.

استغرقت في هذا التفكير ذات ليلة، وكنت في شرفة الفندق بداكار، وقد تعذر عليّ النوم. في الصباح مضيت في رحلة عبر السنغال إلى أحد حقول الذهب البعيدة. كان يتعين عليّ أن أعبر أراضي إمبراطوريات بائدة لا تقل إثارة عن تلك التي تخيلها هاغارد. وقد أيقظتها فورة الذهب من رقادها. يجوب الغابات أشخاص يعود أصل مهاراتهم في التنقيب عن الذهب إلى مرحلة ما قبل التاريخ. لقد أسرت إمبراطوريات الذهب الأفريقية الأوروبيين لقرون سبقت ظهور كتاب هاغارد. كانت السفن البرتغالية تذرع البحر مرورا بداكار في القرن الخامس عشر بحثا عبر سواحل أفريقيا عن ممالك الذهب، من دون أن تعثر عليها.

باءت محاولتي النوم بالفشل، واتصلت طلبا للقهوة. لم يكن ثمة قمر في السماء. وانقطعت الكهرباء في الليل. كان المحيط يبعد مائة قدم، متواريا، تتهادى أمواجه على الشاطئ. كانت الصحراء قد ألقت طبقة من الرواسب الرملية على

---

(*) The Land that Time Forgot. [المترجم].

(**) The Lost World. [المترجم].

الشرفة، ذات قوام حُبيبي يستشعره المرء تحت وطأة الأقدام. غادرنا داكار في الساعة الخامسة صباحا.

نشأت سلسلة من الإمبراطوريات وبادت في غرب أفريقيا بدءا من القرن السابع تقريبا، حينما أسس حاكم اسمه دينغا سيسي Dingha Cisse إمبراطورية واغادو Wagadu Empire. كانت تلك الإمبراطورية قوة خفية ملغزة، وذات ثراء أسطوري، قامت في صحراء موريتانيا ومالي. وقد دجن شعب السونينكي The Soninke الجمال وأنشأوا الطرق التجارية الواصلة بشمال أفريقيا. وزاولوا تجارة الملح والعبيد والذهب. كان موقع المناجم سرا من أسرار الدولة. واستطاع عاهل البلاد تسيير جيش قوامه 200 ألف، من بينهم 40 ألفا من الرماة ومجموعة من الخيالة الأشداء. وقد أورد تاجر زار بلاط الحاكم في القرن الحادي عشر، الوصف الآتي:

كان يجلس مستقبلا زائريه أو مستمعا للمظالم المرفوعة على المسؤولين في رواق مقبب، تحفّه عشرة أحصنة مغطاة بمطرزات الذهب. ووقف خلف الملك عشرة وصفاء يحملون دروعا وسيوفا ذات حواش ذهبية، وعلى يمينه أولاد الملوك السابقين الذين حكموا البلاد يرتدون ثيابا قشيبة، وقد ضفرت شعورهم بالذهب. وجلس حاكم المدينة على الأرض أمام الملك يحيط به الوزراء في الوضعية نفسها. كان على باب الرواق كلاب من سلالات أصيلة لا تكاد تبرح القصر أبدا حيث يكون الملك، لحمايته. كان حول رقاب الكلاب أطواق ذهبية وفضية مرصعة بعدد من كرات المعدن نفسه[1].

في أساطير السونينكي، تعيد أفعى بسبعة رؤوس، اسمها بيدا Bida، ملء المناجم بالذهب كل عام. ولقاء أضحية سنوية في هيئة فتاة عذراء، تصنع بيدا مطرا من ذهب. وقد أوقفت هذه الطقوس عندما اختار أحد الشبان الاحتفاظ بالفتاة لنفسه، وقطع رأس الأفعى بيدا. وهكذا توقفت أمطار الذهب، ونضبت المناجم، وفقد شعب السونينكي إمبراطوريته.

وعبر القرون تماهت الإمبراطوريات بفعل عوامل الاضمحلال والغزو. وبلغت أخبار هذه الممالك أوروبا، وهب البرتغاليون للبحث عنها. وأنشأوا ميناء تجاريا، بيد أنهم أخفقوا في العثور على مصدر الذهب. وفي العام 1698 تحدث الرحالة الهولندي ويليام بوسمان William Bosman بالوصف عما دار في مخيلة المغامرين

عن الأقوام التي عاشت في المناطق الداخلية[2]. «إنهم مهووسون بكنوز الذهب العظيمة، إضافة إلى ما تجود مناجمهم به، سواء ما جاء عن طريق النهب أو بتجارتهم الخاصة».

كانت دولة أشانتي Ashanti آخر إمبراطوريات الذهب الأفريقية. وتروي قصة نشوء هذه الإمبراطورية أن كرسيا ذهبيا هبط من السماء إلى حِجر الزعيم الأكبر أوسي توتو Osie Tutu الأول. وقد تحققت الوحدة الفدرالية على يد هذا القائد في القرن السابع عشر، وامتدت في نهاية المطاف إلى الصحراء الكبرى، والتهمت أجزاء من إمبراطورية واجادو القديمة. حكم ملك الأشانتي، واسمه أسانتيهيني Asantehene، شعبا تعداده ثلاثة ملايين نسمة. وذاعت أخبار حياته الباذخة. فكتب طبيب دنماركي أن «هذا الملك القوي يمتلك قطعة من الذهب، يستخدمها تعويذة سحرية، ويحتاج حملها إلى أربعة رجال، وكان لديه عدد لا يحصى من العبيد العاملين بلا توقف في الجبال، وكان لزاما على كل واحد منهم أن يجمع أوقيتين من الذهب يوميا ويقدمهما للملك»[3]. كان لدى دولة الأشانتي خزانة ملأى بالذهب المسبوك وفقا لأوزان موحدة. وتاجر الأشانتي بالذهب عبر ثغور الأطلسي، وقد أكسبت هذه التجارة البلد اسمه - ساحل الذهب Gold Coast. كان التجار يتوقون، بطبيعة الحال، إلى رؤية مصدر كل هذا الذهب بأم أعينهم. وفي 22 أبريل 1817، زحف القنصل البريطاني السير توماس باوديتش Thomas Bowditch باتجاه المناطق الداخلية بحثا عن عاصمة الأشانتي.

لقد انطلقوا في رحلتهم بعد أن استعدوا لها جيدا. وهبت نسمات البحر، ودخلوا ظلال الأدغال الخضراء على طريق رُصف بكسارات المرو (الكوارتز). ثم حجبت الأدغال تلك النسمات، وحجبت ضوء الشمس معها. تقدم الرجال نحو بوتقة نباتية(*)، مشبعة بالبخار، يتخللها ضوء كالشفق. وبلغوا نهاية الطريق المرصوف بالمرو، ولم يكن بعدها ثمة طريق البتة. وقد شقوا طريقهم بصعوبة عبر مستنقعات نبات القرم (المانجروف). وملأت مناخرهم رائحة منتنة مصدرها النباتات المتحللة. وتصبب عرقهم، فاخترق عيونهم وبلل ملابسهم. وكتب باوديتش:

(*) المقصود حيز خانق تحت قبة نباتية. [المترجم].

كانت الأرض التي اتخذناها مستراحا لنا رطبة جدا، وغصّت بالزواحف والحشرات؛ كان صعبا جدا علينا الإبقاء على النار مشتعلة، وقد حرصنا كثيرا على إبقائها مشتعلة، وخصوصا بعد اقتراب نمر مرقط. وهو حيوان يشبهه السكان المحليون بخنزير صغير الحجم، وهو يقطن الأشجار، وظلّ يصدر صرخات حادة تردد صداها في عتمة الليل؛ وشبّ خنزير بري مندفعا بالجوار، مصدرا قباعا كالشخير انتقل صداه عبر الغابة، كأنه فرّ في مطاردة حثيثة[4].

وسارت الجماعة مدة أسبوعين وبلغت آثار قرى الفانتي Fante، وهم قوم قضى عليهم شعب الأشانتي. كانت القرى ملأى بالرماد والجماجم المتناثرة. ثم انطلقت الجماعة مجددا وعبرت نهر برا Pra River إلى بلاد الأشانتي فوجدت قرى نظيفة ذات شوارع عريضة. وفي مايو 1817، توقفت على مبعدة ميل جنوب كوماسي Kumasi وبدل أفرادها ثيابهم ببذلات قرمزية اللون. ثم بعثوا رسلا تسبقهم، وتخبر أسانتيهيني بوصولهم، وكان على علم بذلك قبلا. وأرسل من يسألهم الانتظار ريثما ينتهي من الاستحمام. وعندما استعد الملك، أبلغت الرسل البريطانيين أن يدخلوا المدينة. وانطلقوا نحوها في الساعة الثانية بعد الظهر[5]، ومروا أسفل بدّ(*) معلق، كان عبارة عن خروف نافق ملفوف بحرير أحمر.

وازدحم الطريق بالآلاف لمشاهدة طلائع الأوروبيين، ومعظمهم لم يرهم من قبل. وقد ملأ محاربو الأشانتي الأجواء بضجيج مدو- أصوات الأبواق والطبول والصّلال وآلات النقر. وأحدث وابل من طلقات البنادق سحابة من الدخان الكثيف بين صفوف الزوار. كان الدخان كثيفا جدا فلم يستطع البريطانيون أن يروا إلا الطريق الماثل أمامهم مباشرة، إلى أن بلغوا فسحة خالية من الدخان وسط الحشد. في الهواء الطلق، اندفع حملة الأعلام من جانب إلى آخر ملوحين بالرايات، وهبّ زعماء القبائل وشرعوا بالرقص.

وارتدى زعماء الأشانتي قبعات حربية بديعة زينت بقرون الأكباش وأرياش النسور المذهبة. كما زينت صدائرهم القماشية الحمراء تعويذات سحرية ونصوصٌ بالخط العربي مطرزة بالفضة والذهب. وانسدلت أذناب النمور المرقطة على

(*) البد أو الفتش Fetish (جمعه بدود أو أفتاش)؛ وهو شيء تنسب إليه قدرة سحرية، وكانت القبائل الأفريقية تستخدمه للحماية أو درء الشر وطلب المساعدة. [المترجم].

ظهورهم. وبينما شرعوا يرقصون ويثبون عاليا في حلقات الرقص، كانت كرات النحاس الأصفر المثبتة بأزيائهم وملابسهم تصدر أصوات جلجلة. وارتدوا جزما جلدية حمراء اللون بلغت أفخاذهم. وتدلت جعب السهام المسمومة من خصورهم. كان كل زعيم يعض بأسنانه على قطعة من سلسلة حديدية.

بعد انتهاء الرقص حُشر الأوروبيون على طول الأزقة الضيقة وسط الحشود الغفيرة المتزاحمة. وشاهدوا شوارع ذات مجازات ضيقة مفتوحة على الأفق، وقد اكتظت بالناس، وبيوتا ذات شرفات مفتوحة تحلق فيها النسوة والأطفال لمشاهدتهم في أثناء مرورهم. وعندما اقتربوا من القصر، أصدرت الأبواق والنايات «لحنا نشازا»، واستخدمت مظلات كبيرة الحجم لتحريك الهواء وإنعاش البريطانيين بالنسمات.

وفي أثناء انتظار الجنود استدعاءهم، كانت فرقة الحرس ذات القبعات المصنوعة من الجلود السوداء الخشنة، تقود أسيرا إلى الإعدام. اخترق نصل سكين خدي الرجل، وخيطت شفتاه معا، وظهرت على جسمه جروح التعذيب. جذبه مرافقه إلى الأمام بحبل مربوط بأنفه. بعد ذلك استدعي البريطانيون إلى الداخل.

لم يكن ما شاهدناه كافيا لتهيئتنا لذلك الضرب من المشاهد الذي انبثق أمامنا هنا: كانت دائرة محيطها ميل تقريبا تحتشد فيها مقومات العظمة والبدعة. كان الملك وأتباعه وكبار قادته يرفلون بالأبهة في تلك المسافة، محاطين بالخدم من كل صنف ونوع، وتتقدمهم مجموعة من المحاربين الذين قطعوا أمامنا الطريق. كانت الشمس تنعكس، بوهج حار لا يكاد يطاق، من الحلي الذهبية الضخمة التي التمعت في كل اتجاه.

واندفعت فرق أخرى- بالطبول والنايات والقرب. واصطف النبلاء وأفراد العائلة الحاكمة على جانبي الطريق، ومعهم كبار المسؤولين في المملكة - نافخ البوق الذهبي والقهرمان ورئيس فرق المراسم. كانوا يرتدون ثيابا براقة وحليا عظيمة. وتدلت الأطواق الذهبية فبلغت خصورهم. وأحاطت الشرائط الذهبية بركبهم وكانت الأقراص والحلقات والتصاوير الحيوانية الصغيرة، وكلها مسبوكة من الذهب، تهتز وتصلصل على سلاسل الكاحل. وارتدى أعلى الرجال مرتبة قطعا ثقيلة تدلت من رسوغهم «المثقلة جدا، فاضطروا إلى الاتكاء بها على رؤوس أجمل غلمانهم».

كان بحر من المظلات العظيمة يتماوج - ارتفاعا وانخفاضا - فوق البلاط الملكي وراح حاملوها يحركونها في تموجات لإثارة الهواء وإحداث التيارات الهوائية. لقد خيطت أقمشة هذه المظلات العملاقة من قطع الحرير الأصفر والقرمزي. أما حافاتها فكانت تتلألأ بالتصاوير الزينية الذهبية - الأفيال والبجع والأهلّة والسيوف. والتمعت المظلات وبرقت مع انعكاس أشعة الشمس على مرايا فائقة الصغر مخيطة بالقماش.

ووقف إلى جانب الملك رجل عملاق يحمل بُليطة(*) ذهبية ثقيلة معلقة بمحاذاة صدره، كان هذا الرجل هو الجلاد. وحمل مرافقه كرسي الإعدام تعلوه طبقة سميكة من الدم المتخثر. وعرض المسؤول عن الخزانة (المالية) شعارات منصبه - موازين ووزنات من الذهب الخالص وجاروف فصل الغبار عن الذهب ومجموعة من الصناديق. وتحت مظلته الخاصة استقر الكرسي الذهبي، رمز الأمة. وارتدى حماة روح الملك(**) أقراصا أو أجنحة ذهبية[6]. كان حماة روح الملك يتلقفون الشرور التي تستهدف الملك، ويصدونها بعيدا بشاراتهم الذهبية. ووقف أربعة لغويين بالقرب من العاهل. لم يكن لدى شعب الأشانتي نظام كتابة خاص به. كان اللغويون أرشيف الأمة الحي، بفضل إحاطتهم الموسوعية بالمعارف والأمثال القبلية[7]. وقد اضطلعوا بدور الناطق الرسمي باسم الملك وسفرائه وحملوا عصيا تعلوها نهايات مزخرفة بديعة الصنعة - على هيئة شبكة العنكبوت، وظباء تربض على قرونها طيور كثيرة.

وجلس الملك في منتصف البلاط، على كرسي مغطى بالذهب. ولوح المرافقون بحجاب من أذيال الفيلة الموشاة بالذهب أمام الملك. وقدر باوديتش عمر الملك بثمانية وثلاثين عاما. كان يرتدي قماشا أخضرَ غامق اللون. وأحاطت بصدغيه شريطة من خرز زجاجي. وكان حبل حريري أحمر اللون يمتد عبر كتفيه، يحمل ثلاث تعويذات ملفوفة بالذهب. وقد اختفت أصابعه تحت الخواتم الذهبية. وطليت صورة تاج أبيض اللون على جبهته. كان في إحدى يديه صنوج(***) ذهبية، وكان قادرا على إسكات البلاط بإشارة واحدة.

---

(*) البليطة: فأس قصيرة النصاب. [المترجم].

(**) حماة روح الملك Soul washers: من يطردون الأرواح الشريرة عن الملك. [المترجم].

(***) صفائح صفر مستديرة تثبت عادة في الأصابع أو في أطراف الدف وتصدر عند قرعها بعضها ببعض صوتا موسيقيا حادا. [المترجم].

بعد تأدية التحية للملك اصطُحب البريطانيون إلى شجرة بالجوار. وتجمع البلاط بكامله وانتظم في صفوف استعدادا لفقرة المراسم التالية: رد واجب الزيارة. لقد بات الآن بحر المظلات، المندفعة صعودا ونزولا في حركة استعراضية تموجية، أقرب إلى الضيوف. وركب الزعماء والسادات محفّات قرمزية اللون، وترجلوا على مسافة ثلاثين ياردة من البريطانيين وتقدموا لتحيتهم. ومرت التشكيلات العسكرية من أمام الضيوف. وبتقدير باوديتش وضباطه كان هناك 30 ألف رجل منتظمين في هذه التشكيلات. كانت ساعة متأخرة مساء، و«ليلة جميلة أضاءتها أنوار النجوم» وفق ما كتب باوديتش، عندما تقدم الملك بنفسه نحوهم. والتمعت أضواء المشاعل على اللباس الملكي لأسانتيهني. كانت جماجم الأعداء تزين أكبر الطبول. وتوقف الملك وطلب من البريطانيين تقديم أنفسهم، ثم تمنى لهم ليلة طيبة وانسحب عائدا في نهاية المطاف، مصحوبا بحشد من أخواته وعماته وخالاته اللواتي رفلن جميعا ببريق الذهب.

وقضيت سحابة بعد الظهر في المكتبة البريطانية British Library أعاين الخرائط التي وضعها رسامو الخرائط الأوائل لأراضي الأشانتي. وضعت على إحدى تلك الخرائط صفيحة خلّات Acetate لتسوية ورق الخرائط، ليتسنى لي فحص الأكواخ والجداول المرسومة بعناية فائقة. لقد بدت الأسود المطوّفة مثل كلاب السبنيلي(*) الكبيرة الهائجة. ولوّن القسم العلوي من الخريطة بكامله بمسحة من الأخضر الشاحب وعلق عليه بحاشية كتبت بخط موصول، بيد رسام الخرائط: «موضع غني بالذهب، وقد وجد الذهب على هيئة شذرات في حفر عمقها تسع أقدام انطلاقا من السطح. وجلبت إلى كوماسي Kumasi في كتل صلبة دفنت في الطّفال والصخر، وبلغ وزنها جميعا خمسة عشر رطلا».

في العام 1824 بدأت بريطانيا أولى حملاتها لإخضاع شعب الأشانتي. وقد جردت قواتها حملات عسكرية على الأشانتي انطلقت من الساحل، ووضعت يدها على مناجم ذهب الأشانتي. وبدأت آخر فصول الصراع مع وصول الحاكم البريطاني السير فريدريك هودجسون Sir Frederick Hodgson إلى كوماسي في أبريل 1900، إذ طلب الحصول على أقدس ما في تلك البلاد.

---

(*) السبنيلي Spaniel: من أنواع الكلاب الصغيرة قصيرة القوائم ذات الشعر الطويل المتموج، والآذان الكبيرة المسترخية. [المترجم].

أين الكرسي الذهبي (العرش)؟ لماذا لا أجلس الآن على الكرسي الذهبي؟ إنني ممثل السلطة الأعظم؛ لماذا أنزلتموني هذا الكرسي الأقل قدرا؟[8].

وصعق الأشانتي من الإهانة الجارحة. وفي اجتماع سري عقد تلك الليلة[9]، ألقت الملكة الأم يا أسانتيوا Yaa Asantewaa كلاما ثقيلا على أسماع الرجال.

الآن تبينت أن بعضكم يخاف التقدم للقتال في سبيل عاهلنا. لو يعود الزمان إلى تلك الأيام المجيدة، أيام أوسي توتو Osei Tutu وأوكومفو أنوكي Okomfo Anokye وأوبوكو واري Opoku Ware فلن يتثاقل الزعماء إلى الأرض وهم يرون ملكهم يساق بعيدا من دون إطلاق طلقة واحدة. ما كان يجرؤ رجل أبيض على مخاطبة زعيم من الأشانتي بالأسلوب الذي تحدث به الحاكم إلى زعمائكم هذا الصباح. هل صحيح أن شجاعة الأشانتي قد ولت من غير رجعة؟ لا أستطيع تصديق ذلك. وإن عليّ أن أقول ذلك: إذا لم تكونوا أنتم، يا رجال الأشانتي، ستمضون قدما إلى الأمام، فإننا سنفعل. نحن النسوة سنفعل ذلك. وسأدعو بنات جلدتي، وسنحارب الرجال البيض. سنقاتل إلى أن تسقط آخر واحدة منا في ساحة الوغى.

وجيشت كلمات الملكة مشاعر الرجال. وفي الأحداث التي توالت فصولها، وعرفت أحيانا بحرب يا أسانتيوا، كانت وحدة (مفرزة) بريطانية تسبر الأدغال المجاورة غير مدركة للخطر المحدق بسبب حادثة الكرسي الذهبي. وحاصرها الأشانتي الغاضبون، ولم ينقذ الجنود إلا عاصفة مطرية مفاجئة، أفسحت لهم طريق الانسحاب. وانتهت حرب الأشهر الستة بهزيمة الأشانتي. ونفى البريطانيون الملكة إلى السيشل، حيث قضت نحبها. وألحقت أراضي الأشانتي بساحل الذهب Gold Coast، الذي يعرف اليوم بغانا.

انتقلتُ بالسيارة خارج داكار برفقة مارتن باوليتشيك Martin Pawlitscheck، وهو جيولوجي أسترالي يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما، ويعيش في المدينة مع زوجته وولديه. كان باوليتشيك دمثا حسن المعشر سهل الانقياد، ذا عينين زرقاوين شاحبتين وشعر بني فاتح. أخذنا معنا إناء ديوار(*) مملوءا بالقهوة وعلبة من حلوى التارت باللوز. شعرت بالسعادة الغامرة

---

(*) إناء ديوار Dewar flask: ثرموس (ترمس) أو مطّارة أو مطرة. إناء عازل يحفظ السائل الذي يوضع بداخله عند درجة حرارة ثابتة مدة من الزمن، ساخنا كان أو باردا. [المترجم].

بالنهوض قبل الفجر. تسكعنا في الشوارع المظلمة إلى أن عثر على الطريق السريع الذي أراده. واحتشدت أعداد كبيرة من الناس عند حافة الطريق المظلمة. نساء يحملن سلالا على رؤوسهن ويتمايلن في مشيتهن بتنورات تصل إلى الكواحل. ورفع التجار الذين يرتدون الجلابيات البيضاء مصاريع متاجرهم، وانتشرت الأكشاك على جانب الطريق مثل أزهار ما قبل الفجر. واندفع راكبو الدراجات النارية الصينية عبر زحمة السير، يتعرجون بين الشاحنات المثقلة بحمولتها، والتي راحت تتمايل على الجانبين تحاشيا للحفر والأخاديد.

انطلقنا عازمين على السفر بالسيارة عبر السنغال إلى عدد من المواضع التي قصدناها لصلتها بالذهب، والواقعة في الهضاب على امتداد الحدود مع مالي. لقد علم الجيولوجيون منذ سنوات مضت أن هذه المنطقة تزخر بإمكانات كبيرة. وبعد أن أقرت السنغال قانونا جديدا لأعمال التنقيب في العام 2003 لحماية المستثمرين، تقاطرت الحفارات إلى المنطقة. وعثرت شركة أسترالية على الذهب، وأنشأت منجما فيها ثم طلبت من مصرفي من تورنتو إيجاد الطاقم اللازم لإدارة المنجم. ووجد شخصا اسمه ألان هيل Alan Hill.

كان ألان يدير منجم ذهب في رومانيا واستقال بسبب «الإحباطات». كانت رومانيا تنتج الذهب منذ القدم، لكنها باتت منذ العام 2000 تشتهر بإنتاج الكوارث، وذلك عندما انفجر حوض نفايات المنجم الكائن في بايا مير Baia Mare، وهي مركز عمليات التنقيب عن الذهب في الأزمنة القديمة، وأدى إلى إراقة 3.5 مليون قدم مكعبة من السيانيد في أحد روافد نهر الدانوب.

وعندما غادر هيل رومانيا، رافقه فريقه الإداري الكندي، واستأجر الاستراليون الفريق بكامله وأسسوا شركة ذهب تيرانغا Teranga Gold Corporation (تعني تيرانغا «طيب الضيافة» في اللهجة المحلية الرائجة في السنغال التي تعرف بولوف Wolof). وطرحت تيرانغا للاكتتاب العام في تورنتو. وحققت عملية الاكتتاب 145 مليون دولار. كانت الأصول (الموجودات) الأساسية تتمثل في منجم الذهب سابودالا Sabodala الذي تعود ملكيته للشركة، وينتج 130 ألف أوقية سنويا، وهو يقع في منطقة الاكتشاف الأصلية، حيث ثمة مجموعة واعدة من مواقع التنقيب المحتملة. ووضع هيل خططا

لمضاعفة حجم محطة المعالجة، وكانت مهمة باوليتشيك أن يجد الذهب اللازم لتغذية المحطة.

***

كنا قد ابتعدنا عن المدينة عندما بدأت الشمس بالشروق. وهبط سرب من طيور الفلامينغو على مسطحات الملح في سالوم Saloum. وقذفت مدخنة محطة معالجة الملح دخانا داكنا. كانت أشجار الباأوباب (التَّبلْدي)(*)، وحدها وسط هذه العزلة، تناهز السماء بأغصانها المضطربة. ووصلنا إلى جزء ممتد من الطريق السريع تتخلله الحفر. كان هناك شاحنة نصف مقطورة(**) علق أحد إطاراتها داخل حفرة، فانقلبت جانبا مثل وحيد قرن طرحته الإصابة أرضا. وانفلتت الصناديق والعلب من الشاحنة وانقذفت نحو الشجيرات القريبة. وجلس الحراس القرفصاء بالقرب من قمرة القيادة المقلوبة.

يعتبر الانتقال بالسيارة عبر السنغال رحلة إلى الماضي. إذ تتلاشى أحداث الحياة المعاصرة، وتتناقص حركة المرور، مفسحة المجال لشاحنات العبور التي تتناهب الطريق نحو مالي. يمتد السهل الذي تتخلله بعض الأشجار العطشى نحو الأفق. كانت الماشية الخمصاء تفتش الأعشاب اليابسة. وظهرت عربات تجرها الأحصنة على طرق ترابية محاذية للطريق السريع. كانت البيوت المبنية من القوالب الأسمنتية تتراجع مفسحة المجال لبيوت القش والطين في القرى والأرياف.

توقفنا في تامباكوندا Tambacounda لتناول الغداء في فندق على جانب الطريق. كانت أشجار النيم(***) تنمو بكثافة في تلك النواحي، وهي من جنس الماهوغاني الذي استورده الفرنسيون من الهند وزرعوه في القرى للاستظلال به، واعتقادا أن هذه الأشجار تطرد البعوض. أوقفنا السيارة بجانب سيارة لاند كروزر بيضاء. كان جان كايسين Jean Kaisin، وهو جيولوجي بلجيكي يعيش في داكار

---

(*) باأوباب Baobab: شجر استوائي معمر ضخم يعرف أيضا بأسماء مثل: باوباب، التبلدي، القنقليس، شجر القارورة، الشجر المقلوب أو شجر خبز القرود، البوحباب. [المترجم].

(**) شاحنة نصف مقطورة Semi-trailer truck: قاطرة ذات مقطورة ليس لها محور أمامي، ويرتكز ثقل المقطورة من الأمام على عجلات القاطرة الخلفية، ومن الخلف على عجلات المقطورة نفسها. [المترجم].

(***) شجرة النيم Neem tree: هي شجرة استوائية دائمة الخضرة موطنها الأصلي الهند وتنمو أيضا في عدد من دول تقع جنوب شرق الهند، لها رائحة الثوم وطعم مر. [المترجم].

ويعمل لدى باوليتشيك، متوجها إلى مخيم الذهب برفقة مجموعة من الجيولوجيين السنغاليين. وقد صحبتهم سيدة قصيرة القامة من داكار تدعى أوا أبا Awa Ba كانت تقود شاحنة لنقل الفلز في منجم سابودالا. كانت ترتدي بذلة رياضية فوشية (وردية داكنة) اللون، ذات قطعة لامعة من الترتر فضي اللون. وجلستْ بهدوء فيما راح الرجال من حولها يتحدثون. وأحضر لنا النادل «ستيك» قاسيا كأنه قطعة الخشب. وبينما كان الرجال ينشرون الخشب ويكدحون من حولها، راحت السيدة ترقب لمعان أدوات المائدة في يديها الرقيقتين. كنا جميعا لانزال نعمل جاهدين عندما وضعت سكينها وشوكتها على نحو مرتب في صحنها الفارغ.

بعد الغداء انطلق موكبنا. وبدأت الخضرة من حولنا تتناقص. وتخللت الأشجار الشائكة الصحراء. وحيثما كانت القرى تتحلق حول الطريق، كان ثمة نسوة في الأكشاك يبعن مشروبا يعرف باسم شاي الباأوباب Thé Bouye مصنوع من خبز القرود Monkey Bread، وهو الفاكهة الجافة لشجرة الباأوباب. وعندما توقفنا طلبا للوقود، جاء الصبية يتسولون القطع النقدية. وعلمت فيما بعد أنهم كانوا تلاميذ إحدى المدارس، وهي مدرسة إسلامية، وقد أرسلهم معلموهم لهذا الغرض، وهو سلوك استهجنه السكان المحليون.

لاحقا في فترة ما بعد الظهيرة عبرنا نهر غامبيا. كان الناس، في المياه الضحلة أسفل الجسر، يشطفون رمال النهر بحثا عن الذهب. وبلغنا هضاب ماكو Mako Hills وصعدنا غابة صخرية. ووثب خنزير رمادي اللون، بحجم دراجة نارية صغيرة من الأكمة وعبَر الطريق من دون التفات، وتوارى بين الأشجار. كان لون الصخور ورديا صدئا. وبيّن باوليتشيك أنها تأكسدت بالتعرض للهواء الطلق. كان اللون الناتج دليلا على وجود كربونات الحديد. ولعل هذه الصخور صعدت إلى السطح عند حدوث ذلك الضرب من التدفق الحراري المائي الذي يحمل الذهب معه. كانت هضاب ماكو جزءا من المعالم الجيولوجية المعروفة باسم قديث كيدوغو - كينييبا (الطبقة القديمة الحديثة)(*) (Kedougou-Kenieba Inlier). وقد انتقلنا إليها بعد أن عبرنا النهر.

---

(*) قديث (قديم حديث) Inlier: هي منكشف صخري من حقبة جيولوجية قديمة تحيط به صخور من حقبة أحدث. ويقابله حديم (حديث قديم)، ويكون فيه الترتيب المذكور معكوسا. [المترجم].

والقديث Inlier هو طبقة صخرية مكشوفة، حديثة العهد تبذت إلى الأعلى نحو الصخور الأقدم. ويتكون قديث كيدوجو- كينيبيا من صخور عمرها 1.6 مليار عام. وتقع نسبة 40 في المائة من القديث في مالي و60 في المائة في السنغال. وفي مالي زادت ثلاثة مناجم ذهب كبرى حجم ميزانياتها بالاستفادة من هذا التشكيل الجيولوجي. كان معظم الجانب السنغالي غير مكتشف بعد. وكان باوليتشيك تواقا لإثبات أن ما اكتُشِف في مالي يمكن أيضا اكتشافه في بعض المناطق الصخرية الواقعة على الجانب السنغالي.

وتطاولت الظلال على الطريق. كان من المستحيل أن نبلغ المخيم قبل انقضاء النهار. وتوقفنا للاستراحة في بلدة كيدوغو Kedougou بعد اثنتي عشرة ساعة من انطلاقنا في رحلتنا، ونزلنا في فندق صغير على جرف أعلى نهر غامبيا.

استخرجتُ بعض الصور المنسوخة عن خرائط قديمة ومضيت أبحث عن مكان أنشرها(*) فيه.

بعد رحلة الطريق المغبر كان الفندق واحة للاستراحة. ونزل الضيوف في حجرات من القش في إحدى مزارع النخيل. وهزت النسائم العليلة سعف النخل. وراحت الببغاوات البيضاء تتنقل متثاقلة على مجاثمها في قفص الطيور، وخلدت أربعة تماسيح إلى النوم متكومة بعضها على بعض داخل قفص. ووجهت فتاتان أمريكيتان عدسات نظارتيهما اللامعتين نحوي ثم عادتا إلى التأمل في أصابع أقدامهما. استقررتُ على كرسي طويل (شيزلنغ) وبدأت أقلب صور إمبراطورية مالي.

من بين الممالك التي سادت ثم بادت في الصحراء إمبراطورية مالي التي انصبت عليها عمليات البحث عن الذهب في السنغال. مؤسس هذه الإمبراطورية أمير يدعى سانديانا كيتا Sundiata Keita، ومعنى اسمه «الأسد الجائع». دام حكم هذه الإمبراطورية ما بين نحو 1230 و1600 ميلادية. لقد وفرت منطقة التنقيب التي قصدنا إليها المجال لأعمال مناجم الذهب التي أسهمت في ثراء هذه البلاد وقوتها. لم يعلم الأوروبيون شيئا عن إمبراطورية مالي إلى أن ظهر حاكمها الأعظم، مانسا موسى Mansa Musa[10].

---

(*) المقصود بالنشر هنا: فتح الخرائط ومدها على سطح مستو لمطالعتها. [المترجم].

شيّد مانسا موسى المساجد والقصور في مدن مثل تيمبكتو وجيني Djenne. وأقام في العاصمة الإمبراطورية نياني Niani قاعة الجلوس ذات القبة الهائلة. كانت إحدى طبقات النوافذ محاطة بإطار من ورق الفضة وأخرى بالذهب المطروق. وفي أوج عظمتها في القرن الثاني عشر ضمت الإمبراطورية مئات المدن والبلدات. كان عدد كبير من سكان الحواضر يقطنون حول مجرى نهر النيجر. وكانت مناجم الذهب تنتج ثروة المملكة. لقد أسر مانسا موسى، الذي اشتهر أحيانا بسيد المناجم، خيال الأوروبيين. في أطلس كاتالان Catalan Atlas الصادر في العام 1380 تظهر معظم أفريقيا تقريبا خاوية. وفي منتصف الخريطة، وبدلا من البلاد والأنهار يجلس ملك أسود في لباسه الملكي على عرش ذهبي. ويلوح في إحدى يديه بشذرة ذهب بحجم قبضة اليد. حينما أبحر البرتغاليون بمحاذاة سواحل أفريقيا جنوبا لإيجاد مرفأ لهم، كانوا يبحثون عن مملكة مانسا موسى. وكذلك كنا.

قابلت الجيولوجيين لتناول العشاء في حجرة الطعام المكشوفة القائمة خلف سور من شجيرات الدفلى. كانت الشمس في طور الغروب وكان النهر يشعّ كأنه النحاس. وفي البعيد عبر الأكمة ارتفعت الكتلة أرجوانية اللون لهضبة غينيا Guinea Plateau. تحتنا كان صاحب أحد المراكب يسير بمركبه مع التيار. وتحولت دفة الحديث إلى شعب المالينكي Malinke، الذين نقبوا الأنهار بحثا عن الذهب طوال قرون بطريقة الشطف بالأواني الشائعة اليوم. كما نقبوا عن الذهب في مختلف أرجاء الإقليم، تماما كما فعلوا أيام مانسا موسى. وقصّ علينا جان كايسين الذي قضى سنوات في تلك النواحي من أفريقيا بحثا عن مناجم الإمبراطور، رحلة مانسا موسى العظيمة.

توجه الإمبراطور في رحلة لأداء مناسك الحج في العام 1324. وقد صحبه فيها حاشية قوامها 60 ألف جندي وخادم و12 ألفا من العبيد. وحمل المنادون الذي ارتدوا البزات الحريرية صولجانات الذهب، وهم ينادون باسم الملك أينما حلوا. واصطحب الملك قافلة من الكنوز ضمت ثمانين جملا، محملة جميعها بغبار الذهب. ولعل مثل هذه الثروة الهائلة لم تجتمع في شحنة واحدة عبر التاريخ. لقد أحضرها الملك لإنفاقها ومنحها على سبيل العطايا.

الجمعة سيد الأيام، ويوم مبارك، عند المسلمين، وفي كل يوم جمعة في أثناء رحلته، وحيثما حلّ، كان مانسا موسى ينفق على عمارة مسجد من المساجد. وفي

القاهرة أجزل العطايا مرات كثيرة فأغرق سوق الذهب (البازار) ، وأودى بالسعر إلى الحضيض. لقد استطاع رجل واحد أن يهزّ سوق ذهب حوض المتوسط - وهو نفسه سوق أوروبا. وهكذا تناهت أخبار وجود مملكة صحراوية مغمورة الذكر إلى علم الأوروبيين، وقد عدّوها أرض ثروة لا تحصى. وحينما زالت إمبراطورية مالي، كان هوس الأوروبيين بالذهب يلتهم ممالك أخرى. وبدت مناجم الصحراء كأنها طمست في ثنايا التاريخ. وظلت مناجم مانسا موسى الأسطورية طي النسيان إلى العام 1989 حينما عثر أحد المستكشفين - وكان يجوب إحدى التلال - على سرب (حفير) مهجور يبلغ طوله ربع ميل.

لم يكن الرجل الذي عثر على منجم الإمبراطور جيولوجيا أو منقبا، بل كان شخصية صيغت حكاياتها من وحي الخيال. لقد وقع على الدليل، وانتهز الفرصة، ليميط اللثام عن الكنز المفقود.

كان مارك ناثانسون Mark Nathanson ابن تاجر بقالة بالجملة من جزيرة كيب بريستون Cape Breston Island[11]، التابعة لنوفا سكوشيا (كندا). وقد صاهر عائلة تجارية ثرية من تايوان. وشرع في ثمانينيات القرن العشرين في زيارة مالي، من جملة أسفار تجارية أخرى. كانت مالي آنذاك دولة تابعة للنفوذ السوفييتي، لكن ناثانسون، وقد علم بأمر مانسا موسى، كان مهتما بماضي مالي أكثر من أن يلقي بالا لحاضرها. في وقت فراغه كان يتتبع المعلومات المتوافرة في الأرشيف. كان الدليل يفضي إلى الدليل التالي، وهكذا، إلى أن وجد في مكتبة بإسبانيا خريطة عمرها 300 عام للصحراء الكبرى، وشاهد ناثانسون على الخريطة في موضع يعرف الآن بمالي اسما سيبهج قلب صائد الكنوز: أوفير Ophir!

ظل صائدو الكنوز يبحثون عن مدينة أوفير الخرافية طوال آلاف السنين آملين العثور على مناجمها الأسطورية[12]. وفي الأزمنة القديمة، فتشوا عنها في الهند والجزيرة العربية وأفريقيا. ويروى أن ابن أحد ملوك سبأ «شيد عفير من حجارة الذهب، إذ كانت حجارة جبالها من الذهب الخالص». وكانت أوفير بالنسبة إلى أقباط مصر قبل الفتح الإسلامي من أسماء الهند، البلد الذي اقترن اسمه بالثراء العظيم. وأوفير أيضا هي المدينة الخيالية المفقودة في رواية هاجارد «مناجم الملك سليمان»، واسم إحدى الممالك في سلسلة كونان البربري Conan the Barbarian.

وعلى لوح حجري شهير يعود إلى فترة فورة الذهب بكاليفورنيا، حملت إحدى السفن الشراعية التي نزلت بسان فرانسيسكو اسم «أوفير» على مؤخرتها.

كم من رحلات المغامرات تشترك في تلك البداية نفسها؟ يعثر البطل على خريطة، ثم ينطلق في رحلته. لم يظهر اسم أوفير على الخرائط المعاصرة. لقد سافر ناثانسون عبر غرب مالي بحثا عن بلدات يحتمل أن رسامي الخرائط قبل 300 سنة خلت وسموها باسم المدينة الأسطورية. لايزال المنقبون الحرفيون(*) في تلك الأنحاء من مالي يستخرجون القليل من الذهب. ويتردد مشترو الذهب الجوالون على تلك المنطقة بانتظام. وقرر ناثانسون إذا أوقفته السلطات للاستفسار عن أسفاره أن يكون جوابه أنه يجوب البلاد بحثا عن أشياء يشتريها، ومن بينها الذهب.

وقد استقر ناثانسون في كايس Kayes عاصمة الإقليم غرب مالي، وهي بلدة تشتهر بأعمال الصهر يبلغ عدد سكانها 100 ألف، تحيط بها الهضاب الغنية بالحديد وتسفعها درجات الحرارة التي تتجاوز غالبا 100 درجة فهرنهايت. وانطلاقا من كايس، توجه نحو الأرياف على طول نهر فاليمي River Faleme الذي يمثل خط الحدود مع السنغال. وعلى مدى رحلات استمرت شهورا زار القرى المتناثرة، وعاين حفريات الذهب آملا العثور على بقايا أحد المناجم الذي ربما كان ذات يوم غنيا بالذهب فاستحق اسم «أوفير» Ophir. وقرية بعد أخرى شاهد المنقبين يحفرون الأرض بحثا عن كميات صغيرة من الذهب، من دون وجود ما يشير إلى أنهم استخرجوا كميات كبيرة إطلاقا.

ومن دون أن يلوي على شيء، حلّ ناثانسون بقرية تدعى ساديولا Sadiola وهي عبارة عن تجمع بائس من أكواخ المزارعين. كانت عجاف الأبقار والماعز تتنافس على الكلأ. ولم يكن ثمة مصادر أخرى للثروة في القرية. مع ذلك عاين ناثانسون الجوار. كان ثمة تلة قريبة، فانصرف إلى صعودها. ولدى ارتقائه المنحدر لاحظ وجود وهدة في الأرض. وتوقف للمعاينة والتمحيص، وتبيّن أن الوهدة كانت فتحة حفير أفقي، وهو عبارة عن قناة منجمية ذات منحى أفقي. كانت مسدودة بدبش الحجارة، ولم تكن ثمة آثار أخرى لعمليات التنقيب ظاهرة على سطح التلة، باستثناء الحفير

(*) المنقبون الحرفيون: هم المنقبون غير المتخصصين، وإنما جاءوا من حرف أخرى لمزاولة أعمال التنقيب. [المترجم].

الأفقي وحده، وقد سدّ بأكوام الحجارة. وقفل عائدا إلى ساديولا مع دليل الرحلة المرافق، وهناك تعرّف على قصة التلة.

لقد جرت أعمال التنقيب عن الذهب في ساديولا حقا، وقد نقب أسلاف القرويين هناك لقرون خلت. غير أن الحفير الأفقي انهار قبل مائة عام، وقُتل كل من بداخله، وقضت نسبة كبيرة من السكان المحليين. ومنذ ذلك الحين توقفت أعمال التنقيب، وأعلنت التلة مكانا محظورا، ولم يسمح للسكان المحليين بالحفر فيها. كان الحفير الأفقي هو ما يبحث عنه ناثانسون: الدليل على حدوث أعمال تنقيب واسعة النطاق، وبدرجة من الأهمية تكفي ليتبادر إلى ذهن الأوروبي اسم أوفير بمجرد أن يقع على أسماعه. علاوة على ذلك، تفسر تلك المأساة وحالة الحظر التي أعقبتها سبب عدم إقبال أحد على العمل فيها. أما بالنسبة إلى الباحث عن الذهب، فكانت ساديولا تستصرخه للحفر فيها.

لكن ناثانسون اعتصم بالصمت. ففي ضوء النفوذ السوفييتي في مالي حينذاك كان ناثانسون يدرك أن الاكتشاف سينتهي في أيدي السوفييت. وانتظر أن يحين الوقت. وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي، بدأت حكومة مالي بالبحث عن المستثمرين. وكذلك فعل ناثانسون.

يقول لاري فيليبس Larry Philips، وهو محامٍ من تورنتو انضم إلى تجمع أطلق عليه أعضاؤه اسم تكتل مالي Mali Syndicate: «سمعت بذلك أول مرة في مكالمة هاتفية غير متوقعة في أواخر العام 1989. كان بيل باجليس Bill Pugliese، أحد عملائي، يتصل من سويسرا. كان يقضي عطلة للتزلج هناك، ولخص لي تلك الصفقة التي كان يسعى إلى إبرامها. كانت عبارة عن مشروع للتنقيب عن الذهب في مالي. وقد أراد شراء حقوق التنقيب في منطقة غرب مالي. وطلبت حكومة مالي 2.2 مليون دولار في صورة اعتماد مستندي من المصرف الضامن (مصرفه)، وطلب بيل مني دراسة هذا الاعتماد المستندي.

يقول فيليبس: «انتابني الهلع نوعا ما. وقلت في سريرتي: آمل أنه لم يحرر شيكا! ثم ساءلت نفسي: أين تقع مالي؟».

وسرعان ما كان فيليبس ينفذ عملية الحذر الواجب Due Diligence لهذه الصفقة، التي طرفها بلد يفتقد البنية التحتية التجارية المتقدمة. وانتقلت مسودات

الوثائق القانونية جوا فوق الأطلسي، ذهابا وإيابا. ولأن مالي دولة ناطقة بالفرنسية، فقد لجأ فيليبس إلى المكاتب القانونية الفرنسية ذات الخبرة بأفريقيا. ومع توسع معرفته بمالي وماضيها، بدأ يتعلق بها. لقد طالع يوميات المستكشف الأستكلندي مانجو بارك Mungo Park، من القرن الثامن عشر، وقرأ حوليات الاستعمار الفرنسي التي وصفت المنطقة. وفي نهاية المطاف، توصل إلى أن فرص التنقيب لا تقاوم. ويقول في هذا الصدد: «لذلك التحقت بصفوف تكتل مالي بنفسي، ومضينا إلى أفريقيا لإلقاء نظرة عن كثب».

يعتبر عنصر السرية من أهم الممارسات التجارية لشركة التنقيب صغيرة الحجم. هذا النوع من الشركات يكون لقمة سائغة للشركات الكبرى. لقد أثبت تكتل مالي، في أول التكتيكات التي لجأ إليها، الحاجة إلى التحرك خلسة. ولتمويه الموضع المستهدف استصدر التكتل رخصة تنقيب تغطي مساحة 500 ميل مربع - وهي رقعة هائلة لن يتسنى لشركة التنقيب الصغيرة البتة أن تؤدي أعمال التنقيب فيها على النحو المأمول. وإذا تعرض التكتل لضغوط لتفسير اتساع مساحة الأرض التي سعى إلى الحصول على ترخيص للتنقيب فيها، فقد اعتزم القول إن هذا عائد إلى وجود العديد من مواقع التنقيب المستهدفة. وباتت حماية الموقع المستهدف أكثر إلحاحا بعد أن أطلقت الحكومة برنامجا للترويج لأعمال التنقيب.

حينما غادر الروس استفادت مالي من أموال التنمية التي قدمها الاتحاد الأوروبي لها لإجراء مسح جغرافي-فيزيائي (جيوفيزيائي)(*) واسع النطاق. لقد سعوا إلى تحديد مواقع التشكيلات المعدنية التي ستجتذب المنقبين الأجانب. وقد حدد المسح طبقة قديث كيدوجو- كينيبا، حيث تقع ساديولا، باعتبارها منطقة تبشر بوجود الذهب. وجاءت شركات التنقيب لمعاينة المنطقة. غير أن رخصة التكتل التي انطوت على رقعة شاسعة من الأرض ساعدت على إخفاء هذا الاكتشاف. يقول فيليبس: «كانت كل تلك المساحة من الأرض تحت تصرفنا. أما المنطقة المستهدفة الفعلية فظلت ساديولا، وهذا ما حرصنا على إخفائه».

---

(*) الجيوفيزياء: علم طبيعة الأرض. [المترجم].

«وعثروا فيساديولا على مسارب(*) منجم جرت أعمال التنقيب فيه على مدار 900 سنة. وبحلول العام 1992 حصر التكتل (اتحاد التنقيب) وجود احتياطي مقداره ثلاثة ملايين أوقية. وبدأ المنجم أعمال الاستخراج في العام 1996، وكانت الخطط تقضي باستخراج 285 ألف أوقية سنويا، بحيث يتحدد العمر الإنتاجي للمنجم بثماني سنوات. إلا أن التكتل استطاع استخراج 400 ألف أوقية سنويا وبضعف العمر الإنتاجي، ثم تبين وجود 5 ملايين أوقية أخرى، وكان هذا كفيلا بزيادة العمر الإنتاجي عشرة أعوام أخرى».

أشعل الاكتشاف في ساديولا فورة التنقيب في الجانب الخاص بمالي من طبقة القديث. وعثرت شركة راندجولد ريسوروسز Randgold Resources، وهي شركة تنقيب تتخذ من جزر شانل Channel Islands مقرا لها، على جيوب الذهب في موريلا Morila ولولو Loulo، وتحتوي جميعها على 15 مليون أوقية من الذهب. وبإصدار القوانين التي تجيز أعمال التنقيب في السنغال في العام 2003، انتشرت أعمال البحث على طول نهر فاليمي باتجاه السنغال. واكتشف مالكو شركة تيرانغا Teranga الأستراليون منجم سابودالا، وعثرت شركة راند جولد على جيب فلزي في ماساوا Massawa. وبارتفاع سعر الذهب، تكثفت أعمال التنقيب. وبعد أن غادرنا داكار بيوم واحد توجهتُ بصحبة باوليتشيك بالسيارة إلى غابة الخيزران، ووصلنا إلى مخيم دالاتو Dalato.

كان المخيم يقوم على ضفة مرتفعة من ضفاف نهر فاليمي. كان ثمة صف من أكواخ المهاجع المربعة المشيدة من الأسمنت والمطلية باللون الأبيض، وكانت سقوفها مصنوعة من القش، وامتدت على جانب واحد من ساحة مركزية. وتحلق عمال البناء بأعداد غفيرة حول الهيكل الإسمنتي لأحد الأبنية السكنية الجديدة.

كان المخيم مكتظا بالجيولوجيين وطواقم التنقيب، وكان ينوء بمن في داخله من شدة الازدحام، وهكذا راح الحفارون يندفعون خارج منطقة التخييم إلى تجمعات الخيام التي نصبت في الأكمات.

بعد أن أوقفنا السيارة في المكان المخصص، ظهر إلى العيان دونالد ووكر Donald Walker رئيس الجيولوجيين في الموقع، بقوامه المكتنز. وانهمك ووكر وباوليتشيك في

---

(*) المسارب: جمع سرب، وهو الرواق أو الدهليز. [المترجم].

الحديث عن تعقيدات تلك الأيام. كان لدى شركة تيرانغا قطعة أرض مساحتها 328 ألف فدان تمتد ستين ميلا بمحاذاة نهر فاليمي. كانت أرضا بورا لا طرقات فيها، وإنما مجرد مجموعة من التلال المتعرجة والصخور والقرى المتناثرة. كانت الأسود والنمور المرقطة تجوب أحراج الخيزران. وقد سعى المستكشفون إلى إسقاط تسلسل أحداث عملية البحث عن الذهب ضمن سياق ذلك المحيط الطبيعي.

لقد غطت المخططات والخرائط جدران المكتب الرئيس للمخيم. وكانت الخزائن ذات الأدراج الضيقة تحوي خرائط الحفر ومخططاته ورسومه. استلّ الجيولوجيون بعض أكواب الستايروفوم(*) من النضد، ونشر ووكر مخططا كان باوليتشيك يرغب في معاينته.

يبدأ استكشاف مناجم الذهب كبيرة الحجم غالبا من الجو. إذ تقطر الطائرة حجيرة خاصة تحتوي على مقياس الجاذبية، وهو جهاز يمسح المستويات العليا للقشرة الأرضية ويقيس الوفرة النسبية للمواد المغناطيسية مثل أوكسيد الحديد والمغنتيت (أكسيد الحديد الأسود). ولأن ضروب الصخور المختلفة تحوي كميات متفاوتة من هذه المعادن، تبين خريطة الطيف المغناطيسي للجيولوجيين مواضع التقاء تلك الأنواع المختلفة من الصخور. وباعتبار أن التدفقات الحرارية المائية الحاملة للذهب من طبقة دثار الأرض إلى السطح تستغل هذه النقاط الضعيفة مثل تلك التي تتشكل في أمكنة التقاء الصخور فإن الخرائط تساعد الجيولوجيين على تحديد المواضع التي يجب البحث فيها.

وثمة نوع آخر من المسح الجوي يحصر نطاق البحث. إذ تقيس تقنيات المسح الإشعاعي (شدة الطاقة الإشعاعية) الانبعاثات الإشعاعية من السطح، الناتجة عن تحلل النظائر المشعة. تساعد هذه المعلومات على تحديد عمر الصخور. ويعلم الجيولوجيون من خبرتهم بالمنطقة عمرَ الصخور التي يحتمل وجود الذهب فيها، دون غيرها. هذه المعطيات الجديدة تساعد أيضا على تحديد مواقع عمليات الحفر.

لقد عثر الجيولوجيون قبلا على عشرة ملايين أوقية من الذهب في شرق السنغال. وأحدثت شركة تيرانغا حفرا للتنقيب بلغت مئات الآلاف من الأقدام،

(*) أكواب مصنوعة من مادة البولي ستايرين الرغوية، وهي أكواب تستخدم لمرة واحدة ثم يُتخلص منها. [المترجم].

وأخذت العينات وشقت الخنادق طوال مدة الترخيص. وحصرت سبعا وعشرين منطقة مستهدفة، حظيت بالأولوية. وفي ساعة متأخرة تلك الليلة مضينا لمشاهدة أغنى تلك المناطق المستهدفة بالذهب - ما يعرف بمنطقة غورا Gora.

غادرنا المخيم وانتقلنا بالسيارة بمحاذاة القرية الغارقة في سباتها، باتجاه غابة الخيزران. كانت الأشجار المجاورة للطريق مغطاة بالغبار، وبدت في الضوء المنبعث من الأنوار الأمامية للسيارة مثل غابة من الأشجار البيضاء. واندفع سنجاب مذعور بسرعة خاطفة عبر الطريق، مثيرا خلفه سحابة من الغبار، تشبه الثلج. بعد برهة اقترب ضوء قادم من بعيد، وأصبح في نطاق الرؤية، فاتخذنا طريقنا نحوه، متتبعين انعطافات وتعرجات الطريق إلى أن بلغنا المشهد الآسر حيث كانت منصة الحفر تهسهس وتهدر.

لقد بدا الحفارون الغانيون مثل الأشباح وقد غطاهم مسحوق الغبار الصخري الأبيض. كانوا يتحركون ببطء غريب، كأنهم رواد الفضاء على القمر، وهم يملأون الأكياس البلاستيكية بكسر ورقائق الصخور التي تطايرت من جراء الحفر. كانوا يرتدون البنديل(*) للحيلولة دون استنشاق الغبار. كانت الحفارة بيضاء، وكان الرجال بيضا، وكانت الأرض بيضاء، وحولهم من كل الجهات كان الليل حالك السواد. قفز من قلب العتمة نحو الأضواء حيوان جلاجو(**) سنغالي، محدقا بعينين ملؤهما الدهشة.

كانت منطقة غورا المستهدفة كتلة هائلة الحجم من الكوارتز (المرو) الدفين، وقد برزت نحو الخارج عند تلك الناحية فقط، كأنها رأس جبل الجليد. وامتدت «العروق الغنية بالفلز» خلال الكوارتز. كان أحد تلك العروق بسماكة ثلاثين قدما. وامتد الكوارتز للأسفل مخترقا الصخر المحيط بزاوية شديدة الميل. وقد تعقبه الحفارون إلى مسافة ميل واحد تقريبا. واستطاعوا أن يتبينوا مواضع انكماش عروق الذهب وتمددها، من دون أن يعرفوا منتهاها.

كانوا كلما أمعنوا في الحفر يجدون المزيد. وفي أثناء وجودي هناك تلك الليلة، حصرت الحفارات 70 ألف أوقية. عند سعر الذهب المسجل تلك الليلة، كانت قيمة

---

(*) منديل كبير أو عصابة تغطي الوجه. [المترجم].

(**) ويعرف أيضا بناجاي أو القرد الليلي الصغير. [المترجم].

جيب الذهب 100 مليون دولار. وبعد أشهر ضاعفوا تقديرات الذهب إلى 156 ألف أوقية.

أما الآن فوصلت تلك التقديرات إلى 374 ألف أوقية - وهي تكفي لتشغيل منجم يصل عمره الإنتاجي إلى خمسة أعوام - هذا الذهب تزيد قيمته، وقت تأليف هذا الكتاب، على نصف مليار دولار. وفي الغابة راح جيش منافس يراقب ما عثر عليه باوليتشيك، لعله يضع يده عليه أيضا.

عدت في الصباح إلى الغابة في رحلة مسحية برفقة جيولوجي قصير القامة أشيب الشعر يدعى ميشيل بريسبوا Michel Brisebois، وهو من سكان كيبيك بدأ حياته المهنية حطابا. لقد نما لديه ولع بالسفر حول العالم، وخلص إلى أن الجيولوجيا تقدم أفضل السبل لتمويل تلك الهواية. صعدنا بصحبة أحد موظفي المخيم، وكان من المحاربين القدماء في جيش جنوب أفريقيا، وظل يثرثر ويثرثر مثل مذياع لا يتوقف. كان برنامج ذلك الصباح «الأذيات الشديدة التي يمكن أن تحدثها مختلف ضروب الذخائر في الجسم». وقد ركز كلامه طويلا بشغف المحب لهذا الموضوع على التجاويف التي تحدثها أنواع من الطلقات بعينها: تلك التي تحدث تجويفا مستوي الحافات عند ولوجها، وفتحة غير منتظمة الحافات عند خروجها. ثم تحوّل البرنامج إلى الحديث عن الأفاعي والعقارب. في تلك الأصقاع من السنغال ينتشر العقرب الإمبراطوري والكوبرا النافثة سوداء الرقبة. «غير أن أخطرها أفعى الصل(*) النافثة»، قالها بابتهاج فيما حاولت أنا وبريسبوا العودة بأفكارنا إلى نقطة البداية. وأضاف: «يعرف سمّ أفعى الصل النافثة بالذيفان الخلوي Cytotoxin. وهو يهاجم خلايا الجسم، ولا يؤدي دائما إلى الوفاة، لكن الملدوغ لا يبرأ منه تماما». ثم حدّجنا بابتسامة، وبدا فمه مثل حزام بندقية محشو بالطلقات البيضاء.

رمقه بريسبوا بنظرة استياء، وتوجه نحو شجر الخيزران. ثم قال عندما بلغنا الأجمة: «هذا الرجل أخرق. لكني سأخبرك شيئا. راقب ذلك الأفريقي في الدغل، إنه ينظر إلى الأرض، لأنها مصدر الخطر. لا تسر ملتصقاً بي. لأنني إذا صادفتُ أفعى في طريقي، فستكون أنت فوقها مباشرة قبل أن يتسنى لها الهرب، وستعضك أنت».

---

(*) وتعرف أيضا بالأفعى الناقمة أو الأربد. [المترجم].

كان بريسبوا يرتدي صديرية بنية فاتحة، تلألأت الأقلام المعلقة عليها. وتدلت بوصلة من رقبته، وامتلأ دفتر ملاحظاته المخطط على هيئة مربعات بقيود اليومية المرتبة. ورحنا نتلمس طريقنا بين إحداثيات نظام تحديد المواقع الجغرافية. كان اليوم منعشا وكانت الغابة مغمورة بضوء مثل لون القش. وانبعثت في الهواء رائحة خفيفة مصدرها الدخان المتصاعد من احتراق الخشب حيث كان المزارعون يزيلون كل ما فوق التربة. وحينما سلكنا طريقنا عبر الأدغال المخضوضرة، خلفت الأغصان المتفحمة على قميصي خطوطا رمادية.

عندما وصلنا إلى أحد التشكيلات التضاريسية، قال بريسبوا: «تعتبر الأرض المحروقة عاملا مساعدا جدا لأن المرء يستطيع اجتيازها بسرعة ورؤية الصخر. وباستثناء هذه النتوءات الصخرية، فإننا نمشي على طبقة ثخينة من تربة اللطريط(*)، وتقع تحتها الطبقة التي تحوي الذهب. يعتبر رأس التلة الذي أمامنا منطقة معراة. إذ تعرت الصخور الرسوبية واندفعت هذه الصخور الرسوبية المعراة وتلك الرؤوس الكوارتزية إلى الأعلى من خلالها، فأبرزت الدليل على وجود المزيد منها في الطبقة السفلية».

أحب بريسبوا معالجة الصخر. والتقط قطعة من الصخر وفتحها بنقرة بسيطة من معوله قائلا: «أترى هذه الأشكال الشبيهة بالصندوق؟». كان يتخلل الصخرَ ذي اللون الرمادي الشاحب خطوط مركزة ذات لون شبيه بالصدأ الأحمر تغطيها قشيرات فائقة الصغر. «إنها كبريتيد الحديد المسمى بيريت Pyrite - وهو ذهب المغفلين(**)».

وعلى رأس التلة بدّد شجر الخيزران ضوء الشمس إلى شظايا. ودوّت حفارة في الجوار. لقد شقت جرافة عكسية خندقا في التلة حيث كنا نقوم بأعمال الاستكشاف، وهناك تبيّنا مصادفة وجود منافسين لنا. في قاع الخندق فغرت حفرة أعمق فاها، وكانت بمساحة ياردة مربعة، بيد أنها حُفرت باليد. وحالت دون انهيارها دعامات محكمة الصنعة من جذوع الأشجار. كان المهبط يمتد بعيدا نحو الأسفل بحيث تعذر عليّ أن أرى أرضيته. لقد اعتبر السكان المحليون الذين هبطوا عبر تلك الحفرة

---

(*) اللطريط laterite: تربة رخوة مسامية. [المترجم].

(**) ذهب المغفلين fool's gold: كناية عن كبريتور الحديد أو النحاس أو أي معدن يشبه الذهب. [المترجم].

أن الخندق الذي شقته الجرافة العكسية كان معلما مجانيا لنقطة البداية. لقد اعتقدوا أن مجرد تفكير الجيولوجيين باحتمال وجود شيء ما في ذلك الموضع يعني أن المسألة تستحق المعاينة. وأحيانا كان يحدث العكس، إذ يعاين المستكشفون المناطق التي حفر فيها السكان المحليون. وهكذا تطورت لعبة القط والفأر في تلك الغابة، حيث كان كل من فريقي البحث المتمرسين في التنقيب عن الذهب، وهما الفريقان القديم والجديد، يلتف حول الآخر. في فترة ما بعد الظهيرة ذلك اليوم توجهنا بالسيارة خارج المخيم بصحبة غبريل سو Djibril Sow وثيرنو مامادو موكتار Thierno Mamadou Mouctar وهما جيولوجيان سنغاليان يعملان ضمن فريق شركة تيرانغا، لنتحرى إمكانية العثور على مواقع حفر القرويين.

سلكنا طريقا ترابيا أحمرَ، يصعد ويهبط عبر الغابة التلية، إلى أن صَعد بنا إحدى الهضاب وأفضى بنا إلى قرية بوندالا Bondala. كانت معظم البيوت صغيرة الحجم دائرية الشكل، مغطاة بجص طيني، وتعلوها سقوف مخروطية من القش المشذب. وقد ساعدت الأنماط الزينية المجدولة والمنمقة على تثبيت القش في مكانه. كانت أسيجة الخيزران تحيط بالقرية وتقسمها إلى مجمعات. كان الاستثناء الوحيد لنمط البناء الطيني هيكلين إسمنتيين هما مدرسة القرية ومنزل قروي عثر ذات يوم على قطعة من الذهب تزن رطلا واحدا. كانت بوندالا قرية تزاول نشاط التنقيب.

وامتد طريقٌ غير ممهد من القرية نحو أيكة من شجر الخيزران. كانت الشاحنة تهوي للأسفل وتثب للأعلى تجاوبا مع حفر الطريق التي بدت كالفوهات المفتوحة، وأثارت سحائب من الغبار الدقيق من خلال غطاء المحرك، غطت الزجاج الأمامي. وأدار السائق ماسحات الزجاج الأمامي لإزالة الغبار. ورفعنا زجاج النوافذ نحو الأعلى لإغلاقها، لكن طبقة من الغبار الدقيق غطت ملابسنا على الفور. وأشار الجيولوجيون إلى أن مصدر هذا الغبار نوع من الغرين (الطمي)، وهو دليل على وجود الأتربة الرسوبية التي تحوي الذهب في بعض النواحي من منطقة التنقيب.

وارتفعت أكوام مستعمرات الأرضة (النمل الأبيض) عشر أقدام بين أشجار الغابة المتفرقة. كانت تلك الأكوام، وقد شويت تحت أشعة الشمس الحارقة، نتاج حفر التراب ونقله خارج أنفاق مستعمرة الأرضة. ويمكن أن تمتد شبكة المستعمرة الرابضة في أعماق التربة ستين قدما تحت سطح الأرض. يدرس الجيولوجيون بانتظام

عينات من أكوام مستعمرات الأرضة لكي يحددوا الطبقات الموجودة أسفلها. وقد فحص العمال الميدانيون لدى شركة تيرانغا عينات من 20 ألفا من تلك الأكوام. واكتشف أحد أغنى المناجم المعدنية في التاريخ، وهو أنبوب الماس أورابا **Orapa** في بوتسوانا باستخدام آثار المعادن التي حملها نمل الأرضة. قد تكون معاينة أكوام مستعمرات الحشرات من الممارسات القديمة. فقد نقل هيرودوت، في القرن الخامس قبل الميلاد، قصة حول نمل «يفوق الثعلب حجما» كان يحفر الأنفاق في رمال غنية بالذهب تقع في صحارى أفغانستان.

بلغنا الموضع الذي كان فيه طاقم شركة تيرانغا، وهو يعاين تقارير أعمال التنقيب المحلية عن الذهب، قد حضر وشق خندقا باستخدام حفارة عكسية. جمعت الحصى في أكوام، وظهرت في الغابة الخربة مواضع تخبط العربات المجنزرة. وغادر طاقم العمل المكان بعد أن أخفق في العثور على شيء مبشر. ومع ذلك، أغرت الخنادق القرويين بفحص الموقع بأنفسهم. لقد أنشأوا مظلات شمسية من الخيزران لحماية الخنادق وشقوا بعض الحفر. ولم يجدوا كذلك ما يستحق العناء، ولم يتركوا خلفهم أثرا لما فعلوه إلا وعاء دباء(*) مكسورا وبعض القوائم (الأعمدة).

لم يكن ثمة إنسان على مد النظر. كان جبريل سو متيقنا من وجود أعمال تنقيب في مكان ما بالجوار. وأشار بيده إلى آثار خطوط الإطارات حديثة العهد التي سلكت طريقا ترابيا ضيقا، قائلا: «هذا صهريج الماء الخاص بهم».

وجاء سائق دراجة هوائية يتمايل على الطريق القادم من القرية. ناديناه غير أنه أعمل دواسات الدراجة مبتعدا نحو الأكمة، متجاهلا وجودنا. تركنا شاحنتنا وتبعناه سيرا على الأقدام. وبعد برهة رأينا صهريج الماء والمزيد من الدراجات الهوائية، وبلغنا مكان الحفر. في بادئ الأمر شاهدت عشرات الأشخاص منكبين على العمل حول ست أو سبع حفر، بيد أننا لما مشينا نحو الموقع، وجدنا أن ثمة امتدادا أبعد، على مد البصر باتجاه رقعة الغابة قليلة الأشجار. لقد خرجت القرية كلها تنقب عن الذهب.

كانوا مستائين ومرتابين من وجودي بلا شك، لا بل إنهم لم ينظروا إليّ إلّا بعد أن

---

(*) وعاء دباء أو الوعاء الدبائي Calabash: وعاء يتخذ من ثمرة دباء يابسة لحفظ الماء أو السوائل وما شابه. [المترجم].

أخبرهم رفقائي أني لا أعمل لدى الشركة، وأنني لست جيولوجيا. كان من الصعب أن يستنتج المرء عكس ذلك. إذ كنت أرتدي قبعة تنس قديمة، وكانت يداي حمراوين مثل مقصات سرطان البحر، وقد خطّ الرماد بذلتي البيضاء، التي ارتديتها عقب إحضارها من فوري من مغسلة الفندق في داكار، من أعلاها إلى أسفلها. ورآني الأطفال مثيرا للضحك. وراحوا يركضون بأقصى ما استطاعوا، وهم ينهرونني على بعد بضع أقدام، وعندما كنت أنظر إليهم، كانوا يهرولون مبتعدين ويمضون مسرعين وقد علا صراخهم. انقضضت على أحدهم، فهبت المجموعة كلها تصرخ وتركض نحو الأشجار. بعد ذلك تركتهم يفعلون ما يحلو لهم.

شاهدت رجلا يغوص في حفرة عمقها عشرون قدما على أقل تقدير. لم يستخدم سلما أو حبلا، وإنما نزل للأسفل بضغط جسمه على جدار المهبط. وببضع حركات سريعة صار في الأسفل، متواريا عن العيان. تمتد تحت الغابة شبكة من الأنفاق العميقة. وثمة حمولات غير منقطعة من الفلز تنقل إلى الأعلى في السلال. كانت النسوة يشطفن الفلز في أوعية الدباء المسطحة (قليلة العمق) التي بحوزتهن. وقد برعن في أداء هذا العمل بمهارة عالية، حيث كن يحركن الماء والتربة دائريا ويقذفن الذرات الأخف وزنا بعيدا، فلا يتبقى إلا الحبيبات الثقيلة، وكان يظهر بينها أحيانا كتلٌ كبيرة لامعة من الذهب. وعلق جبريل سو قائلا: «يسمونها بلهجتهم المحلية نارا Nara، وتعني الشذرة».

الذهب عالم قائم بذاته. في صباح أحد الأيام، على ضفة نهر فاليمي، رأيت دراجة نارية قادمة تهدر عبر الأدغال الواقعة على الجانب المالي من الحدود. وقاد السائق الدراجة عبر المنحدر الطيني وقفز بها إلى المناطق الضحلة من النهر، وانطلق مسرعا نحو السنغال، متوجها إلى موقع للتنقيب منتشر بغير انتظام، تديره مجموعة من الحرفيين، في مكان يعرف بسوريتو Soreto. هذا الموقع يفوق حجما مواقع الحفر داخل الغابة في بوندالا، وقد دأب عمال التنقيب على السفر يوميا من مالي إليه.

كان المنجم سوقا موسميا يحتشد فيه الرجال والنساء والعمال والباعة والمنقبون والأطفال والكلاب. وتزينت النسوة والفتيات بالأقراط الذهبية المتلألئة. وألقت الجموع التحية علينا بالصراخ عاليا بالفرنسية: «صباح الخير، كيف الحال؟» (بونجور، سا فا؟). ورفعت امرأة كانت ترشف عصيرا أصفر اللون الكأس إلى الأعلى نخبا لنا، ولفحتنا بابتسامتها.

كانوا ينقبون في منجم امتدّ نصف ميل. وقد شقوا خندقا على طول المنجم، وغطوه بظلل الخيزران. من أرضية الخندق كانت المهابط تنحدر نحو مسارب التنقيب. وبلغت بعض المهابط 100 قدم عمقا. وصادفوا الماء أحيانا، وتعاضد المنقبون معا لاستئجار المضخات. وبتقدير تقريبي، كان ثمة 300 شخص يعملون في المنجم. وهناك أعداد إضافية تقدم لهم الدعم والمساعدة.

كان العمال الميكانيكيون يقدمون خدمات صيانة المضخات، وكان الحدادون يصنعون الأدوات، فينفخون كيرانهم بقدم واحدة بينما يطرقون الأدوات الحديدية على سنداناتهم. وقدم الباعة المثلجات والماء، والسجائر والحلوى. واستخدمت مدخرة (وشيعة) شمسية صغيرة لإمداد محطة شحن بطاريات الهواتف الخلوية بالكهرباء. وأسندت أعداد غفيرة من الدراجات الهوائية والدراجات النارية الصينية معا تحت شجرة ذات أشواك. ووقف رجل في الظل اليسير وقد وضع مضخة هواء بين ركبتيه منكبا على إصلاح العجلات.

كان الموقع برمته، ومواقع أخرى مثله، ملكا لقرية دايبوجو Diabougou الواقعة على نهر الفاليمي Falémé. كان زعيم القرية يفرض «رسوم ترخيص» على عمال المناجم من غير السكان الأصليين في القرية، وكان معظم هؤلاء من غير السكان الأصليين. وقد زاد عدد سكان القرية من ألف نسمة إلى نحو عشرة آلاف - هذا التدفق السريع للأجانب سببه حالة الازدهار التي جلبها الذهب. كانت دايبوجو بلدة مزدهرة، إذ بالإمكان شراء الأحذية والقمصان والملاءات والحشيّات واللعب البلاستيكية والخضار والأسماك وأجهزة التلفاز من الأكشاك القائمة على طول الشارع الرئيس الواسع. كان هناك اثنان من باعة الهواتف الخلوية يتنافسان بضراوة عبر الشارع. وقامت في أحد جوانب البلدة قرية قديمة من البيوت الطينية ذات السقُف المصنوعة من القش. وعلى الجانب الآخر تلاصقت المساكن التي قوامها ما تيسر من المواد: الطين والقصدير وقطع الأخشاب والورق المقوى وصفائح الفينيل. كان راكبو السكوتر(*) يتنقلون بسرعة عبر متاهة من الأزقة، وكان الأولاد يشقون طريقهم صعودا من النهر بعربات يدوية محملة بأباريق الماء البلاستيكية.

---

(*) السكوتر Scooter: دراجة تسيّر برجل واحدة. [المترجم].

كانت فورة الذهب تطمس معالم الحياة القديمة بصورة حتمية. قابلنا على الطريق إلى البلدة قطيعا كبيرا من الماعز يملأ الطريق. كان راعي القطيع شابا يرتدي زيا غريبا قوامه قبعة سوداء مدورة ذات حافة ضيقة، ومئزر رث منسدل يبلغ كاحليه تقريبا. كان طويل البنية هزيلها. راح ينظر إلينا بدهشة عميقة. وأطلق سلسلة من الصفرات القصيرة الخافتة كأنها جملة سرية (شيفرة) واندفعت الماعز جميعا خارج الطريق. ثم توقف على العشب وراح يحدق فينا وقد غلبته الحيرة فيما كنا نمضي في طريقنا. لقد علمت أن هؤلاء الرعاة لايزالون يطوفون المنطقة بين مالي والسنغال منذ أقدم العصور، التماسا للكلأ، وقد بدأت أعدادهم تتلاشى؛ إذ إنهم ينصرفون إلى التنقيب عن الذهب عوضا عن ذلك.

امتد عبر السهول المحيطة بالنهر خط من المصوّلات التي تغذيها مضخات المياه. لاستخراج الذهب كانوا يدفعون الماء عبر المصول ويجرفون الفلز إلى الداخل عبر فتحة علوية. كان الماء يحمل الفلز فوق شرائط بساط مثبت أسفل القناة. كانت الأتربة الخفيفة تنجرف بعيدا، أما الحصى الثقيلة الحاملة للذهب فعلقت في البساط. لقد استعملوا الزئبق لتركيز الذهب، وكانوا يحملون المادة السامة (أي الزئبق) بأيدٍ عارية. وقد ذكر موسى باثيلي Moussa Bathily وهو جيولوجي يعمل لدى شركة تيرانغا أن يوم الجمعة كان اليوم المخصص لعملية استخراج الذهب المذكورة. إذ لا يعمل أحد في موقع المنجم يوم الجمعة. وسألته إن كان سبب ذلك أن الجمعة يوم مبارك عند المسلمين، فكان جوابه: «بالطبع، لا. فهم يغادرون المنجم لأنهم يعتبرون الجمعة اليومَ الذي يرجع فيه الشيطان لإعادة الذهب».

12

# كيبالي

على أحد الجانبين المتنافسين كانت كتائب فتاكة مسلّحة جيداً تمتلك المورد التجاري(*) الأول في العالم، أي الذهب. وعلى الجانب الآخر كان ثمة شركة تنقيب متنفذة.

«قصة كيبالي تُجسّد تحول الذهب إلى عنصر اضطراب ووحشية، وتصور الحظوظ العظيمة لمن يوفق بالعثور عليه. لقد احتشدت فيه كل شجون الإنسانية وإثارتها»

بدأتُ تأليف هذا الكتاب في يوم من أيام فبراير، بلندن. سافرت جوا إلى إنتيبي Entebbe بأوغندا حيث قضيت الليلة في فندق على شاطئ بحيرة فيكتوريا، أقاوم سحابة من البعوض كانت تقتات على أذني. أخرجت كتاب بيتر برنشتاين Peter Bernstein(**)، وبينما كنت أقلب

(*) المورد التجاري cash crop: في هذا السياق، مورد طبيعي يستخرج لأجل بيعه والحصول على المال. [المترجم].

(**) الكتاب هو سطوة الذهب Power of Gold. [المترجم].

الصفحات الأول أتيت على ذكر ملكة سبأ وهي تقدم الذهب إلى سليمان. بدأت القراءة، بيد أن النص توارى خلف حجاب الحشرات، ولذلك استسلمت وغطيت رأسي وحاولت أن أخلد إلى النوم.

كنت في طريقي إلى اكتشاف يفوق مناجم الملكة الأسطورية ثراء. كان الجميع في عالم الذهب يتحدث عن كيبالي Kibali، وهو منجم يخطف الأنفاس، يقع في إحدى أكثر الدول أمية في العالم - جمهورية الكونغو الديموقراطية. ولهذا المنجم، كالكونغو نفسها، ماض أليم ومستقبل عقدت عليه الآمال بسبب ثرواته الطائلة. في القرن الأخير من تاريخه جسد حقل الذهب كيبالي قصة الاضطهاد والحرب، والمال الموروث والحقوق المكتسبة، والمؤسسات التجارية التي تنهش بعضها بعضا. لقد اجتمعت هناك التكنولوجيا المبهرة مع الفقر المدقع(*). لقد اخترت أن أختم كتابي بالحديث عن هذا المنجم لأنه يختصر حس الإثارة الكامن في فورة الذهب المعاصرة ووقعها السريع ووطأتها الشديدة، وأيضا لأن قصته تجسد تحول الذهب إلى عنصر اضطراب ووحشية، وتصور الحظوظ العظيمة لمن يوفق بالعثور عليه. لقد احتشدت في كيبالي كل شجون الحالة الإنسانية وإثارتها.

عدت في الصباح إلى مطار إنتيبي وانحشرت داخل طائرة سيسنا كارافان Cessna Caravan مكتظة بفريق من محللي أسهم شركات التنقيب الذين غلبتهم الحرارة المفرطة. كانوا قد عادوا من فورهم من رحلة شاقة إلى مناجم الذهب في ساحل العاج ومالي. وباستثناء فتاة مبتهجة لا تبدو عليها أمارات الإعياء، قادمة من كاليفورنيا، فقد أصابهم الوهن جميعا، وهيمن عليهم الشعور بالنزق. وهكذا أقلعت طائرتنا نحو إلدورادو Eldorado.

يقع مشروع ذهب كيبالي Kibali Gold Project في الشمال الشرقي من الكونغو، وهو منطقة مزقتها الحروب، واستطاعت قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة أن تجلب إلى بعض نواحيها السلام. كان جيش الرب للمقاومة(**) وهو جماعة تمارس القتل الممنهج قوامها جنود أطفال أدمنوا المخدرات، ومقرها أوغندا،

(*) يقصد الكاتب أن الفقر المدقع يزداد انتشارا مع زيادة التقدم التكنولوجي. [المترجم].

(**) جيش الرب للمقاومة The Lord's Resistance Army: ويعرف أيضا باسم حركة الرب للمقاومة، وهو حركة تمرد مسيحية مسلحة في شمال أوغندا. [المترجم].

لايزال ينفذ أعمال الخطف والقتل في الإقليم عندما توجهنا إلى تلك المنطقة في مطلع العام 2011[1]. أنهينا إجراءات العبور الرسمية لدى السلطات الكونغولية في بونيا Bunya وهو مطار تنتشر فيه قواعد الرشاشات الآلية التابعة لقوات الأمم المتحدة. وتسلم مني شيخ كبير جالس إلى طاولة في بناء المطار رسوم الدخول وقدرها 90 دولارا نقدا، ومرر جواز سفري عبر الطاولة إلى موظف آخر، ختم جوازي لدخول الجمهورية الديموقراطية(*). استغرقت الرحلة بالطائرة من بونيا إلى كيبالي عشرين دقيقة.

يربض الموقع المقصود في وادٍ موحش تلمت وجهه آثار دروب الحفر. ومن نقطة إشراف قائمة أعلى التلة بجوار برج الهاتف الخلوي استطعنا أن نشاهد الأكواخ المتداعية في القرية الواقعة على المنحدر البعيد. كان هناك منصة حفر تهدر على سفح التلة. وكانت الشمس الاستوائية تضرب بأشعتها مخترقة طبقة الغيم الرمادي الرقيق. لقد تغضن الطين في قعر بحيرة جف ماؤها، وتصلب بفعل الحرارة. كانت تقبع تحت السطح المتغضن عشرة ملايين أوقية من الذهب.

اكتشف المنقبون الأستراليون الذهب في العام 1903[2]، داخل تشكيل جيولوجي امتداده مائة ميل يدعى حزام الحجر الأخضر(**) لكيلو موتو Kilo Moto. كانت الكونغو آنذاك ملكا شخصيا لملك بلجيكا. وأنتجت المناجم، إلى أن نالت الكونغو استقلالها في العام 1960، نحو 12 مليون أوقية. وحولت الحكومة هذه المناجم بعد الاستقلال إلى شركة مملوكة للدولة. وبذلت جهودا حثيثة لتشغيل المناجم، فبحثت عن شركاء أجانب. كانت شركة باريك Barrick تشغل منجما بالقرب من موقع الاستكشاف الحديث، إلى أن اندلعت الحرب.

غزت قوات رواندا وأوغندا في العام 1996 الكونغو لتنحية الحاكم المستبد موبوتو سيسي سيكو Mobutu Sese Seko. وبعد فرار موبوتو حاول خلفه طرد القوات الأجنبية التي انصرفت إلى نهب موارد الكونغو الغنية. وقعت في أعقاب ذلك المجازر مما استدعى تدخلا من قوات زيمبابوي وبوروندي وأنغولا وناميبيا[3].

---

(*) المقصود جمهورية الكونغو الديموقراطية. [المترجم].

(**) حزام الحجر الأخضر Greenstone belt: حزام من الصخور البركانية الرسوبية المتحولة التي اكتسبت اللون الأخضر لوجود عناصر مثل الكلوريت Chlorite والإيبيدوت Epidote والأكتينوليت Actinolite. [المترجم].

وفي فترة الانفلات التي عرفت بالحرب العالمية الأولى لأفريقيا اجتاحت قوة قوامها 35 ألف جندي أجنبي هذا البلد، وأعملت فيه القتل والاغتصاب والنهب والسلب. لقد نهبت الألماس والنفط واليورانيوم، بل والببغاوات أيضا. وقتلت تلك القوة أعدادا كبيرة من وحيد القرن لأجل قرونه. وتدفقت غنائم الحرب خارج الكونغو. وفي العام 1998 وصل الصراع إلى كيبالي.

احتل الجنود الأوغنديون في أغسطس 1998 حقل الذهب[4]. كانوا قد خططوا لإدارة المناجم باعتبارها منشآت صناعية، لكنهم وجدوا المهمة عصية عليهم. فلجأوا إلى التنقيب الحرفي(*) - ويتم هذا النوع من التنقيب أساسا بتهشيم الصخر إلى أجزاء صغيرة باستخدام المطارق والفؤوس، وأحيانا المتفجرات، وانتزاع الفلز باليد. وقد جندوا المنقبين المحليين لهذا العمل، وفرضوا عليهم إتاوات لقاء دخول الموقع أو جمع قطع الفلز. كانوا يكيلون الضرب للمنقبين الذي امتنعوا عن العمل. وأجبروهم على تفجير الأعمدة الصخرية الغنية بالذهب التي تركت مكانها لتأمين استقرار المنجم. وبالنتيجة انهار المنجم، وأودى بحياة مئات المنقبين الذين علقوا داخله. وأدى الانهيار إلى تدمير المضخات.

وهكذا اجتاحت المياه المنجم وقعر الوادي فغمرتهما، وشكلت البحيرة التي كان قعرها الجاف لايزال علامة مميزة للموقع عندما زرته.

وساءت الأمور في العام 2002 عندما أجبرت الضغوط الدولية أوغندا على بدء سحب قواتها من الكونغو. وبانسحاب تلك القوات، زحفت الميليشيات المتمردة إلى حقل الذهب، وإضافة إلى ارتكابها الأعمال الوحشية شنت حملة ترويع أذكتها الأحقاد القبلية. في إحدى المجازر أجبروا النسوة ومعهن الأطفال على حفر قبورهم بأيديهم. ثم ربطهم خاطفوهم معا وقتلوهم بالمدى(**) والمرزبات[5](***). كانت ظروف العمل في المناجم مروعة. وقضى المنقبون اختناقا في القنوات بعد تعطل أنظمة تدوير الهواء المستخدمة في التهوية. كذلك كان تعطل المضخات يعني أن

---

(*) المقصود بالتنقيب الحرفي Artisanal mining أعمال التنقيب صغيرة النطاق التي يزاولها حرفيون لأجل تأمين معاشهم، وهم لا يعملون لدى شركة تنقيب بل بصورة مستقلة بالاعتماد على مواردهم الخاصة. [المترجم].

(**) جمع مدية Machetes. [المترجم].

(***) أيضا الإرزبات، وهي المطارق الضخمة الثقيلة Sledgehammers. [المترجم].

على المنقبين الخوض لأميال عبر المياه التي بلغ مستواها الصدر في قنوات ضيقة للوصول إلى مسارب التنقيب[6]. وعند بلوغهم تلك المنطقة، كان الرجال يستخدمون المزالج الحديد والمطارق العادية لسحق الصخور واستخراج الفلز من الحفيرات، وأوقدوا النار «لتطرية» الصخر.

وحققت المناجم عوائد كبيرة للغزاة. وانتزع الأوغنديون ما قيمته تسعة ملايين دولار من الذهب من المنطقة في أربع سنوات من الاحتلال[7]. وفاقهم خلفهم (من جاء بعدهم) في أعمال النهب حيث كانت المجموعة المسلحة تبيع ما قدره ستون كيلوغراما من الذهب في الشهر، أي ما قيمته ثلاثة أرباع مليون دولار[8]. ذلك أن الظروف قد تغيرت. وبعد ثلاث سنوات من السبات عاد سعر الذهب إلى الارتفاع. وحصل الأوغنديون على سعر قدره 290 دولارا للأوقية من المشترين السويسريين؛ وحصلت الميليشيا على سعر أعلى قدره 400 دولار. كان سعر الذهب قد دخل مرحلة الارتفاع الأبرز في تاريخه، أي تلك الحالة الصعودية التي دامت عشر سنوات وأطلقت شرارة فورة الذهب العالمية. كان ذلك سيفا ذا حدين بالنسبة إلى الناهبين. إذ وفر ذلك لهم مزيدا من الأموال في الأجل القصير، بيد أنه أدى، في الأجل الطويل، إلى جذب انتباه القوى الساعية إلى الحصول على الذهب لنفسها. كان من أولئك أحد أباطرة المال والثروة، وهو أفريقي أسود.

***

كان السير سام جونا Sir Sam Jonah منقبا عن الذهب شهيرا[9]، بدأ حياته المهنية في سن المراهقة، فاشتغل عامل منجم في غانا، ودرس إدارة المناجم في بريطانيا، ولما بلغ الحادية والثلاثين تبوأ منصب الرئيس التنفيذي لشركة أشانتي جولد فيلدز Ashanti Goldfields، وهي شركة تنقيب غانية، واستمر في ذلك المنصب ثمانية عشر عاما. واستطاع في عقد(*) واحد فقط زيادة إنتاج أشانتي من 240 ألف أوقية إلى 1.6 مليون أوقية سنويا، فجعلها في عداد أبرز شركات التنقيب عن الذهب، واستطاع في العام 1996 إدراجها في بورصة نيويورك. بيد أنه عانى أيضا الإخفاقات. فقد كاد رهان خطأ على سعر الذهب في العام 1999 يودي

(*) العقد: عشر سنوات. [المترجم].

بالشركة. ومع ذلك استطاع جونا أن يعيد إلى الشركة تماسكها. ومنحه أمير ويلز لقب فارس في العام 2003. في العام 2004 دمج إمبراطور المال شركته مع شركة أنجلو جولد المحدودة AngloGold Limited وهي شركة تنقيب جنوب أفريقية تملكها مجموعة أنجلو أميركان Anglo American Group. وقد نشأ عن هذا الاندماج ثاني أكبر شركات التنقيب عن الذهب في العالم حينذاك، وهي أنجلو جولد أشانتي AngloGold Ashanti.

في العالم التالي (2005) استقال جونا من منصبه التنفيذي لدى الشركة الجديدة، وظل عضوا في مجلس إدارتها. ومن بين الأسباب التي أوردها لهذه الاستقالة رغبته في التماس مشروعات أخرى. وكان منها شركة تدعى موتو جولدماينز المحدودة Moto Goldmines Limited وهي شركة صغيرة مدرجة في تورنتو، وتعمل في مجال التنقيب عن الذهب في كيلو - موتو Kilo-Moto. كانت الشركة على وشك استخراج كمية كبيرة من الذهب، كما خمن جونا، وكان في موقع يؤهله لذلك. فقد ذهب بأشانتي إلى كيلو- موتو قبل تسع سنوات[10]، في العام 1996، عندما أقامت الشركة مشروعا مشتركا مع شركة أوكيمو OKIMO التي تملكها الدولة الكونغولية، لتنفيذ أعمال الاستكشاف بموجب امتياز للتنقيب يغطي مساحة 3800 ميل مربع.

لنتخيل حقل الذهب من الأعلى. يقوم تحتنا تشكيل جيولوجي اعتبر منذ وقت بعيد من أفضل مكامن الذهب على مستوى العالم. كان المستكشفون يدركون إمكاناته الكامنة، لكنهم لم يثبتوا ذلك، ولم يتحققوا من تلك الامكانات لأن سعر الذهب لم يكن بالمستوى الذي يعوضهم عن مخاطر تنفيذ أعمال الاستكشاف، ومن ذلك الفساد المستشري في نظام موبوتو، أو فيما بعد، تحول شمال شرقي الكونغو إلى ساحة قتل مروعة. وفي العام 2003 بدأ تشكيل حكومة وطنية في كينشاسا بدعم دولي، مما عزز الآمال بنهاية حرب الكونغو. وبدأت شركات التنقيب تناور لإيجاد موطئ قدم لها في كيلو-موتو.

أعتقد أن المسألة برمتها تحولت إلى ضرب من العربدة نوعا ما، إذ كان لعاب شركات التنقيب يسيل لأجل الثروات العظيمة، في حين توجه أعضاء العصابات القتلة الذين أشرفوا فعليا على إدارة عمليات التنقيب إلى حضور الاجتماعات في كينشاسا. وقد مولت أنجلوجولد واحدة من تلك الرحلات[11]، واتهمتها هيومان

رايتس ووتش Human Rights Watch بإعطاء القتلة «المنافع المادية والاعتبار المعنوي». وردت الشركة بأنها دفعت ثمانية آلاف دولار فقط تحت بند مصروفات نثرية، وأنها قصدت بذلك حماية موظفيها[12]. بيد أن الطرفين سويا المسألة. إذ قُلّد القتلة مناصب في جيش الكونغو، وحصلت موتو جولدماينز Moto Goldmines على كيبالي.

لقد أشرت سابقا إلى أن موتو كانت «شركة صغيرة مسجلة(*) في تورنتو»، ولربما ظهر ذلك منافيا للمنطق. غير أن تورنتو تعتبر أبرز مدن العالم في مجال التنقيب عن الذهب[13]. ويبلغ عدد شركات التنقيب المسجلة فيها ألفا وستمائة شركة. كما أن فيها أكبر تجمع - على مستوى العالم - لرؤوس الأموال الموظفة في أعمال التنقيب. لقد تجاوزت قيمة تداولات أسهم شركات التنقيب في بورصة تورنتو في العام 2012 مستوى 280 مليار دولار. كما كانت تورنتو، في ذلك العام، مصدر نحو ثلاثة أرباع رؤوس الأموال المتاحة عالميا لتمويل مشروعات التنقيب الجديدة. وثمة أكثر من 500 محلل فني في المدينة يتتبعون أداء أسهم شركات التنقيب، وتتخذ ثلاث من كبرى شركات التنقيب عن الذهب في العالم تورنتو مقرا لها. وأعني بالشركة «الصغيرة» شركة صغيرة الحجم يتركز نشاطها في مجال التنقيب، وذلك على عكس الشركة الكبيرة مثل باريك Barrick التي ينصب عملها على تشغيل المناجم الكبيرة. وبغض النظر عن حجمها، كانت موتو مخلب المصالح التجارية المؤثرة[14] - سام جونا، أنجلوجولد، ومن خلال الترتيبات التجارية مع أوكيمو OKIMO، عائلة دامسو، وهي عبارة عن مجموعة من الصناعيين البلجيكيين الذين يملكون مزارع لتربية الماشية وإمبراطورية من شركات النقل في الكونغو منذ العام 1931. كانت موتو Moto القبضة القوية المسلحة، وما كان يهم أي قفاز ترتدي.

لقد جففت الشركة مياه البحيرة وحفرت قعرها، وأصابت ذهبا، واستمرت بها الحال كذلك. كانت بياناتها الصحافية تصدح طربا عبر شبكات الإعلام التجارية، وهي تنقل أنباء البشائر التي يحملها حزام الحجر الأخضر. وارتفع سعر الذهب، وارتفعت قيمة شركة موتو. وقد وصفها أحد المواقع الإلكترونية المعنية بشؤون

(*) المقصود أن أسهمها مدرجة في أسواق الأسهم هناك. (المترجم).

هذا القطاع بأنها «أهم أسهم الذهب في العالم». وقد حان الآن الوقت للفصول اللاحقة من الدراما. إذ التهمت موتو حقل الذهب، وستبدأ الآن بالتهام نفسها. لقد أدى الصراع على شركة موتو إلى اندلاع مواجهة بين اثنين من أباطرة الذهب، تمثلت في معركة كان المنتصر فيها يفرض سيطرته من موقع القوة، ويبز الآخرين بسرعة لا تجارى.

ويذكر رود كويك Rod Quick، رئيس أعمال الاستكشاف لدى شركة راندغولد ريسوروسز Randgold Resources، وهي شركة تنقيب مقرها تشانل آيلاندز Channel Islands: «بدأنا بمراقبة موتو Moto في العام 2006. وقد تتبعت بنفسي بياناتها، حفرة إثر أخرى. أعددت مخططا لعملياتها. وزرت الموقع».

لقد استوعبت كلتا الشركتين هذه العلاقة تماما. ذلك أن مبرر وجود الشركة الصغيرة جذب مثل تلك الشركات الكبرى الساعية إلى اقتناص الفرائس السائغة. وتأمل الفريسة - أو تخطط! - أن تُقتنص وتُلتهم برمتها. وحري بالمفترس أن يتذكر ذلك. يقول كويك: «كنت أضيف نتائج أعمال الحفر التي زودونا بها، واحدة إثر أخرى، إلى مجمع البيانات المتوافرة. من الواضح أن الشركات الصغيرة لا تورد في تقاريرها إلا نتائج أفضل أعمال التنقيب التي نفذتها، لذلك يجب استخدام المعلومات المتوافرة عن أقل مخرجات التنقيب جودة، ووضع التقديرات على هذا الأساس». مع ذلك، كان الرأي التقديري يشير إلى أن شركة موتو قد حصرت وجود جيب فلزي من خمسة ملايين أوقية من الذهب على الأقل.

وقد أخبرني مارك بريستو Mark Bristow الرئيس التنفيذي لشركة راندغولد Randgold، في اجتماع عقد في كيب تاون: «كان أول ما فعلناه تسويق الفكرة للحكومة (الكونغولية) وإقناعها بها. وقد قلت لهم: إن لم تدعموا عرضنا فلن نمضي قدما. نعدكم بأننا سنقيم منجما، وإليكم خططنا. إننا نعتزم البدء بإجراء استحواذ عدائي(*) [لشركة موتو]. هل تدعمون هذا التوجه؟ لا نريد الانجرار إلى المواجهة. ولا نسعى إلى تنظيم مزاد عام لهذا الغرض. نريد أن ننهي المسألة فقط».

---

(*) الاستحواذ العدائي Hostile takeover: عملية استحواذ شركة ما (الشركة الهدف) من خلال السعي إلى إزاحة إدارتها الحالية، بدلا من التوصل إلى تسوية معها. [المترجم].

بريستو جنوب أفريقي، عمره اثنان وخمسون عاما، ويحمل شهادة الدكتوراه في الجيولوجيا، وله بنية الجاموس الأفريقي ومزاجه. كانت نقطة ضعفه الانصراف إلى تلك الملهيات مثل السقوط الحر من الطائرة لمدة ثلاثين ثانية أو قيادة الزوارق الطوفية عبر التيارات السريعة في نهر زامبيزي Zambezi River أو القفز بالحبال من شلالات فيكتوريا حيث يسقط المرء خمسا وتسعين قدما قبل أن يبلغ نهاية الحبل. وهو يمتلك بيوتا في لندن وجوهانسبرغ وموريشيوس ومنتجع تزلج في جاكسون هول Jackson Hole، بويومينغ Wyoming. بيد أنه يقضي معظم وقته في الأسفار الجوية حيث يذرع أفريقيا جيئة وذهابا بحثا عن الذهب.

حاولت شركة راندغولد، مع شريكتها في المشروع المشترك، شركة أنجلوجولد أشانتي، الاستحواذ على شركة موتو Moto في فبراير 2009[15]. وبتوافر مبلغ 258 مليون دولار في الحساب المصرفي، صار في متناول جنوب الأفريقيين «مال كثير». بيد أنهم واجهوا منافسة من لوكاس لاندين Lukas Lundin، وهو سويدي من أباطرة التنقيب عن المعادن، يتخذ من فانكوفر مقرا له. كان من بين شركاته ريد باك ماينينغ Red Back Mining، وكانت تشهد آنذاك شهرة واسعة بفضل نجاحها في اكتشاف الذهب في تاسياست Tasiast بموريتانيا، وقد تعاظمت قيمة الموقع بعد ارتفاع سعر الذهب متخطيا عتبة الألف دولار، وبفضل ازدياد حجم الجيب الفلزي أضعافا كثيرة. وقد تقدمت شركة ريد باك بعرض عيني (سهمي) للشراء - إذ استخدمت في هذا العرض أسهم شركة ريد باك وسيلة للدفع. وقد حدد العرض قيمة شركة موتو بمبلغ 486 مليون دولار. وذكرت ريد باك: «ليس لدينا أدنى شك [بأنها] من بين أفضل مشروعات التنقيب عن الذهب في العالم».

وجاء رد شركة راندغولد بأن اتخذت لها «حصة معرقلة» في موتو، وهي مناورة فنية تسمح لها بعرقلة موافقة مجلس إدارة موتو على قبول عرض ريد باك. كانت شركة موتو مدرجة في تورنتو، بإقليم أونتاريو. ويشترط قانون الأوراق المالية لأونتاريو الحصول على موافقة ثلثي حملة الأسهم لإتمام الاستحواذ. وقد تدبرت راندغولد الحصول على السيطرة من خلال التصويت Voting Control بامتلاك ما يزيد على ثلث أسهم موتو فقط، للحيلولة دون تشكل نصاب الثلثين. ولم تمتلك راندغولد الأسهم وإنما استطاعت ممارسة حقوق التصويت عليها من خلال اتفاقية

«تقييد مرنة»(*) مع حملة الأسهم الفعليين. وتلزم اتفاقية التقييد المرنة حملة الأسهم المشمولين فيها بدعم إجراء ما، ضمن حدود معينة. هذه الحدود قد تأخذ، على سبيل المثال، صورة صفقة أفضل من الصفقة التي كانت راندجولد تتدارس إجراءها. في مثل هذه الحالة يرفع التقييد ويكون حملة الأسهم في حلّ من ذلك، ويحق لهم اختيار العرض الأفضل. وهكذا كانت سيطرة راندجولد شرطية، بيد أنها حالت دون قبول مجلس إدارة موتو لعرض شركة ريد باك تلقائيا.

وجهّز بريستو عرض الشراء المقابل(**) في حين كان يجوب المناطق الشمالية في أفريقيا صعودا في رحلة بالدراجات النارية مدتها تسعة وأربعون يوما، انطلاقا من كيب تاون وصولا إلى القاهرة برفقة ابنيه وثلاثة من أصدقائه[16]. وقد ذكر جرانت بريستو Grant Bristow: «اصطحبنا معنا نظاما للاتصال الداخلي Intercom على كل الدراجات النارية. وجهزت الخوذ لاستقبال المكالمات الهاتفية بصورة مستقلة بواسطة الأقمار الاصطناعية. لكن استخدام الاتصال الداخلي للتحدث إلى شخص من خارج هذه المجموعة كان يعطل تسلم أي مكالمة هاتفية واردة. هذا يعني أن التحدث لوالدي عبر هذا النظام كان متعذرا لفترات مطولة، في أثناء إجرائه اتصالات هاتفية لمتابعة الأمور التجارية».

لقد جُهزت دراجاتهم النارية من طراز بي إم دبليو BMW بعد شرائها بمضاد الصدمات(***) لتكون صالحة للسير على الطرقات الوعرة جدا. وذكر جرانت بريستو أنه: «في شمال كينيا كان ثمة تلك الخطوط المتعرجة العريضة التي خلّفتها مواكب الشاحنات، وقد تعطل مضاد الصدمات في أربع دراجات». كان الخطر الماثل على الطريق أشد وطأة من المشقة الناجمة عن ذلك العطل: إذ يتربص قُطاع الطرق في الأراضي السودانية بمواكب السيارات في تلك الرقعة من الطريق.

وقد عَبَر راكبو الدراجات بسلام. ومهّد بريستو الطريق للتقدم بعرض شراء ينقسم سعره مناصفة بين الدفع نقدا والدفع عينا بالأسهم، وبزيادة قدرها

---

(*) اتفاقية التقييد المرنة Soft lock agreement: الاتفاق الذي يسمح لحملة الأسهم بسحب دعمهم لصفقة الاندماج أو الاستحواذ، والتحول إلى دعم صفقة أخرى أفضل من حيث الشروط. [المترجم].

(**) عرض الشراء المقابل Counterbid: هو عرض للشراء يُطرح مقابل عرض آخر، على سبيل المنافسة. [المترجم].

(***) مضاد الصدمات: جهاز لامتصاص الصدمات الناشئة عن السير في الأراضي الوعرة . [المترجم].

30 مليون دولار على عرض ريد باك. ولما بلغ راكبو الدراجات أديس أبابا كان منجم كيبالي قد بات من نصيب راندجولد.

كان أباطرة المال الذين تتوافر بين أيديهم السيولة العالية أمرا شائعا في تلك الأيام. لقد بدا عليهم جميعا، كما بريستو، أن أجسامهم تنضح بأكسجين الرياضات الخطرة(*). لقد تسلق لوكاس لاندين Lucas Lundin، من شركة ريد باك Red Back[17]، وهو سليل عائلة سويدية تعمل في مجال التنقيب والنفط، عبر ذراعها الشركة المؤسسة لاندين بيتروليوم إي بي Lundin Petroleum AP- التي ضاهى أداؤها أداء أسهم شركة أبل Apple منقطع النظير من خلال زيادة قيمة السهم بمقدار خمسين ضعفا منذ طرحه للتداول في العام 2001، تسلق جبل كيليمانجارو Mountain Kilimanjaro، وشارك في منافسات سباق باريس داكار للدراجات النارية، وكان من هواياته الانحدار أسفل حافات الجبال الكثيفة بالأشجار ملتمسا المتعة من رياضة التزلج المتهور. بعد زيارتي لكيبالي حضرت مؤتمرا للتنقيب في كيب تاون، وقد اكتظت قاعة المؤتمر بالحضور الذين راحوا يتجادلون بشأن المنجم الذي يستحق أن يوصف بمنجم القرن - كيبالي الذي يملكه بريستو أم تاسياست التابع للاندين، هذا على رغم أن ملكية لاندين حينذاك في تاسياست لم تتعد حيازة أسهم في شركة لا تخضع للسيطرة اللازمة. ذلك أنه باع موقع التنقيب الموريتاني مقابل حزمة أسهم في شركة يديرها أحد أباطرة المال البارزين[18].

كان تاي بيرت Tye Burt الذي اشترى منجم الذهب من لاندين مالك يخوت ورجل محاماة وأحد أرباب الصيرفة الاستثمارية، ويبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاما[19]. وكان مسؤولا في السابق عن إدارة شركة كينروس للذهب Kinross Gold Corp. وهي من شركات التنقيب عن الذهب مقرها تورنتو، وقد قفزت إلى المركز الخامس في ترتيب الشركات المنتجة للذهب في العالم بعد أن دفعت مبلغ 1.7 مليار دولار مقابل احتياطيات ذهب منجم لاندين التي كان يعتبرها غاية في الأهمية. كان بيرت يتحلى برباطة جأش لا تتزعزع. وكانت لديه ذائقة لروايات إرنست

---

(*) الرياضات الخطرة Extreme sports: هي الرياضات التي تنطوي على درجة عالية من المخاطرة مثل تسلق الجبال والهبوط المظلي والقفز بالحبال... إلخ. [المترجم].

هيمنجواي. وفي باريس كان يحب التردد على مقهى كافيه دو فلور Cafe de Flore، إذ كان هيمنجواي من رواد ذلك المقهى الملازمين. لا بل إنه بالغ في ذلك، فكان يجري مع الثيران ثلاث مرات في مهرجان سان فيرمان San Fermin في بامبلونا Pamplona بإسبانيا، وهي شعيرة خلّدها هيمنجواي في روايته «وتشرق الشمس أيضا»(*).

وقد أخبرني بيرت أن «الثيران تركض مسافة ثلاثة كيلومترات. وتغلق الشوارع الجانبية أمام حركة السير. وبذلك يصبح الطريق قناة مسدودة. وتزدحم الشوارع، ثم يقيمون الحواجز ويطلقون المدافع، وتندفع الثيران خارجا. ولا يستطيع أحد أن يبزهم في السباق - ذلك أنها تجري بسرعة فائقة. وما عليك إلا أن تحاول تحاشيها. وإذا أردت أن تأتي بحركة جريئة، فيمكنك لطم ثور عابر بجريدة مطوية».

مهما يكن، فها أنت تجري مع الثيران. وهكذا عاقب السوق سهم شركة كينروس، إذ اعتبر أن السعر الذي دفعه بيرت مبالغ فيه، وذلك مقابل توقعات إيجابية ربما لا تتحقق. وتوجهتُ بالقول إلى مارك بريستو: «سمعت أن احتياطي الشركة يبلغ 20 مليون أوقية». فأجاب: «بالتأكيد، وغدا سيرتفع إلى 30 مليونا». وسرِّحت شركة كينروس بيرت من العمل في أغسطس 2012 بعد أن اضطرت إلى قبول شطب 3.1 مليار من قيمة موقع التنقيب الموريتاني، بعد شرائه بسنتين[20].

***

في الكونغو لا تتحقق العدالة في توزيع منافع ارتفاع سعر الذهب. ثم طريق سريع في كيبالي يمتد عشرة كيلومترات مخترقا الأدغال، واليوم يربط هذا الطريق الإقليم بالعالم الخارجي. وتجلب عبره السلع الرخيصة. وتوظف شركة راندجولد السكان المحليين، وتسهم في نمو الأعمال الصغيرة، وقد أنشأت أخيرا بلدة صغيرة، وبنت فيها كنيسة ومدرسة ومستوصفا. وتتزايد أعداد الدراجات النارية الصينية بمعدلات كبيرة، وتقرقر سبائك الذهب خارجة من جوف المنجم سعيا وراء العائد الاستثماري. وتؤمِّن قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة المنطقة. تتكون هذه القوّة من عسكريين جاءوا من دول حصلت على التعويض

---

(*) وترجمت أيضا تحت عنوان «ثم تشرق الشمس» The Sun Also Rises. [المترجم].

المادي مقابل نشرهم هناك[21]. وهم بذلك مجرد حراس أمن مأجورين ينصب عملهم على حماية حقوق التنقيب. وإذا كان هذا الترتيب مثارا للسخرية، فيمكن التفكير في البدائل الأخرى المتاحة.

ثمة آلة للقتل تشق طريقها عبر الكونغو، سعيا وراء الذهب. وهي تتقاضى مكوسا جائرة من عشرات الآلاف من المنقبين المهنيين. إذ يطلب الجنود الذين لا تدفع لهم الحكومة أجرا في الأغلب الحصول على نسبة من إنتاج الذهب. ويستخدم الجنود أحيانا عصابات من الشبان هدفها ترويع عمال التنقيب. وقد ذكرت صاحبة متجر صغير بالقرب من موقع التنقيب عن الذهب لفريق من الباحثين أن الأمر سيان بالنسبة إلى السكان سواء أكان الموقع تحت سيطرة الميليشيات أم القوات الحكومية. «إنهم ينهبون ويغتصبون ويقتلون، وهم يأخذون المال منا عنوة. إننا لا ننعم بالسلام، أيا كانت الجهة المسيطرة على المنطقة».

وتحاشيا لابتزاز المسؤولين يلجأ المنقبون إلى بيع الذهب عبر قنوات التجارة غير القانونية، التي يفوق حجمها التجارة القانونية بأضعاف كثيرة. وتقدر قيمة الذهب المهرب من الكونغو سنويا بأربعمائة مليون دولار. في مدة ستة أشهر فقط من العام 2012، حينما كانت صادرات المنطقة الشرقية في الكونغو المسجلة رسميا ثلاثة وعشرين كيلوغراما من الذهب، بلغ الرقم الفعلي أربعة أطنان مترية.

ومع رواج التجارة غير القانونية بات الذهب مصدر الدخل الرئيس لعصابات القتل في شرقي الكونغو. ولأن قانون دود - فرانك(*) Dodd-Frank Act الصادر في الولايات المتحدة يقضي بإلزام الشركات ببيان مصدر مشترياتها من المعادن، والذي ربما يكون مناطق النزاعات في أفريقيا الوسطى، فإن من الصعب على الميليشيات بيع المعادن من قبيل القصدير أو التنغستين، لكن يسهل عليها بيع الذهب[22]. وقدّرت إحدى منظمات حقوق الإنسان أن ذهبا بقيمة 30 ألف دولار يمكن حمله في الجيب، وأن كمية تبلغ قيمتها 700 ألف دولار يمكن حملها في حقيبة[23]. وفي شرقي الكونغو تلوح من جديد بوادر عودة اندلاع حرب كانت قد قضت على ثلاثة ملايين نسمة، هذه الحرب تغذيها الأحقاد العرقية، وكذلك الذهب[24].

---

(*) قانون دود - فرانك Dodd-Frank Act: يعرف أيضا بقانون إصلاح وول ستريت وحماية المستهلك. [المترجم].

في عصر أحد الأيام جلست إلى مصمم فراغي Modeler يعمل في كيبالي، ورحت أحدق في صورة حاسوبية ثلاثية الأبعاد لكتلة الفلز الرئيسة. تكثر تحت أرض الوادي المتعرجة أشكال مجسية بديعة ذات لون أحمر أرجواني، وقد ظهرت في الصورة كل التفاصيل - قنوات التهوية ومسارب التنقيب والقنوات الحلزونية لحركة الشاحنات. وعمد أحد الفنيين في راندجولد إلى تدوير الصورة على الشاشة لعرضها من مختلف الزوايا. ظُللت الصورة بخطوط رفيعة دلالة على مواضع الحفر التي أجراها الجيولوجيون، واحدة تلو الأخرى، مع إبراز كل تفاصيل الفلز من التواءات وتعرجات.

تعمل شركات التنقيب في بيئة تتفشى فيها حمّى الذهب Gold Fever لكن من دون انتقال الفيروس. وتقي هذه الشركات نفسها من خلال تسعير احتياطياتها دون السعر الفوري (السعر الحالّ) بهامش كبير. تبلغ تكلفة منجم كيبالي التي ستترتب على شركة راندجولد ومشاركها(*) ملياري دولار، ويحتمل أن يذهب هذا الاستثمار أدراج الرياح إذا انقلبت حركة سعر الذهب. لقد حددت راندجولد قيمة احتياطياتها عند سعر ألف دولار للأوقية[25]، أي أنها لا تعتبر الصخر فلزا ما لم يحقق التنقيب عنه أرباحا عند ذلك المستوى السعري. وتأخذ شركات التنقيب السعر في حسبانها دائما لأنه عامل حاسم جدا. وقد طرحتُ هذا الموضوع على مدير تنفيذي جنوب أفريقي لأحد مناجم الذهب، وطلب مني عدم الإفصاح عن اسمه لصلته بمشروع كيبالي، ولم يرغب في أن تنسب تخميناته إليه.

وقد حدثني قائلا: «من السهل إعطاء تقدير تقريبي لأسعار السلع الاستهلاكية. فإذا كان زوج الأحذية يكلف 200 دولار، ويكلف زوج آخر 300 دولار، فإنك تقارن بينهما ثم تختار. وإذا أردت شراء السندات، فإنك تقارن أسعار الفائدة. لكنك إذا أردت شراء الذهب فإنك تدفع سعره الفوري(**). وليس ثم سعر مرجعي له، وليس ثم شيء يقارن به».

لقد تلقى تعليمه في وارتون سكول Wharton School، وعمل مديرا لصندوق استثماري تابع لأحد المصارف السويسرية. وأضاف قائلا: «بصفتي رجل أعمال،

---

(*) المقصود شريكها (باللغة المتداولة). [المترجم].

(**) السعر الفوري أو السعر الحالّ: هو السعر السائد في السوق وقت الشراء. [المترجم].

واجهتني دائما أسئلة حول قيمة الأشياء. إن من السهل التفاوض حول القيمة إذا كانت ثمة نقطة مرجعية. لكن ما النقطة المرجعية في حالة الذهب؟».

ثمة نقطة مرجعية واحدة لسعر الذهب هي أسعار الأصول الأخرى. لقد أدت المخاوف من عدم استقرار قيم الأصول الأخرى إلى ارتفاع سعر الذهب غير المسبوق في المقام الأول. وقد تسارع هذا الارتفاع بحدوث الأزمة المصرفية في العام 2008، والتي كانت في طور التشكّل قبل ذلك. إذ عمد المستثمرون الذين ساورتهم المخاوف بشأن ديمومة فترة الرواج في أسعار الأصول مثل الأسهم والعقارات إلى شراء الذهب للتحوط من انهيار الأسعار بين العامين 2004 و2007. وتضاعفت استثمارات الذهب في تلك الفترة - نحو 600 طن سنويا - عما كانت عليه في السنوات الأربع السابقة لها. وبات السؤال عن المستوى الذي يمكن أن يبلغه سعر الذهب يدور حول مستوى تراجع الأداء الاقتصادي المحتمل. أو بعبارة أخرى- سيذوي سعر الذهب عندما يستقر الاقتصاد.

وباستثناء القليل من استخداماته العملية، يعتبر الذهب فكرة مجردة. وينحصر جوهره (أصل قيمته) في سعره. بل إن سوق المجوهرات بحد ذاته يقوم على ذلك الاعتبار - أي ما إن كان الذهب باعتباره مادة يفوق الأشياء الأخرى قيمة. لقد هجر الذهب موقعه الأصلي في المخيلة البشرية. ولا ندري ما إن كان أسلافنا البعيدون اعتقدوا بامتلاك الذهب قيمة من الناحية المادية[26]. كان الذهب، في عصر ما قبل التاريخ، يدفن تحت الأرض نذورا للآلهة. كما كان أسلافنا يلقون الذهب في الأنهار بين العامين 2500 قبل الميلاد و800 قبل الميلاد. وقد نظروا إليه بالتأكيد بعين التقدير، لدوره في الطقوس والشعائر، بيد أن قيمته لم تكن بالضرورة محلا للتبادل التجاري. وباعتقاد الباحثين لم تكن قيمة الذهب مستمدة من استخداماته الدنيوية، بل الأخروية(*). لقد جسّد الذهب لحظة الوداع الأخير، الأمنية التي أريد لها أن تدوم إلى الأبد. وربما يرمز ثبات حالته إلى مقاومة الروح البشرية للموت. ولا بد أن شيئا من تلك العلاقة انتقل إلينا عبر الأجيال، لكن الذهب هذه المرة كان ملاذ البشر من كارثة أخرى.

---

(*) نسبة إلى العالم الآخر، عالم ما بعد الموت. [المترجم].

كانت أهوال الكارثة ماثلة أمام العيان وسط الأزمة المالية التي شهدها القرن الحادي والعشرون. لقد اعتبرت إحدى نظريات الثراء الفاحش أن التركز المستمر للثروة في أيدي طبقة الأثرياء سيؤدي إلى دمار تلك الطبقة[27]؛ ذلك أن استنزاف تلك الطبقة للمزيد والمزيد من الموارد المتاحة وتحويلها إلى جيوبها، مع إفقار الأطراف الأخرى المشاركة في العملية الاقتصادية، كان يعني تدمير الاقتصاد نفسه، ومن ثم تدمير تلك الطبقة نفسها. وبتواتر القصص المروعة تباعا عبر الأنباء، كان ثم شعور بأن الذين سببوا الكارثة لم يغيروا نهجهم. لقد انخرطت المصارف في أنشطة جنائية مثل غسل الأموال والتلاعب بأسعار الفائدة وحبس رهونات العقارات السكنية بأساليب غير قانونية. ومع ترنح الاقتصاد تراجعت الإيرادات الحكومية وتدهورت موارد المالية العامة. في تلك الظروف حقق الذهب أفضل طفرة صعودية في التاريخ.

يستقبل بريدي الإلكتروني كل أسبوع مجموعة صور تبين التقدم الحاصل في منجم الذهب الواقع في أويو تولجوا Oyu Tolgoi بمنغوليا، والذي تبلغ احتياطياته خمسة وأربعين مليون أوقية. في غابة الخيزران ينكب آلاف الحفارين على شق التربة. وقد انتقل البحث الآن إلى أعماق المحيطات، حيث يربض ذهب تقدر قيمته بتريليونات الدولارات في الجيوب الكبريتيدية داخل فوهات البراكين. لقد أبرمت شركة نوتليوس مينيرالز أوف تورنتو Nautilus Minerals of Toronto عقد إيجار مدته عشرون سنة لاستغلال أحد مكامن الذهب المستهدفة في جنوب غرب المحيط الهادي، ويقدر وجود احتياطي بعشرة أطنان من الذهب فيه. ويعكف الصينيون على تطوير غواصة الغرض منها استكشاف جيوب الذهب في أعماق البحار، وقد حازوا حقوق التنقيب في مساحة قدرها 3860 ميلا من قعر البحر على حافة بركانية بعمق ميلين في المحيط الهندي. وليس ثم استخدام جديد للذهب يسوغ ذلك البحث، وإنما المبرر القديم نفسه: اعتقاد راسخ أن الذهب سيوفر الملاذ الآمن وقت الأزمات.

وكما الأوبئة الأخرى، تجتاح حمى الذهب العالم وتخلف آثارا متباينة. في كيبالي انتقلنا لمدة يوم واحد مرورا ببلدة دوربا Durba في موكب من السيارات الرياضية البيضاء، وقد أثرنا خلفنا سحبا من الغبار الأحمر الكثيف طالت الناس في جانب الطريق. وأغلقنا زجاج نوافذ السيارات تحاشيا للحرارة والغبار. ورحنا

ننظر من مركبتنا الفضائية المكيفة خارجا نحو الكائنات الفضائية(*). تبلغ نسبة الأطفال المصابين بالملاريا تسعين في المائة. وقد تدبر بعض القرويين الفرار من الملاريا بفضل عملية تحوّل إعجازية، انتهت بانتقالهم إلى المساكن التي كانت راندجولد تشيدها، والتي كنا في الطريق لمشاهدتها. كانت ثمة بيوت بنغل (بيوت الطابق الواحد) بلون المغرة الصفراء، ذات نوافذ وأبواب زجاجية موصدة، ويتوافر فيها الماء والكهرباء، وقد جعلت ضمن مخطط بلدة حديثة واقعة داخل بستان نخيل إلى جانب نهر تتلألأ صفحته. ويحدد موقع السور المسموح لهم بسكنى تلك البلدة. كان السور يحيط بقطعة الأرض التي بداخلها منجم الذهب. وكانت الأرض التي أرادت راندجولد التنقيب فيها داخل هذا السور أيضا. ومن كان منزله في الداخل، فلا ريب في أنه من سكان الجنان.

شاهدت في محيط البلدة امرأة تقف في أحد الحقول وقد اتكأت على مدمّة(**). كانت ترتدي عمامة خضراء ولباسا أصفر قذرا، وانطفأت في وجهها جذوة الأمل. لقد أدارت لنا ظهرها فيما كنا نمضي في طريقنا.

(*) يتحدث الكاتب هنا بلهجة نقدية ساخرة، فيشبه السيارات بالمركبات الفضائية، والناس المعدمين على الطرقات بالكائنات الفضائية. [المترجم].

(**) المدمة: أداة ذات أسنان تُستخدم لتقليب التربة أو تسويتها أو جمع الأعشاب. [المترجم].

# الهوامش

## الفصل الأول

(1) يحدد تطبيق خرائط جوجل Google Maps المسافة الفاصلة بين الشارع 59 والشارع 110 بـ 2.7 ميل. يؤكد وصف احتياطيات شركة أنجلوجولد أشانتي AngloGold Ashanti «الفلز والاحتياطيات»، المنشور في صيغة pdf على موقعها www.anglogold.com للعام 2011، الصفحة 35، أن التنقيب وصل إلى المستوى 126 (12600 قدم = 2.38 ميل). وتمتد أعمال الحفر الاستكشافية إلى مستويات أعمق. في العام 2013 كانت الشركة تنفذ أعمال الحفر بدءا من المستوى 126 للوصول إلى الطبقة الصخرية الشعابية القاعدية الحاوية على الكربون Carbon Leader Reef على عمق 4200 متر (2.6 ميل). وباحتساب ارتفاع إطار البكرات العلوي (للمنجم) يصل العمق الشاقولي للمنجم إلى نحو 2.7 ميل، بالزيادة أو النقصان. وقد استمدت كل بيانات التنقيب الفيزيائية من التقرير المذكور.

(2) انظر http://www.mining-technology.com/projects/mponeng: العرض الوسطي للقناة 78 سم، أو 30.7 إنش (بوصة). للاطلاع على أسعار الذهب، انظر http://www.kitco.com/gold.londonfix.html. قيمة جيب الفلز محسوبة على أساس الإنتاج السنوي البالغ 600 ألف أوقية، وفقا لما هو وارد في الموقع الإلكتروني:
http://www.infomine.com/minesite/minesite.asp?site=mponeng، مضروبا في سعر الذهب الصباحي بلندن في ذلك اليوم: 1581 دولارا.

(3) تقرير سوق المعادن النفيسة للعام 2011: جاك فارتشي Jack Farchy: «تقدير حجم سوق الذهب»، فايننشال تايمز، 9 سبتمبر 2011، http://www.ft.com/intl/cms/s/0/eb342ad4-daba-11-e0-a58b-0014feabdc0.html#axzz2QoQC31wu

(4) «سوروس يضاعف رهانه على الذهب»، نيويورك تايمز، فبراير 2010، http://dealbook.nytimes.com/2010/02/17/soros-doubles-down-on-gold/؛ عزام أحمد وجولي كريسويل، «بولسن يحقق من المضاربة على الذهب مكاسب صافية قدرها خمسة مليارات دولار»، نيويورك تايمز، 29 يناير 2011، http://www.nytimes.com/2011/01/29/business/29paulson.html

(5) ألان إتش. ميلتزر، «حمى الذهب: من أعراض مخاوف التضخم»، نيويورك تايمز، 2 أغسطس 2011،
http://www.nytimes.com/roomfordebate/2011/08/02/should-central-banks-buy-gold/gold-fever-is-a-symptom-of-inflation-fears.

(6) انظر مثلا دينيس ندابا، «هل تتغلب جنوب أفريقيا على كوارث المناجم؟» مجلة التنقيب الأسبوعية (ماينينج ويكلي) Mining Weekly، 1 فبراير 2008،
http://www.miningweekly.com/article/can-south-africa-stop-the-mine-fatalities-2008-02-01

(7) جون أوكسلي، أرض لا تطؤها الأسود (جوهانسبيرغ: ساوثيرن بوك ببلشرز Southern Book Publishers، 1989)، 159.

(8) روبرت بلوك، «قاطرة تسحق 105 من عمال التنقيب عن الذهب»، الإندبندنت Independent، 12 مايو 1995،
http://www.independent.co.uk/news/world/locomotive-crushes-105-gold-miners-1619145.html، ليزل هيل، «مقتل تسعة أشخاص في حادث بمنجم حقول

الذهب ساوث ديب South Deep»، مجلة التنقيب الأسبوعية Mining Weekly، 1 مايو 2008، http://www.miningweekly.com/article/nine-killed-in-accident-at-gold-fields039-south-deep-mine-2008-05-01.

(9) كل البيانات حول أجهزة اللف Winders منقولة عن كليف فان دير ويستهوزن، مدير الهندسة، منجم مبونينج Mponeng Mine.

(10) اعتمدت روايتي عن العمال أشباح المناجم على مقابلات مع الشرطة ومسؤولي المناجم، وعلى زيارات ميدانية. انظر أيضا: «قد يدفن المئات من عمال المناجم أحياء»، نيوز 24 (News 24)، 4 يونيو 2009،

http://www.news24.com/SouthAfrica/100s-of-miners-could-be-buried-20090604؛ موناكو ديبتيل Monako Dibetle، «الموت في سبيل الذهب»، ميل أند جارديان Mail and Guardian، 15 يونيو 2009،

http://mg.co.za/article/2009-06-15-dying-for-gold؛ «لغز جثث عمال مناجم أورورا»، ميل أند جارديان، 13 أغسطس 2010،

http://mg.co.za/article/2010-08-13-mystery-of-aurora-corpses.

(11) لمعلومات عن المذخر - وعاء الذخائر المقدسة الخاص بشارلمان، انظر http://www.sacred-desintations.com/germany/aachen-cathedral.

لمعلومات عن تاج القديس إدوارد، انظر:

http://www.royalcollection.org.uk/collecction/31700/st-edwards-crown.

لمعلومات عن لوحة المذبح الذهبية في كاتدرائية إشبيلية، انظر فرانسيسكو جيل ديلجادو، كاتدرائية إشبيلية (برشلونة: إيديتوريال إسكودو دي أورو - ناشر، 2003)، 28-33.

(12) «أحداث شغب بلاكبيري»، الإيكونوميست، 13 أغسطس 2011 http://www.economist.com/node/21525976؛ جوش هاليداي، «أحداث شغب لندن: كيف سُخّر برنامج ماسنجر على بلاكبيري للتخطيط لليلتين من أعمال النهب والسلب»، جارديان، 8 أغسطس 2011،

http://www.guardian.co.uk/media/2011/aug/08/london-riots-facebook-twitter-blackberry؛ ريتشارد بارتينجتون وجينفر بوللين، «لندن في حالة تأهب تحسبا لأحداث الشغب»، فاينانشال نيوز، 9 أغسطس 2011،

http://www.efinancialnews.com/story/2011-08-09/bank-branches-left-closed-damaged-by-london-riots.

(13) لمعلومات عن ماندلا جكابا، مالك شركة سيارات الأجرة، وابن أخي جاكوب زوما، انظر أجيزا هلونجواني، «ابن أخي زوما في منازعات حول عطاء بقيمة 300 مليون راند»، أي أو إل نيوز IOL News، 9 ديسمبر 2012،

http://www.iol.co.za/news/south-africa/kwazulu-natal/zuma-s-nephew-in-r300m-tender-dispute-1.1437844#.UXA21b_Xf0A.

(14) اتحاد صحافيي جنوب أفريقيا، «أورورا تدفع تسوية قدرها 10 ملايين راند- بحكم المحكمة»، مجلة التنقيب الأسبوعية Mining Weekly، 12 يناير 2012،

http://www.miningweekly.com/article/aurora-to-pay-r10m-court-2012-01-12؛

سارة بريتين، «عرض مقتنيات خولوبوس زوما الشخصية في المزاد»، ميل أند جارديان، 24 إبريل 2011،

http://www.mg.co.za/article/2012-04-24-khulubuse-zumas-lifestyle-thrust-into-auction؛ «زوندوا مانديلا يواجه تهما في قضية شركة أورورا»، ميل أند جارديان، 11 ديسمبر 2011، http://www.mg.co.za/article/2011-12-11-zondwa-mandela-faces-charges-over-aurora؛ مارتن بلاوت، «منجم ذهب مانديلا وزوما: استغلال العمال»، بي بي سي نيوز BBC News، 5 مايو 2011، http://www.bbc.co.uk/news/world-africa-13275704.

(15) إتش. إي. فريميل، ودي آي جروفز، وآخرون، «تشكل حقول الذهب في ويتووترزراند والحفاظ عليها، أكبر أقاليم الذهب في العالم»، مجلة الجيولوجيا الاقتصادية Economic Geology، المجلد الصادر بمناسبة الذكرى المئوية، 97 -769، 2005، http://www.geo.arizona.edu/geo6xx/geo646A_PW/Papers/Surface-related_Papers/Frimmel05_WitsAu_EG100thAV.pdf

(16) مرجع سبق ذكره.

(17) هيربي تروو، مدير العمليات تحت الأرضية في شركة أورورا، ومن قدامى العاملين في حقل الذهب على امتداد سبعة وثلاثين عاما، مقابلة أجراها المؤلف.

(18) مرجع سبق ذكره.

(19) انظر أيضا شين جيرمانر، «مجموعة باد براد (براد السيئ) تجوب المكان»، آي أو إل نيوز IOL News، 14 سبتمبر 2011، http://www.iol.co.za/news/south-africa/mpumalanga/bad-brat-group-had-been-scouting-1.1137200#.UXA74b_Xf0A: «أورورا تبرر أعمال القتل في المناجم»، ميل أند جارديان، 13 أغسطس 2010، http://mg.co.za/article/2010-08-13-aurora-justifies-mine-killings؛ «لغز جثث عمال مناجم أورورا»، ميل أند جارديان، 13 أغسطس 2010، http://mg.co.za/article/2010-08-13-mystery-of-aurora-corpses.

(20) وقد ذكر جامع موضوعي صدر في العام 2001: بيتر جاسترو، السرقة من مناجم ومحطات التصفية Refineries بجنوب أفريقيا، الفصل الثاني، «سرقة إنتاج الذهب Product Theft of Gold»، أفرودة رقم 54، 2001، معهد الدراسات الأمنية، http://www.iss.co.za/Pubs/Monographs/No54/Chap2.html

(21) مارتن كريمر، «القضاء المبرم على أعمال التنقيب الإجرامي في منجم باربرتون»، أسبوعية التنقيب Mining Weekly، 10 سبتمبر 2010، http://www.minigweekly.com/article/barbertone-criminal-mining-smashed.

(22) إنتاج شركة جولد فيلدز مأخوذ عن http:www.goldfields.co.za/ops_south_deep.php؛ سعر الذهب مأخوذ عن كيتكو Kitco http://www/kitco.com/scripts/hist_charts/yearly_graphs.plx

(23) أرباح الربع الرابع من العام 2011 لشركة جولد فيلدز مأخوذة عن http://www.iol.co.za/business/companies/gold-fields-profits-increase-1.1236780#.Ubmm2JXXf0A

(24) (فارنا، بلغاريا: دار نشر سلافينا، 2006).

(25) لمعلومات عن تاريخ ابتكار النقود، انظر بيتر بيرنشتاين، سطوة الذهب The Power of Gold: قصة استحواذه على الإنسان (نيويورك: جون وايلي أند سانز، 2000)، 32.

(26) مرجع سبق ذكره، 110.

## الفصل الثاني

(1) انظر على سبيل المثال:

http://www.classicalfencing.com/horsetraining.php;

http://www.pbs.org/gunsgermssteel/pdf/episode2.pdf

(2) بيرنشتاين، سطوة الذهب The Power of Gold، 113.

(3) انظر جينفر ماركس، سحر الذهب (نيويورك: دوبلدي، 1978)، 24 -322؛ ريتشارد كوين mygelologypage.ucdavis.edu/cowen/~GEL115ch8.html. وأنا أفضل الرقم الذي أورده كوين باعتباره الأحدث.

(4) http://www.clio.missouristate.edu/chuckiak/hst%20350-theme%209-spanish-weapons-and-armor.html

(5)http://www.chnm.gmu.edu/worldhistorysources/sources/conquestof-newspain.htm

(6) فري بيرناردينو دي ساهاجيون، «مالينشي تتوسل إلى المكسيكيين مساعدة الإسبان»، مخطوطة فلورنتين، الكتاب 12، الفصل 18، http://www.faculty.fullerton.edu/nfitch/nehaha/aztec11.html؛ أيضا على موقع: http://www.historians.org

(7) بيرنشتاين، سطوة الذهب، 122-23.

(8) جون هيمينج، غزو الإنكا Conquest of the Inca (لندن، ماكميلان، 1970؛ نسخة منقحة، بينجوين، 1983)، 60.

(9) ماريا روستوروسكي دي ديز كانسيكو، تاريخ مملكة الإنكا (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1999)، 182.

(10) ليسل كلارك، «إمبراطورية الإنكا المفقودة»، 11 يناير 2000، http://www.pbs.org/wgbh/nova/ancient/lost-inca-empire.html

(11) هيمينج، غزو الإنكا، 101.

(12) فاليري إي. أندرشكو وجون دبليو فيرانو، «نقب الجمجمة trepanation في مرحلة ما قبل التاريخ في منطقة كوتزكو بالبيرو: لمحة عن ممارسات سكان الأنديز القدماء»، مجلة علم الإنسان المادي الأمريكية American Journal of Physical Anthropology، 137 (2008): 4- 13.

(13) هيمينج، غزو الإنكا، 25.

(14) مرجع سبق ذكره، 26.

(15) أسلاف الإنكا، مرجع سبق ذكره، 121.

(16) مرجع سبق ذكره، 29.

(17) مرجع سبق ذكره، 30.

(18) وصف زحف الإسبان نحو كاجاماركا، إذ التقوا أولا بأتاوالبا، وكل الوقائع انتهاء بالهجوم على أتاوالبا ومذبحة الإنكا، مرجع سبق ذكره، 43 -31.

(19) مرجع سبق ذكره، 45.

(20) مرجع سبق ذكره، 49.

(21) لم يكن الذهب أكثر المواد قيمة، انظر بين روبرتس Ben Roberts، الرئيس الأسبق لقسم ما قبل التاريخ، المتحف البريطاني، لندن، ويعمل حاليا في الهيئة التدريسية بجامعة دورهام.

(22) هيمينج، غزو الإنكا، 48.

(23) مرجع سبق ذكره، 65. يذكر هيمينج أن وزن المذبح كان 19 ألف بيزو، وقد أجريتُ عملية التحويل باستخدام النسبة: 1 بيزو = 27.5 جرام.

(24) أثر العناصر الفنية الآسيوية؛ انظر بيرنشتاين، سطوة الذهب، 129.

(25) مرجع سبق ذكره، 130؛ معدل التحويل مأخوذ عن:
http://www.measuringworth.com

(26) هيمينج، غزو الإنكا، 50-51.

(27) حكم إمبراطور الإنكا من خلال قادة جيشه، ونهب الإسبان لكوتزكو، مرجع سبق ذكره، 55-65.

(28) آخر أيام أتاوالبا، مرجع سبق ذكره، 78 -71.

(29) مرجع سبق ذكره، 83 -80.

(30) وفاة بيزارو، بيرنشتاين، سطوة الذهب، 131.

## الفصل الثالث

(1) انظر التاريخ العام في «أساطيل الكنوز الإسبانية عامي 1715 و1733: وقوع الكوارث البحرية».

http://www.nps.gov/nr/twhp/wwwlps/lessons/129shipwrecks/

(2)http://www.time.com/time/specials/packages/article/0,28804,1860715_1860714_1860704,00.html

(3) إيان كي. ستيل، «الحروب الإمبريالية»، في دليل أوكسفورد للتاريخ العسكري الأمريكي، المحرر، جون وايتكلي تشامبرز، (نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1999)، 327.

(4) بيرنشتاين، سطوة الذهب، 135.

(5) ترحيل اليهود والمسلمين، بيرنشتاين، سطوة الذهب، 140.

(6) ماري تيريز بوير-زامبو، جيسلين دولابلاس ولوسيان جيلارد، النقد الخاص والعملات العامة: أحد تحديات القرن السادس عشر، مترجم. عزيزة آزودي (أرمونك، نيويورك: إم إي شارب، 1994)، 116.

(7) بيرنشتاين، سطوة الذهب، 57 -153.

(8) ستيفن كوين، «صاغة الذهب الصيارفة: القبول المتبادل وعمليات التسوية بين المصارف اللندنية في فترة إعادة الملكية»، اكتشافات في التاريخ الاقتصادي 34 (1997)، 32 -411.

http://www.econ.tcu.edu.quinn/finhist/readings/goldsmith.pdf

(9) أغلال الذهب: معيار الذهب والكساد العظيم، 1919-1939 (نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1996).

(10) آلان بيتي، «زوليك يسعى لعقد مناظرة حول معيار الذهب»، فايننشال تايمز، 7 نوفمبر 2010، http://ft.com/cms/s/0/eda8f512-eaae-11df-b28d-0014feab49a.html#axzz2OfGvMLkz.

(11) انظر على سبيل المثال رون باول Ron Paul، «النقد الحقيقي» Honest Money، http://www.ronpaul.com/on-the-issues/fiat-money-inflation-federal-reserve-2: «إذا كان نقدنا مدعوما (مغطى) بالذهب والفضة... لن يستطيع البعض

أن يجلس في برجه العاجي ويخلق، بكبسة زر، نقودا جديدة. بل لا بد من مزاولة التجارة النزيهة مع أطراف أخرى يتوافر لديها الذهب».

(12) بيرنشتاين، سطوة الذهب، 78.

(13) انظر على سبيل المثال «توماس جيفرسون، فرضيات حول سك النقود»، دستور الآباء المؤسسين، مطبعة جامعة شيكاغو، نسخة شبكة الانترنت، المحررون: فيليب بي كورلاند ورالف ليرنر، http://press-pubs.uchicago.edu/founders/documents/ a1_8_5s5.html

(14) انظر قانون سك النقد، 2 إبريل 1792،
http://www.constitution.org/uslaw/coinage1792.txt

(15) بيرنشتاين، سطوة الذهب، 274.

(16) مرجع سبق ذكره، 201 -199.

(17) انظر أول فقرة من حاشية «الوثائق الأساسية في التاريخ الأمريكي، شراء لويزيانا»، على الشبكة الدولية، مكتبة الكونغرس،
http://www.loc.gov/rr/program/bib/ourdocs/Louisiana.html

(18) للاطلاع على تفاصيل الصفقة، انظر
http://www.baringarchive.org.uk/features_exhibitions/louisiana_purchase

(19) الكونغرس يعدل سعر الذهب، بيرنشتاين، سطوة الذهب، 248.

(20) تيموثي جرين، عالم الذهب الجديد The New World of Gold (نيويورك: ووكر، 1981)، 51.

(21) «فورة ذهب كاليفورنيا»،
http://www.ceres.ca.gov/ceres/calweb/geology/goldrush.html

(22) جرين، عالم الذهب الجديد ، 5.

(23) ريتشارد بي ليتل، ... طريق الذهب: فتنة الذهب عبر العصور (نيويورك: ألينيوم، 1983)، 110.

(24) مورين إي. جانغ، «الرأسمالية تدخل مجال الحفر والتنقيب» في فصل ولاية ذهبية: التنقيب والتنمية الاقتصادية في كاليفورنيا أيام فورة الذهب، المحرران: جيمس جيه راولز وريتشارد جيه أورسي (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1999)، 54 -53.

(25) روبيرت وابلز، «فورة ذهب كاليفورنيا»،
http://www.eh.net/encyclopedia/article/whaples.goldrush

(26) دانييل كورنفورد، «إننا جميعا نحيا حياة الوحوش لا البشر: العمل ورأس المال في فورة الذهب»، في فصل: ولاية ذهبية، 78.

(27) مرجع سبق ذكره، 84.

(28) ماء متجمد وأعمال شاقة: مرجع سبق ذكره، 89.

(29) جانغ، «الرأسمالية تدخل مجال الحفر والتنقيب»، في ولاية ذهبية، 54.

(30) يقدر موقع measuringworth.com القوة الشرائية لخمسمائة مليون دولار في العام 1848 بما يعادل 15 مليارا اليوم.

(31) رسالة بريد إلكتروني موجهة من روبرت وابلز إلى مؤلف هذا الكتاب، بتاريخ 4 مارس 2013.

(32) يعادل إنتاج الذهب تقريبا 2 بالمائة من الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة: وابلز، «فورة ذهب كاليفورنيا».

(33) جرين، عالم الذهب الجديد، 1.

(34) النمو في احتياطيات الذهب لدى بنك إنجلترا Bank of England وبنك فرنسا Bank of France: مرجع سبق ذكره، 9.

(35) مرجع سبق ذكره، 21.

(36) بيرنشتاين، سطوة الذهب، 250.

(37) جرين، عالم الذهب الجديد، 21.

(38) انظر بالتحديد مارك فلاندرو Marc Flandreau، بريق الذهب: فرنسا، نظام المعدن الثنائي، ونشأة معيار الذهب الدولي، 1873 -1848 (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 2004).

(39) بيرنشتاين، سطوة الذهب، 262.

(40) مرجع سبق ذكره، 268.

(41) مرجع سبق ذكره، 268، 253 -252.

(42) مرجع سبق ذكره، 272 -270.

(43) مرجع سبق ذكره، 272.

(44) رون تشيرنو Ron Chernow، آل مورجان The House of Morgan: قصة سلالة مصرفية أمريكية وصعود المالية المعاصرة (نيويورك: مطبعة جروف Grove Press، 1990، الصفحة 17 وما يليها.

(45) مرجع سبق ذكره، الصفحة 74 وما يليها.

(46) مرجع سبق ذكره، الصفحة 74 وما يليها.

(47) مقابلة أجراها المؤلف مع الأستاذ مايكل وودفورد Michael Woodford، جامعة كولومبيا. (لإزالة أي شكوك قد تحيط بموقف الأستاذ وودفورد: أؤكد أنه لا يدعم العودة إلى معيار الذهب البتة).

(48) «في نقد الذهب الخالص A Critique of Pure Gold»، ناشيونال إنترست National Interest، 24 أغسطس 2011،

http://www.nationalinterest.org/article/critique-pure-gold-5741

(49) تيموثي جرين، احتياطيات ذهب المصرف المركزي: منظور تاريخي منذ 1845 (لندن: مجلس الذهب العالمي، 1999)، 18،

http://www.gold.org/download/pub_archive/pdf/Rs23.pdf

## الفصل الرابع

(1) حركة الذهب وانخفاض مخزون الذهب الأمريكي: بيرنشتاين، سطوة الذهب، 323 -311.

(2) للاطلاع على نص الأمر التنفيذي، انظر

http://www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php?pid=14611

(3) «الإدانة الرسمية لمحام باكتناز الذهب»، نيويورك تايمز، 6 أكتوبر 1933،

http://query.nytimes.com/mem/archive/pdf?res=FA0815FB3E541A93C4A9178BD95F478385F9؛ «وفاة فريدريك كامبيل، المحامي»، نيويورك تايمز، 27 ديسمبر 1937، http://query.nytimes.com/mem/archive/pdf?res=F60D14F93C5D12738DDDAE094DA415B878FF1D3

(4) جرين، احتياطيات ذهب المصرف المركزي، 17.

(5) تلاعب روزفلت ومورجينثاو بالأسعار: بيرنشتاين، سطوة الذهب، 322 -321.

(6) http://www.centerforfinancialstability.org/brettonwoods.php

(7) آني لوري، «العثور على النسخة الأصلية لوثيقة مؤتمر بريتون وودز 1944 في وزارة الخزانة»، نيويورك تايمز، 25 أكتوبر 2012، http://www.nytimes.com/2012/10/26/business/transcript-of-1944-bretton-woods-meeting-found-at-treasuty.html

(8) فريد أندروز، «موقعة ثأرية على الساحة المالية العالمية»، مراجعة بين ستيرل Benn Sterl، معركة بريتون وودز، نيويورك تايمز، 2 مارس 2013، http://www.nytimes.com/201303/03//business/bretton-woods-monetary-agreement-examined-in-a-new-book.html

(9) كيف هبطت حصة الولايات المتحدة في الاقتصاد العالمي من 35 بالمائة إلى 27 بالمائة: روجر لوينشتاين، «صدمة نيكسون»، بلومبيرج بيزنسويك، 4 أغسطس 2011، http://www.businessweek.com/magazine/the-nixon-shock-08042011.html

(10) بيرنشتاين، سطوة الذهب، 334.

(11) تراجع الموارد المالية للولايات المتحدة: بيرنشتاين، اقتباسا عن جاك رويف، مرجع سبق ذكره، 339 -338.

(12) بيرنشتاين، سطوة الذهب، 329.

(13) ديجول ينسحب من كارتل الذهب، مرجع سبق ذكره، 341 -339.

(14) كلايد إتش فارنسوورث، «الولايات المتحدة تكسب دعم كارتل الذهب لتثبيت السعر عند 35 دولارا»، نيويورك تايمز، 11 مارس 1968، http://query.nytimes.com/mem/archive/pdf?res=F30E11FE3A55157493C3A81788D85F4C8685F9

(15) إدوين إل. ديل، الابن، «7 دول تدعم سعر الذهب الثنائي، وتحظر البيع للقطاع الخاص، وتتعهد بدعم الدولار»، نيويورك تايمز، 18 مارس 1968، http://query.nytimes.com/mem/archive/pdf?res=FA0D14F93E541A7493CAA81788D85F4C8685F9

(16) تشارلز أشمان، كونالي: مغامرات باد جون الكبير Big Bad John (نيويورك: مورّو، 1974)، 15.

(17) وصف كونالي بأنه «آسر وبهيج وساحر»: هربرت شتاين، علم اقتصاد الرئاسة: صناعة السياسات الاقتصادية منذ أيام روزفلت وإلى عهد ريجان وما بعده (نيويورك: سايمون أند شاستر، 1985)، 162.

(18) مرجع سبق ذكره، 163.

(19) «كان كونالي يوقع الرهبة في نفس نيكسون، وفقا لما جاء في مذكرات هالدرمان»، بالتيمور سن Baltimore Sun، 20 مايو 1994، http://articles.baltimoresun.com/1994-05-20/news/1994140195_1_connally-nixon-new-party

(20) شتاين، علم اقتصاد الرئاسة، 167.

(21) إتش إيريتش هينمان، «تصاعد الهجمات المضاربية على عملة الولايات المتحدة في الخارج؛ تجار العملات الأجانب يبيعون الدولار، وسط حالة من القلق، مع تعزيز الاحتياطي الفدرالي دفاعاته النقدية عبر صفقة مبادلة مؤقتة»، نيويورك تايمز، 13 أغسطس 1971،

http://query.nytimes.com/mem/archive/pdf?=F40C13F9395C1A7493C1A8 1783D5F458785F9

(22) شتاين، علم اقتصاد الرئاسة، 167.

(23) لويس إي. ليرمان، «صدى صدمة نيكسون يتردد حول العالم»، وول ستريت جورنال، 15 أغسطس 2011،

http://online.wsj.com/article/SB1000142405311190400730457649407341880 2358.html

(24) انظر على سبيل المثال التبويب الخاص بكامب ديفيد على الموقع .http://www.nps gov

(25) هينمان، «تصاعد الهجمات المضاربية على عملة الولايات المتحدة في الخارج».

(26) دانيل يرجين وجوزيف ستانيسلو، المرتفعات المهيمنة: حرب بين الحكومة والسوق تعيد تشكيل وجه العالم المعاصر (نيويورك: سايمون أند شاستر، 1998)، 62.

(27) إدوارد هدسون، «وفاة لورن جرين، رائد التلفاز»، نيويورك تايمز، 12 سبتمبر 1987، http://www.nytimes.com/1987/09/12/arts/lorne-greene-tv-partriarch-is-dead.html.

(28) يرجين وستانيسلو، المرتفعات المهيمنة، 63.

(29) «الهبوط الحاد لقطاع السندات الأوروبية المصدرة بالدولار»، نيويورك تايمز، 16 أغسطس 1971، http://query.nytimes.com/mem/archive/pdf?res=FB0D10 .FD3D591A7493C4A81783D85F458785F9

(30) يتوافر نص كلمة إعلان نيكسون (المعروف بصدمة نيكسون) لدى مشروع الرئاسة الأمريكية American Presidency Project، جامعة كاليفورنيا، سانتا باربارا، //http .www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php?pid=3115&st=&st1

(31) «البورصات في طوكيو تتخلص من الدولار»، نيويورك تايمز، 16 أغسطس 1971، //:http query.nytimes.com/mem/archive/pdf?res=F70A12FD3D591A7493C4A .81783D85F458785F9

(32) شتاين، علم اقتصاد الرئاسة، 180.

(33) فلويد نوريس، «بجعل الذهب في دائرة الضوء، التاريخ يعيد نفسه»، نيويورك تايمز، 2 فبراير 2012. business/in-rise-of-/03/02/http://www.nytimes.com/2012 .gold-bugs-history-repeats-itself.html?pagewanted=all

## الفصل الخامس

(1) رالف جيه. روبرتس، شغف بالذهب A Passion for Gold: سيرة ذاتية (رينو: مطبعة جامعة نيفادا، 2002)، 28.

(2) مرجع سبق ذكره، 47.

(3) مرجع سبق ذكره، 49.

(4) مرجع سبق ذكره، 34.

(5) «السياق التاريخي لأعمال التنقيب في نيفادا»، مكتب نيفادا للمناجم والجيولوجيا، نشرة إخبارية فصلية، خريف العام 1993،

http://www.nbmg.unr.edu/dox/nl/n120.htm

(6) روبرتس، شغف بالذهب، 34.

(7) مرجع سبق ذكره، 40-43.

(8) أرنولد هيج وإس إف إيمونز، «الجيولوجيا الوصفية»، في التنقيب الجيولوجي في الولايات المتحدة عند دائرة العرض الأربعين، المحرر كليرنس كينج (واشنطن العاصمة: مكتب المطبوعات الحكومية للولايات المتحدة، 1877)، 601. وقد جرى تحويل المجلدات إلى نسخة رقمية من قبل مكتبة بوسطن العامة، وهي موجودة على الشبكة الدولية، ويمكن الاطلاع على المجلد الخاص بالجيولوجيا على العنوان:
http://www.archive.org/stream/descriptivegeolo00hag#page/n11/mode/2up

(9) روبرتس، شغف بالذهب، 41.

(10) دين جي. هيث، «تاريخ احتياطيات نيومونت في سلسلة جبال كارلين تريند Carlin Trend، 1965-2001»، في جيوب الذهب في سلسلة جبال كارلين تريند، المحررون تومي بي. تومبسون ولويس تيل وريتشارد أو ميوبج (رينو: نشرة مكتب نيفادا للمناجم والجيولوجيا 111، جامعة نيفادا، 2002)، 35 ff ...،
http://www.nbmg.unr.edu/dox/b111/history.pdf

(11) روبرتس، شغف بالذهب، 44.

(12) مرجع سبق ذكره، 19 -12.

(13) مرجع سبق ذكره، 83.

(14) زوجة روبرتس، أرليدا: مرجع سبق ذكره، 53 - 51، 29 -28.

(15) مرجع سبق ذكره، 84.

(16) جيه آلان كووب، تاريخ اكتشاف كارلين تريند: اكتشاف الجيب الفلزي في سلسلة جبال كارلين (رينو: مطبوعة خاصة صادرة عن مكتب نيفادا للمناجم والجيولوجيا، الرقم 13، جامعة نيفادا، 1991)، 5، http://www.nbmg.unr.edu/dox/sp13.pdf

(17) شغف بالذهب، 86.

(18) مرجع سبق ذكره، 87.

(19) مرجع سبق ذكره، 88.

(20) «مخطط تركز قطاعات المناجم في وسط - شمال نيفادا»، الورقة البحثية للمسح الجيولوجي للولايات المتحدة B17-B19، 1960، 400-B.

(21) «صحافي طليق: الذهب الخفي»، نيويوركر New Yorker، 24 إبريل 1989، 70 -69.

(22) مرجع سبق ذكره، 62. انظر أيضا: «جون سيلي ليفرمور»، 2003 -1918، نعوة في نابا فالي ريجستر Napa Valley Register، 14 فبراير 2013، http://napavalleyregister.com/obituaries/john-sealy-livermore/article_3048b3d8-7646-11e2-9e18-0019bb2963f4.html

(23) سيبروك، «صحافي طليق: الذهب الخفي»، 65.

(24) جون سيلي ليفرمور، «المنقب والجيولوجي ونصير الموارد العامة: اكتشاف منجم كارلين، 1961؛ فورة الذهب بنيفادا، سبعينيات القرن العشرين»، التنقيب الغربي في القرن العشرين- سلسلة التاريخ المروي شفاهة Oral History Series (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 2011)، 29؛ يمكن التصفح على الرابط
http://bancroft.berkely.edu/ROHO/projects/mining/

(25) سيبروك، «صحافي طليق: الذهب الخفي»، 65.

(26) مرجع سبق ذكره، 68.

(27) ليفرمور، التاريخ المروي شفاهة، مرجع سبق ذكره، 66.

(28) مرجع سبق ذكره، 68.

(29) سيبروك، «صحافي طليق: الذهب الخفي»، 73.

(30) أكبر حقول الذهب في أمريكا: لويس تيل وماك جاكسون، «نبذة جيولوجية عن جيوب الذهب في كارلين تريند»، في فصل جيوب الذهب في كارلين تريند، 9.

## الفصل السادس

(1) للاطلاع على أسعار الذهب التاريخية انظر
http://www.kitco.com/charts/historicalgold.html؛ http://www.kitco.com/gold.londonfix.html

(2) «أسعار الذهب تعود إلى الصعود بحدة في غمرة «حمى الشراء»»، أسوشيتد بريس، 28 ديسمبر 1979،
http://query.nytimes.com/mem/archive/pdf?res=F00A1EF73F5410728DDDA10A94DA415B898BF1D3

(3) للتفاصيل حول بدايات عائلة مانك: آنا بورتر، قطار كاتزنر: القصة الحقيقية لريتسو كاتزنر، بطل الهولوكوست (المحرقة) المجهول (تورنتو: دوجلاس أند ماكإنتاير، 2007)، 222 وما بعدها.

(4) انظر على سبيل المثال نينا مانك وراتشل جوتليب، فن كليرتون: نشأة أيقونة التصميم، 1958- 1971، (تورنتو: مكليلاند أند ستيوارت، 2008)، http://www.clairtone.ca/projectg/

(5) http://www.youtube.com/watch?v=K7wiQ1At_9Q

(6) نينا مانك، «درس كليرتون»، كاناديان بيزنس، 12 مايو 2008، 42. أيضا، http://www.ninamunk.com/documents/ClairtoneLesson.htm، تحت العنوان الرئيسي: «خطأ رائع ارتكبه والدي».

(7) مرجع سبق ذكره.

(8) لتفاصيل عن فنادق مانك، ولقائه باللورد إينشكاب: مايكل بونزر، «تأملات بيتر مانك حول النجاح»، جلوب أند ميل، تورنتو، 18 فبراير 2011،
http://www.theglobeandmail.com/news/national/peter-munks-reflections-on-being-a-winner/article567172/?page=all

(9) ريتشارد رومر، العنقاء الذهبية، السيرة الشخصية لبيتر مانك (تورنتو: كي بورتر بوكس Key Porter Books، 1997)، 9.

(10) بوزنر، «تأملات بيتر مانك حول النجاح».

(11) انظر على سبيل المثال ليزل هيل، «باريك Barrick تعتزم إطلاق موجة من عمليات بيع أصول التنقيب عن الذهب في العام 2013»، بلومبيرج، 8 يناير 2013،
http://www.bloomberg.com/news/2013-01-08/barrick-seen-leading-gold-asset-sales-in-2013-corporate-canada.html، ووصف فيها باريك بأنها «كبرى الشركات المنتجة للمعدن النفيس»؛ تيفيس تيم، «لايزال ذهب باريك يتلألأ على الرغم من ارتفاع تكاليفه واقتطاعات مخصصات الاضمحلال»، فوربس، 19

فبراير 2013، /http://www.forbes.com/sites/greatspeculations/2013/02/19 barrick-gold-can-still-sparkle-despite-higher-costs-and-impairment-charges-in-results/، حيث وصفت شركة باريك بأنها: «كبرى الشركات المنتجة للذهب في العالم».

(12) بيان نمو شركة باريك مأخوذ عن مقابلات مع بيتر مانك وآلان هيل، ومن كتاب بيتر سي نيومان: أحلام ومكاسب: قصة شركة باريك Dreams and Rewards: The Barrick Story (تورنتو: ذهب باريك، 1996).

(13) انظر «عملاق الذهب الممتاز: كيف بنى بيتر مانك كبرى شركات الذهب في العالم من الصفر في 25 عاما فقط» Jolly Gold Giant: How Peter Munk Built the World's Biggest Gold Miner from Scratch in Just 25 Years، مجلة ذي إيكونوميست، 17 إبريل 2008،

http://www.economist.com/node/11045502

(14) لتفاصيل قصة نجاح جولد سترايك انظر على سبيل المثال كلايد إتش فارنسوورث، «نبذة شخصية/ بيتر مانك: ضربة الحظ الذهبية وعمليات التحوط العقلانية تسعد حملة أسهم شركته»، نيويورك تايمز، 30 مايو 1993،

http://www.nytimes.com/1993/05/30/business/profile-peter-munk-lucky-gold-strike-wise-hedging-help-keep-his-shareholders.html?pagewanted=all&src=pm.

(15) قدم لي بيتر مانك وريتشارد يونج شرحا لآليات البيع الآجل. يعمل يونج رئيسا عاما ورئيسا تنفيذيا لشركة تيرانجا للذهب Teranga Gold Corporation، وهو خبير مالي متمرس في مجال مناجم الذهب وأيضا في شركة باريك Barrick.

(16) «باريك تعتزم بيع أسهم بقيمة 3 مليارات دولار لإعادة شراء استثمارات التحوط»، رويترز، 8 سبتمبر 2009،

http://www.reuters.com/article/2009/09/08/us-barrick-hedge-idUSTRE58767F20090808

## الفصل السابع

(1) انظر على سبيل المثال ماريا كوليسنيكوفا، «الدول العشر الأولى في إنتاج الذهب في العام 2011»، بلومبيرج، 5 أبريل 2012، -http://www.bloomberg.com/news/2012/04 05/top-10-gold-producing-countries-in-2011-table.html؛ للمعلومات حول صعود الصين إلى الصدارة محل جنوب إفريقيا في العام 2007: شو-تشينج جين تشين، «الصين تتصدر منتجي الذهب في العالم العام 2007»، فوربس، 18 يناير 2008، //:http www.forbes.com/2008/01/18/china-gold-production-markets-econ-cx_jc_0118markets02.html

(2) تفوق الصين الوشيك على الهند في حجم الطلب الكلي على الذهب: شركة جولد فيلدز لخدمات المعادن GFMS»، رويترز، 8 نوفمبر 2012، /http://in.reuters.com article/2012/11/08/gold-china-gfms-india-idINDEE8A706R20121108

(3) كوليسنيكوفا، «الدول العشر الأولى في إنتاج الذهب في العام 2011».

(4) الكتاب الأصفر: جونج رانتان وجو فينجسان، تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان مع

استعراض لواقع صناعة الذهب في جمهورية الصين الشعبية، رئيس التحرير، وي يوجي (مطبعة تشاينا أوشين وبليسر دوم تشاينا المحدودة، 2004)، 4.

(5) مرجع سبق ذكره، 54 -53.

(6) ودليل ذلك معدن الزنجفر Cinnabar: مرجع سبق ذكره، 7 -2.

(7) مرجع سبق ذكره، 34.

(8) كريستين إي جيرلينج وبيتر جيه بيترسون، «الذهب في النبات»، نشرة الذهب Gold Bulletin 13، الرقم 4، (ديسمبر- 0891): 151- 157، http://www.links.springer.com/article/10.1007/BF03215461?LI=true

(9) كريستوفر دبليو إن أندرسون، وروبرت آر بروكس وروبرت بي ستيوارت وروبين سيمكوك، «حصاد محصول الذهب في النباتات»، مجلة نيتشر Nature 8، أكتوبر 1988، العدد 395، 553 - 554، http://www.nature.com/nature/journal/v395/n6702/full/395553a0.html

(10) جين روس، «ظهور المعادن الثمينة في النباتات»، كريستشيان ساينس مونيتور، 14 أبريل 2004، http://www.csmonitor.com/2004/0415/p17s02-sten.html

(11) فكتور ويلسون - كورال ومايرا رودريجز- لوبيز وجويل لوبيز- بيريز وميغل أريناس- فارجاس وكريستوفر أندرسون، «استخراج الذهب من النباتات النامية في التربة القاحلة والتربة شبه القاحلة»، ورقة علمية قدمت في المؤتمر الدولي لعلوم التربة، 6 -1 أغسطس 2010، بريزبن، أستراليا، http://www.iuss.org/19th%20WCSS/Symposium/pdf/1594.pdf

(12) جونج وجو، تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان، 43.

(13) احتياطيات ذهب الصين تعادل احتياطيات الذهب لدى الرومان: مرجع سبق ذكره، 3.

(14) مرجع سبق ذكره، 6.

(15) مرجع سبق ذكره، 7. انظر أيضا «وي شونجزيان - أقوى الخصيان وأشهرهم في تاريخ الصين»، الصين الثقافية Cultural China، http://history.cultural-china.com/en/47History6380.html؛ «وي شونجزيان»، الموسوعة البريطانية، http://www.britannica.com/EBchecked/topic/638872/Wei-Zhongxian

(16) جونج وجو، تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان، 10.

(17) مرجع سبق ذكره، 11. يستخدم جونج وجو الرقم 432000 ليانج (وحدة وزن) liang. وقد استخدمتُ في حساب هذا الرقم أداتي تحويل متوافرتين على الشبكة الدولية: http://www.coverter-me.com/en/convert/weight/cliang.html http://www.convertercenter.com/chinese-liang. أعطت كل أداة تحويل وزنا متريا قدره 21.6 مليون جرام، وقد قسمت ذلك على 31 لتحويله إلى نظام تروي Troy، فكانت النتيجة 696774 أوقية.

(18) وصف الاحتلال الياباني، جونج وجو، تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان، 64 وما بعدها.

(19) انظر على سبيل المثال رودريك ماكفاركوار وماكيل شكوينلز، «الرعب الأحمر»، الفصل 7، آخر ثورات ماو (كامبردج، مطبعة جامعة هارفارد، 2006)، 131 -117.

(20) تأسيس جيش الذهب، جونج وجو، «تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان»، 91.

(21) للتفاصيل حول صعود جو، انظر جو فيتجسان وجريج هول، جيولوجي استشاري أسترالي، وصديق جو. يعمل هول مديرا لأربع شركات تنقيب عن الذهب، ومن بينها شركة تشاينا جولد إنترناشيونال المحدودة، ويمتلك حصة الأغلبية فيها مجموعة الذهب

الوطنية الصينية المملوكة من الحكومة. وقد عمل مديرا تنفيذيا للشركة الأسترالية التابعة لشركة بلايسر دوم، وهي من كبرى شركات التنقيب (استحوذت عليها شركة باريك فيما بعد) التي دخلت الصين في العام 1997 للبحث عن الأراضي الصالحة للتنقيب عن الذهب.

## الفصل الثامن

(1) مقابلات أجراها جريج هول وجو فينجسان مع المؤلف. لكن انظر أيضا ويليام إل. ماكبرايد، الابن، ووانج بيي، «لمحة عن قانون التنقيب الصيني»، وهو متوافر بنسخته الإلكترونية (بي دي إف) لدى جاو وشاناهان وجونسون ووترمان، وهي شركة محاماة تعمل في مجال الموارد الطبيعية مقرها مونتانا. وتذكر الورقة العلمية أن قانون التنقيب لم يتغير حتى العام 1996، لكنها تشير إلى أن «الضوابط الرقابية صدرت في العامين 1993 و1994»، http://www.gsjw.com/catalogs/catalog110/section174/file51.pdf

... في 13 مارس 2013، وفي بريد إلكتروني تسلمه المؤلف، أشار ماكبرايد إلى أن الضوابط الرقابية الصادرة في العام 1993 كانت إشارة من الصين إلى أن استثمارات التنقيب الأجنبية ستكون محل ترحيب في ظل الحزمة الجديدة من قوانين التنقيب التي كانت تعكف الصين على صياغتها.

(2) المسح الجيولوجي للولايات المتحدة، «إحصاءات ومعلومات حول الذهب»، http://minerals.usgs.gov/minerals/pubs/commodity/gold/.

(3) جريج هول، مقابلة مع المؤلف. انظر أيضا العرض التقديمي الذي ألقاه هول في مؤتمر اتحاد المنقبين والمطورين الكندي Prospectors and Developers Association of Canada، 2003، http://www.pdac.ca/pdf-viewer?doc=/docs/default-source/publications-papers-presentations-conventions/hall.pdf

(4) وصف تجربة ماندورو Mundoro مأخوذ عن مقابلة أجراها كولين ماك آلينان مع المؤلف. وقد تحققتُ من التفاصيل الواردة في رواية ماك آلينان للأحداث عن طريق مصرفي استثماري على معرفة بالقصة، وقد اشترط لأسباب تجارية عدم ذكر اسمه. وقد أشار إلى أن شركات التنقيب عن الذهب الغربية لم تبل بلاء حسنا، بصفة عامة، في الصين. وأكد بريد إلكتروني وارد من richdad.com أن روبرت كيوساكي كان في عداد المستثمرين، اما فرانك كريري فهو الآن في عداد الأموات.

(5) انظر البيان الصحافي الصادر عن الشركة، 4 ديسمبر 2003. (للاطلاع على الوثائق المتاحة للعموم مثل البيانات الصحافية وتقارير التغيرات الجوهرية لدى الشركات الكندية المدرجة (في أسواق الأسهم)، انظر: http://www.sedar.com ويمكن التصفح من خلال تبويب «وصف الشركة» Company Profile. ويدار نظام سيدار SEDAR من قبل مؤسسة إدارة الأوراق المالية الكندية Canadian Securities Administrators ويمثل السلطات الرقابية في كل الأقاليم والمقاطعات الكندية.

(6) انظر على سبيل المثال «شركة ساوثويسترن ريسوروسز: نتائج التنقيب الإيجابية، مشروع ذهب بوكا Boka Gold Project، إقليم يونان، الصين»، بيزنس واير Business Wire، 31 أغسطس 2005، http://www.businesswire.com/news/home/20050831005839/en/Southwestern-Resources-Corp.-Positive-Drill-Results-Boka.

(7) بريان هاتشنسون، «نتائج أعمال منجم الذهب تتجاوز التوقعات»، ناشيونال بوست، 22 ديسمبر 2010. (انتهت مدة صلاحية رابط الإنترنت الخاص بهذه الواقعة).

(8) شاو دا، «تأخر إنجاز مشروع التنقيب عن الذهب بيونان»، china.org.cn، 5 سبتمبر 2006، http://www.china.org.cn/english/2006/Sep/180144.htm

(9) هاتشينسون، «نتائج أعمال منجم الذهب تفوق التوقعات»؛ ومن ذلك جملة باترسون: ديفيد بينز، «الحكم على جيولوجي سابق بالسجن ست سنوات للتلاعب في معايرة الفلز»، فانكوفر سن، 18 يناير 2013، http://www.vancouversun.com/business/David+Baines+Former+geologist+sentenced+years+prison+assay+fraud/7841963/story.html

(10) انظر بيان ماندورو للتنقيب، 6 أكتوبر 2004، http://www.sedar.com

(11) انظر رأسمال ماندورو، 2 أغسطس 2011، وهو بيان صحافي صدر بمناسبة قبول الصفقة، ويصفها بأنها: أفضل بديل حاليا لحملة أسهم ماندورو للمشاركة في تطوير مشروع ذهب ماولينج مستقبلا، http://www.serdar.com

(12) جي. دي. جيانج، نائب رئيس الإنتاج والمدير التنفيذي، شركة تشاينا جولد إنترناشيونال ريسوروسز (موارد الذهب الدولية الصينية) China Gold International Resources Corp. المحدودة، مقابلة مع المؤلف.

(13) فريدلاند المليارديرز: «مليارديرات العالم»، فوربس. في مارس 2013، ذكر أن ثروة فريدلانك بلغت 1.8 مليار دولار: http://www.forbes.com/profile/robert-friedland/. فريدلاند الملقب توكسيك بوب Toxic Bob: انظر على سبيل المثال سكوت كوندون، توكسيك بوب مقارنة بالجيران الأثرياء، أسبن تايمز Aspen Times، 16 يوليو 2009، http://www.aspentimes.com/article/20090716/NEWS/907159977؛ ديفيد روبرتسون، «اعتراف توكسيك بوب بالهزيمة في الصراع على السلطة»، تايمز Times (لندن)، 19 إبريل 2012، http://www.thetimes.co.uk/tto/business/industries/naturalresources/article3388506.ece؛ جوشوا زابف، «روبرت فريدلاند»، mining.com، 29 يونيو 2012، http://www.mining.com/robert-toxic-bob-friedland-49502/. تسرب سيانيد فريدلاند: «تسوية دعوى تسرب السيانيد في كولورادو»، نيويورك تايمز، 24 ديسمبر 2000، http://www.nytimes.com/2000/12/24/us/cyanide-spill-suit-is-settled-in-colorado.html

(14) اعتمدت على جي. دي. جيانج في الحصول على التسلسل التاريخي للدور الذي أداه فريدلاند/ جينشان في موقع تشانج شان هاو، باعتبار صلته الوثيقة بأعمال التطوير منذ انطلاقها. يمكن الاطلاع على البيانات الصحافية لجينشان وأبرز التصريحات الصادرة عنها عبر موقع شركة الذهب الدولية الصينية، التي استحوذت على شركة جينشان: http://www.chinagoldintl.com، مع إدخال كلمة «جينشان» Jinshan في خانة البحث.

(15) انظر المسح الجيولوجي والإحصاءات والمعلومات حول الذهب - الولايات المتحدة http://minerals.usgs.gov/minerals/pubs/commodity/gold/

(16) جي. دي. جيانج وجريج هول، مقابلات مع المؤلف. انظر على سبيل المثال «كبح جماح فورة ذهب المستثمرين الأجانب في الصين»، http://www.chinastakes.com/2008/4/foreign-investors-gold-rush-in-china-restricted.html

(17) تريش سيويل، «إيفانهو تبيع حصتها في جينشان»، نورثرن ماينر Northern Miner،

21 أبريل 2008، http://northerminer.com/news/invanhoe-sells-jinshan-stake/1000220684/. انظر أيضا «مناجم إيفانهو تعتزم بيع حصة مسيطرة في مناجم ذهب جينشان إلى شركة مجموعة الذهب الوطنية الصينية»، بيان صحافي مشترك صادر عن الطرفين، 10 أبريل 2008، http://www.turquoisehill.com/i/pdf/2008-04-10_NR.pdf

(18) إيوان روغا، «خروج فريدلاند بعد إبرام إيفانهو وريو صفقة تمويلية»، رويترز، 18 أبريل 2012، http://www.uk.reuters.com/article/2012/04/18/uk-ivanhoe-rio-id-UKBRE83H0WL20120418؛... إيان أوستن، «استقالة الرئيس الإداري لأعمال التنقيب على هامش الصفقة التي عقدت مع ريو تينتو»، نيويورك تايمز، 18 أبريل 2012، http://dealbook.nytimes.com/2012/04/18/mining-chief-resigns-as-part-of-deal-with-rio-tinto

(19) بين وودهيد، «موطن مليون من مليونيرات الصين»، بيزنس ريفيو ويكلي Business Review Weekly، أغسطس 2012، http://www.brw.com.au/p/sections/eco/where_china_million_millionaires_hlqEoC5O8nBfGHR8YNcMwJ؛ انظر أيضا كريس ليم، «مليونيرات أوردوس يذكون طفرة عقارية في منغوليا الداخلية inner»، channelnewsasia.com، 29 أغسطس 2011، http://www.allvoices.com/news/10186482-ordos-millionaires-fuelling-property-boom-in-inner-mongolia.

(20) أندرو جاكوبس، «الصين تسعى إلى إرضاء المنغوليين»، نيويورك تايمز، 29 مايو 2011، http://www.nytimes.com/2011/05/30/world/asia/30mongolia.html

(21) «الصين تعدم سائق شاحنة دهس راعي ماشية منغوليا»، أسوشيتد بريس، 25 أغسطس 2011، http://www.guardian.co.uk/world/2011/aug/25/china-truck-driver-executed-mongolian-herder.

(22) جي دي جيانغ، مقابلة مع المؤلف؛ توقعات توسع أعمال الاستخراج والإنتاج مأخوذة عن: «شركة تشاينا جولد إنترناشيونال ريسوروسز تعرض بيانات عامة أولية عن أعمال التشغيل والإنتاج والاستكشاف في العام 2012 والنظرة المستقبلية في العام 2013»، http://www.chinagoldintl.com/i/pdf/NR-Jan-29-2013.pdf

(23) لمعلومات عن حجم الخطوط الحديدية الصينية China Railway، انظر على سبيل المثال وو جونغ، «الإبلاغ عن مخالفات الأخ الأكبر»، أشيا تايمز Asia Times، 7 مايو 2008، http://www.atimes.com/atimes/China/JE07Ad01.html

(24) «اتهام وزير السكك الحديدية الصيني السابق ليو جيجان بالفساد»، أخبار بي بي سي BBC، 10 أبريل 2013، http://www.bbc.co.uk/news/world/asia-china-22089011.

(25) جونج و جو، « تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان»، 92 -91. ويورد جونج وجو ما جاء في: «تعميم حول النقاط الأساسية في مسألة زيادة إنتاج الذهب والفضة»، الصادر في 30 أغسطس 1985، من قبل مجلس الدولة State Council، بحيث أشار بصورة مجتزأة إلى الغاية منه: «إحياء اقتصاد الذهب والاهتمام بصناعة الذهب».

(26) جي. دي جيانغ، مقابلة مع المؤلف؛ انظر أيضا جونج وجو، « تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان»، 94.

(27) جونج وجو، « تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان»، 117 -102.

(28) جيمس إل. تايسون، «المزارعون يلقون مجارفهم، وينصرفون إلى التنقيب عن الذهب»، صحيفة كريستشيان ساينس مونيتور، 21 نوفمبر 1989، http://www.csmonitor. drush.html/1121/com/1989

(29) جونج وجو، «تاريخ التنقيب عن الذهب في جاويوان»، 117.

(30) مرجع سبق ذكره، 118.

(31) مرجع سبق ذكره، 30.

(32) مرجع سبق ذكره، 31.

(33) باتريك إي. تايلر، «صائدو الذهب، يتحدون بكين، وينقبون في مناطق شاسعة في أرياف الصين»، نيويورك تايمز، 17 يوليو 1995، http://www.nytimes.com/1995/07/17/world/gold-hunters-defying-beijing-mine-vast-areas-of-rural-china.html?pagewanted=all&src=pm

(34) مارك هاو، «البدو الرحل التبتيون يشتبكون مع شركات التنقيب عن الذهب بسبب الجبل المقدس Sacred Mountain»... mining.com، 13 أغسطس 2012، http://www.mining.com/tibetan-nomads-clash-with-chinese-gold-miners-over-sacred-mountain-50519

(35) تقرير الذهب الصيني China Gold Report: الذهب في سنة النمر (لندن: مجلس الذهب العالمي، 2010)، 63 -62.

(36) انظر على سبيل المثال ليزل هيل، «إيامجولد Iamgold تشهد وصول سعر «ذهب الذروة» إلى مستوى 2500 دولار، بلومبيرج، 17 يناير 2013، http://www.bloomberg.com/news/2013-01-17/iamgold-sees-peak-gold-forging-2500-price.html. أمبروس إيفانز بريتشارد، «باريك تغلق مركزها التحوطي مع نضوب عرض الذهب العالمي»، تيلجراف، 11 نوفمبر 2009، http://www.telegraph.co.uk/finance/newsbysector/industry/mining/6546579/Barrick-shuts-hedge-book-as-world-gold-supply-runs-out.html؛ ريتشارد كير، هل بات العالم على أعتاب ذهب الذروة؟، ساينس Science، 2 مارس 2012، 1038- 1039، http://www.sciencemag.org/content/335/6072/1038.

## الفصل التاسع

(1) المسح الجيولوجي للولايات المتحدة، «إحصاءات ومعلومات حول الذهب»، http://minerals.usgs.gov/minerals/pubs/commodity/gold/. إنتاج العالم من الذهب في العام 2012: 2700 طن. كمية الذهب المتوافرة حاليا نسبة إلى واردات إسبانيا من الذهب في القرن السادس عشر: ليس ثمة أرقام موثوق بها لإنتاج الذهب، لكن هذه حساباتي التخمينية. وقد استقيت كمية المعروض العالمي ما قبل القرن السادس عشر، وقدرها 42 طنا، من بيرنشتاين. سطوة الذهب (متران مكعبان). وفي القرن السادس عشر حقق العرض العالمي نموا بنحو خمسة أضعاف. وعلى هذا الأساس، 210 أطنان مطروحا منها 42 يساوي 168 طنا هو إنتاج القرن، أو 1.68 طنا في العام. وبقسمة 2700 طن على 1.68 نحصل على 1607 أضعاف الإنتاج السابق.

(2) استقيت رقم الإنتاج لعام 2011، البالغ 2700 طن متري، من المسح الجيولوجي للولايات المتحدة، وتم التحويل بواقع 31 جراما = أوقية، واستخدمت سعرا وسطيا للذهب قدره

1650 دولارا العام 2011.

(3) جاك فارتشي، «قياس حجم سوق الذهب»، فاينانشال تايمز، 9 سبتمبر 2011، http://www.ft.com/cms/s/0/eb342ad4-daba-11e0-a58b-00144feabdc0.html#axzz2NiR9WqWu

(4) انظر http://www.goldfixing.com، وأيضا على سبيل المثال روبرت دي. هيرشي، الابن، «تسعير الذهب: تقليد لتدني»، نيويورك تايمز، 12 فبراير 1979، http://query.nytimes.com/mem/archive/pdf?res=FA0E1EFD3A5413718DDDAB0994DA405B898BF1D3

(5) انظر فراتشي، «قياس حجم سوق الذهب»، لكنني تحققت من هذه العملية الحسابية: 11 مليار أوقية تساوي 341 مليار جرام، وتساوي 341 ألف طن متري وتساوي ضعف إنتاج العام 2011 البالغ 2700 طن متري (المأخوذ عن المسح الجيولوجي للولايات المتحدة) وضعفي كمية 170 ألف طن متري في العالم أجمع.

(6) وصف صندوق سبايدر مأخوذ من مقابلات أجراها المؤلف مع جيسون توسينت وجورج ميلينج - ستانلي، وهما مديران تنفيذيان لسبايدر جولد شيرز SPDR Gold Shares.

(7) في ذلك الحين، بلغت احتياطيات الصين المصرح عنها نحو ألف طن، على الرغم من الاعتقاد السائد أن لدى المصرف أكثر من ذلك. انظر «قد تعلن الصين قريبا مضاعفة حجم احتياطياتها من الذهب»، بيزنس إنسايدر Business Insider، 22 يناير 2013، http://www.businessinsider.com/russia/-turkey-ukraine-buy-gold-but-8-bullion-tiny-part-of-fx-reserves-2012؛ «أكبر احتياطيات الذهب في العالم»، سي إن بي سي CNBC، http://www.cnbc.com/id/33242464/page/10.

(8) انظر على سبيل المثال «سوروس يضاعف رهانه على الذهب»، نيويورك تايمز، 2 فبراير 2010، dealbook.nytimes.com/2010/02/17/soros-doubles-down-on-gold/

(9) ستيفن إم دافيدوف، «ما السبيل إلى انكماش فقاعة الذهب (التي ربما لا تكون موجودة أصلا)»، نيويورك تايمز، 30 أغسطس 2011، dealbook.nytimes.com/2011/08/30/how-to-deflate-a-gold-bubble-that-might-not-even-exist

(10) إدواردو بورتر، «كل ما يلمع»، نيويورك تايمز، 7 نوفمبر 2011، http://nytimes.com/2011/11/08/opinion/all-that-glimmers.html

(11) «ذهب بسعر 4000 دولار؟ ملاحظات أحد المليارديرات لدى مشاركته في سباق للأحصنة الذي أقامه ناد خاص بنيويورك»، نيويورك سن، 30 سبتمبر 2010، http://www.nysun.com/editorials/4000-gold/87099/. جيمس أوديل، «باولسون يتنبأ بارتفاع سعر الذهب إلى 4000 دولار»، مورجان جولد، 5 مايو 2011، http://www.morgangold.com/news/20110505-paulson-predicts-4000-gold.html

(12) ستيفن إم دافيدوف، «ما السبيل إلى انكماش فقاعة الذهب؟».

(13) ستيوارت بفيفر، «توجيه التهمة إلى تاجر معادن يعمل لدى جولدلاين»، لوس أنجلس تايمز، 3 نوفمبر 2011، http://articles.latimes.com/2011/nov/03/business/la-fi-goldliene-charges-20111103

(14) ماثيو موسك، «جولدلاين تقبل بإعادة الملايين إلى العملاء»، إي بي سي نيوز ABC News، 22 فبراير 2012، http://www.abcnews.go.com/Blotter/goldline-agrees-refund-millions-customers/story?id=15768897؛ ستيوارت بفيفر، «جولدلاين تقبل بإعادة 4.5 مليون دولار إلى عملاء سابقين»، لوس أنجلس تايمز، 23

فبراير 2011، -http://articles.latimes.com/2012/feb/23/business/la-fi-0223 goldline-settlement-20120223

(15) جولي كريسويل، «انكفاء فورة الذهب مع إقبال صناديق التحوط على عمليات البيع»، نيويورك تايمز، 22 سبتمبر 2011، http://www.nytimes.com/2011/09/23/business/economy/after-huge-gains-in-gold-hedge-funds-sell.html

(16) عرض موقف مجلس الذهب العالمي في ثلاث وثائق: «أهمية الذهب في إدارة الأصول الاحتياطية»، يونيو 2010؛ «الذهب باعتباره أصلا قابلا للرهن»، مايو 2011؛ «موقف مجلس الذهب العالمي بشأن الضوابط الرقابية الخاصة بمتطلبات رأس المال»، أغسطس 2011.

(17) جيم مافور، مقابلة هاتفية مع المؤلف.

(18) سعر الذهب الصباحي المحدد في لندن يوم 7 سبتمبر كان 1844 دولارا، http://www.kitco.com/londonfix/gold.londonfix11.html

(19) «مصرف ليبيا المركزي يبيع الذهب، مؤكدا أن كل أصوله آمنة»، رويترز، 18 سبتمبر 2011، http:www.reuters.com/article/2011/09/08/libya-centralbank-idAFV9E7J300N20110908؛ مايكل بيل وجاك فارتشي ورولا خلف، «نظام القذافي يبيع ذهبا بقيمة مليار دولار»، فايننشال تايمز، 8 سبتمبر 2011، http://www.ft.com/intl/cms/s/0/85c912-da1e-11e0-b199-00144feabdc0.html#axzz2NiR9WqWu؛ «القذافي قد يهرب بذهب المصرف المركزي، وفق محافظ سابق للمصرف المركزي الليبي»، 25 CentralBanking.com، أغسطس 2011، http://www.centralbanking.com/central-banking/news/2104624/gaddafi-escape-central-bank-gold-libyan-governor

(20) «في ملجأ بروكسل»، ذي إيكونومست، 17 سبتمبر 2011، http://www.economist.com/node/21529064

(21) نيكولاج جاميلتوفت، «مؤشر داو يهبط إلى أدنى مستوياته منذ أكتوبر 2008 وسط مخاوف بشأن النمو الاقتصادي»، بلومبيرج، 23 سبتمبر 2011، http://www.bloomberg.com/news/2011-09-23/dow-average-declines-most-since-october-2008-on-economic-growth-concerns.html

(22) انظر على سبيل المثال جينفر شتيهاور، «خلاف حول مساعدات الكوارث يهدد مشروع قانون يهدف إلى الحيلولة دون إيقافها من قبل الحكومة»، نيويورك تايمز، 21 سبتمبر 2011، http//www.nytimes.com/2011/09/21/us/politics/dispute-on-disaster-aid-threatens-bill-to-avert-government-shutdown.html

(23) كان سعر الذهب الصباحي المحدد في لندن يوم 19 سبتمبر 1817 دولارا؛ وبلغ سعر الذهب الصباحي المحدد في لندن يوم 26 سبتمبر 1615 دولارا، http://www.kitco.com/londonfix/gold.londonfix11.html

(24) جاري وايت، «تراجع سعر الذهب على خلفية زيادة بورصة شيكاجو التجارية CME لمتطلبات الهامش»، تيلجراف، 26 سبتمبر 2011، http://www.telegraph.co.uk/finance/financialcrisis/8788926/Gold-slumps-as-CME-ups-margin-requirements.html

(25) 26 سبتمبر 2011، إشعار العملاء الصادر عن إدارة أسواق رأس المال التابعة لمصرف مونتريال BMO Capital Markets.

(26) كريس فلود، «السلع الدولية Commodities: ضعف إقبال المستثمرين على صناديق الاستثمار المتداولة Gold ETFs التي تستثمر بالذهب»، فايننشال تايمز، 23 سبتمبر 2011، http://www.ft.com/intl/cms/s/0/657a9358-e14d-11e0-ac59-00144feabdc0.html#axzz2NiR9WqWu؛ أوجستينو فونتيفيشيا، «هل تمثل حصص الاستثمار في صندوق سبايدر للذهب ذهبا فعليا؟»، فوربس، 15 نوفمبر 2011، http://www.forbes.com/sites/afontevecchia/2011/11/15/is-gld-really-as-good-as-gold؛ جو ويسنثال، لغز محير: لماذا تضاءلت قائمة سبائك الذهب الصادرة عن صندوق الذهب GLD؟، بيزنس إنسايدر، 27 أكتوبر 2009، http://www.businessinsider.com/mystery-why-glds-published-list-of-gold-bars-shrink-2009-10

(27) إريك داش وجولي كريسويل، «تعاظم مخاوف المستثمرين بشأن مورجان ستانلي»، نيويورك تايمز، 30 سبتمبر 2011، http://www.nytimes.com/2011/10/01/business/investor-fear-over-morgan-stanley-sharpens.html

(28) نقلا عن هارتويج فرميل، رئيس بحوث الجيولوجيا الحركية والمواد الجيولوجية Geomaterials، معهد الجغرافيا والجيولوجيا، جامعة وارتزبرج.

## الفصل العاشر

(1) انظر الحاشية الواردة في الفصل التاسع، ومطلعها: ومعظم عمليات التداول تقوم بها مجموعة من المصارف في لندن.

(2) توني تومبسون، «لعنة سرقة برينكس- مات توقع ضحية جديدة»، أوبزرفر، 24 نوفمبر 2001، http://www.guardian.co.uk/uk/2001/nov/25/ukcrime.tonythompson؛ مارك تاونسيند، «أثر من حبيبات الذهب يقدم دليلا بقيمة 8 ملايين جنيه استرليني للغز سرقة برينكس- مات»، أوبزرفر، 7 يونيو 2008، http://www.guardian.co.uk/uk/2008/jun/08/ukcrime؛ مات روبر، «ذهب المجانين Fool's Gold: لعنة برينكس- مات»، ميرور Mirror، 12 مايو 2012، http://www.mirror.co.uk/news/uk-news/the-curse-of-the-brinks-mat-gold-bullion-robbery-829220؛ وينسلي كلاركسون، «لعنة برينكس- مات: شرطي سابق بفأس في رأسه ومقتل السارق بطلق ناري في أكبر حوادث السطو على القطارات في ماربيلا»، ديلي ميل، 5 مايو 2012، http://www.dailymail.co.uk/news/article-2139945/Brinks-Mat-An-ex-cop-axe-head-Great-Train-Robber-shot-dead-Marbella.html؛ «القاتل المعروف بسياقته العنيفة كينيث نوي يخفق في جهود استئناف الحكم الصادر عليه»، بي بي سي نيوز BBC News، 12 مارس 2013، http://www.bbc.co.uk/news/uk-england-21760003

(3) http://www.royalmint.com/discover/uk-coins/history-of-the-trial-of-the-pyx

(4) انظر على سبيل المثال روينا مايسون، «مبادلة ذهب سرية تهز السوق»، تيليجراف، 11 يوليو 2010، http://www.telegraph.co.uk/finance/markets/7884272/Secret-gold-swap-has-spooked-the-market.html

(5) مرجع سبق ذكره، انظر أيضا لمزيد من المعلومات حول دور صندوق النقد الدولي في عمليات بيع الذهب: ساندرين راستيللو وكيم كيونجوا، «صندوق النقد الدولي يبيع الذهب إلى

الهند، أول عملية بيع في تسع سنوات (التحديث رقم 2)، بلومبيرج، 3 نوفمبر، 2009، http://www.bloomberg.com/apps/news?pid=newsarchive&sid=ac4.u0JfPtWE

(6) للاطلاع على إعلان مصرف التسويات الدولية والتحليل العام للمسألة: كارولين كوي وليام بليفن، «المصارف التجارية تستخدم المبادلات المؤقتة للذهب»، وول ستريت جورنال، 7 يوليو 2010، http://online.wsj.com/article/SB10001424052748704545004575353403943560776.html

(7) للاطلاع على الشكوك الدائرة حول مؤامرة جاتا (لجنة محاربة الاحتكار) GATA: انظر «نبذة عن لجنة محاربة الاحتكار»، http://gata.org/about

(8) لتفاصيل حول الدعوى القضائية التي أقامتها لجنة محاربة الاحتكار، انظر الأمر الصادر عن القاضي الذي ترأس الجلسة والمنشور على goldensextant.com، بالتمرير للأسفل وصولا إلى «المواد القانونية» Legal Materials ثم اضغط على «دعوى تحديد سعر الذهب» Gold Price Fixing Case، ثم اختر «مذكرة» Memorandum والحكم الصادر برفض الدعوى Order for Dismissal

(9) شرح عملية المبادلة المؤقتة، جاك فارتشي وجافير بلاس، «حل لغز المبادلات المؤقتة للذهب التي أجراها مصرف التسويات الدولية»، فايننشال تايمز، 29 يوليو 2010، http://www.ft.com/intl/cms/s/0/3e659ed0-9b39-11df-baaf-00144feab49a.html#axzz2Nv4F1Xkn

(10) مرجع سبق ذكره، كوي وبليفن، «المصارف التجارية تستخدم مبادلات الذهب».

(11) فارتشي أند بلاس، «حل لغز مبادلات الذهب التي أجراها مصرف التسويات الدولية».

(12) فليكس سالمون، «مشكلة سبائك الذهب المزيفة»، رويترز، 25 مارس 2012، http://blogs.reuters.com/felix-salmon/2012/03/25/the-problem-of-fake-gold-bars/؛ روبرت كوكسون، «سوق ذهب هونج كونج يقع ضحية عملية احتيال مدبرة بإتقان»، فايننشال تايمز، 2 ديسمبر 2010، http://www.ft.com/intl/cms/s/0/f7b05cf2-fcfc-11df-ae2d-00144feab49a.html#axzz2Nv4F1Xkn

(13) مارتن دي سابينتو، «وجهة نظر صندوق استثماري: الأثرياء يقلصون حيازة الذهب، ويقبلون على شراء التحف الفنية»، رويترز، 1 سبتمبر 2011، http://www.reuters.com/article/2011/09/01/us-stonehage-idUSTRE7803NM20110901

(14) جولي كريسويل، «تكبدت صناديق الاستثمار الأقل أداء خسائر كبيرة»، نيويورك تايمز، 31 مارس 2011، http://www.nytimes.com/2011/04/01/business/01hedge.html

(15) عزام أحمد وجولي كريسويل، «بولسون يحقق أرباحا صافية بمقدار 5 مليارات دولار من المراهنة على الذهب»، نيويورك تايمز، 29 يناير 2011، http://www.nytimes.com/2011/01/29/business/29paulson.html

(16) كيلي بث وكريستوفر دونفيل ومات والكوف، «من المرجح أن يحمل باولسون عملاءه خسائر قدرها 720 مليون دولار»، بلومبيرج، 21 يونيو 2011، http://www.bloomberg.com/news/2011-06-21/paulson-dumping-sino-forest-may-deal-clients-720-million-loss.html؛ عزام أحمد، «باولسون يتحدث بصراحة عن سينو- فوريست»، نيويورك تايمز، 24 يونيو 2011، dealbook.nytimes.com/2011/06/24/paulson-speaks-out-on-sino-forest/

(17) يي جي وفيكتوريا ستيلوبل، «مادي ووترز تتراجع عن عمليات البيع على المكشوف للأسهم الصينية»، بلومبيرج، 27 نوفمبر 2012، http://www.bloomberg.com/ block-gives-up-as-short-selling-declines-china-/27-11-news/2012 overnight.html

(18) عزام أحمد، «باولسون أمام شهر آخر حافل بالمتاعب»، نيويورك تايمز، 10 أكتوبر 2011، another-traumatic-month-/10/10/dealbook.nytimes.com/2011 /for-paulson

(19) كيمبرلي ويليامز، «شركة باولسون ومشاركوه القابضة في الربع الثالث من العام: تحذير من التجاوزات في نموذج إفصاحات المستثمرين المؤسسين 13F»، بلومبيرج، 14 نوفمبر 2011، paulson-co-/14-11-http://www.bloomberg.com/news/2011 holdings-in-3rd-quarter-13f-alert.html

(20) إيريك أونستاد، «التحديث الرقم 3 - باولسون لم يطرح الذهب بعد بيع صندوق الاستثمار المتداول بمبلغ ملياري دولار»، رويترز، 15 نوفمبر 2011، http://www.reuters.com/ .gold-paulson-idUSL5E7MF1SS20111115/15/11/article/2011

(21) قاموس أكسفورد الإنجليزي الوجيز، (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 1973).

(22) جان هارفي وأماندا كوبر، «سعر الذهب يتهاوى بعد تقديم قادة الاتحاد الأوروبي تطمينات بشأن اليونان»، رويترز، 15 سبتمبر 2011، http://www.reuters.com/ markets-precious-idUSL5E7KF1A420110915/15/09/article/2011؛ جان هارفي، «انخفاض الذهب وسط تراجع حاد في الأسواق»، رويترز، 4 أكتوبر 2011، http://www. markets-precious-idUSL5E7L419F20111004/04/10/reuters.com/article/2011

(23) روي جاسترام، الثابت الذهبي: التجربة البريطانية والتجربة الأمريكية، 1560- 1976 (نيويورك: جون وايلي أند سنز، 1977)، 177.

## الفصل الحادي عشر

(1) البكري، مترجم، وجيه إف هوبكنز، في متن المصادر العربية المبكرة لتاريخ غرب إفريقيا، المحرران جيه إف هوبكنز وإن ليفيتزون (كامبردج: مطبعة جامعة كامبردج، 1981)، 80. أسطورة بيدا Bida: http://www.bbc.co.uk/worldservice/africa/features/ storyofafrica/4chapter1.shmtl

(2) دينيس كراونوفر، «شارة حماة روح ملك الأشانتي»، أكسبديشن 6، الرقم 2، (شتاء 1964): 11-12، http://www.penn.museum/documents/publications/expedition/ An%20Ashanti.pdf/2-PDFs/6

(3) تي إدوارد بودويتش، في مهمة من قلعة كيب كوست إلى أشانتي (لندن: جون موراي، 1819)، 1.

(4) مرجع سبق ذكره، 20.

(5) المدخل إلى كوماسي Entry to Kumasi، الاحتفالات، لقاء أسانتيهيني: مرجع سبق ذكره، 41 -31.

(6) كراونوفر، «شارة حامي روح ملك الأشانتي»، انظر أيضا «حامي روح الملك، مرتديا القرص الذهبي وخوذة خاصة»، http://www.aluka.org/action/showMetadata?doi=10.5555/ .AL.CH.DOCUMENT.BFACP1B10189

(7) انظر على سبيل المثال http://www.metmuseum.org/toah/works-of-art/1986,475a-c،

الحلية الزينية الطرفية لقرن الوعل محفوظة في متحف ذهب إفريقيا، بكيب تاون.

(8) «قصة إفريقيا: ممالك غرب إفريقيا»، بي بي سي BBC، http://www.bbc.co.uk/worldservice/africa/features/storyofafrica/4chapter6.shtml

(9) يا أسانتيوا، موسوعة أكسفورد: المرأة في تاريخ العالم، 2008، http://www.oxfordreference.com

(10) انظر على سبيل المثال هوبكنز وليفتزون، متن المصادر العربية المبكرة لتاريخ غرب أفريقيا، 341- 347، وإي جيه إتش جودوين، «إمبراطورية غانا في القرون الوسطى»، النشرة الأثرية الجنوب أفريقية South African Archaeological Bulletin، 12، 1957: 108- 112.

(11) اعتمدت إلى درجة كبيرة على لاري فيلبس في الوصف الذي قدمته عن ناثانسون، مع بعض التفاصيل من جين كايسين. انظر أيضا كينيث جودينج، «أفضل ضربات حظ ساديولا-ناثانسون»، فاينانشال تايمز، 9 فبراير 1996. ولدى مركز ناثانسون لمحة من السيرة الذاتية على الموقع: http://nathanson.osgoode.yorku.ca/about/founding-benefactor/ http://www.amgold.com/english/corporate/iamgold-milestones/default.aspx

(12) ماركس، سحر الذهب، 18.

## الفصل الثاني عشر

(1) «فرار المزيد من المئات من جراء الهجمات المتواصلة لجيش الرب للمقاومة في شمال شرق الكونغو، المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة UNHCR، 30 مارس 2012، http://www.unhcr.org/4f75a5589.html. هذا الوصف يظهر أن القتل كان لايزال مستمرا بعد عام من زيارتنا.

(2) انظر على سبيل المثال براندون بروسانسكي، «التنقيب عن الذهب في منطقة النزاع: السياق والعواقب والدروس المستفادة من أعمال شركة أنجلوجولد أشانتي في جمهورية الكونغو الديموقراطية»، مجلة جامعة نورثويسترن لحقوق الإنسان الدولية Northwestern Journal of International Human Rights (جامعة نورثويسترن، كلية القانون)، 5، العدد 2 (ربيع 2007): 236- 274، http://www.law.northwestern.edu/journals/jihr/v5/n2/4/Prosansky.pdf

(3) إيان فيشر ونوريميتسو أونيشي، «اضطرابات في الكونغو: دراسة تمهيدية. سلبت عدة جيوش الأراضي الغنية بالثروات في الحرب العالمية الأولى لأفريقيا»، نيويورك تايمز، 6 فبراير 2000، http://www.nytimes.com/2000/02/06/world/chaos-congo-primer-many-armies-ravage-rich-land-first-world-war-africa.html?pagewanted=all&src=pm

(4) أنيكي فان وودنبيرج، لعنة الذهب، هيومان رايتس ووتش (منظمة مراقبة حقوق الإنسان)، 2005، 15- 18، http://www.hrw.org/reports/2005/drc0505/drc0505.pdf

(5) كريستوفر رودس، «قوات حفظ السلام في أتون الحرب»، وول ستريت جورنال، 23 يونيو 2012، http://online.wsj.com/article/SB10001424052702303836404577476460542151978.html

(6) فان وودنبيرج، لعنة الذهب، 54.

(7) مرجع سبق ذكره، 15.

(8) مرجع سبق ذكره، 55.

(9) انظر على سبيل المثال «سام جونا: الرجل ذو اللمسة الذهبية»، سن Sun (لاغوس، نيجيريا)، 13 أبريل 2013، http://sunnewsonline.com/new/specials/aspire/sam-jonah-the-man-with-the-golden-touch/؛ السيرة الذاتية المختصرة للمديرين التنفيذيين على بلومبرج بيزنسويك، Bloomberg Businessweek، http://investing.businessweeek.com/research/stocks/private/person.asp?personId=372443&privcapId=35042515؛ سايمون روبنسون، «سام جونا: أنجلوجولد أشانتي»، تايم Time، 17 ديسمبر 2004، http://www.time.com/time/magazine/article/0,9171,1009745.html؛ http://www.anglogold.com/Additional/Press/Ashanti/2003/Ashanti+Chief+Executive+Sam+Jonah+Knighted.htm؛ «تحول سام جونا إلى منصب غير تنفيذي في مجلس إدارة أنجلوجولد أشانتي»، http://www.anglogold.com/additional/press/2005/sam+jonah+moves+to+non-executive+board+position+at+anglogold+ashanti.htm

(10) فان وودنبيرج، لعنة الذهب، 60.

(11) مرجع سبق ذكره، 61.

(12) «أعمال شركة أنجلوجولد أشانتي في جمهورية الكونغو الديموقراطية»، بيان صادر عن الشركة، 6، http://www.anglogoldashanti.co.za/NR/rdonlyres/ECBCA20E-AGA_and_the_DRC.pdf/0/4625-B4E7-B8517F369043-5B45

(13) http://tmx.com/en/listings/sector_profiles/mining.html

(14) باري سيرجنت، «داخل مناجم ذهب موتو Moto Gold Mines»، ماينويب Mineweb، 1 أبريل 2007، http://www.mineweb.com/mineweb/content/en/mineweb-historical-daily-news?oid=18928&sn=Detail

(15) انظر على سبيل المثال، ويليام ماكنمارا، «راندجولد تطرح أسهمها للاكتتاب الخاص لتأمين مبلغ 300 مليون دولار لأغراض التوسع»، فاينانشال تايمز، 29 يوليو 2009، http://www.ft.com/cms/s/0/e4a66744-7bd6-11de-9772-00144feabdc0.html#axzz2OTZpnjSF؛ سوزان كيروين، «راندجولد تبز ريد باك Red Back في مزاد شراء مناجم ذهب موتو»، نورثرن ماينر Northern Miner، 27 يوليو 2009، http://www.northerminer.com/issues\2/VerifyLogin.aspx

(16) كل ذلك مأخوذ عن مقابلات أجراها مارك بريستو وجرانت بريستو مع المؤلف.

(17) إدوارد جيسماتولين، «المليارديرات السويديون والارتفاع الكبير في سعر شركة لاندين بعد اختيار شركة أبل إنيرجي Apple Energy»، بلومبيرج، 28 مايو 2013، http://www.bloomberg.com/news/2013-05-27/billionaire-swedes-see-lundin-jump-after-matching-apple-energy.html

(18) شركة كينروس الكندية تعتزم شراء ريد باك بمبلغ 7.1 مليار دولار، نيويورك تايمز، 2 أغسطس 2010، http://dealbook.nytimes.com/2010/08/02/canadas-kinross-to-buy-red-back-for-7-1-billion

(19) مقابلة مع المؤلف؛ للاطلاع على أرقام الاحتياطيات المحتملة لدى تاسياست، وتقدم كينروس في ترتيب المنتجين، انظر على سبيل المثال ستيفن جروسر، «موجز الصفقة: كينروس تعتزم الاستحواذ ريد بلاك للتنقيب»، وول ستريت جورنال، 3 أغسطس 2010،

deal-profile-kinross-to-acquire-/03/08/http://blogs.wsj.com/deals/2010
/red-back-mining

(20) ليزل هيل، «شركة كينروس للذهب تسرح الرئيس التنفيذي تاي بيرت، وتعين رولينسون خلفا له»، بلومبيرج، 2 أغسطس 2012، http://www.bloomberg.com/ kinross-gold-fires-ceo-tyre-burt-replacing-him-with-/01-08-news/2012 rollinson.html؛ ليزل هيل، «كينروس للذهب تشطب 3.1 مليار دولار من قيمة منجم تاسياست»، بلومبيرج، 14 فبراير 2013، http://www.bloomberg.com/ 1-billion-writedown-on-tasiast--kinross-gold-takes-3/13-02-news/2013 mine.html

(21) رودس، «قوات حفظ السلام في أتون الحرب».

(22) إدوارد ويات، «الولايات المتحدة تعزز مستويات الرقابة على استخدام معادن الصراعات»، نيويورك تايمز،

.... 19 مارس 2012، business/use-of-/20/03/http://www.nytimes.com/2012 conflict-minerals-gets-more-scrutiny.html?pagewanted-all

(23) جويي، «الذهب يتصدر معادن الصراعات الآن في الكونغو»، أسوشيتد برس، 25 أكتوبر 2012.

(24) جيفري جيتلمان، «حشد القوات العسكرية في المدينة المتحارب عليها، وسط تزايد المخاوف من اندلاع موجة عنف جديدة في الكونغو»، نيويورك تايمز، 16 ديسمبر 2012، world/africa/troops-mass-/17/12/http://www.nytimes.com/2012 in-fought-over-city-raising-fear-of-new-violence-in-congo.html؛ مقتل 3 ملايين: فان ووندينبرج، 12.

(25) http://www.randgoldresources.com/randgold/content/en/randgold- kibali-project. انظر الحاشية الثانية للجدول.

(26) مقابلة مع بين روبرتس، وكان آنذاك أمين مجموعة عصر البرونز الأوروبي في المتحف البريطاني، لندن، وهو اليوم عضو الهيئة التدريسية لدى جامعة دورهام.

(27) كريستيا فريدلاند، «التدمير الذاتي لنسبة 1 في المائة من سكان العالم»، نيويورك تايمز، 13 أكتوبر 2012، opinion/sunday//14/10/http://www.nytimes.com/2012 the-self-destruction-of-the-1-percent.html?pagewanted=all

## المؤلف في سطور

### ماثيو هارت Matthew Hart

- كاتب وصحافي مخضرم، أصدر سبعة مؤلفات من أبرزها كتاب «الألماس» Diamond، الحاصل على عدد من الجوائز، و«اللعبة الإيرلندية» The Irish Game، و«العملاق الذهبي» Golden Giant. ونشر عددا من القصص الخيالية، منها «قطار الموت» Death Train، و«الدوقية الأرجوانية» To the Purple Duchy.
- نُشرت مقالاته في صحف ودوريات مثل: «أتلانتيك مونثلي» The Atlantic Monthly، و«جرانتا» Granta، و«التايمز اللندنية» The Times of London، ومجلة «فايننشال بوست» The Financial Post.
- عمل محررا مساهما في مجلة «تجارة الألماس» الصادرة في نيويورك «تقرير رابابورت حول الألماس» Rapaport Diamond Report.
- ظهر ضيفا في عدد من البرامج التلفزيونية مثل «ستون دقيقة» 60 Minutes، على قناة سي إن إن CNN، وقناة ناشيونال جيوجرافيك.
- يعيش حاليا في مدينة نيويورك.

## المترجم في سطور

### محمد مجدالدين باكير

- يحمل درجة الإجازة في الاقتصاد (2001) من جامعة حلب السورية، ودرجة الماجستير في العلوم المالية (2010) من جامعة ديبول بالولايات المتحدة.
- عمل لدى عدد من معاهد التعليم.

■ يعمل في القطاع المصرفي والمالي منذ العام 2002.

■ صدرت له مجموعة من المؤلفات في مجال الاقتصاد والأعمال، منها «محافظ الاستثمار: إدارتها واستراتيجيتها».

■ مؤلف الموسوعة المالية باللغتين العربية والإنجليزية (النسخة الإلكترونية).

■ صدرت له عشرات المقالات في مجال المال والأعمال، والعشرات من المقالات المترجمة في هذا المجال، وغير ذلك.

■ ترجم لسلسلة عالم المعرفة «إمبراطورية الثروة: التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية» من تأليف: جون ستيل جوردون. العددان 357 و358 (نوفمبر وديسمبر 2008).

## هذا الكتاب...

يتناول دور الذهب على مرّ العصور، ويتطرق إلى الجوانب الاقتصادية والجيولوجية والجيوسياسية التي اكتنفت أبرز منعطفاته التاريخية. ويسعى إلى تسليط الضوء على علاقة الإنسان بمختلف صورها بهذا المعدن الفريد الذي استحوذ على اهتمامه منذ ستة آلاف عام.

يأخذ هذا الكتاب القارئ في رحلة في الزمان والمكان تسرد قصة تحوُّل الذهب عبر القرون من رمز للقداسة إلى وسيط للتبادل، ثم إلى أصل احتياطي وسلعة استثمارية. تبدأ هذه الرحلة من أفريقيا، وتنتهي بها. وفيما بين هاتين المحطتين يستعرض المؤلف الغزو الإسباني لأمريكا بحثا عن ذهب الحضارات القديمة، حيث تندلع فورة الذهب الأولى في التاريخ، وتبتلع حضارات برمتها، وتتقيؤها في صورة مسكوكات نقدية. وينتقل الكتاب إلى فورة ذهب كاليفورنيا في الولايات المتحدة، في قرن شهد أيضا ولادة ما يُعرَف بمعيار الذهب. ويستقر الذهب في صلب النظام النقدي العالمي، وتبدأ حقبة من التوسع الاقتصادي، بيد أن مثالب معيار الذهب العظيمة تسرّع عجلة الأحداث، وتأتي اتفاقية بريتون وودز (1944) فتعطل معيار الذهب، وتنصِّب الدولار على عرش العالم النقدي. وتتبدل أحوال الذهب، وتبدأ فترة جديدة عنوانها قابلية الدولار للتحويل إلى ذهب.

بعد ربع قرن تقريبا تنقلب موازين الأمور مجددا إثر ما عُرِف بصدمة نيكسون، ويفك ارتباط الدولار بالذهب نهائيا، ويتحوَّل الذهب إلى نقد وهمي في مخيلة الإنسان. ومع ذلك، وبعد سيطرة الدولار شبه المطلقة، لا يفقد الذهب بريقه وجاذبيته، بل يضطلع بدور جديد في المرحلة الاقتصادية التي أعقبت صدمة نيكسون. وفي تلك الأثناء تندلع فورة الذهب «الصفراء»، وتتحول الصين إلى صدارة الدول المنتجة للذهب في العالم. وتبدأ فصول المرحلة التي يعيشها العالم حاليا.



إصدارات المجلس متوافرة إلكترونيا على موقعنا:
WWW.NCCAL.GOV.KW/PUBLICATIONS

ISBN 978 - 99906 - 0 - 611 - 9